المجلس الأعلى للثقافة

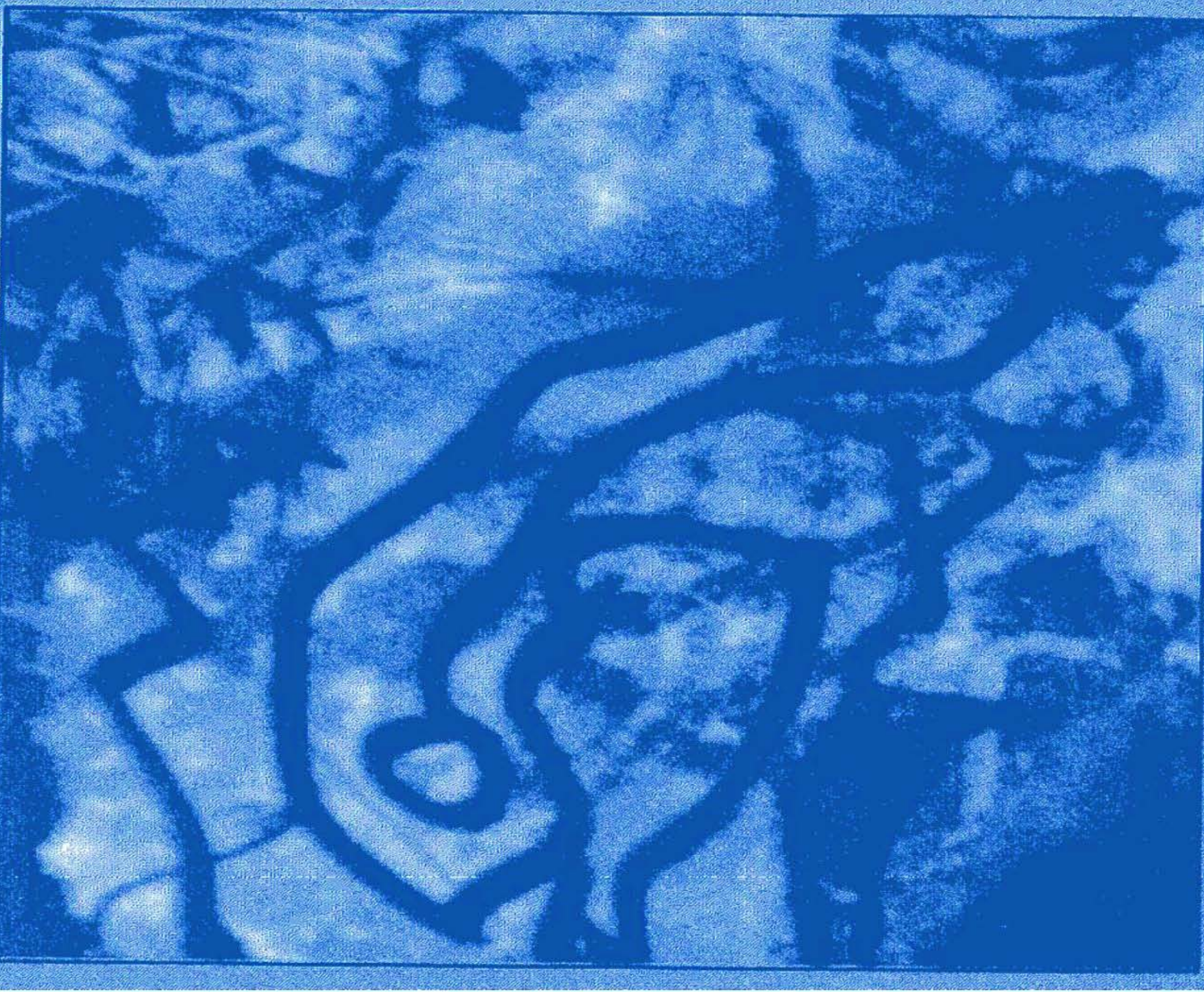
ألدوس هكسلي

ترجمة : مارلين تادرس

المشروع القومي للترجمة

بعد عدة أصياف

رواية



44

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

بعد عدة أصياف

رواية

ألدوس هكسلى

ترجمة

د. مارلين تادرس

المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨

هذه ترجمة لرواية ألدس هكسلى Aldous Huxley «بعد عدة أصياف» After Many a Summer. وقد طبعت من هذه الرواية أكثر من ثمانى طبعات، ما بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وقد نشرت أولاً عام ١٩٣٩ وتوالت الطبعات بعد ذلك، وكانت طبعة ١٩٨٢، التى صدرت عن دار نشر Granada Publishing Ltd. وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى ترجمتنا إلى العربية.

(جميع هوامش الرواية تمت بمعرفة المترجمة)

تصميم الغلاف: ميسون صقر
الإشراف التنفيذى: محمد عيد إبراهيم

مقدمة

ولد ألدوس هكسلى عام ١٨٩٤ فى مدينة ليلهام سارى بإنجلترا، وكان جده لأبيه هو توماس هنرى هكسلى الكاتب وعالم الطبيعة الشهير، بينما جده لأمه هو القس والكاتب الشهير أيضا توماس أرنولد، ومن ثم فقد ولد هكسلى وسط عائلة ذات ثقافة واسعة سعت لغرس الثقافة فيه وإخوته منذ الطفولة. وقد درس هكسلى فى جامعة إيتون، ولكنه تركها عام ١٩١١ لمشاكل تتعلّق ببصره الضعيف، ثم عاد فأكمل تعليمه الجامعى فى جامعة بايلول بأكسفورد. وقد عمل هكسلى بعد تخرجه مباشرة فى جريدة شهيرة هى الأثينيوم *The Atheneum*، والتى كان يرأس تحريرها جون ميدلتون موراى، ولكنه قدم استقالته وبدأ سلسلة من الرحلات حول العالم بصحبة زوجته التى تزوجها عام ١٩١٩.

وقد كتب هكسلى أول رواية له وهى «الكرم الأصفر» عام ١٩٢١، ونالت نجاحا ساحقا، إذ كانت رواية ساخرة، تتحدث عن الشباب الأوروبى الضائع فى بدايات القرن العشرين الذى كان يشعر بالغضب وفقدان الهوية وعدم جدوى الحياة بعد الحرب العالمية الأولى.وقد توالت بعد ذلك رواياته الناجحة، والتى سارت على نفس هذه الثيمة وبذات الأسلوب الساخر الذى ميّز كل كتابات هكسلى فيما بعد، حتى قرر أخيرا الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اتخذ هكسلى قرار الهجرة أولا بناء على نصيحة الأطباء الذين نصحوه بالذهاب إلى مكان مشمس، فاختار هكسلى ولاية كاليفورنيا ليبدأ فيها حياته من جديد، ولكن كانت هناك عوامل أخرى جعلته يتخذ مثل تلك الخطوة، وهو الكاتب الشهير فى أوروبا، منها على سبيل المثال القلق الذى بدأ ينتاب الأوروبيين من جراء صعود هتلر للسلطة وطغيانه وأحلامه التوسعية، وبدء الصراعات فى أوروبا ودخول فرانكو إلى برشلونة بعد الحرب

الأهلية هناك وتكوين الجبهة الشعبية التى كانت تسعى للسلم، ولكنها فشلت فى تحقيقه.

وقد كتب هكسلى قبل سفره روايته «عالم جرىء جديد» (١٩٣٢)، التى أصبحت من أشهر الروايات على الإطلاق، والتى عبّر فيها عن بطش وطغيان الحكام عن طريق استخدام العلم لبرمجة البشرية جمعاء. ومما يذكر أن هناك ترجمة عربية لهذه الرواية نشرت عام ١٩٦٣(×)، وقد ترجمها أستاذ اللغة العربية محمود محمود وأسماها «عالم طريف جديد»، وهى تسمية خاطئة بلا شك، إذ لا تعبر عن فحوى الرواية.

وانتقل هكسلى لولاية كاليفورنيا عام ١٩٣٨ وكتب روايته «بعد عدة أصياف» فى العام التالى مباشرة، حيث انتقل بسخريته من المجتمع الأوربى بشكل عام والإنجليزى بشكل خاص إلى السخرية من المجتمع الأمريكى بكل ما يحمل من معانى المادية والنجاح الرأسمالى وغياب الروحانية، مما أثار حفيظة الأمريكيين الذين كانوا قد استقبلوه بترحاب وحفاوة، فكتب نقاد كثيرون نقداً لاذعاً يهاجمون فيه ما أسموه إحساس هكسلى بالتفوق.

وقد توالت بعد ذلك الروايات والكتابات والمقالات، وبدأ هكسلى يفقد شيئا فشيئا الروح الساخرة اللاذعة، حيث استكمل مشوار بحثه الدائم عن طريقة مثلى للحياة تنتشل الإنسان من عمق دونيته وحيوانيته وترفعه إلى سمو الروحانية، ولم يكن ذلك عن طريق دين معين أو إيمان خاص، ولكنه على العكس تماما كان يسعى لمثل هذا الطريق من خلال شىء ما، لم يكتشفه تماما حتى وفاته، بعيدا عن الدين الرسمى.

وقد شهدت كتاباته هذا الصراع الداخلى والبحث المستمر، إذ كانت رواياته الأولى تسخر من الدين الرسمى وأخذت تتطور لتصبح أكثر جدية، وتفقد شيئا فشيئا

(×) ترجمت أيضًا لهكسلى رواية «نقطة مقابل نقطة» فى عام ١٩٨٦ وصدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بترجمة للدكتور نظمى لوقا، ومراجعة على أدهم .

الروح الساخرة. وفى رواية «بعد عدة أصياف» نرى جزءاً من هذا التطور، إذ بدأ هكسلى فى هذه الرواية وضع الخطوط العريضة لهذا الطريق عبر الشخصية الوحيدة فى الرواية، والتى لم يسخر منها هكسلى، وهى شخصية بروبتر. وحتى مع وجود هذه الشخصية، فإن هكسلى لم يصل عن طريقها إلى الحل الأمثل لمعضلة الحياة، فنجد أن بروبتر نفسه يعانى من هذا الجدل مع نفسه ومع الآخرين فى محاولة لإيجاد الطريق الأمثل، بل ونجد أن الطريقة التى اختار أن يعيش بها بروبتر حياته لا تحل شيئا فى الواقع، ولكنها محاولة للتناسق مع آرائه التى لا يمكن تطبيقها بشكل عملي وحقيقي ومنتج. بل أيضا، نجد أن هذه الشخصية هى أسوأ شخوصه على الإطلاق من حيث البناء والعمق والحيوية، لأنها لا تعدو إلا أن تكون المنظّر الجوهريّ لنظرية هكسلى فى الحياة، مما جعل كل أحاديث بروبتر تأتى رتيبة ومملة وغير واقعية.

على كل، فقد اتجه هكسلى فى حياته بعد ذلك إلى التجربة البوذية والتأمل، وفى عام ١٩٤٣، مع بداية اكتشاف العقارين المخدّرين «الإل إس دى» و«المسكالين»، تطوع هكسلى كفأر تجارب للعلماء حول هذا المخدر الجديد، وقد قام بكتابة بعض مقالاته وتنظيراته الأخيرة تحت تأثير هذا المخدر، على سبيل المثال كتب «أبواب المعرفة والجحيم والنعيم»، وكذلك «شياطين لودون». وكان هكسلى آنذاك يؤمن أنه لابد من إيجاد عقار أو شيء ما يُغيّب الإنسان عن عقله فى أوقات الحزن والضعف والألم، ولكن ليس الخمر ولا المخدرات المطروحة آنذاك لأنها ضارة بالصحة، وهى ثيمة استخدمها كثيرا فى رواياته، وكان ذلك هو سبب تطوعه لتجربة تلك العقارات.

وقد اعتبر الكتّاب أن اتجاه هكسلى للبوذية انتحاراً أدبيًا، إذ أثر ذلك الاتجاه بشكل سلبى على كتاباته الساخرة، فطغت الروح الفلسفية اللاهوتية الميتافيزيقية على كتاباته المتأخرة، مما أدى لانصراف النقاد والقراء عنه. وفى عام ١٩٥٩ حصل هكسلى على جائزة الإبداع من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، والتى تمنح للكتاب المتميزين كل خمس سنوات.

وقد توفى هكسلى عام ١٩٦٣ بعد أن فقد النقاد اهتمامهم به، وبعد أن بدأت طبعات كتبه تزول من الأسواق دون إعادة طباعتها ثانية. ولكن يجدر هنا أن نذكر أن الاهتمام بهكسلى، خاصة فى الدوائر الأكاديمية، أخذ يتزايد مرة أخرى فى الأعوام الأخيرة، وعاد هكسلى يثير نفس الجدل الذى كان قد أثاره من قبل. ولا شك أن هكسلى يبقى من أهم الكتاب البريطانيين الساخرين فى القرن العشرين على الإطلاق.

خصائص الأسلوب الساخر

من أهم ما يميِّز هكسلى فى كتاباته هو أسلوبه الساخر، والذى يعتبر أسلوباً جديداً ومختلفاً من نواحٍ كثيرة عمن سبقوه فى الكتابة الساخرة. ولعل من المفيد هنا قبل البدء فى مناقشة رواية «بعد عدة أصياف» أن نتحدث قليلا عن خصائص الأسلوب الساخر، لنرى مدى اقتراب هكسلى أو بعده، عن هذا التقليد الممتع فى الكتابة.

لقد اختلف النقاد حول ما إذا كان الأسلوب الساخر هو نوع مستقل بحد ذاته من الأدب، أم أنه مجرد تكنيك للكتابة يستخدمه الكاتب فى أشكال مختلفة، سواء كان شعراً أو رواية أو مسرحاً. فى التقييم النهائى يمكن القول إن هناك بعض الكتاب قد يستخدمون الأسلوب الساخر كتقنية داخل عمل فنى ما، دون أن يصبح هذا العمل

كتابة ساخرة بشكل عام. أما من يستخدم هذا التكنيك بشكل طاغٍ على عمل فنى ما، فإنه يعتبر أسلوباً مستقلاً بحد ذاته له خصائصه التى تميزه عن غيره من الأعمال الفنية.

وقد اختلف النقاد أيضا حول الأزمنة التى يزدهر فيها مثل ذلك الأسلوب، وما إذا كانت تلك الأزمنة هى المستقرة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا أم أنها على العكس من ذلك، الأزمنة غير المستقرة فى كل أو أحد هذه النواحى. يقول الناقد والكاتب إدجار جونسون[1] إن الأسلوب الساخر ينتشر فى الأزمنة غير المستقرة، إذ أنه فى أوقات الاستقرار يرتاح المرء لما هو عليه ولا يفكر جدياً فى التغيير، فيأخذ الأمور كمسلمات، بينما فى الأزمنة غير المستقرة يضطر الإنسان للتفكير وإعادة التفكير والتقييم، بل والنظر للأمور بعين ناقدة، مما يثير فيه الروح الساخرة. لذلك يؤكد جونسون أن أية تغيرات فى المؤسسات الاجتماعية والمعتقدات السائدة يؤدى بالضرورة إلى الروح النقدية، ومن هنا فهو يرى أن فترات التغيرات التاريخية العظمى هى التى يزدهر فيها مثل ذلك الأسلوب فى الكتابة.

أما ج.أ. كادون[2]، وهو مؤلف أحد أشهر القواميس الأدبية، فيزعم عكس ذلك، إذ يقول إن بداية القرن العشرين شهدت ندرة فى الكتابة بهذا الأسلوب لسببين رئيسيين، هما أن ذلك الوقت شهد فترات اضطراب وتغيرات سياسية واجتماعية عنيفة، وكذلك لأن الأسلوب الساخر فى الكتابة تطور ليحل محله الرسم الكاريكاتورى، ومن ثم أصبح غير مرغوب فيه.

ويبدو القصور واضحا فى الرأيين، إذ أن التاريخ الأدبى الإنجليزى والأمريكى

1- Edgar Johnson, **A Treasury of Satire.** London: Simon and Schuster, 1945.
2- J.A. Cuddon, **A Dictionary of Literary Terms.** London: 1979. See under the entry 'satire.'

يشير إلى أن الأسلوب الساخر قد ازدهر فى الأزمنة المستقرة وغير المستقرة على حد سواء، ولكن يمكن ضم الرأيين بالقول بأن هذا الأسلوب قد انتشر فى فترات الاستقرار الثقافى وليس السياسى، لأن فترات الحروب وفترات عدم الاستقرار السياسى تؤديان إلى إضعاف وأحيانا قتل الروح الساخرة.

ومن الأمور الغريبة على عكس ما يظن الكثيرون، فإن الكاتب الذى يستخدم الأسلوب الساخر يقدس الماضى ويتوق للعودة لتلك الأزمنة المثالية المفقودة والأمجاد الضائعة، فهو فى الواقع ضد التغييرات الجذرية ولا يمكن أن يستخدم ذلك الأسلوب مَن يريد مثلا إصلاح أحوال العالم. فالكاتب الساخر فى العادة يسخر من العالم الحديث الذى فقد المعنى واللذة الحقيقية ويسعى لإعادة الماضى المجيد.

والكاتب الساخر فى العادة يرى أكثر من الآخرين، قصور المؤسسات الاجتماعية والأفراد بشكل عام، إذ أنّ له عيناً ثاقبة فاحصة ترى بشكل أعمق من غيره من الكتاب بشكل عام، وقد يصل به الأمر إلى الإحساس بالتفوق، مما قد يضعف تأثير كتاباته ويؤثر سلبا عليها، إذا شعر القراء بالإهانة أو وصلهم ذلك الإحساس بالتفوق.

ويمكن للكاتب الساخر أن يتطرق لموضوعات شتى، إلا أنه بشكل عام توجد بعض المحرّمات، إذ لا شك أنّ هناك موضوعات من غير اللائق أدبيا وأخلاقيا السخرية منها، وإلا تسببت فى انصراف القراء عن الكاتب ولم تؤد الغرض الأساسى منها وهى مساعدة القارئ فى الرؤية الأعمق للأشياء. لذلك فإن الموضوعات شديدة الحساسية ينبغى على الكاتب أن يقترب منها، إن اقترب، بحذر وحرص شديدين. فلا يمكن، مثلا، السخرية من مشاعر الآخرين العميقة الحقيقية، أو من موت أحد، أو من معاناة البشر، كذلك لا يمكن السخرية من الدين فى حد ذاته –

وإن كان ذلك قد بدأ يتغير فى الآونة الأخيرة فى الغرب بشكل عام – مهما سخر الكاتب من أتباع هذا الدين أو ذاك. بل إن من أنجح الشخصيات التى تثير السخرية والتهكم وأحيانا الضحك هم القساوسة لأنهم بحكم عملهم يسهل معرفة التناقض بين ما ينبغى أن يفعلوه وبين ما يفعلونه بالفعل. ولا يتطرق الأسلوب الساخر للجرائم الكبرى مثل القتل والاغتصاب ولا يسخر من التشوهات الخلقية أو المتخلفين عقليا أو الأشياء والخصائص التى ليست فى إطار تحكم البشر.

فيما عدا ذلك، فإن الكاتب الساخر يمكن أن يتناول أية موضوعات تحلو له للسخرية منها، بما فيها الجنس – أو لنقل بشكل خاص الجنس – والنفاق، وادعاء الفضيلة، ويمكن أن يسخر كذلك من التقاليد والأعراف والعادات. بل إن السخرية من شخص يدعى الفضيلة أقوى بكثير وأشد أثرا من السخرية من شخص شرير، إذ أن الشخص الشرير مثل هتلر على سبيل المثال، لا يحاول إخفاء شره، أما المنافق فإنه يحاول إظهار غير حقيقته ويخاف افتضاح أمره، ولذلك فالسخرية منه وفضحه طريقة مجدية وممتعة فى آن.

ومن خصائص الأسلوب الساخر أيضا أنه يبرز لنا بوضوح التضاد بين الشىء كما هو، والشىء كما ينبغى أن يكون، فهو دائما يحاول تحطيم المسلمات والآراء الثابتة المسبقة من خلال توضيح حقائق أخرى للقارئ، وكشف قناع الرياء والنفاق. فإن الكاتب الساخر، كما يقول الناقد بولارد[٣]، كمن يصرخ «انظروا، هذا ليس كما يبدو لكم!»

وتوجد طريقتان للكتابة بالأسلوب الساخر، وهما الأسلوب المباشر والأسلوب غير

3- Arthur Pollard, **Satire. The Critical Idiom Series.** London: Methuen and Company, 1970.

المباشر، وقد يستخدم كاتب ما الأسلوبين معا فى أحد أعماله الفنية أو قد يستخدم أياً منهما على حدة. ويعتبر الأسلوب الساخر المباشر هو أول أنواع الكتابة الساخرة على الإطلاق، حيث كانت تتبارى أحيانا بعض الأفراد أو القبائل أو القرى، بل وأحيانا الشعوب، فى هجو بعضها البعض بأشعار لا مواربة فيها، وهو نوع اشتهر أيضا بين القبائل العربية، وربما أشهرهم الفرزدق وجرير. ويستخدم فى هذا النوع من الهجاء بعض الكلمات الجارحة المباشرة، أو التلميحات الواضحة المهينة، فالهدف منها فى العادة التصفية النفسية للخصم، بسبب عداوات مباشرة وشخصية. وتستخدم أيضا فى هذا النوع من الكتابة لغة بلاغية عالية بحيث يتبارى كل طرف بتفوقه على الآخر. ومن أبرز من استخدم هذا الأسلوب على الإطلاق فى الأدب الغربى جوفنال فى القرن السابع قبل الميلاد. ولابد لمثل ذلك الكاتب أن يتمتع بسرعة بديهة، وخفة دم وفطنة، وأن يكون ذا روح دعابة عالية، بحيث لا تكون سخريته لاذعة فقط، بل يكون تأثيرها محطما للخصم قدر الإمكان فيصيب الضحية فى مقتل.

ومن الطبيعى أنه كلما استخدم الكاتب سرعة البديهة (wit) كلما كانت سخريته أنجح وذات فعالية أكبر. أما التهكم المباشر (sarcasm) فهو أحط الأنواع على الإطلاق وأضعفها أثرا. ومن بين الاستخدامات أيضا يوجد ما يسمى بالاستخفاف بالدنيا (cynicism) وهو قبول أوضاع الدنيا على ما هى عليه ولكن السخرية منها مع ذلك، مع الإشارة إلى أنها لا يمكن أن تزداد سوءا. ويمكن أيضا استخدام ما يعرف باسم التهكم المرير (sardonic) الذى ينتج عن الإحساس بالإحباط العام، وهو نوع من السخرية متشائمة للغاية لا تثير الابتسام. إذن فالأسلوب الساخر لا يثير بالضرورة الابتسام أو الضحك، ويتفاوت ما بين الضحك المباشر والتهكم المرير.

ومن أنواع السخرية المباشرة ما يسمى فى الأدب بالتقليد الهزلى لموضوع أو شخص جاد (burlesque) . ومن ألطف أنواع هذا الأسلوب أيضا ما يعرف باسم الـــparody وهو محاكاة مؤلَف للتهكم منه، ويعتمد هذا الأخير على استخدام الكلمات، فهو يحاكى المؤلَف الذى يسخر منه باستخدام ذات الكلمات العظيمة ليطبقها على مواقف تافهة وسطحية، ولكنها مشابهة للمؤلَف الذى يسخر منه.

أما النوع الثانى من الأسلوب الساخر فهو الأسلوب غير المباشر أو المستتر، وهو فى العادة وباختصار أسلوب التلميح والرمز. ويستخدم هذا الأسلوب لسببين، إما لأسباب سياسية، حيث يخشى الكاتب بطش الحكام مثلا أو شخصاً ما قد يضطهده بسبب كتاباته هذه، أو بسبب حساسية الموضوع الذى يتناوله الكاتب ولا يريد إثارة قرائه ضده أو انصرافهم عنه بسبب انتهاكه لمبادئ أخلاقية معينة أو شيء ما متعارف عليه اجتماعيا. ومن مزايا هذا الأسلوب غير المباشر أنه يفاجئ القارئ ويأخذه على حين غرة، على عكس الأسلوب المباشر الذى يضع القارئ فى حالة استعداد وحذر. إن الأسلوب غير المباشر يدعى البراءة، وحسن النية، بالرغم من أنه يهدف بالأساس إلى إصابة ضحيته بالضربة القاضية. والكاتب الذى يستخدم هذا الأسلوب فى العادة يتخفى وراء الراوى المحايد بل وأحيانا يظهر أنه يساند القارئ فى آرائه، ثم بشكل مباغت يجد القارئ نفسه وقد سقط فى الفخ وتحطم تماما.

من أنواع هذا الأسلوب ما يُسمّى بالرواية المجازية الرمزية (allegory) وقصص الحيوانات وقصص المدن الفاضلة. والكتابة المجازية هى فن التعبير عن علاقات بين الأشياء فى العادة يصعب ملاحظتها، ومن أمثلة ذلك قصائد درايدن مثل «أبسالوم وأشيتوفيل» (١٦٨١) و«ماكفلكنو» (١٦٨٤). أما قصص الحيوانات فربما أشهرها على الإطلاق «مزرعة الحيوانات» (١٩٥٤) لجورج أورويل، والتى

يرمز بها إلى الطغيان السياسى لبعض الأنظمة السياسية. بل إن «كليلة ودمنة» تعتبر من أشهر هذا النوع من القصص.

أما المدن الفاضلة (utopia) تعتبر من أبرز أنواع هذا الأسلوب، وهى بالأساس إما رؤية مُبتغاة أو تحذير تنبؤىّ، وتنتج عن القلق من الحاضر ومن التغيرات الكبيرة، والرغبة فى مستقبل أكثر إشراقًا واستقراراً. وربما من أشهر هذه الأنواع «جمهورية» أفلاطون (٣٧٠-٣٨٠ ق.م.) وكذلك «المدينة الفاضلة» (١٥١٦) لتوماس مور. وقد ظهر تقليد جديد فى أواخر القرن التاسع عشر، وبالتحديد عام١٨٩٠ وهو ما عرف باسم الرؤى التحذيرية أو ما يمسى بالديستوبيا (dystopia)، وهو عبارة عن مدينة مستقبلية أيضا، ولكنها على العكس ليست فاضلة، بل تنبئ بمستقبل قاتم فى العادة، نتيجة لسوء استخدام الوسائل العلمية الحديثة. ومن أشهر تلك الروايات رواية هكسلى «عالم جرىء جديد» ورواية جورج أورويل «١٩٨٤»، (١٩٣٠).

وفى العادة، فإن الأسلوب غير المباشر يستخدم آليات مختلفة بعض الشىء عن الأسلوب المباشر، إذ بالإضافة للتهكم والسخرية يستخدم ما يعرف بالـirony وهو أيضا نوع من السخرية المتعالية، وكذلك وبشكل خاص فى المدن الفاضلة يستخدم الكاتب، فى مواقف متعاقبة، سخرية الأقدار أو ما يعرف باسم irony of fate.

وتتميز الرواية الساخرة بشكل عام، بشقيها المباشر وغير المباشر، عن مثيلاتها من الروايات الأخرى، فى أنها تفتقر فى العادة للعناصر المتعارف عليها والمكونة للرواية العادية، فلا نجد مثلا الحبكة الدرامية ولا تطور الشخوص فى الرواية، وبخاصة تطورها نحو معرفة الذات. الحبكة فى الرواية الساخرة فى العادة غير

سكتملة ومتقطعة ومشتتة أيضا، ولا يوجد لها بالضرورة نهاية أو خاتمة على الإطلاق، ولا يوجد بها ذروة أو لحظة حاسمة. فالهدف من الرواية ليس حكي قصة، ولكن الهدف منها بالأساس وضع بعض الشخوص التى يريد الكاتب السخرية منها، فى مواقف متعاقبة، وتركها تتصرف بتلقائية. لذلك أيضا فتطور الشخوص غير وارد، إذ فى العادة يستخدم الكاتب أنماطاً وليس شخوصاً، وبالتالى فالنمط لابد أن يبقى كما هو دون تطور وإلا ضاع النمط والهدف من ورائه. ثم إن تطور الشخوص يتطلب نوعاً من العمق فى الشخصية، وهو ما يفتقر إليه فى العادة الأسلوب الساخر، إذ كلما تم تسطيح الشخصية كلما استطاع الكاتب أن يسخر منها أكثر وبشكل أفضل، ولذلك نجد الشخوص أو الأنماط فى الرواية تفتقر للعمق أو للوصف الدقيق. العمق يعنى معاناة، والمعاناة بالضرورة تعنى التعلم والتطور فى الشخصية، كما أنها تضعف السخرية. وفى العادة أيضا تكون الشخوص أقرب للأسلوب الكاريكاتورى فى الرسم، ولذلك تسمى الشخصيات الكاريكاتورية، التى يركز فيها الكاتب أو الرسام على عيوب معينة فى الشخصية ويبرزها بشكل صارخ يثير الضحك أو الشفقة. لذلك يعتمد الأسلوب الساخر أيضا بالأساس على المبالغة، كما يعتمد الكاريكاتور تماما.

رواية «بعد عدة أصياف»

تعتبر رواية «بعد عدة أصياف» هى الرواية السابعة لهكسلى، باستثناء ما تخلل الروايات من مقالات فلسفية عديدة، وقد كتبها، كما سبقت الإشارة إليه فى هذه المقدمة، عندما انتقل للمعيشة فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. والعنوان، كما هو واضح من القصيدة فى مقدمة الرواية، مأخوذ عن قصيدة للشاعر ألفريد

تنيسون بعنوان «تايثوناس»، وهى بالتالى تعطى فكرة عن مضمون الرواية لمن يعرف القصيدة مسبقا. تحكى القصيدة عن هذا التايثوناس الذى منحته الآلهة الحياة الأبدية ولكنها نسيت أن تمنحه الشباب الدائم، ومن ثمة ظل يرجو الآلهة أن تنهى حياته. وقد بنى هكسلى روايته على تلك الثيمة، وهى بالأساس فكرة إطالة الحياة وجدواها، ولكن بينما يعبر تنيسون فى قصيدته عن حزنه بسبب ضياع الحياة، يسخر هكسلى من هذه الفكرة فى روايته، إذ يرى الحياة كما يحياها البشر اليوم ما هى إلا مجرد إطالة للشر وإمكانية الشر، إذ يرى هكسلى مستويين للحياة، وهما: المستوى تحت البشرى والمستوى فوق البشرى، وكلاهما لابد أن يسعى لهما الإنسان، بينما إذا بقى كما هو فى المستوى البشرى زادت شروره، لأن المستوى البشرى فيه عنصران مؤثران ومثيران للشر، هما الوقت والرغبة.

ولا يتوقف هكسلى عند اسم الرواية ليبرز أنها ملحمة من القصص الخرافى، بل يتخطى ذلك للرواية المجازية، بحيث يعطى كلاً من شخوصه أسماء ذات دلالات يصعب فهمها على القارئ العادى، إذ أنه بحاجة لمعرفة كبيرة وواسعة بالتاريخ والأسماء والأدب واللغات لفهم المعنى وراء كل اسم. فمثلا، نجد أن جيريمى بورديج، العالِم فى الآداب، مأخوذ عن جيريمى بنثام، مؤسس الفلسفة النفعية، وهذه الشخصية تمثل بشكل واضح الآداب والفنون. ونجد كذلك سيجموند أوبيسبو، الطبيب الذى يبحث عن وسيلة لإطالة الحياة، وهو اسم مركب مأخوذ عن سيجموند فرويد فى شقه الأول، وفى شقه الثانى فإن أوبيسبو تعنى باللغة الأسبانية المطران، وهى هنا توضح نوعًا من الفصام الشخصى داخل أوبيسبو بين العلم والدين. ولكن أوبيسبو كذلك وبشكل أساسى يمثل نقيض جيريمى، إذ بينما يمثل الثانى التفكير الأدبى الخيالى، يمثل الأول التفكير العلمى العملى. أما فيرجينيا، وهى عشيقة

المليونير الأمريكى ستويت، فاسمها يشكل سخرية من «فيرجين» أو عذراء، إذ أن اسمها هكذا متناقض مع تصرفاتها كعشيقة، بل ويوضح الفصام الداخلى أيضا عندها ما بين اسمها وتصرفاتها من ناحية، وكونها عشيقة أو محظية، وكاثوليكية ممارسة لديانتها من ناحية أخرى. أما بروبتر، وهو الشخصية التى تمثل بالأساس لسان حال هكسلى، فيعنى اسمه باللاتينية «لأن» أو «بسبب»، ويشير هكسلى بذلك إلى الشخصية الحكيمة التى تفسر كل الأشياء.

وقد أخذ هكسلى شخوص روايته عن أصدقاء له، تعرف عليهم فى بداية وجوده فى الولايات المتحدة، إذ أن الشخصية الرئيسية فى الرواية وهى شخصية جو ستويت المليونير المضيف، الخائف من الموت، والذى يبحث عن وسيلة لإطالة حياته، كانت مبنية على ويليام راندولف هيرست، الملياردير الأمريكى الذى عرف عنه هذا الخوف أيضا، بل وهناك تشابه ما بين تصوير قصر ستويت وقصر هيرست، وبخاصة اللوحات الفنية فى المصعد. أما عشيقته الشابة ماريون دافيس فقد صورها هكسلى فى روايته كفيرجينيا. والدكتور أوبيسبو مأخوذ عن طبيب اشتهر بكونه طبيب المشاهير فى هوليود فى ذلك الوقت، بينما شخصية الدكتور مالدج، رئيس جامعة طارزانا، مأخوذة عن أستاذين فى جامعات كاليفورنيا كان هكسلى قد تعرف عليهما أثناء إقامته هناك. وقد أثارت هذه الرواية حفيظة وغضب الكثيرين وبخاصة هيرست الذى كان قد استضاف هكسلى فى بيته.

لكن الشخوص بالنسبة لهكسلى ليست مجرد شخصيات روائية، بل تمثل أنماطاً واتجاهات واضحة، فالحوار مثلا ما بين جيريمى وأوبيسبو هو حوار بالأساس ما بين الأدب والعلم، أو الحوار ما بين ستويت الرأسمالى المليونير و بروبتر الفيلسوف، حوار بين أنماط تمثل تلك الاتجاهات. بل نجد أن اكتشاف جيريمى وأوبيسبو معا، عن

طريق خطابات ومذكرات الإيرل الخامس لوسيلة إطالة الحياة، هو بالأساس دليل على تعاون الأدب والعلم معا فى الكشف عن أسرار عظيمة للحياة، ولكن لأن الاثنين عاجزان أصلا عن المشاعر والصلاح، فإن الاكتشاف يصبح بينهما شيئا يشبه الكارثة.

ويعتمد أسلوب هكسلى الروائى الساخر على ما يعرف باسم الحفلة المنزلية، وهو أسلوب أخذه عن سابقيه من الكتاب الساخرين. وقد أخذ هذا الاسم عن أول مسرحية كتبت بهذه الطريقة وهى للكاتب المسرحى بيكوك، ويعتمد هذا الأسلوب على وضع مجموعة من الشخصيات فى مكان واحد، قد يكون حفلة أو رحلة فى مكان ما ناءٍ، ولوقت محدد من الزمن، وتبدأ الرواية من خلال تفاعلات هذه الشخوص معا فى هذا الحيز الضيق من المكان والزمان، بحيث تذهب كل شخصية إلى طريقها بعد انتهاء هذه الحفلة أو هذا التجمع. وقد بدأ هكسلى رواياته الثلاث الأولى بهذا النوع من الكتابة ثم تركها فترة، وعاد بهذه الرواية إلى نفس الطريقة، فقد وضع شخوصه كلها فى بيت المضيف المليونير جو ستويت، وأحداث الرواية تحدث من خلال تفاعلات هذه الشخصيات معا.

تعيش كل شخوص الرواية فى عالم مجنون، أو ما يسميه هكسلى فى روايته نفسها، داخل رأس مجنون، إشارة إلى قصر ستويت الكبير الذى يحوى مقتنيات كثيرة ومتنوعة وغير متناسقة مع بعضها البعض، وحتى جيريمى العالم البريطانى الذى أتى ليفحص بعض الأوراق القديمة التى اقتناها ستويت عن طريق سمسار له فى إنجلترا ، وهى أوراق من مخلفات عصور الازدهار الملكى البريطانى، فإنه أيضا يدخل فى دوامة هذا العالم المجنون المتناقض غير المتسق، ويشعر مع مرور الوقت أن هذا العالم أيضا قد أصبح بيته هو رغم أنه من عالم آخر تماما، إلا أنه يعيش

نفس هذا الجنون بطريقته الخاصة، وبشكل أكثر طبقية. ولا يوجد أى اتزان فى هذا العالم سوى لوحة الرسام العالمى فيرمير المعلقة داخل مصعد القصر، فهو العالم الوحيد المتناسق والدقيق كالمعادلات الهندسية، وسط كل هذه الفوضى والجنون. الوحيد الذى لا يعيش داخل هذا الجنون، هو بروبتر العجوز، الذى كان زميل ستويت فى دراستهما معا فى المدرسة، فهو يعيش خارج هذا القصر وعلى هامشه، أو بالأحرى فإن ستويت هو الذى بنى قصره فوق الجبل ليكون بالقرب من مزرعة بروبتر، ومع ذلك يعيش بروبتر من نتاج هذه الفوضى، إذ يحاول تخفيف أعباء عمال التراحيل وتهيئة سبل معيشة أفضل لهم، بعد أن تسبب فيها ستويت.

وبالتوازى مع هذا العالَم الأمريكى المجنون، يوجد العالَم الإنجليزى المجنون أيضا، من خلال أوراق الهوبيرك التى كتبها إيرل جونيستر الخامس، ويسير هذا العالَم الماضى أيضا بشكل منتظم مع سير الرواية. فرواية الإيرل كما كتبها فى مذكراته التى يقرأها علينا جيريمى وأوبيسبو، هى المعادل الإنجليزى للحياة الأمريكية التى يعيشها ستويت ذاته، وهى التعليق الفلسفى عليها. ستويت والإيرل متشابهان فى أنهما من الأغنياء، وأن كليهما يشعر بالوحدة القاتلة، ثم أنهما يبحثان عن وسيلة لإطالة الحياة بأى ثمن. وقصة الإيرل فى حد ذاتها لها دلالتها الخاصة، إذ بينما اتهم النقاد هكسلى بأنه متجنٍّ على الثقافة والحياة الأمريكية، يثبت هكسلى، بتصويره لشخصية الإيرل، أنه لا يرى فرقا كبيرا ما بين أغنياء إنجلترا وأغنياء أمريكا، وأن كلتا الثقافتين ماديتان، لا فرق بينهما سوى بشكل طبقى. أما الوحدة والرغبة فى إطالة الحياة، والعزلة، فهى كلها سمات مشتركة. ربما الفارق بينهما، فارق طبقى بالأساس، لأن الإيرل كان يستطيع بثقافته الواسعة وقراءاته الدائمة، أن يفلسف الأمور، وينظر للحياة بشكل أكثر عمقا من ستويت. ولذلك فإن وظيفة وجود

قصة الإيرل هى بالأساس التعليق الفلسفى على مجرى الرواية.

وبينما يوجد عالمان مختلفان متوازيان، هما عالم الماضى وعالم الحاضر، يوجد شخصان أيضا يشكلان النقيضين المباشرين مثل الخير والشر على طرفى الخيط، يحاول كل منهما جذب شخوص الرواية ناحيته وناحية أفكاره، وهما بروبتر من ناحية، وأوبيسبو من ناحية أخرى. لذلك، فلا يوجد حوار، ولو فى مشهد واحد، يجمع ما بين بروبتر وأوبيسبو، إذ أن كلا منهما يعرف أنه ليس لديه ما يقوله للآخر: فالأول يعرف فلسفته التى بناها على محاولة مساعدة الآخرين بشتى الطرق وإخراجهم من ذواتهم الضيقة للروحانية فوق البشرية، بينما يعرّف الثانى فلسفته التى هى بالأساس الاستفادة بأكبر قدر من الأشياء الممكنة من كل ما حوله، بدءا بمخدومه ستويت، مرورا بفيرجينيا التى يغرر بها، وانتهاء بپيت، مساعده البرىء ذى النوايا الحسنة والأفكار الخاطئة. كلاهما متشابهان فى أنهما يعرفان تماما ما يريدان، ولكنهما مختلفان فى كل شىء آخر. ويحاول كل من الطرفين جذب الآخرين فى اتجاهه، وفى الواقع تأتى النهاية بما لا تشتهى السفن، إذ يثبت الواقع المشئوم أن أوبيسبو هو المنتصر، وذلك ربما لقصور فى شخصية بروبتر غير الجذابة، روائيا وتقنيا وعمليا. ففيرجينيا مثلا تنجذب لأوبيسبو بينما تفكر فى بروبتر فقط على أنه «بروبى العجوز»، وستويت يظل أسير أوبيسبو مادام الأمل فى أبحاثه مستمراً ومادام خوفه من الموت لن ينتهى، وحتى پيت، الذى يستمع لبروبتر مرات عديدة وكاد يؤثر فيه، يسقط صريعا عندما يقتله ستويت خطأ بدلا من أوبيسبو. أما من الناحية الروائية، فإن شخصية أوبيسبو أيضا هى الشخصية الأكثر نجاحا، والتى استطاع هكسلى رسمها بشكل مشوق أكثر، وربما السبب فى ذلك أنه كما يقول المثل الإنجليزى، يصعب الانجذاب للقديسين والملائكة، بينما الشر والشيطان فى العادة

أكثر جاذبية. لذلك، فقد شكّل بروبتر لهكسلي معضلة تقنية، إلا أنه يبقى شخصية مملة، فاقدة للجاذبية، بل، وكما قال عنه أحد النقاد وهو توماس ميرتون[٤] «أسأم شخصية فى تاريخ الرواية الإنجليزية على الإطلاق».

من بين خصائص أدب هكسلى الساخر تصويره لشخوص أحادية الاتجاهات، فإن أوبيسبو يؤمن بشكل مطلق بالعلم ولا يحب الأدب، وكذلك جيريمى، بل وحتى بروبتر، وكان هكسلى دائما يسخر من شخوصه أحادية الاتجاه، إلا أنه اختلف فى هذه الرواية فى أنه لم يسخر من بروبتر بالرغم من أنه كذلك أحادى الاتجاه. ويرى أوبيسبو مثلا أن الأدب هو نتاج الطب السيء، فلولا المرض ما كتب هؤلاء العظماء قصائدهم. بينما يرى جيريمى أن الأدب هو الوسيلة للحياة، ويعيش حياته وسط كتبه فقط، ولا يستطيع أن يفهم شيئا إلا لو تحول إلى كتاب فى يده، بل إنه يفضل «غزو» كتبه على مغازلة فيرجينيا مثلا، ولأن حياته هكذا غير سوية فهو أيضا لا يعرف الجنس سوى مع عاهرات كل جمعة من آخر الشهر، وهو يعانى كذلك من عقدة أوديب وسيطرة أمه عليه. ويرى بيت مثلا أن السياسة هى الأساس فى العالم، وأن الولاء السياسى لأيديولوجية سياسية معينة هو الهدف والحياة. أما ستويت فإنه يرى بالطبع أن المادة والمقتنيات والبيزنيس لها أسمى الأهداف فى الحياة وما عداها هراء فارغ ومضيعة للوقت، بينما يرى شخصية ثانوية مثل الدكتور مالدج مثلا أن الثقافة والفنون وكليته الهدف والأمل، وهكذا.

ويعتمد أسلوب هكسلى الساخر على التضاد والتوازى بشكل دائم، وهذا التضاد والتوازى ليسا فقط تضاد وتوازى الشخوص، كما سبق وأشرنا، بل هى أيضا تضاد

4- Thomas Merton, 'Huxley's Pantheon', review in the **Catholic World**, reprt. in **Aldous Huxley: The Critical Heritage**, ed. Donald Watt. London: Routledge and Kegan Paul, 1975.

وتوازٍ في المشاهد والمواقف. فكما أن الإيرل يعتبر التعليق الموازى على القصة، فهناك أيضا البيوانات والتي تعتبر تعليقا آخر موازيا للقصة. نذكر على سبيل المثال موقف البيوان الذكر الذى كان يحرس أنثاه فى القفص، بينما وقف بيوان ذكر آخر منتظرا الفرصة ليسطو عليها، وقد سنحت الفرصة عندما انشغل البيوان الأول بالطعام الذى كانت تقذفه له فيرجينيا. وقد حاولت فيرجينيا أن تلفت نظره للخيانة التي تحدث خلف ظهره ولكنها فشلت، وصاحت فيرجينيا فى فرح: «أليسوا مثل الإنسان؟»، والواقع المرير الذى وضحه هكسلى على لسان بروبتر فى عدد من المواقف أن العكس هو الصحيح، إذ أن الإنسان هو الذى يتصرف هكذا مثل الحيوان. وفى نهاية القصة، نجد أن الإنسان بالفعل، مع اكتشافه للوسيلة التى تطيل حياته، قد تحول إلى لا شيء سوى بيوان أو قرد كبير، وهى حالة تطور عكسية، فنعود للإشارة التى يرمز إليها هكسلى وهى أن الإنسان يتصرف حتى مع التطور كالحيوان تماما. ولكن هنا، كما رأى النقاد بالطبع، شكل وجود الإيرل معضلة متناقضة لمبادئ هكسلى التى نادى بها فى هذه الرواية، إذ أنه بحسب كلام بروبتر، فإن الإنسان لابد أن يسعى للارتفاع إما إلى المستوى فوق البشرى، أو التدنّى للمستوى الحيوانى، ولذلك فإن ما فعله الإيرل، وهو نزوله للمستوى تحت البشرى وهو المستوى الحيوانى، لابد وأن يكون شيئا مقبولا لهكسلى لأنه لم يبق على المستوى الإنسانى كما هو بل سعى للتدنّى. ولكن النهاية تدل على أن هكسلى كان يسخر من هذا النزول، وهو ما يتناقض بالأساس مع فكره.

ولكن مع كل هذا التوازى، يستخدم هكسلى كذلك التضاد، وهو وسيلة شائعة فى الكتابة الساخرة. فمثلا نجد فى بداية الرواية، عندما يدخل جيريمى بورديج إلى القصر، يجد فى البهو لوحتين متناقضتين متضادتين، هما لوحة القديس بطرس

المصلوب على ناحية من الحائط، بألوانها الداكنة المائلة للسواد والبنى وحالتها الروحانية، بينما على الناحية الأخرى نجد لوحة هيلين فورمونت الحسية بألوانها الوردية الفاتحة. وهنا التضاد الذى يستمر طوال الرواية؛ ما بين عالم الروحانية والعالم الحسي والصراع بينهما. ويتساءل جيريمى مدركا التضاد، أنهما يمثلان شيئا ما، ولكن ماذا؟ ولا يستطيع أن يجد الإجابة فى بداية زيارته، ولكن بالتأكيد يمكن الإجابة فى نهاية الرواية.

كذلك، فهذا التضاد بين الحس والروحانية موجود بشكل صارخ أيضا فى المقابر المسماة ببانثون بيفرلى، وهو المشروع الضخم الذى يملكه ستويت، حيث نرى الموت والمقابر فى كل مكان، والاسطوانات المكتوب عليها آيات من الكتاب المقدس، بينما يحاول ستويت السيطرة على خوفه من الموت بأن وضع «الجذب الجنسى» فى المقابر عن طريق تماثيل شتى لنساء عاريات، قابعات، مائلات، واقفات وجالسات. كل هذا التضاد ما بين الحس والروح، هو التضاد الرئيسى والعمود الفقرى الذى تسير عليه الرواية.

ويظل بهذه المناسبة، كل من ستويت وفيرجينيا ضحايا هذا التضاد وهذه الازدواجية، فستويت مثلا ضحية لتعدد الطوائف التى مرت بحياته ما بين زوجته وجدته وأمه، ما بين أخوات بليموث والكريستيان ساينس والميثودية، والتى غرست جميعاً فى قلبه خوفًا من الموت بدلا من الاطمئنان والسكينة. كذلك فيرجينيا فإنها بقيت مشتتة وعندها ذلك الفصام فى الشخصية، ما بين تلك الفتاة التى تصلى للعذراء فى مخدعها الخاص، وقد بنت لها معبدا خاصا بها وألبستها أفضل الحرائر، وبين إغلاقها الستائر على ذلك المحراب حتى لا تراها العذراء وهى ترتكب الإثم

مع أوبيسبو، بينما هى بالأساس محظية لستويت.

لعل من بين أكثر المشاهد وضوحا فى التضاد مشهد عمال التراحيل وهم فى حالتهم البائسة وهم سائرون نحو مزارع البرتقال لجمع المحصول، بينما فى أعلى القصر فيرجينيا تقفز إلى حمام السباحة، وهو التضاد الصريح بين عالم الفقراء وعالم الأغنياء، وكلاهما لا يشعر بالآخر ويسيران فى توازٍ ولا يتقابلان مطلقا.

وعلى عكس الروايات الساخرة بشكل عام، وروايات هكسلى السابقة بشكل خاص، فإن هذه الرواية بالتحديد بها حبكة واضحة ومشوقة، وبها ذروة فى الأحداث ونهاية، ولكن بالرغم من ذلك، فإن الصراع فى القصة ليس صراعا فى المواقف ولا هو صراع بين الأفراد، بل هو بالأساس صراع أفكار، إذ أن كل شخصية، كما بينا من قبل فى هذه المقدمة، تمثل اتجاها معينا ونمطا مستقلا، ومن خلال صراع أفكار تلك الأنماط يتكون الصراع الرئيسى فى الرواية. ويستخدم هكسلى أيضا، كعادته فى كل رواياته، عدداً من الأساليب المختلفة فى الرواية الواحدة، إذ يدخل نظام الخطابات (مثل خطابات جيريمى لأمه) والمذكرات (مثل مذكرات الإيرل الخامس) للتعليق على أحداث القصة.

وقد قال النقاد إن الطبيعية غابت عن شخوص هكسلى لأنها كلها تمثل أنماطاً، بل إن هكسلى ذاته قد كتب فى خطاب لأحد أصدقائه «أنا لست جيدا فى خلق شخوص روائية»[٥]، وهذا فى الواقع غير صحيح، إذ لا يمكن القول بأن شخوص هكسلى فى هذه الرواية مسطحة أو غير عميقة بالرغم من أنه، كما أشرنا فى بداية المقدمة، العمق يؤثر سلبا على الأسلوب الساخر. ومن هنا تحديداً جاءت عظمة كتابات هكسلى، إذ لا يشعر القارئ معها بذلك التسطيح الذى تحدثه فى العادة

الكتابات الساخرة.

كذلك، فإنه على عكس التقليد الساخر فى الكتابة، فإن هكسلى لم يكن معنيا بالنفاق والرياء بقدر ما كان مهتما بفضح الشخصيات الذاتية الأنانية، فشخوصه بشكل عام ترتدى أقنعة، ولكنها ليست أقنعة الرياء بل أقنعة الذاتية المفرطة والأنا المتضخمة، والتى تختبئ وراءها وليس معنى ذلك أنها مراوغة أو منافقة، بل هى فى الواقع تخاف من الوحدة ومن المسؤولية. وقد كان شغل هكسلى الشاغل فى كل كتاباته هو إيجاد بديل للدين الرسمى، وهو البحث عن نوع من الروحانية يتميز بالعطاء للغير والنظر أبعد من الذات الصغيرة الضئيلة. ولا يمكن القول، بأى حال من الأحوال، إن هكسلى فى هذه الرواية قد وجد ضالته، ولكنه كان لايزال فى مرحلة التجريب ومناقشة النظريات. لذلك فإن الوسيلة التى اختارها بروبتر ليعيش حياته، وهى إقامة تجمعات سكنية واستخدام الطاقة الشمسية والسعى للاكتفاء الذاتى، كلها كانت فى حالة من التجريب، وقد أخذ الفكرة عن كتاب «مدرسة الحياة» لبورسودى.

وعلى عكس الكثير من الكتاب، فإن هكسلى يسخر من العلم ذاته، وبالمناسبة فقد أثارت روايته «عالم جرىء جديد» غضب هـ.ج. ويلز الذى اعتبرها «خيانة للعلم». ولكن هكسلى كان يؤمن أن سوء استخدام العلم لن يصل إلى نتيجة إيجابية فى اتجاه تحرير الإنسان بل قد يؤثر سلبا عليه وعلى مستقبل البشرية جمعاء. لذلك فإن هكسلى يصور أوبيسبو فى هذه الرواية كرجل بلا قلب - كالعلم تماما - يفضل البقاء مع أبحاثه عن معالجة المرضى الذين لابد ألا يضيعوا وقته بل وكان الأجدر بهم أن يموتوا. إذن فإن هكسلى يسخر بالأساس من العلم كعامل للتقدم البشرى، فقد

5- Grover Smith, ed. **The Letters of Aldous Huxley**, London:1969.

يكون التقدم البشرى على حساب الحرية والسعادة البشرية.

ولا يلتزم هكسلى كذلك بتقليد الكتابة الساخرة فى كونه لا يمتنع عن بعض الموضوعات التى لا ينبغى على الكاتب الساخر الخوض فيها، فرواياته دائما إما بها جريمة قتل أو انتحار أو معاناة كبرى، ويوظفها هكسلى لإثبات أن الحياة كما يحياها البشر اليوم هى فى الواقع بلا معنى، وأنه لابد من إيجاد بدائل أخرى، وخاصة أن الموت الجسدى وكذلك المعنوى هما النتيجة الحتمية فى حياة كل إنسان. وتشكل هذه الموضوعات صعوبات جمة فى التعامل معها بشكل ساخر، والواقع أن تلك الموضوعات هى الخلفية التى يبنى عليها هكسلى سخريته من الحياة، ووجودها فى رواياته يذكر القارئ دائما بجدية الموضوعات التى يتناولها بالرغم من السخرية، فلذلك نجد فى كل رواياته دائما تراجيديا عميقة تسير جنبا إلى جنب مع الضحك والابتسام. إن موت بيت مثلا فى رواية «بعد عدة أصياف» هو فى الواقع إشارة لعدم جدوى الحياة كما هى، بل وكونه قد قتل بدلا من أوبيسبو الانتهازى له فى الواقع دلالة كبرى.

بالنسبة للتكوين الروائى لدى هكسلى، فإنه يعتمد بالأساس فى سخريته على ما يسمى بالتكوين الكلى الساخر، ولذلك فإن بعض النقاد يعتبرون رواياته عبارة عن قصص مجازية. وكما فى التقليد الساخر فرواياته لا يوجد بها حبكة، ولا يوجد بها أى نوع من الحركة أو الـaction. لقد اتهمه بعض النقاد بناء على ذلك بأنه يكتب مقالات مطولة وأن كتاباته بشكل عام تتأرجح ما بين المقال والرواية. ولذلك فقد كتب هكسلى لأحد أصدقائه يقول «إننى أدرك بحزن أننى لم أولد لأكون كاتبا روائيا بل أكتب نوعاً آخر من الكتابة تشبه الرواية بشكل قد يكون مقنعا»[٦].

وبالفعل، فإن روايات هكسلى لا تعتمد على الحبكة بقدر ما تعتمد على الحوارات

الصدامية الذكية وسرعة البديهة، ولذلك فإن الأفكار فى العادة تحل محل الحركة، والصدامات هى بالأساس صدامات فكرية ناتجة عن سوء فهم العالم وعدم وضوحه. كذلك فإنه عندما تظهر أية حركة فى الرواية فإنها تبدو ثانوية بالنسبة للفكرة التى وراءها، إلا أنه يمكن القول إن هذه الرواية بالذات هى من أكثر روايات هكسلى التى تحتوى على حركة بل ونوع من الحبكة والتشويق والنهاية غير المتوقعة.

وعلى عكس التقليد الساخر فى الكتابة، فإن شخوص هكسلى جميعاً أو أغلبها ذكية ومثقفة، بل إن رواياته سُميت «رواية الأفكار» (novel of ideas) لهذا السبب بالتحديد. معظم شخوصه مفكرة وهى بشكل عام لسان حال أفكار محددة. لذلك فإن رواياته تعتمد بالأساس على أن لكل شخصية فكراً واضحاً أحادياً وتمثل وجهة نظر واحدة، ثم تدخل فى صراع حوارى بحيث يمثل كل منها اتجاهه الذى لن تحيد عنه أو تغيره طوال الرواية. وتبقى الشخوص، لأنها تمثل وجهة نظر أكثر من كونها شخوصاً تتحرك وتشعر وتتفاعل، تبقى كما هى دون تطور حتى نهاية الرواية. ليس هذا فقط، بل إن الشخوص تسير فى خطوط متوازية بشكل دائم، ولا يوجد اتصال بينها جميعا بالرغم من حديثها وحواراتها معا، وهذا فى حد ذاته سمة من سمات الأسلوب الساخر، بحيث تسير الشخوص فى توازٍ. وهى بالتالى لا تؤثر فى بعضها البعض، وتعيش كل منها فى عالمها وذاتها الخاصة المغلقة المنفصلة. ولذلك أيضا، فإن هكسلى يعتمد فى سخريته على الحوار ذاته بين هذه الذوات المنفصلة. ولكن هذه الذوات المنفصلة جزء من كل، ومعا فقط تُظهر الصورة كاملة، إذ إن هكسلى بحاجة لكل هذه الشخوص المختلفة التى تمثل اتجاهات مختلفة

٦ – المصدر السابق

لكى يعطى كل منها وجهة نظر فى حيز ضيق من الرواية، وهى جميعًا تعطى الصورة كاملة وكل وجهات النظر التى يتصارع فيها هكسلى ذاته معها.

ويمكن القول أيضا إن هكسلى قدم مرآة للمجتمع، كما يفعل الكتاب الساخرون فى العادة، ولكنها لم تكن مرآة مجتمعية بل كانت مرآة أيديولوجية بالأساس، فهو لم يقدم مشكلات اجتماعية أو يصور قصور مجتمع بقدر ما كان يحاول تصوير اهتمامات وهموم جيله الأيديولوجية، وهو فى هذا كله لم يحاول إعطاء «أنصاف الحقائق» كما يفعل الكتاب الساخرون لكى يثيروا السخرية والضحك، بل كان يعطى «كل الحقائق» المختلفة كما تراها شخوصه كلٌ على حدة ومن وجهة نظره، وهكذا يستطيع أن يصور كل وجهات النظر وأن يسخر منها كلها فى آن.

وفى النهاية، فقد انتقده النقاد كذلك لأنه لم يعط حلولا للمشكلات التى يثيرها، ولكن هل من الضرورة أن يعطى الكاتب حلولا أم أنه فقط يطرح المشكلات؟ على كل، فقد حاول هكسلى أن يقدم حلولا عن طريق شخصية برويتر، ولكنه كما سبق وأشرنا فشل فى إعطاء حلولٍ واضحة وعملية وممكنة، فقد حاول تصوير بدائل للدين والعلم والأدب ولكنه فشل فى إقناع القراء والكتاب معا، وفى النهاية توصل إلى أن الحل فى داخل الفرد وليس من خارجه، وهو حل، كما علق أحد النقاد، يشبه حلول الأنبياء العظماء على مر الأزمان.(٧)

مصاعب الترجمة

عندما فكرت فى ترجمة رواية لهكسلى، كنت أدرك تماما الصعوبات التى قد ألاقيها أثناء الترجمة، لمعرفتى بصعوبة وعمق كتابات هكسلى، وكان اختيارى لرواية «بعد عدة أصياف» تحديا علميا ظننت أننى أدرك أبعاده. وقد اخترت هذه

٧– للمزيد حول ألدوس هاكسلى والأسلوب الساخر، أنظر رسالة الدكتوراه المقدمة من المترجمة لجامعة القاهرة عام ١٩٩٦ بعنوان:

Satire in some of the novels of Aldous Huxley and Sinclair Lewis.

الرواية بالتحديد بسبب وجود عنصر التشويق فيها، وما يسمى بالخيال العلمى الذى يأتى بشكل ثانوى فى القصة، فلا يمكن بأى حال من الأحوال تسميتها رواية خيال علمى. عموما فعندما بدأت الترجمة أدركت أننى وضعت لنفسى تحديا ربما كان أكبر منى، ومن إمكانياتى، مما دفعنى للرغبة فى إنهائه بشكل يكون على الأقل مقبولا إلى حد كبير، ينقل للقارئ العربى عالم هذا الكاتب الرائع المبدع والذى لم تترجم رواياته للعربية من قبل، فى أغلب الظن بسبب صعوبتها وصعوبة نقلها للغة العربية.

ولم تكن الصعوبة فقط فى ترجمة الأفكار، بل كانت أيضا فى استخدام هكسلى للعديد من اللغات فى الرواية، إذ فجأة يكتب فقرة باللغة الإسبانية، وتارة أخرى يكتب فقرة باللغة الإيطالية أو الفرنسية أو الألمانية أو اللاتينية، ويبنى عليها بعد ذلك فى بقية الفصل أفكاره وآراءه. وقد كان بالطبع علىّ أن أبحث عن مَنْ يمكنه ترجمة هذه الفقرات، والتى غالبا ما تكون شديدة الصعوبة، حتى على من يعرفون تلك اللغات لأنها أحياناً تكون فقرة قصيرة أو جملة أو كلمة فى خارج سياقها، ولا يمكن أن يفهموا معناها إلا إذا قاموا بقراءة السياق الذى وضعه فيه هكسلى.

ومن بين الصعوبات أيضا، كانت إشارة هكسلى لهذا الكم الكبير جدا من الأسماء ما بين علماء لاهوت قدامى إلى رسامى لوحات وفنانين وكتّاب، ولم يكن البحث عسيرا عن معظم تلك الأسماء فى دوائر المعارف الأجنبية، إلا أن هناك بعض الأسماء لم تكن موجودة أصلا حتى فى هذه الدوائر الكبيرة، مثل البريطانيكا والأميريكانا، وقواميس الشخصيات الأدبية والشخصيات العامة. وقد انتابنى فى بعض الأوقات اليأس من إيجاد بعض تلك الأسماء، مثل ما حدث على سبيل المثال مع «جامبولونيا» ، حيث أشار هكسلى إلى هذا النحات ولكنى لم أجده فى أية

قواميس. وقد استعنت بهذا العالم الجديد العظيم للإنترنيت وبحثت عن كلمة «جيامبولونيا»، فوجدت كل ما أريد معرفته عن هذا الرجل، إذ أن هكسلى كان قد استخدم اسم الشهرة وليس اسم الرجل الفعلى وهو «جان دى بولونيا». وهكذا مع عدد من الأسماء الأخرى، بل كانت هناك كذلك أسماء أماكن وبلدان وطُرُز معمارية كثيرة كان البحث عنها ممتعا وعسيرا فى آن.

وأخيرا فقد انتهيت من ترجمة هذه الرائعة التى أصبحت بين يدى القارئ العربى الآن،، وهو جهد متواضع لعل وعسى يعطى فكرة ولو بسيطة عن عالم هذا الكاتب العظيم، مع ملاحظة أن أية أخطاء به هي بلا شك أخطائى، وليست قصورا فى رواية هكسلى أو قصورا من المراجعين، وأعتذر عنها جميعا مقدماً.

شكر وتقدير

وفى النهاية، أود أن أتقدم بالشكر إلى الأستاذ مهدى مصطفى الأديب الذى قام بمراجعة اللغة العربية مراجعة دقيقة، وقراءته المتأنية لهذا العمل الطويل المرهق، وما اقتطعه من وقته لإنجاز هذا العمل فى أسرع وقت ممكن، والذى بدونه ما انتهى هذا العمل بهذا الشكل المشرّف. كما أود أن أشكر الأستاذ الشاعر محمود قرنى على المراجعة النهائية. وأتوجه أيضا بشكر خاص للأستاذ أمير سالم المحامى الذى ساعد بتشجيعه المستمر وقراءته على إتمام هذه الترجمة.

ولا أنسى فى هذا الإطار أيضا أن أتقدم بالشكر لكل من أساتذتى الدكتورة نادية سليمان، أستاذة الأدب الإنجليزى جامعة عين شمس، والدكتورة أنجيل بطرس، أستاذة الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة، على تشجيعهما الدائم لى، كما أتقدم بشكر خاص للأستاذة الدكتورة هدى جندى، أستاذة الأدب الإنجليزى بجامعة

القاهرة، ومشرفة رسالة الدكتوراه التى تقدمت بها حول ألدوس هكسلى لجامعة القاهرة، لأنها علمتنى الصبر والمثابرة والدقة قدر الإمكان فى العمل.

د. مارلين تادرس

القاهرة فى يوليو ١٩٩٧

الغابات تتعفن، الغابات تتعفن وتسقط،
والأبخرة تبكي أخاها وهو يسقط،
ويأتي الرجل ليزرع الأرض ويبقى عليها
وبعد عدة أصياف يموت البجع

تنيسون

الجزء الأول

الفصل الأول

تم ترتيب كل شيء بالتلغراف: على چيريمى بورديج أن يبحث عن سائق ملون يرتدى بذلة رمادية، فى عروتها وردة، وعلى السائق الملون أن يبحث عن رجل إنجليزى فى منتصف العمر، يحمل فى يده كتاب وردزورث [1]، وبالرغم من زحام المحطة تمكنا من العثور على بعض بسهولة .

ـ سائق مستر ستوبت؟

ـ مستر بورديج؟

هز چيريمى رأسه بالإيجاب . كان يحمل وردزورث فى يد ، ومظلته فى اليد الأخرى ، فمدّ يده فى حركة تشبه حركات عارضة أزياء تستعرض جسدها القمىء بشكل مثير للضحك لمعرفتها بعيوبها جيدا ، وهى طريقة أصبحت عادة له فى كل المناسبات .

فجأة خطرت فى باله فكرة، أقلقته، هل يجب عليه هنا، فى هذا الغرب الديمقراطى ، أن يصافح السائق باليد ، خاصة إذا كان أسود اللون ، فقط ليبين أنه سيد من الدرجة الأولى ، وحتى لو لم يكن وطنه تحمل عبء الرجل الأبيض .

قررفى النهاية ألا يفعل شيئاً، أو بشكل أدق ، أُجبر على ألا يفعل شيئاً ـ وهو سعيد أنه كالعادة يعرف عيوبه ـ إذ قطع السائق تردده فخلع الكاب و انحنى له فى محاولة لتقليد زنوج الزمن القديم، ثم ابتسم فظهرت أسنانه البارزة وقال:

ـ مرحبا بك فى لوس أنجيلوس يا مستر بورديج، يا سيدى.

١- وردزورث: نسبة إلى وليام وردزورث الشاعر الإنجليزى(١٧٧٠-١٨٥٠) .

ثم غيَّر لهجته من التغنى إلى الثقة الدراماتيكية، وأضاف:

ـ كنت سأعرفك من صوتك يا مستر بورديج حتى بدون الكتاب.

ضحك چيريمى فى ارتباك. أسبوع واحد فى أمريكا جعله ينتبه لصوته هذا. صوت من نتاج عشر سنوات قبل الحرب، فى كلية ترينيتى،جامعة كمبريدج . صوت رفيع كالناى ، يشبه ترنيمة فى كاتدرائية إنجليزية. عندما كان يتحدث فى بلده، لم يلتفت إليه أحد، ولم يكن يتندر عليه كما يفعل عادة لحماية نفسه كلما تحدث عن شكله أو عمره.

أما هنا فى أمريكا فالأمر مختلف. ما أن يطلب فنجانا من القهوة أو يسأل عن الطريق إلى الحمام (والذى لا يسمونه حماما فى هذا البلد المقلق) حتى يرى الناس يتفرسون به فيه باهتمام فضولى، وكأنه مسخ فى عرض للملاهى. ولم يكن هذا فى الحقيقة شيئا ممتعاً.

قال ليغير الموضوع:

ـ أين الشيّال؟

بعد دقائق كانوا على الطريق، كان يجلس فى المقعد الخلفى بعيدا عن حديث السائق كما كان يأمل. وأطلق چيريمى بورديج لنفسه العنان ليتأمل ما حوله. مرت أمامه جنوب كاليفورنيا، وكل ماعليه هو أن يفتح عينيه.

أول ما وقع عليه بصره كانت مساكن الأفارقة والفلبينيين واليابانيين والمكسيكيين الفقراء. كانت مزيجا من الأسود والأصفر والبنى. أىُ خليط مُركَّب هذا!

والفتيات ... كم كن جميلات فى ملابسهن الحريرية الناعمة.

وسيدات زنجيات فى ملابس بيضاء ـ إنه أفضل شطر فى قصيدة البريليود (٢).

٢- البريليود: قصيدة سيرة ذاتية كتبها الشاعر الإنجليزى وردزورث فى أربعة عشر جزءا، بدأها عام ١٧٩٩ ونشرت بعد وفاته عام ١٨٥٠ .

ابتسم لنفسه، ومرت المساكن الشعبية، وبدت الدباتات المرتفعة فى منطقة البيزنيس.

بدا الناس وكأنهم يتخذون طابعا قوقازياً. فى كل ركن رأى صيدلية، وكان الأطفال يبيعون الجرائد ، التى أعلنت فى عناوينها الرئيسية عن دخول فرانكو إلى برشلونة. بدت الفتيات السائرات منهمكات فى صلاة صامتة، ومع إعادة التفكير فى الموضوع، قرر أنهن فى الغالب، يمضغن اللبان، اللبان وليس الله.

وفجأة دخلت السيارة نفقاً ثم خرجت إلى عالم آخر، كبير وغير منظم، عالم أطراف المدينة ، تملأه محطات البنزين والإعلانات، ومنازل صغيرة وسط الحدائق، وأماكن فارغة وأوراق زبالة، وبعض المحلات والمبانى المكتبية والكنائس ـ كنائس ميثودية [٣] بدائية، مبنية ـ وياللعجب ـ مثل كارتيوخا بقرطبة، وكنائس كاثوليكية مثل كاتدرائية كانتربرى[٤]، ومعابد متخفية مثل أيا صوفيا [٥]، وكنائس الكريستيان ساينس [٦] بأعمدتها التى تشبه البنوك.

كان اليوم شتاء والصباح باكراً، ومع ذلك لمعت الشمس ببريق شديد، وكانت السماء بدون سحب . والسيارة تسير فى اتجاه الغرب ، والشمس مائلة خلف المبانى تنير كلا منها، وتضىء الإعلانات مثل كشاف نور، وكأنها تتعمّد أن يرى الزائرون الجدد كل شىء.

أطعمة. كوكتيل. ليالى مفتوحة.

بيرة عملاقة.

٣- ميثودية: نسبة إلى طائفة الميثوديين الدينية المسيحية.
٤- كانتربرى: أشهر كاتدرائية إنجليزية.
٥- الجامع الشهير بإسطنبول أنشىء ككنيسة عام ٥٣٢ ثم تحول إلى جامع أصبح الآن متحفا سياحيا.
٦- الكريستيان ساينس: طائفة تنتمى للطائفة الإنجيلية أسستها امرأة تدعى مارى بيكر إيدى عام ١٨٧٩، وهى تؤمن بالشفاء الإلهى وليس العلاج الطبى.

افعلْ أى شىء، واذهبْ إلى أماكن كثيرة مع بنزين كونسول سوبر.

فى بانثيون بيفرلى الجنازات الجميلة ليست غالية الثمن.

مضت السيارة بسرعة، وفى مكان خالٍ، ظهر مطعم على شكل كلب بولدوج، مدخله بين اليدين الأماميتين للكلب، ويخرج من عينيه نور.

همس جيريمى: اذهب ، ثم قال مرة أخرى اذهب. كان يحب الكلمات مثل العُلماء. وذهب البولدوج إلى الماضى.

الفلك. الأرقام. قراءة الطالع.

ادخل لتتناول الناتبرجر ـ أيا ما كان هذا !! قرر أن يجرب واحدة منها فى أقرب فرصة. ناتبرجر وبيرة عملاقة!

قف هنا لبنزين السوبر كونسول.

وقف السائق. قال بلهجة آمرة:

ـ عشرة لترات من السوبر سوبر.

ثم استدار إلى جيريمى وأضاف:

ـ هذه شركتنا. مستر ستويت رئيسها.

أشار إلى الإعلان عبر الشارع.

قرأ جيريمى:

ـ قروض نقدية فى خمس عشرة دقيقة.

استشر شركة الخدمات المالية المحلية.

قال السائق بكبرياء:

ـ وهذه أخرى ملك لنا.

استمروا بالسيارة. حدق فيه وجه شابة جميلة من إعلان عملاق، يشوبه الحزن

مثل المجدلية، مكتوب عليه:

ـ «الحب الضائع. ثبت علميا أن ٧٣٪ من كل البالغين مصابون بصعوبة في التنفس».

«في وقت الحزن اجعل ب.ب. صديقا لك»

«شد الوجه. عمل البرماننت. المانيكير. محل بيتي للتجميل».

بجانب محل التجميل رأى مكتب الاتحاد الغربي. هذا التلغراف لأمه! يا للسماء، كاد ينسى! انحنى چيريمي للأمام، وفي نبرة اعتذار يستخدمها دائما حينما يتحدث إلى الخدم، طلب من السائق أن يتوقف لحظة. وقفت السيارة، وبتعبير من الانشغال الشديد جدا على وجهه الأرنبي، خرج من السيارة مسرعا على الرصيف، ودخل مكتب البريد.

ـ مسز بورديج. أروكارياس. ووركنج. انجلترا

كتب الكلمات وابتسم قليلا. غريب هذا العنوان، كان مصدر سعادة دائماً له.

أروكارياس [٧]. ووركنج [٨].

حينما اشترت أمه البيت، أرادت أن تغير اسمه لأنه يعبر عن الطبقة الوسطى، ولكنه اعترض، وقال هذا هو مصدر جمال الاسم، وحاول أن يقنعها أنه مناسب جدا لهم أن يعيشوا في مثل هذا العنوان . أي فارق شاسع بين اسم البيت وطبيعة من يعيشون فيه! وأية مفارقة، أن صديقة أوسكار وايلد القديمة ، مسز بورديج، تكتب خطاباتها من «لأروكارياس التي في ووركنج، وهي نفس الأروكارياس التي خرجت منها مؤلفات علمية لابنها وأكسبته شهرة واسعة.

٧- أروكارياس: فصيلة أشجار أمريكية واسترالية منتمية لأشجار الصنوبر .
٨- ووركنج: العمل وهي هنا كناية عن الطبقة العاملة الأصيلة.

وفهمت مسز بورديج على الفور قصده. عندما يتحدث المرء معها، لا يحتاج لتوضيح مستفيض. يمكنك أن تعتمد دائما على أنها ستفهمك. وظلت الأروكارياس كما هى.

توقف چيريمى برهة بعد أن كتب العنوان، و عض طرف القلم كعادته عندما يفكر تفكيرا عميقا، إلا أنه وجد أن طرف هذا القلم بالذات نحاسى ومربوط بسلسلة.

ـ السيدة بورديج، الأروكارياس، ووركنج، إنجلترا.

قرأها بصوت عال على أمل أن تلهمه الكلمات أن يكتب رسالة تفيض بالحنين وتضحك فى الوقت نفسه، مملوءة بالولاء، ومكتوبة بشكل ساخر، تعترف بسيطرتها الأمومية وتسخر منها فى ذات الوقت، حتى تريح السيدة العجوز ضميرها وتدّعى أن ابنها أصبح حراً، وأنها أقل الأمهات سيطرة. لم يكن الأمر سهلاً ـ خاصة وأن القلم مربوط هكذا فى سلسلة – ولكن بعد عدة محاولات مجهَضَة قرر الآتى: الجو هنا شبه إقليمى، سوف أكسر وعدى لك بخصوص ملابسى الداخلية. نقطة. أتمنى لو كنت هنا من أجلى وليس من أجلك أنت، لأنك لن تحبى بورنموث [٩] هذه.

سألت الشابة الواقفة على الناحية الأخرى من الكاونتر:

ـ ماذا؟

البورنموث. تهجاها چيريمى وابتسم ، ولمعت عيناه الزرقاوان ببريق خلف نظارته، ثم بحركة لا شعورية، وهى عادة لديه عندما يبدأ فى إلقاء نكتة من نكاته، تحسس صلعته بيده وقال:

ـ كما تعرفين ... بورن التى لا يذهب إليها أى مسافر إن إمكن.

٩– بورنموث: منتج ساحلى فى جنوب غرب إنجلترا، وتعتبر مشتى طوال العام، وتشتهر بجوها دائم الاعتدال وكلمة bourne تعنى هدف– مرفأ– جدول صغير.

نظرت إليه الفتاة بلا تعبير، ولكنها استنتجت أنه قال شيئا مضحكا، وتذكرت أن شعارخدمات الاتحاد الغربى هو المجاملة، فابتسمت لهذا المسكين الذى ينتظر الابتسامة، وأكملت القراءة:

ـ أتمنى أن تكونى مستمتعة فى جراس. نقطة. حنينى لك. چيريمى.

ستكلفه الرسالة كثيرا، ولكن لحسن الحظ سيدفع له المسترستويت أكثر مما يستحق. فى ثلاثة أشهر فقط، سيحصل على ستة آلاف دولار. فلتذهب المصاريف إلى الجحيم.

عاد إلى السيارة ومضيا فى طريقهما ، ميلا بعد ميل، ومضت معهما المنازل ومحطات البنزين والأماكن الخالية من البناء، والكنائس والمحلات بلا نهاية. على اليمين واليسار اختفت الشوا رع الكبيرة بين النخيل أو شجر الفلفل أو الأكاسيا.

طعام رفيع المستوى. أيس كريم كبير يزيد حجمه على الميل.

المسيح مخلص.

هامبرجر.

ولكن مرة أخرى أضاءت الإشارة باللون الأحمر. جاء شاب بالجريدة، كان العنوان الرئيسى: فرانكو يحرز انتصارا فى كتالونيا. قرأه چيريمى ثم استدار. الخوف من العالم تفاقم لدرجة أنه أصبح شيئا مملا.

خرجت امرأتان مسنتان من السيارة الواقفة أمامهما شعرهما أبيض مموج، ترتدى كل منهما بنطالا أحمر، وتحمل كلبا من نوع اليوركشاير. أنزلتا الكلبين بجوار عامود إشارة المرور، وقبل أن يستفيد الكلبان من هذا الموقف، تغيرت الإشارة.

تحرك السائق الزنجى وانطلقت السيارة إلى الامام، إلى المستقبل. أخذ چيريمى

يفكر فى أمه بعدم ارتياح، إذ تملك هى أيضا كلبا من نوع اليوركشاير.

كحوليات هائلة.

سندوتشات دوق.

اذهب إلى الكنيسة واشعرْ بتحسن طوال الأسبوع.

الجيد فى عملنا جيد لك.

ظهرت أمامه لافتة أخرى، وكانت هذه المرة فى صورة مكتب للعقارات على هيئة أبى الهول المصرى.

المسيح آتٍ قريبا.

أنت أيضا يمكنك أن تحافظى على الشباب الدائم باستخدام حمّالات الصدر ماركة «الشكل المثير».

بانثيون بيفرلى: مدافن متميزة.

نظر السائق الزنجى بطرف عينه الى چيريمى، وبكبرياء القطة ذات الحذاء التى أخذت تعدد ممتلكات الماركيز دى كراباس [١٠]، أشار إلى اللافتة وقال: هذه أيضا ملك لنا.

سأل چيريمى:

ـ أتقصد بانثيون بيفرلى؟

هز الرجل رأسه بالإيجاب وقال:

ـ أفضل مقابر فى العالم على ما أعتقد.

ثم أضاف بعد برهة:

ـ هل تحب أن تشاهدها؟ إنها فى طريقنا.

---

١٠ – بطل قصة شعبية فرنسية قديمة تحكى عن شاب ورث قطة ويكتشف أنها قطة ذكية وتقدمه للملك على أنه الماركيز دى كاراباس ويزوجه ابنته.

أجاب چيريمى بلغته الإنجليزية المهذبة التى تنم عن الطبقة الراقية التى ينتمى إليها:

ـ شىء ظريف.

ثم أحس أنه ربما ينبغى التعبير عن قبوله بشكل أكثر دفئا وديمقراطية، فتنحنح، ثم فى محاولة لتقليد الأسلوب المحلى أضاف أنه شيئ «رائع». نطق الكلمة بصوته الترينيتى الآتى من كامبريدج، فبدت الكلمة مصطنعة، فاحمر وجهه خجلا. لحسن الحظ كان السائق مشغولا بحركة المرور، فلم يلاحظه.

استدارا ناحية اليمين، فمرا بمعبد روسيكوريا [١١]، ثم بمستشفى للقطط والكلاب، ثم بمدرسة لتعليم الإيقاع ، ثم إعلانين عن بانثيون بيفرلى. استدارا ناحية اليسار على طريق صن ست، فلاحظ چيريمى امرأة تتسوق، مرتدية لباس بحر دون حمالات، شعرها بلون البلاتين، وترتدى معطفا من الفرو، وذهبت هى أيضا إلى الماضى.

أما الحاضر، فكان طريقا منحدرا على أطراف سلسلة جبلية، تملؤه حوانيت صغيرة تبدو غالية الثمن، وسلسلة من المطاعم والنوادى الليلية ، تحجب عنها الشمس بعض المكاتب والعمارات. وذهبت كلها بلا عودة.

أشارت علامة أخرى إلى أنهما يعبران حدود بيفرلى هيلز. تغيرت الملامح المحيطة بهما. على جانبى الطريق حدائق مساكن للأغنياء. من خلال الأشجار، استطاع چيريمى أن يرى واجهات المنازل، كلها جديدة، يلمح كلها تقريبا ذات ذوق

١١- روسيكوريا: نسبة إلى جماعة تؤمن أن أسرار فهم الكون قد أنزلت عبر المختارين، وقد جاء الاسم نسبة إلى مؤسسها كريستيان روزيكروتز من القرن الخامس عشر.

عال، فى تقليد أنيق وطريف لبيوت الإقطاعيين على طراز لوتيان [١٢]، وبيوت تشبه التريانون [١٣]، وعدد من البيوت تشبه مونتيتشيلو[١٤]، وتقليد خفيف الظل لبيوت ليكوربوزييه [١٥] المميكنة، وتطبيق مذهل للهاشندا [١٦] المكسيكية، ولمزارع نيوإنجلاند.

دخلا الى اليمين، فكان النخيل العالى على جانبى الطريق، وبدت زهور الميزمبرثيموس حمراء ملتهبة فى ضوء الشمس. بيت وراء التالى، مثل أروقة معرض عالمى. جلوسترشير [١٧] بعد الأندلس ثم تورين [١٨] وأوكساكا [١٩]، دوسلدورف وماساتشوستس.

قال السائق مشيراً إلى ما يشبه البوبولى [٢٠]:

ـ هذا بيت هارولد لويد . وهذا تشارلى تشابلن. وهذا بيكفير.

بدأ الطريق يصعد أفقياً. أشار السائق عبر مساحة كبيرة مظللة، إلى ما يشبه دير اللاما التبتى ، قابعاً فوق الجبل المقابل. قال بفخر وهو يدير عجلة القيادة:

ـ وهنا تسكن جينجر روجرز. نعم، يا سيدى.

١٢– لوتيان: نسبة إلى سير إدوين لاندسير لوتيان (١٨٦٩–١٩٤٤) معمارى إنجليزى شهير وكان أسلوبه كلاسيكيا.

١٣– تريانون: اسم أطلق على قصرين شيدا فوق أرض قصر فرساى بفرنسا، وقد أقيم أقدمهما عام ١٦٨٧ والثانى عام ١٧٦٢ .

١٤– مونتيتشيلو: بيت توماس جيفرسون الرئيس الأمريكى الثالث للولايات المتحدة الأمريكية، صممه جيفرسون نفسه .

١٥– ليكوربوزييه : اسم الشهرة لتشارلز إدوارد جينيرى (١٨٨٧–١٩٦٥) معمارى ورسام وكاتب فرنسى اعتمد فى طراز معماره على المبادىء الحسابية والأشكال الهندسية.

١٦– هاشندا: مبنى كبير على طراز أسبانى، وهو الإسم الذى يطلق على المبنى الرئيسى فى أية مزرعة أسبانية.

١٧– جلوسترشير: مقاطعة إنجليزية.

١٨– تورين: مدينة إيطالية

١٩– أواكساكا: مدينة مكسيكسة.

٢٠– بوبولى: نسبة إلي قصر وحدائق بوبولى أسفل جبل بوبولى فى فلورنسا وكانت تملكه عائلة ميديتشي.

خمسة أو ستة منحنيات أخرى، وأصبحت السيارة فوق قمة الجبل، وقد رقدت المدينة خلفه وأسفله مثل خريطة خضراء منبسطة إلى ما لا نهاية.

برزت الجبال أمامهما وعلى جانبهما ، قمة وراء الأخرى، إلى ما لا نهاية، وكأنها اسكتلندا جافة جرداء تحت زرقة سماء الصحراء.

استدارت السيارة نحو نتوء صخرى ، وهناك ، على القمة التى كانت متوارية حتى تلك اللحظة، ظهرت فجأة لافتة عملاقة مكتوب عليها: بالنيون «بانثيون بيفرلى: المدافن الشخصية»، وفوقها، على القمة، ظهر برج مُقلداً لبرج بيزا المائل ـ إلا أن هذا لم يكن مائلا.

قال الزنجى:

ـ أترى هذا؟ إنه برج القيامة. تكلف مائتى ألف دولار. نعم يا سيدى!

كان يتحدث بتأكيد رصين، وكأنه دفع كل ذلك من جيبه الخاص.

الفصل الثانى

بعد ساعة واحدة كانا قد مضيا فى طريقهما، بعد أن شاهدا كل شيء، كل شيء . الحدائق المنحدرة ، مثل الواحات الخضراء فى صحراء جبلية . الغابات كثيفة الأشجار. المقابر وسط العشب. مقبرة الحيوانات بأحجارها الرخامية التى تشبه لوحة الكرامة والوقاحة للأندسير[1]. كنيسة الشعراء الصغيرة ـ وهى تقليد مصغر لكنيسة الثالوث المقدس بستراتفورد ـ أبون ـ أفون[2]، كاملة كما هى، بما فى ذلك مقبرة شكسبير ذاتها، وصوت موسيقى الأرغن يصدر بشكل آليّ من الورليتزر[3]، يبث الموسيقى عبر مكبرات صوت مخبأة فى كل مكان من المدافن.

خارج غرفة ملابس الكهنة وجدا غرفة العروسة ـ لأننا نتزوج فى الكنيسة الصغيرة، وندفن فيها أيضا ـ وقد تم تحديث غرفة العروسة، كما قال السائق، على طريقة غرفة نورما شيرير فى فيلم مارى أنطوانيت. وبجانب غرفة العروسة، يقوم بهو الرماد مصنوع من الرخام الأسود، مؤديا إلى المحرقة، وبها ثلاثة أفران حديثة للموتى، تشتعل بالزيت، ودائمة الاشتعال فى انتظار أى طارئ.

صاحبتهما موسيقى الورليتزر أينما ذهبا، وسارا إلى برج القيامة، ليشاهداه من الخارج فقط، إذ يضم المكاتب التنفيذية لشركة الساحل الغربى للمدافن. ثم جاء ركن الأطفال بتماثيل بيتر بان [4] والطفل يسوع، ورضع من الألاباستر، يلعبون بأرانب مصنوعة من البرونز، ونافورة مملوءة بزهر الزنبق، مكتوب عليها نافورة موسيقى قوس قزح، تتدفق منها المياه المتدفقة، والأضواء الملونة، وكذلك نغمات الورليتزر

١ـ نسبة للسير إدوين هنرى لاندسير (١٨٧٣-١٨٠٢) رسام اشتهر برسم الحيوانات.
٢ـ المدينة التى ولد ودفن فيها شكسبير.
٣ـ الورليتزر: آلة كبيرة تلعب الموسيقى أوتوماتيكيا.
٤ـ بطل قصة أطفال إنجليزية كتبت عام ١٩٠٤.

التى لا يمكن الهروب منها. وتلتها بسرعة بعد ذلك حديقة الهدوء، وتاج محلّ الصغير، ومدفن العالم القديم ، ثم وصلا إلى الشيء الذى تركه السائق للنهاية ، الدليل المتوج على عظمة مخدومه، وهو البانثيون ذاته.

هل يمكن أن يوجد مثل هذا الشيء؟ بالتأكيد لم يكن هذا محتملا ! لم يكن لبانثيون بيفرلى أى مثيل فى العالم، وكان شيئا يفوق التصور. إن كون هذه الفكرة الآن فى عقل چيريمى لهو دليل لا شك فيه على أنه، بالتأكيد، رأى ذلك الشيء . أغمض عينيه وحاول إعادة كل تفاصيل ذلك الواقع الذى لا يصدقه فى ذاكرته. المعمار الخارجى كان تقليدا لتوتينيسيل لبوكلين[٥]. البهو مستدير. اللوحة – المقلدة عن القبلة لرودان[٦] – كانت مضاءة بأنوار كبيرة وردية. ثم سلالم من الرخام الأسود ، و أعمدة ترتفع لأكثر من سبعة طوابق، بها معارض بلا عدد، شواهد مقابر الواحدة وراء الأخرى. أوعية برونزية وفضية، مثل الكؤوس الرياضية، تحمل فى داخلها رماد الموتى الذين تم إحراقهم. الزجاج المعشّق على كل النوافذ، مرسوما على طراز بيرن چونز[٧]. والكلام محفور على اسطوانات رخامية. انبعث صوت الورليتزر الخافت فى كل طابق. النحت...

هذا ما يصعب تصديقه أكثر من أى شيء آخر. أخذ چيريمى يفكر، وقد أغمض عينيه. كان النحت تقريبا شامل الوجود مثل الورليتزر. تماثيل أينما أدرت عينيك. المئات منها، غالبا تم شراؤها بالجملة، من أحد نحاتى شواهد القبور الضخمة فى كرارا وبيتراسانتانا. فى إيطاليا. كلهن عرايا، كلهن نساء، كلهن

٥- نسبة لأرنولد بوكلين (١٨٢٧-١٩٠١) رسام ألماني من أشهر لوحاته توتنيسيل رسمها عام ١٨٨٣.
٦- رودان: نسبة إلى أغسطس رودان (١٨٤٠-١٩١٧)، وهو نحات فرنسي.
٧- بيرن جونز: (١٨٣٣-١٨٩٨) وهو رسام ومصمم يرسم عادة النساء ويرسم على الزجاج.

يفضن حيوية. كانت تشبه التماثيل التى تتوقع أن تراها فى بهو استقبال بيت دعارة راقٍ، فى ريو دى جانيرو. على إحدى الإسطوانات الرخامية فى مدخل القاعة «آه يا موت ، أين شوكتك؟». بصمت بليغ، أعطت التماثيل إجابتها المطمئِنة. تماثيل فتيات صغيرات، لا يرتدين شيئا سوى أحزمة ضيقة محفورة فى أجسادهن بواقعية برنينى (٨). تماثيل لفتيات جاثمات، وفتيات يدارين العورة باليدين، وشابات مفرودات، ملتويات، مستديرات، منحنيات لربط أحذيتهن، نائمات. فتيات مع حمَامٍ، مع نمور، مع فتيات أخريات، أعينهن مرفوعة لأعلى بشكل ينم عن صحوة الروح. أعلنت الإسطوانات أنا هو القيامة والحياة، الرب راعى فلا يعوزنى شيء. لا شيء. ولا حتى الورليتزر، ولا الفتيات بأحزمتهن المربوطة المشدودة. الموت قد ابتلعه الانتصار – الانتصار ليس بعد للرُوح، بل للجسد، ذلك الجسد الذى تم إطعامه جيداً، الجسد الشاب إلى الأبد، الرياضى إلى ما لا نهاية، الجنسى دون تعب. فى جنة المسلمين، تطول العملية الجنسية إلى ستة قرون، أما فى هذه الجنة المسيحية الجديدة، فقد قام التطور بلا شك بمدها إلى ألف عام، وأضاف إليها فرحة التنيس الأبدى، والجولف الأبدى، والسباحة الأبدية.

فجأة بدأت السيارة فى النزول، فتح چيريمى عينيه مرة أخرى، فرأى أنهما وصلا إلى الطرف الآخر من سلسلة الجبال التى شُيِّد عليها البانثيون.

بدا السهل أسفلهما أصفر ممتداً، تزينه مربعات خضراء منقطة بالمنازل البيضاء، وفى الناحية الأخرى منه، وعلى بعد حوالى خمسة عشر أو عشرين ميلاً، زخرفت الجبال وردية اللون الأفق البعيد.

٨– جيوفانى لورنزو برنينى (١٥٩٨–١٦٨٠) نحات ومعمارى إيطالى ويعتبر مؤسس طراز الباروك الإيطالى.

قال چيريمى:

– ما هذا؟

قال السائق:

– إنه وادى سان فرناندو.

وأشار السائق إلى منتصف المسافة، ثم قال:

– هنا بيت جراوتشو ماركس [٩]. نعم يا سيدى.

أسفل الجبل استدارت السيارة جهة اليسار، ومضت فى طريق واسع فى محازاة شريط من منازل الضواحى، مخترقة السهل الممتد، أسرع السائق فمر أمام چيريمى إعلان وراء إعلان بسرعة، وتتالٍ أريكه كثيرا.

– كابينة البيرة كُل وأرقص فى قصر هونولولو علاج روحانى رىّ بلوك لونج هوت دوجز اشتر بيتك الذى تحلم به ... الآن.

وخلف الإعلانات ظهرت صفوف من شجر المشمش وشجر الجوز، زُرعت بأنماط هندسته. مرت كلها أمامه فى تتالٍ سريع.

أخضر داكن ، وذهبى، مزارع البرتقال الضخمة لامعة فى ضوء الشمس، مساحة كل مزرعة منها حوالى ميل مربع . عن بعد بدت الجبال ترسم رسمها البيانى الصاعد والهابط بلا معنى واضح.

قال السائق بشكل مفاجئ:

– طارزانا.

وكان الاسم معلقا بالفعل عبر الطريق بأحرف بيضاء. استمر السائق قائلا:

– كلية طارزانا.

٩– ممثل أمريكى كوميدى.

أشار إلى مجموعة من القصور الإسبانية المتجمعة حول كنيسة رومانية.

– لقد أهداهم المستر ستويت قاعةً للمحاضرات .

استدارت السيارة إلى اليمين عبر شارع أقل أهمية. مزارع البرسيم والحشائش ذات الرائحة الرطبة، حلت محل مزارع البرتقال لعدة أميال، على الأقل، ثم عادت مرة أخرى إلى الثراء والرفاهية. في ذات الوقت بدأت الجبال على الحافة الشمالية من الوادي تقترب وتميل من ناحية الغرب، وأخذت سلسلة أخرى تظهر من ناحية اليسار. استمرا في السير، التف الطريق فجأة وبدا وكأنهما متجهان نحو نقطة التقاء السلسلتين الجبليتين. وفجأة، من خلال فتحة في المزارع، رأى چيريمي بورديج منظرا غريبا. على ارتفاع نصف ميل من أسفل الجبل، مثل جزيرة على ساحل منحدر، ظهر أمامهما جبل صخري ، يبدو بعضه منحدراً انحداراً شديداً نحو السهل، وفي أعلى قمة الجبل، وكأنه مزروع فيه ، كان القصر – ولكن أي قصرا كان الدونچون [10] مثل ناطحات السحاب، أبراجه الناتئة مندمجة مع السدود الأسفلتية في انسجام. كان الشيء غوطيا [11]، من العصور الوسطى، بارونيا [12] ... بارونيا مرتين. غوطيا بنوع من الغوطية تحاول أن تكون أرقى من الأصل، أكثر عصوراً–وسطية من أي مبنى من القرن الثالث عشر. لأن ذلك ... ذلك الشيء، كما أسماه چيريمي، كان من العصور الوسطى، ليس بسبب ضرورة تاريخية سوقية، مثل كوتسي مثلا أو آلنويتش، [13] ولكن يمكن القول إنها كذلك بشكل أفلاطوني للدعابة الطائشة. كان من العصور الوسطى فقط، كما يمكن لأي

١٠– برج كبير للمراقبة في قصور العصور القديمة.
١١ – غوطيا: طراز معماري يعود إلى عام ١١٥٠ وقد انتهى بمجيء فترة الرينيسانس في القرن الخامس عشر.
١٢– بارونيا: نسبة إلى البارون.
١٣– مدينتان بإنجلترا ، وتعتبر آلنويتش مدينة للتسويق والسياحة وتشتهر بقصرها الكبير الباروني.

معمار حديث أن يكون، وكما يمكن لأفضل المهندسين المحدثين بآلاتهم الحديثة، أن يكونوا من وحي العصور الوسطى.

دُهش چيريمى وسأل السائق، مشيراً إلى الكابوس الجاثم فوق الجبل:

– وما هذا بحق السماء؟

قال السائق مبتسما فى زهو، وكأنه يملكه:

– هذا قصر المستر ستويت. إنه جميل فيما اعتقد.

حجبت مزارع البرتقال الرؤيا مرة أخرى. استند چيريمى بورديج إلى مقعده، وبدأ يفكر بتوجس فى الورطة التى وضع نفسه فيها، عندما قَبِل عرض المستر ستويت. كان المرتب كبيرا، والعمل ذاته، وهو تبويب أوراق الهوبيرك الأسطورية، لا شك عملٌ مبهج. ولكن هذه المدافن، ذلك ال... شيء – هز چيريمى رأسه. كان يعلم بالطبع أن المستر ستويت رجل ثرى، يقتنى اللوحات الفنية، ويمتلك معرضاً فى كاليفورنيا، ولكنه لم يتوقع هذا! لقد صُدِم ذوقه البيوريتانى الرفيع! كان مذهولا من فكرة مقابلة الشخص المسئول عن ارتكاب مثل هذا الفعل. أى تواصل يمكن أن يتم، بينه وبين هذا الشخص؟ أى فكر أو إحساس يمكن أن ينتابه؟ لماذا أرسل فى طلبه هو بالذات؟ لا يمكن أن يكون قد أُعجب بكتاباته. ولكن هل قرأها أصلا؟ هل يعرف حتى وصفا له؟ هل يمكن، مثلا، أن يفهم لماذا أصر على تسمية بيته الأروكارياس دون تغييره؟ هل يمكن أن يقدّر رأيه فى ...

قطع تفكيره المتوجس صوت نفير السيارة يدقه السائق بإصرار. نظر چيريمى أمامه. على بعد خمسين ياردة منهم رأى سيارة فورد عتيقة، تسير ببطء شديد على الطريق، تحمل فوق سقفها بدون رباط آمن، بعض الحقائب، وأدوات منزلية، ملاءات، وابور جاز، أوانى للطبخ، خيمة مطبقة، وحمّاماً من الصفيح. عندما مرا

بجانبها ، لمح چيريمى ثلاثة أطفال بعيونهم المتعبة، تبدو عليهم «ظاهرالأنيميا الحادة، وامرأة تضع ملاءة حول كتفيها، ورجلاً شاحب الوجه، دقنه غير محلوق.

قال السائق بصوت يملأه التهكم :

– عُمّال التراحيل .

سأل چيريمى:

– ماذا؟

قال الزنجي وكأن الكلمة ذاتها توضح المعنى:

– عُمّال التراحيل . أعتقد أن هناك كثيرين منهم من كانساس، لأن السيارة عليها أرقام كانساس. جاءوا ليجمعوا البرتقال أبو صرة.

سأل چيريمى فى دهشة:

– جمع البرتقال؟

قال السائق:

– البرتقال أبو صرة . إنه الموسم، وهو موسم جيد هذا العام فيما أعتقد.

خرجا من بين المزارع وظهر الشيء مرة أخرى، أكبر من ذى قبل. استطاع «چيريمى» أن يدرس تفاصيله أكثر. رأى حائطاً بأبراج كثيرة طوق أسفل الجبل، يليه خط دفاعى آخر مثل قلاع الصليبيين، أما على القمة، فكان المربع ذاته محاطا بمبانٍ إضافية.

بعد «الشيء»، اتجهت عينا چيريمى نحو مجموعة من البنايات فى السهل الممتد، ليست بعيدة عن سفح الجبل. على واجهة إحداهما كتابة بأحرف ذهبية: بيت ستويت للأطفال المرضى. فوقها علمان: أحدهما بالنجوم والخطوط، والآخر علم أبيض ، عليه حرف السين باللون الأحمر الداكن، يرفرف كلاهما فى نسيم

الهواء. تلا ذلك شجيرات الجوز، لم تورق، لتحجب الرؤية مرة أخرى. فى نفس الوقت أوقف السائق السيارة فجأة، وأطفأ الموتور بجانب رجل كان يمشى بخطوة رشيقة ونشطة، على حافة حشيش الطريق .

قال الزنجى:

– هل تريد توصيلة، يا مستر بروبتر؟

أدار الغريب رأسه وابتسم إلى السائق عندما رآه، واقترب من السيارة. كان ضخم الجثة، عريض المنكبين، محنياً بعض الشيء. شعره بنى اللون، زحف عليه بعض الشيب. وجهه، كما لاحظ چيريمى، كان مثل وجوه أحد تلك التماثيل الغوطية المنحوتة لتوضع فى مكان رفيع المستوى، فى الواجهة الغربية . وجه به نتوءات كثيرة وفراغات عميقة، خشنة، تبدو معبرة جدا عن بعد، ولم يكن هذا الوجه بالذات معبراً عن بعد فقط، إنما عن قرب أيضا، إذ به نوع من الخصوصية والقوة والهدوء والطيبة. وجه يعبر عن الطاقة والصلابة.

قال الغريب:

– أهلا يا چورج. شكراً لتوقفك من أجلى.

قال الزنجى بأدب:

– أنا سعيد لرؤيتك يا مستر بروبتر.

ثم استدار فى مقعده وأشار بيده ناحية چيريمى وقال بنبرة رسمية:

– أعرفك بمستر بورديج من إنجلترا. مستر بورديج، هذا مستر بروبتر.

تصافح الرجلان، وبعد تبادل السلامات ركب مستر بروبتر السيارة، واستكمل السائق رحلته. قال بروبتر:

– هل تنوى زيارة مستر ستويت؟

هز چيريمى رأسه بالنفى. إنه هنا للعمل ولفحص بعض المخطوطات – وليكون أكثر دقة – لفحص أوراق الهوبيرك.

أنصت مستر بروبتر باهتمام، وهو يهز رأسه بين الحين والآخر، وعندما أنهى چيريمى كلامه، جلس لحظة فى صمت، وفى النهاية قال:

– خذ مسيحياً عتيقًا وبقايا رواقى، اخلطهما جيدا حسن الأدب، وأضف إليه بعض النقود، واعطه تعليما من طراز قديم، اطهه على نار هادئة لعدة سنوات فى جامعة من الجامعات. النتيجة: عالِم وچنتلمان. على أية حال، فى الدنيا أنواع أسوأ من البشر.

ضحك ضحكة قصيرة ثم أضاف:

– أستطيع أن أدّعى أننى كنت أنا نفسى واحدا من هؤلاء، منذ زمن بعيد.

نظر إليه چيريمى فى تساؤل، وقال:

– ألست أنت وليام بروبتر؟ أنت الذى كتبت «دراسات قصيرة فى الإصلاح المضاد»؟

أومأ الثانى برأسه.

نظر إليه چيريمى فى سعادة ودهشة. هل هذا معقول؟ هذه «الدراسات القصيرة» كانت واحدة من كتبه المفضلة، ونموذجا للنوعية التى يحبها.

– أما عجيبة فعلا.

قالها بصوت عال، مستخدما عبارة صبية المدارس عن قصد، وكأنها بين قوسين. لقد اكتشف أن تأثير هذه الكلمات أثناء الكتابة أوالحديث، كان مذهلا، خاصة حين يستخدمها فى إطار رصين وثقافى، وهى جملة بالعامية، كنوع من السباب والفُحش الطفولى. قال مرة أخرى: علىّ اللعنة. كان يدرك تفاهة كلماته المقصودة، مما جعله يربت على رأسه الصلعاء، ويتنحنح قليلا.

ساد صمت قصير، ثم بدلا من الكلام عن الدراسات القصيرة كما توقع چيريمى، هز مستر برويتر رأسه وقال:

– نعم، معظمنا كذلك.

سأل چيريمى:

– كذلك ماذا؟

أجاب:

– أصابتنا اللعنة بالمعنى السيكولوچى للكلمة.

انتهت أشجار الجوز، وبدا ذلك الشيء مرة أخرى فى مقدمة الرؤيا. أشار مستر برويتر ناحيته، وقال:

– مسكين چو ستويت. تخيل هذه الطاحونة معلقة حول رقبتك. هذا بالطبع بالإضافة إلى كل الطواحين الأخرى المصاحبة لها. نحن محظوظون، ألا تظن ذلك؟ نحن الذين لم تتح لنا الفرصة لنكون أسوأ من علماء من طبقة چنتلمان!

وبعد لحظات صمت، أكمل بابتسامة:

– مسكين چو. إنه ليس أياً منهم. سوف تجده مُتعِباً قليلا، لأنه سيرغب بالطبع فى ممارسة الاستبداد عليك، لمجرد أن العُرف يقول إنك من نوع متفوق على نوعه.

نظر إلى وجه چيريمى بمزيج من التعاطف والاستمتاع، وقال:

– هذا بالإضافة إلى أنك من ذلك النوع من الناس الذى يُشجع الآخرين على اضطهادك، إنك من نوع الضحايا، مع الأسف، بالإضافة لكونك عالماً وچنتلمان.

ابتسم چيريمى بعصبية وبمزيج من الضيق لعدم كياسة الرجل، وكذلك السعادة لصداقته. هز رأسه بالإيجاب. استمر مستر برويتر فى الحديث:

– ربما ... ربما يساعدك قليلا، ألا تبدو كالضحية أمام چو ستويت، لو عرفت السبب الرئيسى وراء رغبته فى ذلك، بهذه الطريقة.

أشار إلى الشيء، و قال:

– كنا معا فى المدرسة، چو وأنا – ولكن فى تلك الأيام لم يسمه أحد چو. كنا نسميه التخين أو التختوخ، لأن چو المسكين كان طفلا بدينا، بل كان فى الواقع الطفل البدين الوحيد فى المدرسة، فى تلك السنوات.

توقف برهة ثم استمر بنبرة مختلفة:

– كنت دائما أتساءل لماذا يضحك الناس على البدين؟ ربما هناك خطأ ما فى البدانة فى حد ذاتها! فمثلا، ليس هناك قديس واحد بدين – إلا بالطبع السير توماس أكيناس [١٤]. ولا أرى سبباً واحداً يفترض أنه قديس حقيقىّ – قديس بالمعنى المتعارف عليه، هو فى الواقع المعنى الصحيح للكلمة. إذا كان فينسينت دى بول[١٥] قديسا، وقد كان كذلك بلا شك، فإن توماس أكيناس لم يكن كذلك. وربما كان كرشه الكبير هو السبب! من يدرى؟ ولكن على أية حال، هذا شيء عارض. إننا نتحدث عن چو ستويت. كما كنت أقول، كان چو المسكين طفلا بدينا، وبما أنه بدين، كان بالتالى صيدا سهلا لنا. ياالله ! كم عاقبناه على قصور غدده! وكم كان رد فعله على هذه العقوبة كارثة! محاولة تعويضية زائدة عن الحد ... ولكن ها قد وصلت إلى بيتى!

نظر خارج نافذة السيارة التى أبطأت ثم توقفت أمام بيت صغير أبيض ، وسط

١٤– توماس أكيناس: قديس إيطالى (١٢٢٥–١٢٧٤) وكان يعرف باسم الطبيب الملائكى.
١٥– فينسينت دى بول: (١٥٨١–١٦٦٠) قس فرنسى منح صفة القداسة عام ١٧٣٧.

خميلة أشجار الكافور.

– سوف نكمل هذا الحوار فى وقت لاحق. ولكن، إذا أهانك، تذكّر حاله أيام الدراسة، فتأسف عليه، ولا تأسف على نفسك.

خرج من السيارة، أغلق الباب، وأشار بيده إلى السائق، ثم هرع نحو بيته الصغير ودخل.

مضت السيارة فى طريقها مرة أخرى . جلس چيريمى ينظر من النافذة وقد انتابه مزيج من الدهشة والثقة بسبب لقائه بكاتب الدراسات القصيرة. اقتربا من الشيء، وفجأة لاحظ ، ولأول مرة ، أن القصر الجبلى كان محاطا بخندق من المياه. على بعد بضعة ياردات من حافة المياه، مرت السيارة بين عامودين يعلوهما أسدان كبيران. يبدو أن السير بينهما يمر عبر شعاع من الضوء، مسلط على خلية كهربائية، إذ بعد مرورهما مباشرة بدأ الجسر المتحرك ينزل ببطء. قبل وصولهما إلى الخندق بخمس ثوان، كان الجسر ممدداً فى مكانه، فمرت السيارة ببطء وتوقفت أمام المدخل الرئيسى للسور الخارجى للقصر. نزل السائق من السيارة وتحدث فى سماعة هاتف مخبأة فى مكان مناسب، معلنا عن قدومهما.

ارتفع الحاجز الحديدى المطلى بالكروم، دون أن يصدر صوتا، وانفتح الباب الثانى المصنوع من الحديد المطلىّ.

عبرا، وبدأت السيارة فى الصعود. كان للصف الثانى من الأسوار باب آخر انفتح آلياً عند اقترابهما. بين الناحية الداخلية للسور الثانى، وسفح الجبل، تم تركيب جسر ضخم للغاية من الأسمنت المسلح، يكاد يتسع لملعب تنس. فى الفراغ المظلم

تحتهم لمح چيريمى شيئا مألوفا بعد لحظات تعرف عليه ، إنه تقليد لكهف لورد[١٦] .

أشار السائق إلى الكهف وقال:

– الآنسة مونسيبل. إنها كاثوليكية، لذلك صنع لها هذا. أما نحن فى عائلتنا، فإننا مشيخيون [١٧] .

– ومن هى الآنسة مونسيبل؟

تردد السائق لحظة ثم قال موضحا:

– إنها امرأة شابة ، صديقة للمستر ستويت.

ثم غيّر الموضوع.

استمرت السيارة فى الصعود. كان الجبل خلف الكهف مرشوقا بحدائق الصبار. صعد الطريق تجاه اليسار، وحلت شجيرات صغيرة محل الصبار. فوق شرفة صغيرة بأناقة زائدة مثل عارضات الأزياء فى مجلة فوج فى عدد مخصص عن أساطير الآلهات، وقفت حورية برونزية لجيامبولونيا [١٨]، تتدفق من صدرها الشهى المطلى ، نافورتان من المياه. بعدها بقليل، وخلف شبكة حديدية، جلس عدد من قردة البابون القرفصاء بين الصخور، بينما البعض الآخر يسير مستعرضا مؤخرته العارية.

استدارت السيارة مرة أخرى وهى لا تزال فى صعود، ثم توقفت أخيرا فوق رصيف أسمنتى مستدير، معلقا فوق حافة سحيقة بكابولى.

مرة أخرى، كالخدم من الطراز القديم، خلع السائق قبعته، ورحب بالسيد الجديد فى بيت المزرعة ، ثم بدأ فى إنزال الحقائب.

١٦– لورد: موقع فى جبال البرانس يحج إليها الحجاج الكاثوليك حيث يزورون كهفًا يقال إن السيدة العذراء ظهرت فيه عام ١٨٥٨ .

١٧– مشيخيون: طائفة إنجيلية مسيحية.

١٨– جيامبولونيا: نسبة إلي النحات الفلورنتيني جين دي بولونيا (١٥٢٩–١٦٠٨) والذي إشتهر بمنحوتاته العارية .

سار چيريمى إلى الدرابزين ونظر إلى أسفل. كانت الأرض تنحدر بشدة نحو مائة قدم، ثم تدخل بحدة إلى دائرة الأسوار الداخلية ، وظهرت أسفلهما الاستحكامات الخارجية. بعدها كان الخندق، وبعده مزارع البرتقال. تمتم فى نفسه بالألمانية :

– «في لمعان قلب البرتقال الذهبي».

ثم قال:

– «إنه معلق فى الخيال، هذا البريق البرتقإلى. مثل الثريا الذهبية فى ليل أخضر».

قرر أن أداء مارفيل [١٩] بالتأكيد أفضل من جوته [٢٠]. وفى ذات الوقت بدا البرتقال أكثر بريقا وذا دلالة أكبر. لم يكن باستطاعة چيريمى استيعاب التجربة المباشرة دون تأمل، فقد كانت التجارب شيئا مقلقا بالنسبة له. إن الحياة تبدو له أكثر أمنا، وذات معنى، فقط عندما يترجمها إلى كلمات بين ضفتى كتاب. كان البرتقال جميلا ومنسقا، ولكن ماذا عن القصر؟ استدار واستند إلى الدرابزين، رفع بصره لأعلى. كان الشيء مشرفا عليه ، وبدا وقحا. لا يمكن أن يتعامل أحد معه بالشعر! لا تشايلد رولاند [٢١]، ولا ملك ثول[٢٢]، ولا مارميون [٢٣]، ولا الليدى شالوت [٢٤]، ولا سير ليولين [٢٥]. كان هذا الأخير ذا حس عبثى رومانسى – سير

١٩– نسبة إلى أندرو مارفل (١٦٢١–١٦٧٨) شاعر إنجليزى.
٢٠– نسبة إلى يوهان وولفجانج جوتة (١٧٤٩–١٨٣٢) الكاتب والشاعر الألمانى الشهير.
٢١– شخصية أسطورية فى قصيدة غنائية أسكتلندية.
٢٢– وثول جزيرة فى البحار الشمالية وقد ذكرها البحار الإغريقى بايثياس فى القرن الرابع، وقد تكون النرويج اليوم.
٢٣– قصيدة كتبها السير والتر سكوت الشاعر الإنجليزى نشرت عام ١٨٠٨ .
٢٤– قصيدة كتبها ألفريد تينيسون عام ١٨٥٢ .
٢٥– شخصية من قصيدة «كريستابل» لكولريدج.

ليولين البارون الثرى الذى يملك ... ماذا؟ كلبة حراسة بدون أسنان! لكن مستر ستويت كان يملك بيواتات وكهفاً مقدساً، وكان من الكروم، وأوراق الهوبيرك، وكان لمستر ستويت مدافن تشبه الملاهى، ودون چون يشبه...

فجأة سمع صوت دوىّ، ورأى الباب المرشّق بالمسامير على الممر الإنجليزى يُفتح للخلف، اندفع من بين ضفتيه، كالإعصار، رجل قصير، بدين بعض الشىء، وجهه أحمر وشعره أبيض كالثلج، واتجه ناحية چيريمى. لم يتغير تعبير وجهه عندما وصل عنده. كأنه يرتدى قناعا مغلقا دون أن يبتسم، مثل الذى يرتديه العمال الأمريكيون عندما يتعاملون مع الغرباء – فمن خلال عدم الإتيان بأية حركة مجاملة، يثبتون أن دولتهم دولة حرة، وأنك لن تتفوق عليهم!

وبما أن چيريمى لم يترب فى دولة حرة، بدأ يبتسم تلقائيا عندما اقترب هذا الشخص مسرعا، والذى خمن أنه غالبا مضيفه ومستخدمه، وعندما قابله الوجه الآخر بصرامة صامدة، انتبه فجأة لابتسامته، ومنتبها أنها ليست فى محلها، وأنها فى الغالب تجعله يبدو كالأحمق، وبارتباك شديد، حاول أن يعدل التعبير على وجهه.

سأل الغريب فى صوت يشبه النباح:

– مستر بورديج؟ سعيد بلقائك. اسمى ستويت.

صافحه، ولكن ظل ينظر إلى وجه چيريمى دون أن يبتسم. أضاف:

– إنك أكبر مما ظننت.

للمرة الثانية هذا الصباح عمل چيريمى حركته الاعتذارية، التى تجعله يبدو مثل عارضة الأزياء، ثم قال:

– ورقة الشجر الذابلة والضعيفة، حينما تسقط فى الوهن، فإننا...

قاطعه ستويت:

- كم عمرك؟

قالها بصوت عال وحاسم، مثل ضابط الشرطة أثناء استجوابه للص مقبوض عليه:

- أربع وخمسون.

هز ستويت رأسه:

- فقط أربع وخمسون. المفروض أن تكون أكثر حيوية في سن الرابعة والخمسين.

ثم أضاف:

- كيف حال حياتك الجنسية؟

ارتبك چيريمي، وحاول أن يضحك في خجل. رَبت على رأسه الصلعاء، ولمعت عيناه، ثم قال بالفرنسية:

- صيفي وربيعي هربا من النافذة...

قاطعه ستويت مقطبا وجهه:

- ماهذا؟ لا فائدة من الحديث معي بلغة أجنبية. لم أتلق أي نوع من التعليم.

ثم فجأة انفجر ضاحكا كالنبّاح وقال:

- أنا رئيس شركة بترول هنا. لديّ ألفا محطة بنزين في كاليفورنيا وحدها، وكل العاملين بها خريجو جامعات!

نبح ثانية بانتصار وأكمل قائلا:

- اذهب وتحدث معهم باللغات الأجنبية.

صمت برهة ثم أضاف دون تسلسل واضح للأفكار:

- وكيلى فى لندن، الذى يشترى لى الأشياء هناك، أعطانى اسمك. قال إنك الرجل المناسب لهذه - ماذا تسميها؟ أنت تعرفها، الأوراق التى اشتريتها هذا الصيف. روباك؟ هوباك؟

قال چيريمى:

- الهوبيرك.

عرف آنذاك بارتياح وكآبة فى آنٍ واحد، أنه كان على حق، فالرجل لم يقرأ كتبه، ولم يسمع حتى بوجوده. ولكن لا بأس، كان عليه أن يتذكر أن ستويت عندما كان صغيرا كان يسمى ذا البطن الچيلى.

قال ستويت بازدراء وعصبية:

- هوبيرك. على أية حال، قال إنك الرجل المناسب.

ثم بدون توقف أضاف:

- ماذا كنت تقول عن حياتك الجنسية حينما بدأت هذا الهراء الأجنبى معى؟

- حاولت الإشارة إلى أن هذا طبيعى بالنسبة لرجل فى سنى.

قال ستويت:

- وماذا تعرف أنت عما هو طبيعى فى سنك؟ اذهب وتحدث مع الدكتور أوبيسبو فى هذا الشأن. لن يكلفك شيئا لأننى أدفع لأوبيسبو مرتبه. إنه طبيب المنزل.

وفجأة غير الموضوع:

- هل تريد أن ترى القصر؟ سوف آخذك فى جولة فيه.

أجاب چيريمى بمشاعر فياضة:

- هذا كرم منك.

ثم أضاف حتى يبدو محاورا مهذبا:

– لقد رأيت مدفنك.

قال ستويت بلهجة شك ما لبثت أن تحولت إلى غضب شديد، فصاح:

– رأيت مدفنى؟ ماذا تقصد بحق الجحيم؟

أخذ چيريمى يتمتم مرتعدا أمام ثورة ستويت، وقال شيئا عن بانثيون بيفرلى، وأنه قد فهم من السائق أن مستر ستويت له اهتمامات استثمارية فى هذه الشركة.

قال الآخر وقد هدأ ت ثورته بعض الشيء، ولكن لم يزل مقطب الوجه:

– آه نعم. ظننت أنك تقصد...

قطع جملته فى منتصفها، تاركا چيريمى يحاول تخمين ما اعتقد ستويت أنه يقصد.

نبح ستويت وقال:

– هيا بنا.

ثم تحرك سريعا وهرع نحو مدخل البيت.

الفصل الثالث

كان عنبر ١٦ من نُزُل ستويت للأطفال المرضى مغلقا بصمت ... صمت، ينبعث ضوء الغسق من بين ستائره المعدنية الرقيقة. لقد كانت فترة راحة الصباح. كان ثلاثة من بين الأطفال الخمسة، أطفال فى عنبر النقاهة نائمين، والرابع جلس يتأمل السقف، واضعا إصبعه فى أنفه. أما الخامسة فأخذت تهمس لعروسة آرية [1] مثلها، ذات شعر مجعد، بينما جلست الممرضة بجوار النافذة، منهمكة فى قراءة العدد الأخير من «الاعترافات الحقيقية».

قرأت:

- «قلبه ترنح، وبصرخة مكتومة احتضننى. ظللنا خمسة أشهر نقاوم هذا بالذات، ولكن الجاذبية بين مشاعرنا كانت أقوى منا. ضغطة فمه على شفتىّ أشعلت جسدى الذى ذاب فيه. همس: جيرمين، لا تجعلينى انتظر أكثر من هذا. ألن تكونى لطيفة معى الآن؟

كان طيبا وقويا ، كما تريد المرأة للرجل أن يكون. شعرت بنفسى أنجرف مع التيار المتصاعد...»

سمعت ضوضاء فى الممر، وانفتح باب العنبر وكأنه إعصار، ودخل أحدهم يجرى إلى الغرفة. نظرت الممرضة فى دهشة وضيق بسبب اندماجها فى ثمن النشوة، وكان رد فعلها الفورى هو الغضب. صاحت بسخط:

- ما هذا؟ .

فجأة رأت المتطفل، فتغير تعبير وجهها وقالت:

- المستر ستويت!

١- آرية: من الجنس الآرى الأبيض.

أنزل الطفل الذى كان يضع إصبعه فى أنفه وعيناه فى السقف، وقد أفاق على الضجيج، وكذلك التفتت الصغيرة بعيداً عن عروستها. صاحا معا:

-العم چو، العم چو.

أفاق باقى الأطفال وصاحوا معا:

- العم چو. العم چو.

فرح المستر ستويت بدفء المقابلة. لاحظ چيريمى أن الوجه الذى كان عبوسا منذ قليل، أصبح مسترخيا ومبتسما. وضع ستويت يديه فوق أذنيه، وكأنه يعترض على الصراخ وصاح:

- ستجعلوننى أصم!

ثم التفت إلى الممرضة وهمس:

- الأطفال المساكين! يجعلوننى أشعر بالرغبة فى البكاء.

أصبح صوته أجش من الانفعال، وهز رأسه وأضاف:

- وعندما أفكر، كم كانوا مرضى...!

ثم دون أن يكمل جملته قال بنبرة أخرى:

- على فكرة...

أشار إلى چيريمى بيده المربعة الكبيرة، وكان چيريمى واقفا بجانب الباب بعد أن تبعه إلى العنبر، تعلو وجهه تعبيرات الإحراج والدهشة.

- هذا مستر... مستر... اللعنة! لقد نسيت اسمك.

قال چيريمى وقد ذكّر نفسه أن اسم ستويت كان ذات يوم: «التخين».

- بورديج.

قال ستويت بتهكم للممرضة:

– بورديج. هذا هو. اسأليه عن التاريخ والأدب. إنه يعرف كل شيء.

اعترض چيريمي بتواضع ،وحاول أن يوضح أن الفترة التي تخصص فيها هي ما بين اختراع أوسيان [٢] وحتى موت كيتس[٣]، ولكن مستر ستويت التفت للأطفال وقال في صوت عالٍ، أغرق اعتراضات الآخر الضعيفة:

– خمّنوا ماذا أحضر لكم العم جو؟

أخذوا يخمّنون. الحلويات. اللبان. البالونات. فئران التجارب. ظل ستويت يهز رأسه بالنفي في انتصار. وأخيرا، عندما تعب الأطفال وأنهكت قوى تخيلاتهم، وضع يده في جيب الجاكيت التويد، وأخرج أولا صفارة، ثم نايا، ثم علبة موسيقية، ثم بوقاً، ثم خشخشاً خشبياً ، ثم مسدساً أوتوماتيكياً.... ولكن عاد فوضع هذا الأخير سريعا في مكانه. قال بعد أن وزّع الأدوات كلها:

– والآن اللعب. هيا معا: واحد، اثنان، ثلاثة.

ثم بدأ في الغناء وهو يحرك ذراعيه:

– هيا نبحر عبر نهر السواني.

وهنا بدأ وجه چيريمي يبدى دهشة أكبر من كل الاندهاشات والمفاجآت السابقة.

أي صباح هذا! الوصول فجراً. الخادم الزنجي. الضاحية الممتدة. بانثيون بيفرلي. الشيء القابع وسط أشجار البرتقال. مقابلته لويليام بروبتر، وهذا الشخص البشع ستويت. ثم داخل القصرنفسه، لوحات روبين [٤] وال جريكو[٥] في المدخل،

٢– أوسيان: إسم لأوسين، محارب فرنسي أسطوري وأيضا شاعر قيل أنه عاش في القرن الثالث.

٣– كيتس: الشاعر الإنجليزي جون كيتس (١٧٩٥–١٨٢١) وقد كتب العديد من القصائد منها القارورة الإغريقية وسايكي.

٤– روبين: نسبة إلى بيتر بول روبين (١٥٧٧–١٦٤٠) رسام فلمنكي، وكان أسلوبه الباروكي مميزاً بالزخرفة العالية.

٥– ال جريكو: وهو الاسم الذي اشتهر به الرسام دومينيكوس ثيوتوكوبولوس المولود في كريت (١٦١٤–١٥٤١) واستقر في توليدو بأسبانيا، واشتهر باستخدامه الألوان الرمادية ليعطي إيحاء دراماتيكيا وصوفيا.

لوحة فيرمير [٦] فى المصعد، نحت رامبرانت [٧] فى المخمرات، لوحة ونترهولتر [٨] فى مخبأ رئيس الخدم. ثم مخدع الآنسة مونسيبل على طراز لويس الخامس عشر، كاملا بلوحات واتو [٩] ولوحتان للانكريت [١٠]، والنافورة فى الفتحة، من طراز الروكوكو [١١]، والآنسة مونسيبل ذاتها، مرتدية كيمونو برتقالى اللون، تشرب الأيس كريم صودا المصنوع من التوت والنعناع وهى تجلس جنب طاولتها الخاصة. لقد تعرف عليها، ولكنه رفض عرضها بالأيس كريم بالفواكه، فى حين جذبه ستويت، دائما بسرعة، دائما وكأنه على جناح إعصار، ليرى باقى معالم القصر. حجرة الضجة مثلا، بأفيالها الجبس الملونة، السيرت. المكتبة المصنوعة من الخشب وقد صممها جرينلينج جيبونز [١٢]. إلا أنها كانت بدون كتب، لأن ستويت لم يحمل نفسه على شراء أى منها. حجرة الطعام الصغيرة، بلوحة فرا أنجيليكو [١٣]، وأثاثها من معرض جناح برايتون. حجرة الطعام الكبيرة والمصنوعة كنموذج مصغر من الداخل لجامع الفاتح بور سيكرى. صالة الرقص بمراياتها وسقفها المتين. الزجاج المرسوم من القرن الثالث عشر فى مرحاض الدور الحادى عشر.

٦- الفرمير: نسبة إلى جان فيرمير (١٦٣٢-١٦٧٥) رسام هولندى إشتهر برسم المناظر الطبيعية الهادئة التى تتناول التكوينات والألوان الدقيقة.

٧- رامبرانت: نسبة إلى رامبرانت فان رى (١٦٠٦-١٦٦٩) رسام ونحات هولندى اشتهر برسم الموضوعات المأخوذة عن الكتاب المقدس والبورتريهات والأشكال المفعمة بالمشاعر الفياضة.

٨- وينترهولتر: نسبة إلى فرانز جزافيير (١٨٠٦-١٨٧٣) رسام ألمانى اشتهر برسم البورتريه للملوك والأمراء.

٩- واتو: نسبة إلى أنطون واتو (١٦٨٤-١٧٢١) رسام فرنسى أشتهر برسم الملابس الغريبة لشخصياته وسميت بعض الأزياء باسمه.

١٠- لانكريت: نسبة إلى نيكولاس لانكريت (١٦٩٠-١٧٥٤) رسام فرنسى تأثر بواتو.

١١- روكوكو: طراز معمارى من القرن الثامن عشر إشتهر بكثرة زخارفه.

١٢- جرينليدج جيبونز: نحات خشب ومثال إنجليزى (١٦٤٨-١٧٢٠) وكان يرسم موتيفات الورود والفاكهة ولوحاته موجودة فى القصور الملكية الإنجليزية.

١٣- فرا أنجيليكو: واسمه الأصلى جيدو دى بيترى (١٣٨٧-١٤٥٥) رسام إيطالى، وكان راهبا دومينيكانيا فكانت رسوماته دينية، ومباشرة وبسيطة، وقد رسم العديد من اللوحات للفاتيكان.

حجرة الصباح، بلوحة بوشر [١٤] المسماة مورفيل الصغيرة، وبمؤخرة مورفيل مرفوعة لأعلى، وهى جالسة فوق منضدة وردية حريرية. ثم الكنيسة الصغيرة، والتى تم استيرادها قطعة قطعة من جوا، كاملة بحجرة الاعتراف المصنوعة من شجر الجوز، والتى كان يستخدمها القديس فرانسوا دى سال [١٥] فى آنسى. وحجرة البلياردو الرياضية. وحمام السباحة الداخلى. وبار الإمبراطورية الثانية، بلوحات إنجــريس [١٦] العاريات. الجيمنازيوم. حجرة قراءة الكريستيان سايِنس، والتى تم إهداؤها إلى ذكرى المسز ستويت. عيادة طبيب الأسنان. الحمّام التركى. ثم النزول مع فيرمير إلى باطن الجبل، ليرى البدروم الذى تم تخزين أوراق الهوبيرك فيه. ثم النزول أكثر وأعمق، إلى الخزائن الكبيرة، ووحدة الكهرباء، والتكييف المركزى، والبئر ومحطة الضخ. ثم الصعود مرة أخرى إلى الدور الأرضى حيث المطابخ، وحيث ظل الطباخ الصينى يستعرض لمستر ستويت إرسالية السلاحف التى وصلت توا من الكاريبى. ثم صعود مرة أخرى إلى الدور الرابع عشر، إلى حجرة النوم التى سيشغلها چيريمى فترة بقائه هنا. ثم الصعود ستة أدوار أخرى إلى مكاتب العمل، حيث أعطى مستر ستويت أوامره للسكرتيرة، وأملى عليها بعض الخطابات، ثم قام ببعض الاتصالات الهاتفية الطويلة مع سماسرته فى امستردام. وعندما أنهى كل هذا، كان الوقت قد حان للذهاب إلى المستشفى.

وفى الوقت نفسه، بالعنبر ١٦، تجمعت بعض الممرضات لمشاهدة العم جو، بشعره الأبيض المتطاير الذى يشبه ستوكوسكى [١٧]، يعزف على الآلة بشكل

١٤– بوشير: نسبة إلى فرانسوا بوشير (١٧٠٣–١٧٧٠) رسام فرنسى اشتهر بالرسم على القماش والرسومات الميثولوجية غير الدقيقة.
١٥– فرانسوا دى سال: مطران كاثوليكى (١٦٢٢–١٥٦٧) وكان كاتبا دينيا، وقد عين مطرانا أكبر لسويسرا.
١٦– إنجريس: نسبة إلى جان أوغسطس درمينيك إنجريس (١٧٨٠–١٨٦٧) رسام كلاسيكى اشتهر برسوماته للموضوعات الميثولوجية والعارية.
١٧– ستوكوسكى: نسبة إلى ليوبولد ستوكوسكى (١٨٨٢–١٩٧٧) وهو مايسترو إنجليزى من أصل بولندى.

جنونى، وبأصوات تعلو وتعلو فى تدرج نشاز، حتى الذروة.

قالت إحداهن بصوت حنون:

– هو نفسه مثل طفل كبير.

وأعلنت أخرى، يبدو عليها الميول الأدبية، إن به شيئاً من روايات ديكنز [١٨]، ثم التفتت إلى چيريمى وسألته:

– ألا تظن ذلك؟

ابتسم بعصبية وهز رأسه بشكل مبهم، دون أن يورط نفسه.

وبأكثر عملية، قالت ثالثة إنها كانت تتمنى لو لديها كاميرا كوداك:

– الكاميرا الخفية لرئيس شركة كونسول للبترول، وكاليفورنيا للأراضى والمعادن، وبنك الباسيفيك، ومدافن الساحل الغربى، إلخ، إلخ...

سردت كل أسماء الشركات الرئيسية التى يمتلكها مستر ستويت، بنوع من السخرية ولكن أيضا بتلذذ واستمتاع، مثلما قد يفعل شخص ما، مقتنعا بشرعية كل هذا، وهو يستعرض مازحاً يعدد ألقاب عظيم من عظماء أسبانيا. قالت بإصرار:

– سوف تدفع لك الجرائد مالا كثيرا من أجل هذا...

ولإثبات صحة ما تقول، أوضحت أن صديقاً لها يعمل فى شركة إعلانات، وهو عليم بكل هذه الأشياء، وقد قال لها فى الأسبوع السابق فقط أن...

وجه المستر ستويت المغلق، وهو خارج من المستشفى، لا يزال مضاء بالرحمة والسعادة.

أخذ يردد لچيريمى:

– اللعب مع هؤلاء الأطفال المساكين يجعلك تشعر بأحاسيس جميلة.

١٨– ديكنز: نسبة إلى تشارلز ديكنز (١٨١٢–١٨٧٠) روائى إنجليزى.

كان السلم الواسع النازل من المستشفى مؤديا إلى بابها الرئيسى، ثم إلى خارجها على الطريق العام. أسفل هذه السلالم كانت سيارة مستر ستويت الكاديلاك الزرقاء فى انتظاره. وقد وقفت خلفها سيارة أخرى أصغر منها، لم تكن هناك من قبل عند وصولهما. عندما لمحها المستر ستويت، امتلأ وجهه المضىء بنظرة شك وريبة. مختطفون، مبتزون – الواحد منا لا يمكن أن يعرف! ذهبت يده فوراً إلى جيب سترته. صاح فى صوت تملأه الثورة حتى إن چيريمى ظن أن الرجل قد أصيب فجأة بالجنون، وقال:

– من هناك؟

وبوجه ضخم ولكنه مستدير كالقمر، تبدو عليه ملامح التعالى، أخرج رجل رأسه من نافذة السيارة، وعلى فمه ابتسامة بينما يلوك عقب سيجار كبير.

قال مستر ستويت:

– آه، هذا أنت يا كلانسى. لماذا لم تقل لى إنك هنا؟

بدا وجهه مظلماً، وكان مقطب الوجه، وظلت عضلة فى وجنته تختلج.

صرخ فى وجه السائق:

– لا أحب سيارات غريبة حولى. هل تسمع يا بيترز؟

لم يكن هذا بالطبع ذنب السائق، ولكن فقط لأنه كان موجودا هناك. أكمل:

– هل تسمع ما أقول؟

ثم فجأة تذكر ما قاله الدكتور أوبيسبو عندما فقد أعصابه معه مرة:

– هل حقا تريد أن تقصر حياتك يا مستر ستويت؟

كان صوت الطبيب باردا، ومستمتعا، ومبتسما بسخرية، ثم أضاف:

– هل أنت مُصرّ على أن تصاب بأزمة قلبية؟ تذكّر: إنها الأزمة الثانية، ولن

تنجو منها هكذا ببساطة فى المرة القادمة. اذا كان الوضع كذلك، إذن فاستمر فى التصرف كما تفعل الآن. استمر استمر.

وبمجهود إرادى ضخم، ابتلع مستر ستويت غضبه، وقال لنفسه:

– الله محبة. لا يوجد موت.

كانت زوجته المتوفاة، برودنس ماكجلادرى ستويت من أتباع كنيسة الكريستيان ساينس. قال ثانية:

– الله محبة.

ثم فكر أنه إذا كف الناس عن أن يثيروا السخط، فقد لا يحتاج لأن يفقد أعصابه بهذه الطريقة. الله محبة. كان كل هذا ذنبهم.

فى تلك الأثناء ترك كلانسى سيارته، وصعد السلم ببطنه الكبيرة المشوهة المعلقة على أرجل طويلة ونحيلة، وظل يبتسم بغموض ويغمز بعينيه.

سأله المستر ستويت:

– ماذا تريد؟

وتمنى فى نفسه لو يكف الرجل عن تلك الحركات بوجهه. ثم أضاف:

– آه، على فكرة، هذا المستر... المستر...

قال چيريمى:

– بورديج.

كان كلانسى سعيداً بلقائه. اليد التى امتدت لچيريمى كانت مبتلة بالعرق ومقززة.

قال كلانسى بصوت غليظ وتآمرى:

– عندى أخبار لك.

غطّى فمه بيده حتى يكون كلامه، ورائحة السيجار، فقط من نصيب المستر ستويت، ثم أضاف:

- هل تذكر تيتلبوم

- الرجل من الإدارة الهندسية بالمدينة؟

هز كلانسى رأسه بالإيجاب، وغمز بعينه مرة أخرى ثم قال بتأكيد شديد:

- واحد من أولادنا.

سأل ستويت:

- ماذا به؟

فبالرغم من كون الله محبة، بدأ صوته يعلو فى غضب متصاعد من جديد.

نظر كلانسى إلى چيريمى بورديج، ثم بطريقة جاى فوكس [١٩] وهو يتحدث مع كاتسبى [٢٠] على مسرح القرية، جذب ذراع مستر ستويت وأبعده بضعة أقدام صعودا على السلم. سأل بدون أن ينتظر إجابة:

- هل تعرف ما قاله لى تيتلبوم اليوم؟

- وكيف لى أن أعرف بحق الشيطان؟

(ولكن لا، الله محبة. لا يوجد موت).

استمر كلانسى فى أدائه التمثيلى دون أن تثنيه علامات الضيق البادية على مستر ستويت، وقال:

- قال لى عن أى شيء اتخذوا القرار...

أخفض صوته أكثر وأضاف:

١٩- جاى فوكس: (١٥٧٠-١٦٠٦) متآمر إنجليزى كان كاثوليكيا متعصبا، ولذلك كان جزءا من مؤامرة لتفجير البرلمان واغتيال الملك جيمس الأول، وقد اعترف تحت وطأة التعذيب بدوره فى المؤامرة وأعدم.

٢٠- كاتسبى: (١٥٧٣-١٦٠٥) متآمر إنجليزى فر هاربا إلى يوركشير بعد القبض على فوكس ولكنه قتل هناك.

– عن وادى سان فيليبى.

– وماذا قرروا؟

قالها مستر ستويت وقد وصل إلى أقصى حدود صبره.

قبل أن يجيبه، أنزل كلانسى السيجار من فمه، وقذفه جانبا، ثم أخرج سيجارا آخر من جيب معطفه، قطع السيلوفان الملفوف حوله، ووضعه، دون أن يشعله، فى المكان الذى كان يشغله السيجار الأول.

قال ببطء شديد، حتى يتأكد أن كل كلمة حصلت على حقها الدراماتيكى:

– لقد قرروا... لقد قرروا أن يُدخلوا مياه المواسير فيها.

تبدل تعبير وجه المستر ستويت من الضيق إلى الاهتمام، وقال:

– يكفى لرى الوادى كله؟

قال كلانسى بهدوء:

– يكفى لرى الوادى كله.

صمت مستر ستويت برهة ثم سأل أخيرا:

– كم لدينا من الوقت؟

– تيتلبوم يعتقد أن الأخبار لن تُعلَن قبل ستة أسابيع.

– ستة أسابيع؟

تردد مستر ستويت لحظة، ثم اتخذ قراره، وقال بنغمة المعتاد على إعطاء الأوامر:

– حسنا. ابدأ فوراً. اذهبْ بنفسك وخذْ بعض الأولاد معك كمشترين مستقلين مهتمين بتربية الماشية، يريدون البدء فى عمل مزرعة مدنية. اشتر كل ما تستطيع. بالمناسبة، ما الثمن؟

– اثنا عشر دولارا للفدان فى المتوسط.

كرر مستر ستويت وراءه:

– اثنا عشر.

ثم فكر أنها سوف ترتفع إلى مائة فور البدء فى تركيب المواسير. قال:

– كم فداناً تظن أنك تستطيع الحصول عليها؟

– حوالى ثلاثين ألفا.

أضاء وجه مستر ستويت بارتياح. قال:

– حسن. هذا حسن جدا. لا تذكر اسمى بالطبع.

ثم أضاف بدون توقف:

– وكم سيكلفنا تيتلبوم؟

ابتسم كلانسى بتهكم:

– سوف أعطيه أربعمائة أو خمسمائة دولار.

– أهذا كل ما فى الأمر؟

هز الآخر رأسه بالإيجاب:

– إن تيتلبوم فى قاع الصفقة، ولا يستطيع أن يطلب أية أسعار كبيرة، إنه بحاجة إلى المال، بحاجة ماسة فعلا.

سأل مستر ستويت الذى كانت له اهتمامات مهنية فى الطبيعة الإنسانية:

– لماذا؟ القمار؟ النساء؟

هز كلانسى رأسه بالنفى وقال موضحا:

– الأطباء. لديه طفل مشلول.

سأل مستر ستويت بنغمة يعلوها الاهتمام الحقيقى:

– مشلول؟ هذا سيء فعلا.

ثم فجأة ، أصابته نوبة كرم مفاجئة، فأشار إلى المستشفى وقال:

– قل له أن يرسل ابنه هنا. أفضل مكان فى الولاية لشلل الأطفال، ولن تكلفه شيئا. ولا سنتا أحمر واحداً.

قال كلانسى بإعجاب:

– يا للجحيم، هذا كرم منك فعلا يا مستر ستويت. هذا كرم منك.

قال مستر ستويت متجها نحو سيارته:

– آه، إنه لا شيء. يسعدنى أن أفعل هذا. تذكر ما قاله الإنجيل عن الأطفال. أنت تعرف، إننى أشعر بسعادة عارمة مع هؤلاء الأطفال المساكين. يجعلوننى أشعر بنوع من الدفء الداخلى.

ربت على صدره وأضاف:

– قل لتيتلبوم أن يرسل طلبا لابنه، ويرسله لى شخصيا. سوف أتأكد من قبول الطلب بنفسى فورا.

دخل السيارة وأغلق الباب وراءه، ثم لمح چيريمى، ففتحه ثانية دون كلمة. دخل چيريمى متمتما بعض عبارات الاعتذار. صفق مستر ستويت الباب مرة أخرى وأنزل زجاج النافذة ونظر من السيارة، وقال:

– إلى اللقاء. ولا تضيع الوقت فى مسألة وادى سان فيليبى هذه. افعل ما فى وسعك يا كلانسى وسوف أعطيك عشرة فى المائة من كل فدان فوق العشرين ألفا.

أغلق زجاج النافذة وأشار للسائق أن يمضى. خرجت السيارة من الطريق الخاص واتجهت ناحية القصر. مستندا إلى الوراء، ظل مستر ستويت يفكر فى هؤلاء الأطفال المساكين، وفى الأموال التى سيكسبها من مسألة وادى سان فيليبى

هذه. قال مرة أخرى: الله محبة، ثم بقناعة آنية وحقيقية همس بصوت سمعه رفيقه، وقال الله محبة. شعر چيريمى بعدم الارتياح أكثر من ذى قبل.

عندما اقتربت السيارة الكاديلاك الزرقاء، نزل الجسر، وصعد الباب الحديدى، وانفتح الباب الداخلى ليمروا منه. فى ملعب التنس الإسفلتى، كان أبناء الطباخ الصينى يلعبون بالمزالج، وفى الكهف المقدس، من تحتهم كان بعض البنائين منهمكين فى العمل. عندما رآهم مستر ستويت صاح للسائق أن يتوقف، وقال لچيريمى وهو ينزل من السيارة:

– إنهم يقيمون ضريحا لبعض الراهبات.

سأل چيريمى فى دهشة:

– بعض الراهبات؟

هز مستر ستويت رأسه بالإيجاب، وأوضح أن وكلاءه الإسبانيين قاموا بشراء بعض الأعمال النحتية وأعمال الحديد من كنيسةٍ فى ديرٍ ما، كان قد هدمه بعض الثوار الفوضويين فى بداية الحرب الأهلية هناك. ثم أضاف:

– وقد أرسلوا بعض الراهبات أيضا. كن محنطات فيما أعتقد. أو ربما جففتهن الشمس، لا أعلم. على أية حال هن ها هنا. من حسن الحظ لدى مكان جميل أضعهن فيه.

أشار بيده إلى النصب التذكارى الذى يشيده البناءون فى الناحية الجنوبية لحائط الكهف. على الرف الرخامى، وفوق التابوت الحجرى الرومانى الكبير، وقف تمثال من الحجر لرجل وامرأة راكعين، كلاهما يرتدى طوق الرقبة المكشكش، وخلفهما، فى طابور من ثلاثة أشخاص وقفت بناتهما، من سن الشباب إلى الطفولة. بدأ چيريمى يقرأ باللاتينية:

– «هنا يرقد كارلوس فرانسيسكاس بيلز،...»

قاطعه مستر ستويت قائلا:

– اشتريتها من إنجلترا منذ عامين.

ثم التفت إلى العمال وقال:

– متى ستنتهون يا شباب؟

– غدا فى المساء. ربما الليلة.

قال مستر ستويت:

– هذا كل ما كنت أريد معرفته.

ثم استدار قائلا وهو يتجه نحو السيارة:

– لابد أن أُخرج هؤلاء الراهبات من المخزن.

أكملت السيارة مسيرتها. وقف الطائر الطنان، بأجنحته التى تبدو مختفية من شدة سرعتها، وأخذ يشرب من المياه المنهمرة من نهد الحورية الأيسر. من وراء السياج، جاءهم صوت القردة العالى، فى صراعها وجماعها. أغمض مستر ستويت عينيه وأخذ يكرر: الله محبة، محاولا عن قصد إطالة حالة السعادة المبهجة التى أحس بها عند هؤلاء الأطفال المساكين، وكذلك بسبب الأخبار السعيدة التى أتى بها كلانسى.

– الله محبة. لا يوجد موت.

مثل الإحساس بعد شرب الويسكى، انتظر حتى يشعر بهذا الدفء الداخلى، والذى كان يشعر به من قبل كلما قال هذه الكلمات. ولكن على العكس تماما، وكأن هناك عدواً ملازماً له قرر أن يداعبه بنكتة سخيفة، وجد نفسه يفكر فى جثث الراهبات التى أصبحت متجلدة ومنكمشة، ثم فكر فى جثته هو، وفى يوم الحساب

وفي النار. برودنس ماكجلادرى ستويت كانت تتبع كنيسة الكريستيان ساينس، وأبوه، جوزيف يادج ستويت يتبع الساندیمانيا [٢١]، بينما ليتيشيا مورجان جدته عن أمه، عاشت وماتت كأخت من بليموث [٢٢]. فوق سريره في حجرته على سطح منزله بالمزرعة في ناشفيل، بولاية تينيسى، كتب باللون البرتقالي فوق خلفية سوداء: شيء مخيف أن تقع في يد الإله الحي.

أخذ مستر ستويت يفكر بإصرار: الله محبة. لا يوجد موت. ولكن بالنسبة لخطاة مثله، فإن الدود فقط هو الذي لا يموت.

كان أوبيسبو دائما يقول له:

– إذا كنت تخاف الموت، فسوف تموت بالتأكيد. الخوف مثل السم، وعلى فكرة، ليس سما بطيئا.

في محاولة أخرى، وبمجهود كبير، بدأ مستر ستويت يصفر. كان النغم لأغنية: أغزل القش في ضوء القمر، وطفلي في يدى. ولكن الوجه الذي رآه چيريمي بورديج، كان لرجل محكوم عليه بالإعدام، فأبعد وجهه بعيدا، وكأنه كشف سرا عظيما ومخيفا.

تمتم السائق لنفسه وهو ينظر خلف مخدومه الخارج من السيارة :

– عجوز بشع.

سار مستر ستويت مسرعا في صمت يتبعه چيريمي، ومرا عبر البوابة الغوطية، ثم عبرا بهواً رومانياً ذا أعمدة كبيرة مثل كنيسة العذراء في درهام. كانت قبعته لا تزال مشدودة لما فوق عينيه، ودخل القاعة الكبيرة التي يغلفها ضوء الغسق معطيا إيحاء بالكاتدرائيات.

٢١– ساندیمانيان: طائفة مسيحية مهمشة وقد أسسها جون جلاس في القرن الثامن عشر وكان من أتباعه روبرت ساندیمان الذي سميت الطائفة باسمه فيما بعد، وقد كانوا يمتنعون عن الطعام غير المصفي من الدماء تماما.

٢٢– بليموث: مجموعة دينية ظهرت في بليموث بأمريكا عام ١٨٣٠

دوت أصوات وقع أقدامهما إلى ارتفاع حوالى مائة قدم فى القبو. فوق الحائط، علقت بعض دروع القتال الفولاذية، وكأنها أشباح حديدية بلا حراك. فوقهما، فى ترفع خافت، كانت اللوحات الكبيرة المطرزة بالنسيج الصوفى من القرن الخامس عشر، تفتح النافذة على عالم خيالى خصب. فى جانب من جوانب الحجرة التى تشبه الكهف، كانت صورة آل جريكو «صلب القديس بطرس» مضاءة بكشافات متوارية، لامعة فى الظلام مثل الرؤيا الجميلة ولكنها غير مفهومة وغريبة جدا. فى الجانب الآخر، كانت لوحة هيلين فورمون معلقة، تبدو المرأة فيها بكامل جسدها، لا ترتدى شيئا سوى قلنسوة من فرو الدببة. نظر چيريمى من الواحدة إلى الأخرى – من الإكتوبلازم إلى القديس المقلوب، عودة إلى البشرة الصريحة البدينة، والعضلات الواضحة التى كان يحب روبنز أن يراها ويلمسها. من ألوان البشرة الصلصالية واللون القرمزى الذى يبدو من العالم الآخر، يظللها اللون الأسود الشفاف، إلى ألوان القشدة والألوان الوردية الدافئة، والأزرق والأخضر اللؤلؤى للعرى الفلمنكى. رمزان يلمعان فى قوة غير مفهومة، تعبر عن – عن ماذا؟ عن ماذا؟ هذا بالطبع هو السؤال.

لم يلتفت مستر ستويت لأى من كنوزه، بل مر خلال القاعة وهو يلعن فى داخله المرحومة زوجته لأنها جعلته يفكر فى الموت عبر إصرارها على أنه لا يوجد موت.

كان باب المصعد فى فجوة بين عامودين. فتحه مستر ستويت وأضاء نورا أفصح عن سيدة هولندية ترتدى الحرير الأزرق، تجلس بجانب الهاريسيكورد. تجلس، كما ظل چيريمى يفكر، فى قلب المعادلة، فى عالم حيث الجمال والمنطق، الرسم والهندسة التحليلية، وكلاهما أصبح شيئا واحدا. لكن بأى هدف؟ للتعبير،

مجازا، عن أية حقائق حول طبيعة الأشياء؟ مرة أخرى كان هذا هو السؤال. كلما تطرق الحديث إلى الفنون، وجب دائما طرح هذا السؤال.

قال مستر ستويت بلهجة آمرة:

– أغلق الباب.

وعندما فعل، أضاف:

– سوف نسبح قليلا قبل تناول الغداء.

ضغط على أعلى زر في صف الأزرار الطويل.

الفصل الرابع

أكثر من اثنتى عشرة عائلة من عمال التراحيل كانوا يعملون فى مزرعة البرتقال، حينما وصل الرجل من كانساس ومعه زوجته وأطفاله الثلاثة، وكلبه أصفر اللون. هرعوا معا نحو صف الأشجار الذى كلفهم به رئيس العمال. كانوا يسيرون فى صمت، حيث لم يكن لديهم ما يقولونه لبعضهم البعض، ولم تكن لديهم حتى الطاقة ليضيعوها فى الكلمات.

كان الرجل يفكر أنه باقٍ فقط نصف يوم. أربع ساعات أخرى من العمل. فى نهاية اليوم يُعتبرون محظوظين لو كسبوا خمسةً وسبعين سنتاً وهذا الإطار الأمامى للسيارة لن يتحمل أكثر من هذا. إذا كانوا سيذهبون إلى فريسنو [1] ثم إلى ساليناس [2] فيُفضل أن يأتوا بواحدة أفضل من هذه. ولكن حتى أسوأ وأقدم إطار نصف عمر، سيكلف مالاً. والمال هو الطعام. وكم كانوا يأكلون! أخذ يفكر بامتعاض مفاجئ. لو كان بمفرده، لو لم يكن مضطرا لسحب الأطفال وميلى معه، لربما استطاع أن يؤجر مكانا صغيرا فى مكان ما، بجانب الشارع الرئيسى حتى يستطيع أن يكسب أكثر من خلال بيع البيض والفواكه والأشياء الأخرى لمن يمرون من هناك بسياراتهم. ربما يبيع بأقل من أسعار الأسواق، ومع ذلك يكسب كثيرا. وقد يستطيع أن يشترى بقرة أو خنزيرين - ثم يجد فتاة - بدينة، لأنه يحبهن بدينات بعض الشىء: بدينات وصغيرات وبهن...

بدأت زوجته تسعل مرة أخرى. تحطم حلمه. كم كانوا يأكلون! أكثر من قيمتهم. ثلاثة أطفال بدون أى طاقة، وميلى تمرض منذ نصف الوقت حتى إنه

١- فريسنو: مدينة تقع جنوب شرق كاليفورنيا تشتهر بمزارع العنب.
٢- ساليناس: مدينة غرب كاليفورنيا تقع نهاية وادى ساليناس جنوب سان فرانسيسكو.

عليك أن تقوم بعملها بالإضافة إلى عملك أنت!

توقف الكلب ليشمشم فى عامود. قفز الرجل من كانساس خطوتين للأمام، بقوة مفاجئة، ركل الكلب فى صدره وصرخ:

– أيها الكلب اللعين! ابعدْ عن الطريق.

عوى الكلب وهو يجرى. التفت الرجل من كانساس إلى الأطفال آملا أن يرى نظرات عدم الرضاء أو الإشفاق على وجوههم. ولكن الأطفال تعلموا الدرس من قبل، وتعلموا ألا يعطوه الفرصة ليتجه من الكلب إليهم. تحت شعورهم المنكوشة كانت وجوههم الثلاثة شاحبة، وخاوية وفارغة.

استدار الرجل بخيبة أمل، وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة معناها أنه سوف يضربهم بالحزام بأن لم يحترسوا أكثر. لم تلتفت الأم. كانت تشعر بالمرض والإجهاد حتى إنها لم تقدر أن تفعل أى شىء سوى السير والنظر أمامها. ساد الصمت مرة أخرى على المجموعة.

فجأة صرخت صغرى الأطفال وقالت بدهشة:

– انظروا هناك!

أشارت بيدها. كان القصر هائلا أمامهم. من قمة أعلى برج فيه، صعدت طبقة وراء الأخرى ،فى تشكيل عنكبوتى، إلى ارتفاع عشرين أو ثلاثين قدمًا فوق الحاجز. فوق كل هذه الطبقات وقف جسم بشرىّ صغير ، يبدو أسود أمام الخلفية اللامعة للسماء. وقفز برأسه، فاردا ذراعيه، ليختفى خلف أسوار القلعة، بينما الأطفال ترقبه. صياح الأطفال المندهش أعطى للرجل من كانساس المبرر الذى حرموه منه منذ لحظات، فاستدار إليهم فى حنق وصرخ:

– كفوا عن هذا الصياح.

ثم هرع نحوهم وأخذ يضربهم – صفعة على جانب كل رأس منهم. بمجهود ضخم، رفعت المرأة نفسها من هوة الإرهاق السحيقة التى سقطت فيها، توقفت، واستدارت ثم صاحت معترضة، وهى تمسك بذراع زوجها. دفعها بعيدا عنه بعنف فكادت تسقط على الأرض. صرخ فيها:

– أنت أسوأ من الأطفال. لا تفعلين شيئا سوى البقاء حولى والأكل. لا تساوين شيئا. أقول لك لقد سئمت منكم جميعا. سئمت. اخرسى. هل تسمعين؟

استدار بعيدا وبدأ يشعر بارتياح كبير الآن بسبب انفجاره هذا، فاستمر فى السير بسرعة بين صفوف أشجارالبرتقال الكثيفة، مدركا أن زوجته لن تتحمل هذه السرعة.

من حمّام السباحة أعلى الدون چون، كان المنظر مذهلا. عليك فقط، أثناء السباحة فوق المياه الشفافة، أن تدير رأسك لترى الأشجار المتتالية فى السهول والجبال، من خلال أسوار القصر، كانت ألوانها متفاوتة بين الأخضر والأصفر الداكن، والبنفسج والأزرق الباهت. نسبح، ننظر، نفكر... ولكن هذا فقط لو كنا چيريمى بورديج الذى يعيش فى هذه القلعة فى الإيبيسيشيديون [٣]، هذه القلعة بحجراتها التى

«تنظر نحو الهواء الشرقى الذهبى،

وتعيش مع الرياح الحية...»

ولكن الوضع ليس كذلك لو كنت الآنسة فيرجينيا مونسيبل. لم تسبح فيرجينيا، أو تنظر أو تفكر فى إيبيسيشيديون، لقد أخذت رشفة أخرى من الويسكى والصودا، وصعدت إلى أعلى درجة فى برج القفز، وفتحت ذراعيها، وقفزت، ثم سبحت تحت

٣– إيبيسيشيديون: وهى اسم قصيدة كتبها بيرسى بيش شيللى نشرت عام ١٨٢١ وقد كتبها إلى سيدة اسمها إيميليا فيفانى، ومعنى الكلمة الحرفى هو روح فوق روح.

الماء،وخرجت فجأة من تحت بورديج الذى لم يكن متنبها لها، وأمسكته من حزام لباس البحر، وجذبته أسفل المياه.

قالت لاهثة وهي تصعد مرة أخرى:

- أنت تستحق هذا، خاصة وأنت مُلقىً هناك بدون حراك وكأنك بوذا كبير وعبيط.

ابتسمت له بتهكم، وبروح دعابة عالية.

عجيبٌ حقا أمر هؤلاء الناس الذين يأتى بهم العم چو إلى القصر. رجل إنجليزى يرتدى نظارة بعدسة واحدة ليفحص الدروع، ورجل آخر يتلعثم فى الكلام، لينظف اللوحات، ورجل ثالث لا يتحدث سوى الألمانية ليفحص بعض الأوانى القديمة الغبية. ثم اليوم، هذا الرجل الإنجليزى الذى يبعث على الضحك، بوجهه الأرنبى، وصوته الذى يشبه أغنية الأغانى بدون كلمات على الساكسوفون.

رفّ چيريمى بورديج بعينيه ليذيل المياه من عليهما، ونظر إليها بعينين شبه مغمضتين، إذ كان لا يرى جيدا بدون نظارته. رأى وجهها الضاحك الصغير قريبا جدا من وجهه، وجسدها يهتز تحت الماء لتبقى سابحة. لم يكن شيئا مألوفا بالنسبة له أن يكون قريبا هكذا من أى شخص. بلع ضيقه وابتسم لها.

مدت الآنسة مونسيبل يدها، وربتت على صلعة چيريمى بورديج قائلة:

- كم تلمع! تماما مثل كُرات البلياردو. أعرف الآن ماذا سأسميك: العاج. مع السلامة يا عاج.

استدارت وسبحت نحو السلم وخرجت. سارت نحو مائدة عليها بعض الزجاجات والأكواب، وارتشفت باقى الويسكى والصودا، ثم جلست على حافة الأريكة المستلقى عليها مستر ستويت، مرتديا نظارته السوداء ولباس البحر، ليأخذ

حمّام شمس.

قالت بنبرة مزاح ومحبة:

– يا عم چو. هل تشعر بالراحة؟

أجاب:

– نعم، أشعر بالراحة يا بيبى.

وكان هذا حقيقيا. أذابت الشمس تنبؤاته الكئيبة، وعاد مرة أخرى ليعيشِ فى الحاضر، هذا الحاضر الجميل الذى يعطى السعادة للأطفال المرضى، والذى يُوجد فيه أمثال تيتلبوم المستعدون لأخذ خمسمائة دولار ليعطوا معلومات تساوى، على الأقل، مليوناً، الحاضر الذى فيه السماء زرقاء، والشمس تدغدغ بطنه بدفئها، الحاضر الذى يفيق فيه ليرى فيرجينيا تبتسم له، وكأنها بالفعل تهتم بالعم چو، وترعاه، ليس فقط لأنه العم – لا يا سيدى – ولكن لأن فى النهاية أى رجل منا عجوز بقدر ما يشعر وبقدر ما يتصرف. وحيثما كانت البيبى، كم كان يشعر بالشباب! كم يتصرف كالشباب! وابتسم فى انتصار ورضاء عن النفس ثم قال بصوت عال:

– إذا يا بيبى...

وضع يده المربعة، بأصابعه السمينة فوق ركبة الفتاة الشابة.

نظرت إليه الآنسة مونسيبل بنظرة فاضحة، فيها مزيج من السرية والتواطؤ، بعينين نصف مغلقتين، ثم ضحكت ضحكة قصيرة ومدت ذراعيها لأعلى. قالت وهى تغلق عينيها كلية وتُنزل ذراعيها لتشبك يديها خلف رقبتها:

– أليست الشمس رائعة؟

شدت كتفيها للخلف. هذا الوضع جعل صدرها يرتفع لأعلى، وحدد استدارات

بطنها، والاستدارة العكسية لمؤخرتها - كان وضعا يشبه ذلك الذى يمكن أن تتعلمه الحريم فى سراى السلطان عن طريق المخصيين، ليقدموهن للمرة الأولى للسلطان. لاحظ چيريمى ذلك وهو ينظر فى اتجاهها، وتذكر هذا التمثال غير المناسب، الموجود فى الطابق الثالث من بانثيون بيفرلى.

نظر إليها مستر ستويت من خلال نظارته الغامقة، نظرة تمزج بين الشهوة والأبوة. كانت فيرجينيا، هى البيبى، ولكنها كانت كذلك بالمعنى المجازى الحرفى للكلمة. كانت مشاعره تجاهها خليطاً من الحب الأبوى والشهوة العنيفة.

ظل ينظر إليها. بدا جسدها بنيا ، بالمقارنة بلباس البحر الذى كانت ترتديه ، منساباً فى منحنيات ناعمة ومتصلة، ذات ثلاثة أبعاد، بدون مجهود أو انتقالات حادة. نظر مستر ستويت إلى شعرها البنى الفاتح وأنزل بصره إلى الجبهة المستديرة، ثم إلى العينين الواسعتين ، ثم إلى الأنف الصغير الوقح، ثم إلى الفم. هذا الفم! كان أبرز ملامحها. شفتها العليا القصيرة هى السبب فى هذا التعبير الطفولى البرىء على وجهها. كان هذا التعبير هو الدائم معها، فى كل أمزجتها المختلفة، وكان بارزا - بغض النظر عما كانت تفعله - سواء كانت تروى القصص الوضيعة، أو تتجاذب أطراف الحديث مع المطران، سواء تتناول الشاى فى باسادينا، أو تتقرب للشباب لتستمتع بما تسميه إليام يام، أو تحضر القداس.

زمنياً، كانت الآنسة مونسيبال شابة صغيرة السن، ذات الاثنين والعشرين ربيعا، إلا أن هذه الشفة العليا القصيرة، فى جميع الأحوال، تجعلها وكأنها لم تصل بعد إلى سن المراهقة ، ولا حتى سن الرشد. أما بالنسبة لمستر ستويت، والذى كان فى الستين من عمره، فقد كان كل ذلك يدير رأسه حتى الثمالة، خاصة هذا التضاد الغريب بين الطفولة والنضج ، وبين مظهر البراءة وواقع التجربة. لم تكن المسألة

أن فيرجينيا كانت تمثل نوعين من البيبى، ولكن لأنها كانت النوعين بشكل موضوعى، وفى حد ذاتها.

يا لها من مخلوق شهى! اليد التى كانت ساكنة فوق ركبتها حتى الآن، أغلقت عليها. بين الإبهام العريض والأصابع القوية، أية نعومة، وأية مرونة وافرة!

قال:

– جينى. بيبى!

فتحت البيبى عينيها الواسعتين الزرقاوين وأنزلت ذراعيها إلى جانبها. ارتخى الظهر المشدود، ونزل الصدر لأسفل وللأمام، وكأنه مخلوق حىّ ناعم ، يغرق فى سَكِينْة واسترخاء. ابتسمت له:

– لماذا قرصتنى يا عم چو؟

قال العم فى نبرة تشبه شاعرية آكلى لحوم البشر:

– أود أن آكلك.

قالت:

– أنا قوية.

قهقه مسترستويت بمبالغة وقال:

– فتاة قوية وصغيرة!

انحنت عليه الفتاة القوية الصغيرة وقبلته.

كان چيريمى بورديج ينظر إلى المنظر الجميل، يُكمل تلاوته الصامتة للإيبيسيشيديون، واستدار فى هذه اللحظة ناحية الأريكة، شعر بالخجل الشديد بسبب ما رآه لدرجة أنه بدأ يغرق. أخذ يلوح ذراعيه بعنف ليمنع نفسه من الغرق، واستدار فى المياه وسبح مسرعا نحو السلم وخرج، ثم دون أن ينتظر ليجفف نفسه،

هرع نحو المصعد. نظر إلى الفيرمير وقال لنفسه فى غيظ:

- حقا! حقا!

قال مستر ستويت عندما اعتدلت البيبى فى جلستها:

- كان لدى بعض الأعمال فى الصباح.

- أية أعمال؟

أجاب:

- أعمال جيدة. سوف تدر عليَّ المال الوفير. مال حقيقى.

- كم؟

قال بحذر مقللا توقعاته عن عمد:

- ربما نصف مليون، ربما مليون. قد يكون أكثر.

قالت:

- يا عم چو، أعتقد أنك رائع!

بدت فى صوتها نبرة صدق حقيقية. كانت تعتقد بالفعل أنه رائع، إذ فى العالم الذى تعيش فيه، فإنه من المُسلَّم به أن الرجل الذى يستطيع أن يحصل على مليون دولار، لابد بالضرورة أن يكون رائعا. الأهل، الأصدقاء، المدرسون، الجرائد، الراديو، الإعلانات - كلها أعلنت بالإجماع، صراحة وضمنا، أنه رائع. ثم إلى جانب كل هذا، كانت فيرچينيا بالفعل تحب عمها چو. كان يسعدها وكانت ممنونة له. ثم إلى جانب كل هذا، كانت تحب الآخرين كلما استطاعت ذلك. كانت تحب أن تسعدهم، إذ أن إسعادهم يشعرها بالارتياح، حتى وإن كانوا مسنين مثل العم چو، وحتى لو كانت بعض الوسائل المطلوب إسعادهم بها، غير شهية على الإطلاق. أخذت تكرر:

– أعتقد أنك رائع.

إعجابها به أعطاه الرضاء الكامل، فقال بتواضع غير حقيقى، ليجتر منها أكثر:

– إنه أمر سهل للغاية.

أعطته فيرجينيا ما أراد فقالت:

– من السهل فعلا ! أقول لك إنك رائع. إذن اسكت.

مبهورا بها، أخذ مستر ستويت حفنة أخرى من اللحم وقرصها فى مودة، ثم قال:

– سوف أعطيك هدية إذا تمت الصفقة. ماذا تريدين يا بيبى.

قالت:

– ماذا أريد؟ لا أريد شيئا.

عدم اهتمامها كان حقيقيا. لم ترغب فى الأشياء هكذا أبدا، مع سبق الإصرار. فى لحظة ما ينتابها شعور بالرغبة فى الأشياء، أيس كريم صودا مثلا، بعض ال«يام يام»، معطف من فرو المنك رأته فى نافذة محل. فى مثل تلك الأوقات كانت تريد أشياء، وتريدها بشدة، ولا تستطيع الانتظار. أما بالنسبة للرغبات طويلة المدى، الرغبات التى لابد أن تفكر فيها مقدما – فلا، لم تكن لها رغبات هكذا. إن أفضل فترات حياتها كانت تلك التى تقضيها فى الاستمتاع بلحظات السعادة الآنية المتعاقبة، والتى كانت تشكل حياتها كلها. وإذا اضطرتها الظروف أن تخرج خارج هذا العالم الأبدى اللاعقلانى، إلى العالم الحالى، فستجد نفسها فى عالم صغير، أقصى مداه أسبوع أو اثنين فى المستقبل. حتى عندما كانت فتاة استعراض، تكسب ثمانية عشر دولارا فى الأسبوع، كان الاهتمام بالمال أو بالأمان صعبًا عليها ، أو حتى التفكير فى ما يمكن أن يحدث لها لو أنها أصيبت فى حادثة، ولم تعد قادرة

على الكشف عن ساقيها. ثم جاء العم چو، وكان كل شيء في متناول يدها، وكأنه زُرع على الشجر - شجر حمّام السباحة، شجر الكوكتيل، شجر الشياباريللى[٤]. كل ما عليها فقط هو أن تمد يدها، ليكون كل شيء متاحا، مثل التفاح في المزرعة في بيتها بأوريجون. إذن أين دور الهدايا في كل هذا؟ لماذا تريد أي شيء؟ إلى جانب ذلك، كان من الطبيعي أن يشعر العم چو بسعادة بالغة لأنها لا تريد شيئا، وكانت تحب أن تُشعره بالسعادة لأنها هي نفسها سعيدة.

- أقول لك يا عم چو، لا أريد شيئا.

جاءهما صوت غريب وقريب منهما جدا وقال:

- لا تريدين شيئا حقا؟ لكن أنا أريد.

ظهر الدكتور سيجموند أوبيسبو بحركة سريعة بجانب الأريكة، بشعره الأسود اللامع كشعر الشاميين، وأضاف :

- لكي أكون دقيقا، أريد أن أحقن نصف ملي مربع من التستوستيرون في مؤخرة هذا الرجل العظيم، إذن، اذهبي يا ملاكي.

قالها لفيرچينيا بنبرة تهكم وابتسامة رغبة فاضحة، ثم أضاف هوب وربت على كتفها، وبعد أن قامت لتعطيه مكانها، ربت على مؤخرتها الحريرية البيضاء.

استدارت فيرچينيا نحوه بحدة لتطلب منه أن يكف عن الاستظراف، ولكن عندما حركت بصرها من جردل اللحم ذي الشعر الكثيف، الذي هو مستر ستويت، إلى وجه الآخر الجميل وهو ينظر إليها بمزيج من السخرية والرغبة والتملق، عدلت عن ذلك، وبدلا من أن تقول له بصوت عال أنه تخطى حدوده، عملت حركة بوجهها وأخرجت لسانها له. ما بدأ إذنْ بتوبيخ، انتهى برضوخ لوقاحته، كنوع من

٤- شياباريللي: نسبة إلى إلسا شياباريللي (١٨٩٠-١٩٧٣) وهي فرنسية إيطالية صاحبة بيوت أزياء باسمها.

التواطؤ مع المجرم أوخيانة ما للعم چو. مسكين العم چو. أحست بعاطفة جياشة من الشفقة تجاه الرجل العجوز. مرت لحظات شعرت فيها بالخجل من نفسها. المشكلة بالطبع هى أن الدكتور أوبيسبو جذاب حقا، وكان مثيرا للضحك. تحب إعجابه بها، وتحب أن تغازله لترى كيف سيتصرف. كانت تستمتع حتى بالثورة فى وجهه عندما يفعل أشياء غير مهذبة، وقد كان يفعل ذلك كل الوقت.

قالت فى محاولة لجرحه:

– أعتقد أنك تظن أنك دوجلاس فيربانكس(٥) الصغير.

ثم استدارت بعيدا بكل الكبرياء الذى يمكن للشريطين الحريريين اللذين كانت ترتديهما، أن يسمحا به. استندت على السور ونظرت أسفل نحو الوادى الممتد. رأت أجسادا مثل النمل تتحرك وسط أشجار البرتقال. ترى ماذا يفعلون؟ ولكن عقلها سريعا ما اتجه إلى أشياء أكثر إثارة وشخصية، إلى سيج، وإلى أنها لا تستطيع سوى أن تشعر بالسعادة فى وجوده، حتى عندما يتصرف هكذا كما فعل الآن. فى يوم ما – ربما فى يوم ما... فقط حتى ترى كيف سيكون، خاصة إذا أحست بالملل فى هذا القصر ... مسكين العم چو! ولكن ماذا يتوقع منها فى عمره هذا، وعمرها هو؟ والشىء الذى كان فعلا غير متوقع هو أنها فى كل هذه الشهور، لم تعطه أية مسببات للغيرة، إلا بالطبع إذا ذكرنا إينيد و مارى لو، ولن تذكرهما لأنها لم تكن مثلهما أبدا. وحتى عندما حدث هذا، لم يكن أكثر من حادثة صغيرة – لطيفة، نعم، ولكن غير ذات أهمية على الإطلاق. أما سيج، فإذا حدث شىء، فسوف يكون مختلفا، حتى لو لم يكن جديا – وهو لن يكون كذلك – ليس مثل والت مثلا، أو حتى باستير الصغير فى بورتلاند. سيكون الأمر مختلفا عن تلك الحوادث مع إينيد

٥– دوجلاس فيربانكس: ممثل أمريكى.

وماري لو، لأن هذه الأشياء مع رجل كهذا تكتسب أهمية أكثر بالتأكيد، حتى إن كانت لا تريد أن تعنى شيئا. فإن هذا هو السبب الوحيد لعدم اقترافها له، بالإضافة بالطبع لكونها خطايا. ولكن هذه الأخيرة لا تعنى شيئا من قريب أو بعيد، خاصة عندما يكون الشاب جميلا فعلا (وعليها أن تعترف أن سيج كان كذلك بالرغم من أنه من نوعية أدولف مينچو، ولكن بعد التفكير فى الموضوع فإن هؤلاء الرجال ذوى البشرة السمراء ، وبالزيت فى شعرهم، هم الذين يعجبونها جدا) . وعندما تشرب كأسين، وتريد بعض المغامرة، لم يخطر ببالها قط أنها ترتكب خطيئة، ثم شيئا يؤدى إلى أشياء أخرى، وقبل أن تدرك ما يحدث، يكون قد حدث بالفعل. ثم إنها حقا غير مقتنعة أبدا على أية حال، بأن المسألة بالبشاعة التى يصفها الأب أورايلى . لاشك أن السيدة العذراء أكثر تفهما وأكثر مغفرة منه. ثم ماذا عن الطريقة التى يأكل بها الأب أورايلى عندما يأتى إلى العشاء؟ إنه يبدو مثل الخنزير – لا توجد كلمة أخرى لوصفه، ثم أليست الشراهة شيئًا سيئًا تماما مثل الشيء الآخر؟ إذن من هو ليتحدث بهذه الطريقة؟

جلس الدكتور أوبيسبو مكان فيرجينيا على الأريكة، فى محاولة تمثيلية لتقليد الأطباء الجالسين بجانب مرضاهم، وقال:

– كيف حال المريض؟

لقد كانت معنوياته مرتفعة جدا اليوم، إذ أن عمله فى المعمل يتقدم بشكل يفوق توقعاته، لأن مستحضر الأملاح الجديد فعل أشياء عظيمة جدا مع كبده. ثم أن إعادة التسليح جعلت أسهمه فى الطيران ترتفع ثلاث نقاط أخرى، وأخيرا كان من الواضح أن فيرجينيا لن تصمد أمامه أكثر من هذا.

مستمرا فى تمثيليته، قال الدكتور أوبيسبو متحدثا بلكنة بريطانية، حيث أنه كان قد أكمل دراسته بعد التخرج لمدة عام كامل فى جامعة أوكسفورد:

– كيف حال المريض هذا الصباح؟

زمجر مستر ستويت بشكل غير مفهوم. كان ثمة جانب ما فى الدكتور أوبِيسبو هذا، يثير غضبه بشكل مستمر، بل بشكل لا يمكن تحديده. إن به شيئًا ما مهينا عن قصد. رأى مستر ستويت أن مزاح أوبيسبو هو فى واقع الأمر تعبير عن تهكم مقصود وخبيث، وكلما فكر فى ذلك يزداد فوران دم مستر ستويت، وعندما يفور دمه، يعلو ضغطه، وكان يعلم أن هذا يقصر حياته. لا يستطيع أن يغضب من أوبيسبو بالقدر الذى يريده، والأسوأ من هذا أنه لا يستطيع التخلص من الرجل، إذ أنه الشر الذى لا غنى عنه. الله محبة. لا يوجد موت. ولكن، تذكر مستر ستويت بفزع، أنه أصيب بأزمة قلبية من قبل، وأنه يكبر فى السن. أما أوبيسبو فقد أوقفه ثانية على قدميه عندما كاد يموت، وقد وعده بعشرة أعوام أخرى من عمره على الأقل، حتى لو لم تنجح أبحاثه كما كان يتمنى. عشرون عاما، ثلاثون، أربعون. أو ربما يجد هذا الشخص طريقة ما ليثبت أن السيدة إدى كانت على حق. ربما آنذاك لن يكون هناك موت بالفعل – ليس للعم چوعلى أية حال. أى تصور، رائع هذا! لكن إلى أن يحدث ذلك... تنهد مستر ستويت بعمق واستسلام، ظل يردد: علينا كلنا أن نحمل صليبنا، وهى الكلمات التى كانت تقولها له جدته عبر السنوات، عندما كانت تريده أن يشرب زيت الخروع.

فى تلك الأثناء، عقّم الدكتور أوبيسبو إبرته، وكسر حافة الأمبول الزجاجية، وملأ الحقنة. كانت حركاته وهو يعمل كأنها مدروسة جيدا ودقيقة للغاية، وكأن الرجل كان الباليه نفسه، والجمهور فى آن واحد – جمهورا ناقدا، رفيع المستوى بالفعل، ولكن أى باليه كان هذا! نيجينسكى[6]، كارسافينا[7]، بافلوفا[8]، ماسين[9] – كلهم معا على مسرح واحد. مهما كان التصفيق شديدا، فإنه دائما مستحق له.

قال:

– جاهز؟

فى صمت وطاعة، مثل الفيل المدرب، استدار مستر ستويت ونام على بطنه.

٦– نيجينسكى: نسبة إلى فاكلاف نيجينسكى (١٨٩٠–١٩٥٠) راقص باليه ومصمم رقصات روسى.
٧– كارسافينا: نسبة إلى تمارا كارسافينا (١٨٨٥–؟) راقصة باليه روسية شهيرة.
٨– بافلوفا: نسبة إلى آنا بافلوفا (١٨٨٢–١٩٣١) راقصة باليه روسية.
٩– ماسين: نسبة إلى ليوبولد ماسين (١٨٩٦–١٩٧٩) راقص باليه ومصمم رقصات روسى.

الفصل الخامس

ارتدى جيريمى ملابسه ثانية، وجلس فى حجرة المخزن تحت الأرض التى أصبحت مكتبه. صعدت أتربة المخطوطات القديمة جافة لاذعة إلى أنفه وذهبت إلى رأسه، فكان لها تأثير الثمالة. كان وجهه محمرا وهو يجهز ملفاته ويسنّ أقلامه، ولمعت رأسه الصلعاء من قطرات العرق. لمعت عيناه ببريق وإثارة خلف العدسات المزدوجة لنظارته .

ها هى. كل شىء جاهز. التف بمقعده الدائرى وجلس فى سكون، يستطعم مذاق توقعاته مثل الشهوة الجنسية. هناك، فى أوراق بنية بلا عدد كانت أوراق الهوبيرك فى انتظار قارئها الأول. سبعة وعشرون صندوقا من العذراوات ينتظرن فى هدوء. ضحك فى نفسه عندما فكر أنه سوف يكون فاتحهن. الآلاف من العذراوات الصامتات تراكمن عبر القرون، وعبر تتالى الأجيال من عائلة الهوبيرك دون كلل. هوبيرك وراء هوبيرك، رتبة بارون، وراء رتبة الفارس، رتبة إيرل وراء رتبة بارون، ثم جاء إيرل جونسيتر بعد إيرل جونيستر حتى الثامن والأخير. وبعد الأخير، لا شىء سوى واجبات الوفاة، وبيت قديم وامرأتين عانستين عجوزين، تسقطان أكثر فأكثر فى مستنقع الوحدة والغرابة، ثم الفقر والكبرياء العائلى، ولكن فى النهاية، سقطتا فى الفقر أكثر من الكبرياء. المدللات المسكينات. لقد أقسمتا على ألا يبعن، ولكن فى النهاية اضطرتا لقبول عرض مستر ستويت، وتم شحن الأوراق إلى كاليفورنيا، والآن يمكنهما شراء مدفنين فاخرين لنفسيهما. وهذه هى نهاية الهوبيرك. حطام جميل للتاريخ الإنجليزى! رواية تحذيرية – ربما – أو قد تكون، وبشكل أكثر معقولية، رواية بلا معنى رواها شخص غبى. رواية عن قاطعى الرقاب والمتآمرين، عن حماة العلم ومضاربين فى التجارة، ومطارنة ونساء الملوك

والشعراء الثانويين، عن الأميرالات والقوادين، عن القديسين والبطلات والنساء الشبقات، عن البلهاء ورؤساء الوزارات، عن جامعى الفنون والساديين. وها هو كل ما تبقى منهم، فى سبعة وعشرين صندوقا، بشكل عشوائى، لم يتم تبويبها بعد. لم ينظر أحد لهم من قبل، كالعذارى تماما. وسط غمرة سعادة چيريمى بالكنز، نسى تماما إرهاق السفر الطويل، ونسى لوس أنجيلوس والسائق، ونسى المدافن والقصر، ونسى حتى مستر ستويت. كانت معه أوراق الهوبيرك، كلها لنفسه فقط. مثل طفل يضع يده فى قارورة دون أن يراها، متأكدا أنه سيخرج بهدية مثيرة. رفع چيريمى واحدة من اللفافات الملفوفة بالورق البنى، والتى ملأت الصندوق الأول، وقطع الرباط. أى ثراء ولخبطة ينتظرانه فى داخلها! كتاب عن الحسابات المنزلية فى عام ١٥٧٦ وحتى عام ١٥٧٧، رواية لجندى من عائلة الهوبيرك عن رحلة استكشافية قام بها مع السير كينليم دجبى إلى سكاديرون، ثم أحد عشر خطابا بالإسبانية من ميجويل دى مولينوس إلى الليدى آن هوبيرك التى فضحت العائلة بتحولها إلى الكنيسة الكاثوليكية. ثم مجموعة وصفات لازمة للمرضى، مكتوبة بخط من بدايات القرن الثامن عشر، ثم نسخة من «عن الموت» لدريلينكورت [1] و«فيليشيا» أو «فرديتى» لأندريه دى نيرسيات [2]. سمع قرعا على الباب، وكان قد قطع توا رباط المجموعة الثانية، وكان يتساءل لمن خصلة الشعر البنية تلك المحفوظة بين صفحات كتاب الإيرل الثالث تأملات فى الخطة البوبية. نظر من خلال كتبه فرأى رجلا صغيرا داكنا، يرتدى أوفرول أبيض، يقترب منه. ابتسم الغريب وقال:

– لا تجعلنى أقاطعك.

ولكنه مع ذلك قاطعه وأكمل:

١– دريلينكورت: نسبة إلى تشارلز دريلينكورت (١٥٩٥–١٦٦٩) كاتب فرنسى، من أشهر كتاباته عن الموت، ودفاعا عن كالفين

٢– أندريه دى نرسيات: (١٧٣٩–١٨٠٠) كاتب فرنسى من أبرز كتّاب الرواية الجنسية فى القرن الثامن عشر.

– اسمي أوبيسبو. دكتور سيجموند أوبيسبو. الطبيب في سرايا سمو الملك ستويت الأول. ونتمنى أن يكون الأخير أيضا.

انفجر ضاحكا بصوت عال رنان، مستمتعا بالنكتة التي ألقاها. ثم بطريقة الأرستقراطي المبالغ في التأنق وهو وسط كومة من التراب، رفع واحدا من خطابات موليتوس وبدأ يقرأ ببطء وبصوت عال، محاولا فك رموز السطر الأول من كتابة القرن السابع عشر التي قابلت عينيه:

ـ «حب الله وكأنه في داخلك وليس كما يقال عنه، وليس كما هو في خيالك».

نظر إلى جيريمي بابتسامة استمتاع وقال:

– سهل القول، صعب التنفيذ، فيما أعتقد. لا يمكن حتى أن تحب امرأة كما هي في ذاتها هكذا، ففي النهاية هناك أسباب موضوعية جسدية لهذه الظاهرة المسماة بالأنثى. أسباب جميلة في بعض الأحيان. في حين أن الرب المسكين مجرد روح – أي بمعنى آخر، تخيلات محضة. وها هو هذا الغبي، أيا من كان، يقول لغبي آخر، إن الناس لابد ألا تحب الرب لأنه في خيالهم.

مرة أخرى وبإحساسه بأرستقراطيته، رمى الخطاب بحركة تهكمية من معصمه، ثم أكمل قائلا:

– أي هراء هذا. مجموعة كلمات متصلة تسمى بالدين. مجموعة أخرى تسمى بالفلسفة. مجموعة أخرى تسمى سياسة. وكل الكلمات إما تحمل معنيين أو بلا معنى أصلا: والناس مستثارة بشكل مذهل بسببها، حتى إنهم يمكن أن يقتلوا جيرانهم لاستخدامهم كلمة لا تعجبهم. كلمة ربما لا تعني أكثر من تجشؤ. مجرد صوت، بدون حتى العذر بوجود غاز في المعدة.

أعاد الجملة مرة أخرى بتهكم: «حب الله وكأنه في داخلك وليس كما يقال عنه،

وليس كما هو فى خيالك ،. إنها ليست أكثر معقولية من أن نقول الزغطة... الزعطة... الزغطة. لا أعرف كيف تستطيعون أنتم طلأب الدراسات الإنسانية أن تتحملوا هذا. ألا تتمنون بعض المعقولية بين الحين والآخر؟

ابتسم چيريمى باعتذار وعصبية. قال:

– نحن لا نهتم كثيرا بالمعانى.

ثم توقع نقدا أكثر حينما انتقص من نفسه ومن الأشياء التى يحبها أكثر من أى شيء آخر، فأكمل قائلا:

– إننا نفرح كثيرا عندما ننبش فى أكوام التراب.

ضحك الدكتور أوبيسو وربت على كتف چيريمى مُشجعا، ثم قال:

– جيدٌ أنك هكذا صريح للغاية، فهذا يعجبنى كثيرا. معظم الأولاد الحاصلين على شهادات الدكتوراه الذين أقابلهم، صلفين للغاية، يحاولون التحدث بهذه الثقافة الأخلاقية. أنت تعلم: الحكمة بدلا من المعرفة، سوفوكليس بدلا من العِلم. أقول لهم دائما عندما يحاولون معى هذا: شيء مضحك أن الذى تأخذون مرتبكم منه هو الشيء الذى سينقذ البشرية. أما أنت فإنك لا تفعل هذا الضجيج معى. إنك صادق. إنك تعترف أنك فى هذا الشيء لمجرد المتعة. بالمناسبة، هذا أيضا السبب الذى يجعلنى أبقى فى ضجيجى أنا. المتعة. ولكن بالطبع لو كنت قلت لى أياً من هذا الهراء عن سوفوكليس، كنت بالمقابل أتحفتك بالعلم والتقدم، العلم والسعادة، ولو كنت عنيدا، لأتحفتك بالعلم والحقائق المطلقة.

أظهر أسنانه البيضاء فى سعادة وتهكم ضد الناس جميعا.

كان استمتاعه مُعديا، فابتسم چيريمى أيضا، وقال أنا سعيد أننى لم أكن عنيدا، وقالها بصوت كالناى الوديع، ينم عن اعتراضه على امتلاك أحد للحقيقة المطلقة.

قال أوبيسبو مستكملا حديثه:

– لاحظ أننى لست أعمى مطلقا حيال جاذبية نوعيتك من البشر. إننى أضع خطا عند سوفوكليس بالطبع، ويمكن أن أموت ضجرا من هذه الأشياء. ولكن ينبغى أن أعترف أننى كنت أستمتع جدا بالكتب القديمة. متعة حقيقية.

تنحنح چيريمى وربت على صلعته، ولمعت عيناه للنكتة الجميلة الجافة التى همّ أن يقولها، إلا أن الدكتور أوبيسبو لم يعطه الفرصة، إذ دون أن يدرك تهيؤ چيريمى لإلقاء النكتة، نظر إلى ساعته، وقام واقفا، ثم قال:

– أود أن أريك معملى. لدينا وقت كثير قبل الغداء.

اعترض چيريمى فى داخله؛ إذ اعتبر أوبيسبو أن هذا أمر واقع، بدلا من أن يسأله إن كان يريد رؤية معمله اللعين.

ولكنه ابتلع نكتته – وكم كانت نكتة جميلة بلا شك. كان يفضل بالطبع أن يبقى ويكمل إفراغ صناديق أوراق الهوبيرك، ولكن لم تكن لديه الشجاعة الكافية ليقول ذلك، فقام طائعا وتبع الدكتور أوبيسبو إلى الباب.

أوضح الطبيب، وهما يهمان بالخروج من الغرفة، أن فكرة امتداد العمر هى موضوعه الرئيسى، وقد ظلت كذلك منذ أن ترك كلية الطب. ولكن بالطبع بما أنه يمارس الطب، فلم يتمكن من عمل أى شيء جاد حيال هذا الموضوع. الممارسة كانت قاتلة لأى عمل جاد – قالها وكأنها بين قوسين . كيف تفعل شيئا ذا معنى وأنت مضطر لأن تبقى طوال الوقت لترعى مرضاك؟ والمرضى ثلاثة أنواع: من يتخيلون أنهم مرضى، ولكنهم ليسوا كذلك، ومن هم بالفعل مرضى ولكنهم سيشفون فى كل الأحوال، ومن هم بالفعل مرضى، ويفضل لو ماتوا. إنه لمن الغباء الشديد أن يُضيّع أحد وقته مع المرضى خاصة لو أنه شخص قادر على القيام بعمل جاد.

وبالطبع لا شيء سوى الضغوط الاقتصادية يجبره على أن يفعل ذلك. كان يمكن أن يمشي في هذا الأخدود إلى الأبد، يُضيع وقته مع المجانين. ولكن فجأة تبدّل حظه. جاء چو ستويت ليستشيره. كان هذا ترتيبا إلهيا بلا شك.

تمتم چيريمي بعبارته المفضلة والشهيرة لكوليريدج [٣]:

- «إلهيا بشكل بشع».

أكمل الدكتور أوبيسبو أن چو ستويت كان على وشك الانهيار تماما. كان وزنه قد زاد أكثر من أربعين رطلا، وأصيب بأزمة قلبية. لم تكن سيئة، ولكنها تكفي لتجعل العجوز ابن الزنا هذا ينزّ عرقا من الخوف. الخوف حتى الموت! (ضحك الدكتور أوبيسبو وبرقت أسنانه كالذئب). في حالة چو كانت المسألة حالة ذعر. ومن هذا الذعر كان تحرير الدكتور أوبيسبو من مرضاه لأنه أعطاه مرتبا، ومعملا ليعمل على مشكلات إطالة الحياة، وجاء أيضا مساعده الرائع. وفي النهاية جاء أيضا تمويل عمله الصيدلي في جامعة بيركلي، وهذه التجارب على القردة في البرازيل، وهذه الرحلة الاستكشافية لدراسة السلاحف في جزر الجلاباجوس. كل ما يمكن أن يتمناه أي باحث، بالإضافة إلى چو العجوز ذاته، والذي يمثل فأر التجارب المثالي - المستعد للخضوع تقريبا لأي شيء عدا التشريح بدون مخدر، إذا كان في ذلك أمل لإبقائه فوق سطح الأرض بضعة أعوام أخرى.

لم يكن يفعل أي شيء غير عادي في الواقع بالرجل العجوز، في هذا الوقت بالذات. كان فقط يحاول أن يحافظ على وزنه، ويهتم بكليتيه، ويعطيه جرعات نشاط بشكل دوري من الهرمونات الجنسية الاصطناعية، بالإضافة إلى مراقبة هذه

٣- كولريدج: نسبة إلى صموئيل تايلور كولريدج (١٧٧٢-١٨٣٤) شاعر رومانسي إنجليزي.

الأوردة. إنه العلاج العادى والمنطقى لرجل فى عمر چو ستويت وبتاريخه الطبى. فى ذات الوقت كان فى الطريق إلى التوصل لشىء جديد، شىء ينبىء بأن يكون مهماً. خلال بضعة أشهر، وربما بضعة أسابيع، سوف يكون فى وضع يمكنه فيه أن يقوم بإعلان قطعى.

قال چيريمى بأدب مصطنع:

- هذا شيق جدا.

كانا يسيران عبر ممر ضيق، لونه أبيض، ومضاء بمجموعة من اللمبات الكهربائية المكشوفة. من خلال الأبواب المفتوحة استطاع چيريمى أن يلمح سراديب كبيرة مكدسة بأعمدة منحوتة مزينة برسوم طوطمية، ودروع كثيرة، وقردة الأورانجوتان المحنطة، ومجموعات من التماثيل الرخامية لثوروالدزن [٤]، والتماثيل المطلية بالذهب مثل البوديستافاس[٥]، والقطارات البخارية القديمة بعلامات الليدجام[٦] عليها، والعربات، والأوانى الخزفية البيروفية بالصلبان والعينات المعدنية.

فى تلك الأثناء كان الدكتور أوبيسبو قد بدأ الحديث عن إطالة العمر. كان مصرا أن الموضوع لا يزال فى مرحلة ما قبل العلم - مجرد ملاحظات كثيرة بدون أية فرضيات. مجرد فوضى من الحقائق، ولكن أية حقائق غريبة وشاذة! على سبيل المثال، ماذا يجعل الزيزان يعيش قدر الثور؟ وماذا يجعل عصفور الكناريا يعيش أكثر من ثلاثة أجيال من الخراف؟ لماذا تصاب الكلاب بالشيخوخة فى سن الرابعة عشرة، بينما تعيش الببغاوات فى نشاط حتى المائة؟ لماذا تصبح الأنثى الإنسانة

٤- ثوروالدزن: نسبة إلى بيرتيل توروالدزن (١٧٦٨-١٨٤٤) نحات نيو-كلاسيكى تخصص فى الموضوعات المأخوذة عن الميثولوجيا الإغريقية.

٥- بوديستافاس: تعنى كائناً مستنيراً فى الديانة البوذية وهو الذى يرفض النيرفانا لينقذ الآخرين.

٦- ليدجام: رمز جنسى للمبدأ الكونى الذكورى فى الديانة الهندوسية.

عقيمة فى سن الأربعين، بينما أنثى التمساح تظل تبيض حتى قرنها الثالث؟ لماذا بحق السماء يعيش سمك الكراكى حتى عامه المائتين بدون أن تظهر عليه علامات الشيخوخة، بينما چو ستويت العجوز المسكين ...

من طريق جانبى خرج فجأة رجلان يحملان بينهما فوق نقالة جثتى الراهبتين المحنطتين، فاصطدما بهما.

صاح الدكتور أوبيسبو فى غضب:

- أغبياء!

- أنت الغبى.

- ألا تستطيعان رؤية طريقكما؟

- اخرس تماما.

نظر الدكتور أوبيسبو بعيدا بتهكم، واستمر فى طريقه.

صاحا خلفه:

- من تظن نفسك بحق الجحيم؟

فى تلك الأثناء كان چيريمى يتأمل الجثث المحنطة بفضول. قال بصوت عال دون أن يوجه كلامه لأحد بالتحديد: كرمليون(٧) حُفَاةٌ، ثم أعجبته تركيبة الحروف فكرر الجملة بإصرار وتلذذ.

جاءه الرد من الرجل الأمامى وقد التفت إلى هذا المهاجم الجديد:

- حفاة فى مؤخرتك!

نظر چيريمى إلى الوجه الأحمر الغاضب ثم هرول وراء مرشده بسرعة مُشينة.

أخيرا توقف الدكتور أوبيسبو وقال وهو يفتح بابا:

٧- كرمليون: طائفة من الرهبان والراهبات يرجع تاريخها للقرن الثانى عشر.

– ها قد وصلنا.

تصاعدت فى الممر رائحة الفئران والكُحل النقى. قال بترحيب:

– هيا ادخلْ.

دخل چيريمى. كانت هناك بالفعل فئران – قفصاً وراء الآخر، وفى صفوف على الحائط أمامه مباشرة. إلى الجهة اليسرى كانت هناك ثلاث نوافذ محفورة فى الصخر، تفتح على مشهد لملاعب التنس وأشجار البرتقال والجبال الشاهقة. رأى رجلا جالسا بجوار تلك النوافذ، وأمام مكتبٍ، ينظر من خلال ميكروسكوب. رفع رأسه الشقراء المنكوشة عندما اقتربا، ونظر إليهما بوجه طفولى برىء، وقال بابتسامة ساحرة:

– أهلا يا دكتور.

قال أوبيسبو موضحا:

– هذا مساعدى بيتر بوون. پيت، هذا مستر بورديچ.

وقف پيت فظهر جسمه الرياضى الضخم.

عندما قال له چيريمى مستر بوون، قال:

– يمكنك أن تنادينى پيت، الكل ينادينى پيت.

تساءل چيريمى فى نفسه هل المفروض أن يطلب منه أن يناديه چيريمى – ولكن كالعادة تساءل فترة طويلة حتى إن المناسبة لقول ذلك مرت دون رجعة. قال أوبيسبو فى نبرة كان المقصود منها المحبة، ولكنها فى الواقع متعالية:

– إن پيت ولد ذكى. يعرف الفيزياء جيدا. وهو أيضا يجيد استخدام يديه. إنه أفضل جرّاح رأيته.

ربت على كتف الشاب. بدا لچيريمى أنه يبتسم ولكن بعدم ارتياح، وكأنه وجد

من الصعوبة بمكان أن يقوم بعمل رد فعل مناسب تجاه ترحيب الآخر به.

استمر الدكتور أوبيسبو وقال:

– إنه يأخذ السياسة مأخذ الجد، أكثر مما ينبغى. هذا خطؤه الوحيد. إننى أحاول أن أعالجه من هذا، ولكنى لم أنجح حتى الآن. أليس كذلك يا پيت؟

ابتسم الرجل مرة ثانية ولكن بثقة أكبر. فى هذه المرة كان يعرف تماما أين يقف وماذا يفعل. قال:

– لم تنجح حتى الآن.

ثم التفت إلى چيريمى وقال:

– هل رأيت الأخبار الإسبانية فى نشرة هذا الصباح؟

تبدل التعبير على وجهه الكبير الأشقر وأصبح مهموما. هز چيريمى رأسه بالنفى. قال پيت بوجوم:

– شىء بشع. عندما أفكر فى هؤلاء المساكين بدون طائرات أو إمدادات أو

قاطعه الدكتور أوبيسبو ناصحا بابتهاج:

– إذن لا تفكر فيهم. سوف تشعر بتحسن.

نظر إليه الشاب ثم التفت بعيدا دون أن ينبس بكلمة. بعد فترة صمت أخرج ساعته وقال متجها نحو الباب:

– أعتقد سوف أذهب للسباحة قبل الغداء.

رفع الدكتور أوبيسبو قفصا من الفئران وأمسكه على بعد بوصات من أنف چيريمى ثم قال مداعبا بطريقة جعلت چيريمى يشعر بالإهانة:

– هؤلاء هم الأولاد الذين أعطيهم هرمونات الجنس.

صرخت الفئران وهو يهز القفص. استمر فى كلامه:

– إنها تمتلىء حيوية ما دام التأثير موجوداً. المشكلة هى أن التأثير مؤقت فقط.

أكمل موضحا وهو يضع القفص مكانه، إن التأثير الوقتى ليس شيئا يستحق الاحتقار، بل من الأفضل دائما أن تشعر بسعادة وقتية عن أن تشعر ببؤس وقتى. لهذا السبب كان يعطى چو العجوز هذا العلاج من التيستوستيرون. كما أن الرجل العجوز ابن الزنا هذا ليس بحاجة ملُحة إليه، خاصة وهذه الفتاة مونسيبل حوله...

وضع الدكتور أوبيسبو يده فجأة على فمه ونظر حوله فى اتجاه النافذة، ثم قال:

– أحمد الله إنه خارج الغرفة. مسكين پيت.

ابتسم بتهكم وأكمل قائلا:

– لقد وقع فى الغرام.

ربت على جبهته واستمر:

– يظن أنها مثل شىء ما فى أشعار تنيسون[٨]. أنت تعلم، وكأنها نقية نقاءً كيميائيا. فى الشهر الماضى كاد يقتل رجلا لأنه ألمح أنها هى والولد العجوز... أنت تعلم. الله أعلم ماذا يظن هذه الفتاة فاعلة هنا! ربما مثلا تحكى لچو العجوز عن قرنية العين؟ على أية حال إن كان هذا يسعده فلن أكون الشخص الذى يفسد عليه سعادته.

انفجر دكتور أوبيسبو ضاحكا ثم قال:

– ولكن لنعود إلى ما كنا نقوله عن العم چو ...

أوضح أن مجرد وجود الفتاة فى البيت يساوى علاجا للهرمونات، ولكنه لن

٨– تنيسون: نسبة إلى ألفريد تنيسون (١٨٠٩–١٨٩٢) شاعر إنجليزى.

يدوم. لم يدم من قبل. براون-سيكوارد [٩] و فورنوف[١٠] وكل الآخرين كانوا مخطئين. كانوا يظنون أن الضعف الجنسي هو السبب في الشيخوخة، بينما هو في الواقع أحد أعراضها. الشيخوخة تبدأ في مكان آخر، وتضم الآلية الجنسية مع باقي الجسد. العلاج الهرموني مجرد تخفيف لحدة الألم. إنها تساعدك لفترة وجيزة، ولكنها لا تمنع الشيخوخة.

منع چيريمي نفسه من التثاؤب. استمر الدكتور أوبيسبو متسائلا عما يجعل مثلا بعض الحيوانات تعيش فترة أطول بكثير من الإنسان دون أن تبدو عليها علامات الشيخوخة؟ بشكل ما، وفي مكان ما، ارتكبنا خطأً بيولوجياً. استطاعت التماسيح مثلا تفادي هذا الخطأ. كذلك السلاحف. ونفس الشيء بالنسبة لبعض أنواع الأسماك.

قال وهو يعبر الغرفة:

- انظر إلى هذا.

أزاح ستارة مطاطية فكشف عن حوض أسماك كبير داخل الحائط. اقترب چيريمي ونظر داخله.

وسط الشفافية الخضراء ظهرت سمكتان كبيرتان معلقتان، تكاد تتلامس أنوفهما معا، بلا حراك سوى تموجات صغيرة بين الحين والآخر عندما تحركان زعانفهما أو عندما تتنفسان من خياشيمهما. على بُعد بضعة بوصات من أعينهما المحدقة، خرجت الفقاعات كسلسلة تسبيحية بانتظام ولأعلى تجاه الضوء، وحولهما كانت المياه الفضية تلمع بين الحين والآخر ببريق الأسماك الأصغر. غارقين في نشوتهما

٩- براون-سيكوارد: نسبة إلى تشارلز إدوارد سيكوارد (١٨١٧-١٨٩٤) عالم فيسيولوجي فرنسي برز عرف بدراسته للغدة الأدرينالية.
١٠- فورونوف: نسبة إلى سيرج فورونوف (١٨٦٦-١٩٥١) عالم فيسيولوجي روسي اشتهر بمحاولاته وتجاربه لإطالة الحياة البشرية عن طريق إعطاء غدد الحيوانات، وبخاصة القردة، للبشر.

اللاعقلانية كان الوحشان غير مهتمين.

أوضح الدكتور أوبيسبو أنها أسماك الشبوط - جاءوا بها من أحواض الأسماك في قصر ما في فرانكونيا - نسي اسمه الآن، ولكنه في مكان ما بجانب بامبرج. كانت العائلة فقيرة، ولكن الأسماك كانت متاعاً شخصياً توارثته الأجيال، لا يُشترى بمال. كان على چو ستويت أن يدفع الكثير من أجل سرقتهما وتهريبهما من البلاد في سيارة صنعت خصيصا لهذا الغرض، بها حوض مائي تحت المقعد الخلفي. وزنهما أكثر من ستين رطلا، وطولهما يفوق الأربعة أقدام، وتشير تلك الحلقات فوق ذيليهما إلى أنهما يرجعان لعام ١٧٦١ .

قال چيريمي وقد بدا عليه الاهتمام فجأة:

- هذه بداية حقبتي.

عام ١٧٦١ كان عام الفنجال [١١]. ابتسم لنفسه - الشبوط والأوسيان، الشبوط وشاعر نابليون المفضل، الشبوط وأول إيذان بقرب الاضمحلال الكلتى[١٢].

كل هذا أعطاه نوعا من السعادة الغريبة. هذا الموضوع رائع لمقالاته القصيرة. عشرون صفحة من الغرابة والجهبذة - انتهاك للحرمات في اللاوندة - عشرون صفحة من عدم الاحترام الرقيق التي يبديها العالِم للموتى المبجلين وغير المبجلين.

ولكن الدكتور أوبيسبو لم يسمح له بالتفكير في سلام. بلا كلل، ممتطيا هوايته، بدأ مرة أخرى. أشار إلى السمكتين الكبيرتين وقال إنهما هنا الآن - سمكتان عمراهما فوق المائتين، في صحة تامة، بدون أعراض الشيخوخة، ولا يوجد سبب واضح يجعلهما لا يستمران ثلاثمائة أو أربعمائة قرن آخر. ها هي، وها أنت. استدار

١١- فنجال: الإسم الذى أعطاه الشاعر ماكفيرسون فى قصائده الأوسيانية لبطله ((فين))، وهو شخصية بالأساس تسعى لتصحيح الأخطاء وتدافع عن المقهورين، وقد عبر فنجال إلى أيرلندا وساعد الملك الأيرلندى ضد ملك إسكانديافيا الذى قام بغزو أيرلندا، وهزمه.

١٢- كلتى: اسم يطلق عادة على من يتحدثون اللغات الغالية، مثل فرنسا وأيرلندا.

فجأة نحو چيريمى بنبرة اتهام. ها أنت، لا تزيد عن كونك رجلا فى منتصف العمر، ولكن بالفعل أصبحت أصلع، بالفعل طويل النظر، قصير النفس، بالفعل، تكاد تكون بلا أسنان، وبشكل أو بآخر، لا تستطيع القيام بأعمال بدنية مدة طويلة، ولديك إمساك مزمن (هل تستطيع إنكاره؟)، وذاكرتك لم تعد جيدة كما كانت، والجهاز الهضمى أصبح بالفعل مزاجيا، وقوتك التناسلية تضعف – إذا لم تكن قد ضعفت بالفعل، واختفت إلى الأبد.

أجبر چيريمى نفسه على الابتسام، ومع كل بند جديد كان يهز رأسه فيما يبدو أنه موافقة باستمتاع. لكن فى داخله ظل يتلوى بمزيج من الضيق من جراء هذا التحليل الحقيقى، والغضب ضد هذا المُحلل بسبب قلة رحمته وانفصاله العلمِى. التحدث عن الشيخوخة بمزاح واستخفاف بالذات كان مختلفا تماما عن أن يقولها لك فى وجهك شخص لا يهتم بك سوى لكونك حيوانا لا يشبه السمكة. ومع ذلك ظل يهز رأسه بالإيجاب ويبتسم.

استمر الدكتور أوبيسبو وقال فى نهاية تحليله ها أنت وها هو الشبوط. لماذا لا تستطيع إدارة أحوالك الفسيولوجية كما تفعل هى؟ أين وكيف ولماذا ارتكبت الخطأ الذى سرق منك أسنانك وشعرك وسوف يذهب بك بعد عدة سنوات إلى القبر؟

سأل ميتشنيكوف [١٣] العجوز مثل هذه الأسئلة وحاول الإجابة بجرأة. لكن جانبه الصواب فى كل ما قال.. الفاجوسيوتيس [١٤] لا يحدث. حالة الثمالة الأوتوماتيكية للأمعاء ليست السبب الوحيد للشيخوخة. النيورنوفاجس [١٥] كانت

١٣– ميتشنيكوف: نسبة إلى إيلى ميتشنيكوف (١٨٤٥–١٩١٦) عالم بيولوجى روسى اشتهر باكتشافه دور الخلايا الدموية البيضاء فى محاربة المرض.

١٤– فاجوسيتوسيس: عملية تدمير الأجسام الغريبة عن طريق الخلايا، وقد اخترع الكلمة ميتشنيكوف، وبنى عليها نظرية الوقاية من الأمراض..

١٥– نيورونوفاجس: النيورون هى خلية العصب الأساسية فى الجهاز العصبى.

وحوشاً ميثولوجية. شرب اللبن المر لا يطيل الحياة بالضرورة، بينما حذف جزء كبير من الأمعاء بالضرورة يقصر الحياة. أخذ يتذكر تلك العمليات التي كانت موضة قبل الحرب مباشرة وهو يضحك. السيدات والرجال المسنون، بقولونهم المقطوع، مجبرون على التبول كل بضع دقائق مثل عصافير الكناريا. كله هباء بالطبع، لأن العملية التي من المفترض أن تطيل عمرهم حتى المائة، كانت تقتلهم كلهم بعد عام أو اثنين. أرجع الدكتور أوبيسبو رأسه اللامعة للوراء، وأطلق إحدى ضحكاته العالية والتي كانت رد فعله الدائم عندما يسمع أو يتحدث عن قصص الغباء الإنساني التي تؤدي إلى سوء الحظ. مسكين ميتشنيكوف. استمر في كلامه وهو يمسح دموع الضحك من عينيه. كان مخطئاً على طول الخط، ولكن بالتأكيد ليس مخطئاً بالقدر الذي يظنه الناس. مخطىء نعم، وذلك لأنه اعتقد أن المسألة تتعلق بحالة الثمالة التلقائية للأمعاء. ولكن في الغالب هو على صواب عندما آمن أن السر يكمن في مكان ما تحت، في الأمعاء. كرر الدكتور أوبيسبو تلك الجملة مرة أخرى: مكان ما في الأمعاء، ثم يؤمن هو أيضاً أنه قد اقترب من معرفة هذا السر.

توقف بضع ثوان في صمت، وأخذ ينقر بأصابعه على زجاج حوض الأسماك. وقفت السمكتان العجوزان السمينتان باتزان بين الطين والهواء، في غسقهما الأخضر، مدركتين وجوده بصفاء وهدوء. هز الدكتور أوبيسبو رأسه لهما وقال في نبرة تمزج بين الاستياء والكبرياء والوجوم، إنهما أسوأ حيوانات تجارب في العالم. لا يمكن لأحد أن يتحدث عن الصعوبات التقنية لو لم يكن قد تعامل مع الأسماك. خذ أبسط عملية، إنها كابوس. هل حاولت أن تُبقي خياشيمها مبتلة وهي مخدرة على مائدة العمليات؟ أو بالعكس هل قمت بعملية جراحية تحت الماء؟ هل حاولت أبداً أن تقرر عملية الأيض عند الأسماك، أو تأخذ رسم قلب كهربائي لحركة قلبها،

أو تقيس ضغط دمها؟ هل حاولت أبدا تحليل إفرازاتها؟ وإذا كنت قد حاولت، فهل تعرف الصعوبة التى تواجهك فى جمع هذه الإفرازات؟ هل حاولت أبدا أن تدرس كيمياء هضم الأسماك أو استيعاب جسمها للطعام؟ أن تقرر ضغط الدم تحت ظروف صعبة؟ أن تقيس سرعة رد فعلها العصبى؟

لا، لم تفعل. قالها الدكتور أوبيسبو بتهكم. وحتى تفعل ذلك لا يحق لك الشكوى من أى شىء.

جذب الستائر وأغلقها على أسماكه، ثم جذب ذراع چيريمى وقاده ناحية الفئران.

قال مشيرا إلى مجموعة من الأقفاص على الرف العلوى:

– أنظر إلى هذا.

نظر چيريمى. كانت الفئران المقصودة تشبه تماما تلك الفئران الأخرى. سأل:

– ماذا بها؟

ضحك الدكتور أوبيسبو وقال بشكل درامى:

– لو كانت هذه الحيوانات إنساناً، لفاق عمرها المائة عام.

بدأ يتكلم سريعا وبانفعال عن الكُحوليات الدهنية وعن أمعاء الشبوط. لأن السر يكمن هناك. المفتاح لكل مشاكل الشيخوخة وإطالة الحياة .هناك، بين القفص الصدرى وأمعاء الشبوط الغريبة.

هذا القفص الصدرى! هز الدكتور أوبيسبو رأسه وقطّب حاجبيه. دائما مرتبط بالشيخوخة. المثال الواضح بالطبع هو الكولسترول. يمكن تعريف الحيوان المسن بأنه ذاك الذى به تراكم من الكولسترول على جدران أوردته. يبدو أن البوتاسيوم ثايوسيانيت يذيب هذه التراكمات. الأرانب المسنة مثلا تُظهر علامات الحيوية

عندما تعالج بالبوتاسيوم ثايوسيانيت. كذلك الإنسان المسن. ولكن أيضا ليس لفترة طويلة. الكولسترول فى الأوردة هو بالتأكيد واحد فقط من المشاكل. ولكن الكولسترول أيضا كان واحدا من الأوردة. إنها مجموعة متصلة تلك الكحوليات الدهنية، إذ تستغرق وقتا طويلا لتحول الواحد إلى الآخر. ولكن لو قرأت أعمال شنيجلوك وكل الأشياء التى نشروها فى أبسالا[١٦] لعرفت أن بعض هذه الأشياء سام بالتأكيد – أكثر من الكولسترول حتى فى أقصى حالات تراكمه. كان لونجبوثام قد اقترح أن هناك صلة ما بين الكحوليات الدهنية والنيوبلازم. أى بمعنى آخر، يمكن أن يكون السرطان ، فى التحليل الأخير، من أعراض تسمم الستيرول[١٧] . هو نفسه يقول أيضا أن تسمم الستيرول مسؤول عن الحالة المتردية للشيخوخة فى الإنسان والثدييات الأخرى. ما لم يفعله أحد حتى الآن هو البحث فى دور الكحوليات الدهنية فى حياة الحيوانات مثل الشبوط. هذا هو العمل الذى ظل يقوم به طوال العام الماضى، وقد أثبتت أبحاثه شيئين أو ثلاثة: أولا أن الكحوليات الدهنية فى الشبوط لا تتراكم بشكل كبير، وثانيا أنها لا تتحول إلى ستيرول سام، وثالثا أن هذه المناعة ناتجة عن الطبيعة الغريبة لفطريات أمعاء الشبوط. وأية فطريات! صاح الدكتور أوبيسبو بحماس، إنها غنية جدا ومختلفة. لم يستطع بعد أن يعزل الكائن العضوى المسؤول عن مناعة الشبوط ضد الشيخوخة، ولم يستطع بعد أن يفهم طبيعة الآلية الكيميائية المعنية بهذا الموضوع. ولكن تبقى الحقيقة الأساسية مؤكدة، وهى أنه بطريقة أو بأخرى، مجتمعين أو منفردين، كانت هذه الكائنات هى المتواطئة على منع تحول الستيرول إلى سموم. لهذا السبب استطاع الشبوط أن

١٦ – أبسالا: مدينة سويدية. كانت عاصمة للفايكنج فى القديم.
١٧ – ستيرول: نسبة إلى الكوليسترول.

يعيش مائتى عام، دون أن تبدو عليه علامات الشيخوخة.

هل يمكن لفطريات أمعاء الشبوط أن تنتقل إلى أمعاء الثدييات؟ وإن أمكن، هل تستطيع أن تحصل على نفس النتيجة البيولوجية والكيميائية؟ هذا ما كان يحاول أن يكتشفه طوال العامين الماضيين، ولكن دون جدوى. حديثا، على أية حال، استطاعوا أن يقوموا بتجارب مستخدمين تقنيات حديثة – تقنيات تحمى الفطريات من عملية الهضم، وتعطيها الوقت لتتأقلم مع الحالة غير المألوفة. وقد أصبحت لها جذور، وقد كان التأثير على الفئران فوريا وذا أهمية كبيرة. توقفت الشيخوخة، بل إنها انقلبت إلى عكسها. فيسيولوجيا، أصبحت الحيوانات أصغر مما كانت على الأقل فى الثمانية عشرة شهرا الماضية – أصغر بمعدل مائة عام عما كانت فى سن الستين.

دق جرس كهربى فى الممر الخارجى، إيذانا بموعد الغداء. ترك الرجلان الغرفة وسارا نحو المصعد. قال الدكتور أوبيسبو إن الفئران كانت كعادتها مخادعة بعض الشيء. لقد بدأ يجرب هذا الشيء على الحيوانات الأكبر حجما. لو نجحت مع الكلاب والقردة، فبالتأكيد ستنجح مع العم جو.

الفصل السادس

كانت كل المفروشات فى حجرة الطعام الصغيرة، من معرض برايتون. فوق المائدة المطلية بورنيش الأخشاب الأحمر، وقف أربعة تنانين مطلية، بينما وقف اثنان آخران على جانبى المدفأة كراهبات ، إنه حلم الريجينسى [١] الملكى للشرق البديع. لاحظ جيريمى وهو يجلس على مقعده الأحمر والمذهب، أن المكان كان من ذلك الطراز الذى يمكن أن يجعل كلمة مثل كاثاى [٢] تظهر فى عقل كيتس[٣] مثلا، أو شيلى[٤] أو اللورد بايرون [٥] – تماما مثل هذه الجميلة ليدا [٦] لإيتى [٧] الواقفة هناك بجانب البشارة لفرا أنجليكو، والتى كانت تجسيدا دقيقا لتخيلاتهم عن موضوع الميثولوجيا الوثنية. كانت التمثيل الحقيقى لقصيدة الإلهة سايكى[٨] والقارورة الإغريقية [٩] الإنديميون [١٠] والبروميثيوس غير المقيد [١١]. فكر جيريمى فى كل هذا وضحك فى داخله. إنها عادة العمر من التفكير والإحساس والخيال، يشارك فيها كل من عاش أو عمل فى هذا الوقت – الكل بدءا من الاستكشافى وانتهاء بالعبقرى. الريجينسى دائما هو الريجينسى، إذا أخذت عينة منه من أعلى أو

---

١ – الريجنسى: فترة فى تاريخ إنجلترا من ١٨١١–١٨٢٠ عندما تولى جورج ولى العهد وأمير ويلز الحكم بسبب جنون جورج الثالث، ويستخدم اللفظ كناية عن النيو–كلاسيكية فى فنون العمارة والأثاث.

٢ – كاثاى: الاسم الذى عرفت به الصين فى فترة الحكم المغولى.

٣ – كيتس: نسبة إلى جون كيتس (١٧٩٥–١٨٢١) شاعر إنجليزى.

٤ – شيللى: بيرسى بيش شيللى (١٧٩٢–١٨٢٢) شاعر إنجليزى.

٥ – اللورد بايرون: (١٧٨٨–١٨٢٤) شاعر إنجليزى.

٦ – ليدا: ابنة ثيستيياس وزوجة ملك سبارتا، ويقال أن زيوس رآها تسبح فى النهر وأحبها واتخذ صورة بجعة ليقترب منها، وولد منها ثلاثة أطفال.

٧ – إيتى: نسبة للرسام الإنجليزى ويليام إيتى (١٧٧٩–١٨٤٩) وقد اشتهر برسوماته العارية والموضوعات التاريخية والغريبة.

٨ – سايكيك اسم قصيدة لكيتس الشاعر الإنجليزى، وسايكى هى شخصية ابنة الملك التى يحبها كيوبيد ويرفض أن يراه الآخرون، فتصب عليه زيتا فى يوم ما وهو نائم فيصحو ويغضب عليها ويرفض أن يراها ثانية.

٩ – القارورة الإغريقية: اسم قصيدة لكيتس.

١٠ – إنديميون: قصة كتبها بنيامين ديزرائيلى (١٨٠٤–١٨٨١) رئيس وزراء بريطانيا نشرت عام ١٨٨٠.

١١ – بروميثيوس غير المقيد: مسرحية شعرية كتبها شيللى، نشرت عام ١٨٢٠.

من أسفل. فى عام ١٨٢٠ الرجل الذى كان يغلق عينيه ويحاول أن يرى زجاج النافذة السحرية، الذى يفتح على رغوة البحر السحرية كان يرى - ماذا؟ برج معرض برايتون. ابتسم جيريمى لنفسه فى سعادة. إيتى وكيتس، برايتون وبيرسى بيش شيللى - أية موضوعات جميلة! أفضل من الشبوط والأوسيان، أفضل لدرجة أنهما مثيران للضحك أكثر من ناش [١٢] والأمير ريجينت. ولكن من أجل الحوار وعلى مائدة الغداء، فإن أفضل الموضوعات لا تساوى شيئا لو لم يكن هناك أحد لتحاوره. سأل جيريمى نفسه: ولكن هل من أحد فى هذه الغرفة يريد، بل يستطيع، أن يتحدث معه فى موضوع كهذا؟ ليس المستر ستويت، وليس ، بالتأكيد، الآنسة مونسيبل، ولا الشابتان اللتان جاءتا من هوليود لتناول الغداء معها. وليس الدكتور أوبيسبو الذى يهتم بالفئران أكثر من الكتب، وليس بيتر بوون الذى، فى الغالب، لا يعرف أصلا بوجود الكتب ليهتم بها. الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يتصور اهتمامه بتجسيد الروح الجورجية فى أواخر عصرها، هو الشخص الذى عرّفوه عليه توا، وقالوا إن اسمه الدكتور هيربيرت مالدج، حامل الدكتوراه، ورئيس كلية طارزانا. ولكن كان الدكتور مالدج فى هذه اللحظة يتحدث بصوت ثرى، فيما يشبه البلاغة المنبرية، عن القاعة التى أهداها مستر ستويت إلى الجامعة، والتى سيتم افتتاحها قريبا. كان الدكتور مالدج رجلا ضخما ووسيما، ذا صوت يعادل وسامته - يمزج بين العمق والرقة، التزلف والرنين، وكان استرساله بطيئا ومنتظما، ويبدو أنه لا يعتمد عليه. فى جمل مليئة بالمرادفات المسموعة والأحرف الكبيرة، استمر فى التأكيد للمستر ستويت ولأى فرد آخر يهتم أن يسمع، أنه إلهام حقيقى للشباب والشابات فى طارزانا، أن يأتوا معا إلى المبنى الجديد الجميل من أجل نشاطهم

١٢- ناش: نسبة إلى توماس ناش (١٥٦٧-١٦٠١) كاتب إنجليزى ساخر.

المحلى. مثلا من أجل الصلاة غير الطائفية، أو للاستمتاع بأفضل المسرحيات والموسيقى. نعم، أى إلهام! إن اسم ستويت سيذكرونه بكل الحب والاحترام، عبر عدة أجيال من خريجى الجامعات – وربما يذكرونه إلى الأبد، لأن القاعة ما هى إلا صرح، أو بصمة على رمال الزمن – بلا شك بصمة. قال الدكتور مالدج بين كل قضمة من الفراخ بالكريمة، لقد صار احتياج طارزانا المُلِح الآن، هو مدرسة جديدة للفنون. لأنه بعد كل شيء، كما بدأنا نكتشف الآن، أن الفنون تعد واحدة من أهم القوى التعليمية، وهى الشيء الذى تتجسد فيه، فى قرننا العشرين، الروح الدينية. الفنون هى الطريق الذى يمكن للناس أن يصلوا من خلاله إلى أفضل تعبير خّلاق عن الذات، و...

قالها جيريمى لنفسه:

– هراء! حقا!

ابتسم لنفسه بمجرد تفكيره أن يتحدث مع هذا الوغد، عن العلاقة بين كيتس ومعرض برايتون.

وجد بيتر بوون نفسه منفصلا عن فيرجينيا، إذ كانت بينهما أشقر الشابتين من هوليوود، فاستطاع فقط أن يراها عبر «مقدمة» من أحمر الشفاه والأهداب، والخصلات الذهبية، بالإضافة إلى عطر زهرة الغارديينا الثقيل الذى كاد أن يكون مرئياً.

بالنسبة لأى شخص آخر، يمكن أن تكون هذه المقدمة مُربكة، ولكن بالنسبة لبيت فلم تكن أكثر أهمية من حفنة من الطين، فقد كان مهتما فقط بما وراء المقدمة – فى هذه الشفة العليا القصيرة، وهذه الأنف الصغيرة التى تجعلك تريد البكاء

عندما تنظر إليها، إذ كانت هكذا أنيقة ووقحة، تبعث على الضحك وملائكية. وهذا الشعر القصير جدا البنى الفاتح الفلورنتينى اللامع، وفى هاتين العينين الواسعتين المفتوحتين، بسطحهما اللامع وخفة دمهما، وعمقهما الأزرق الداكن، والتى كان متأكدا أنها تحمل الحنان الأبدى، والحكمة الأنثوية التى لا تنتهى. كان يحبها كثيرا حتى إنه كان يشعر بألم وضيق تنفس وفراغ لا يمكن أن يملأه سواها، فى مكان قلبه المفترض.

فى تلك الأثناء كانت تتحدث للمقدمة الشقراء عن هذا العمل الجديد الذى حصلت عليه المقدمة مع استديو الكوزموبوليتان–بيرلماتر. الفيلم اسمه «قوليها بالجوارب» تقوم فيه المقدمة بدور فتاة ثرية من الطبقة الراقية، تهرب من منزلها بحثا عن مستقبلها العملى، فتصبح راقصة استربتيز، فى معسكر تعدين غربى، وفى النهاية تتزوج من راعى أبقار، تكتشف أنه مليونير.

قالت فيرجينيا:

– تبدو قصة رائعة. ألا تعتقد ذلك يا بيت؟

اعتقد بيت ذلك، بل وكان مستعدا أن يعتقد أى شىء تريده.

قالت فيرجينيا:

– هذا يذكرنى بإسبانيا.

أما جيريمى الذى كان يتنصّت على الحوار، فقد حاول جاهدا أن يتصور أى تسلسل للأفكار جعلها تذهب من «قوليها بالجوارب» إلى الحرب الأهلية – هل هى مثلا كلمة كوزموبوليتان–بيرلماتر، فالعداء للسامية، فالنازية، ففرانكو – أم مثلا الطبقة الراقية، فالحرب، فموسكو، فنجرين؟ – أم ربما الستربتيز، فالحداثة، فالراديكالية، فالجمهوريون – وبينما يفكر هكذا بلا جدوى، طلبت فيرجينيا من

الشاب أن يروى لهم ما فعله فى إسبانيا، وعندما تململ أصرّت - لأن المسألة شيقة جدا، ولأن المقدمة لم تسمعها من قبل، وأيضا فى النهاية، لأنها تريده أن يفعل ذلك.

أطاع پيت. تحدث بلغة نصف مفهومة، مفرداتها مزيج من العامية الركيكة والكليشيهات، مزينة بألفاظ سباب وشخير - لغة، كما فكر جيريمى وهو يستمع خفية من خلال بلاغة الدكتور مالدج، بلاغة تتميز بالمفردات البائسة والفقيرة والتى تستخدم عندما يخاف شخص ما أن يظنه الآخرون مختلفا اجتماعيا، أو متفوقا عليهم بعدم ديمقراطيته، أو متباهيا بثقافته الرفيعة، وبدون روح رياضية، والتى يستخدمها أغلب الشباب الأمريكى والإنجليزى - وبدأ يشرح تجاربه كمتطوع فى اللواء الدولى فى الأيام البطولية لعام ١٩٣٧. كانت بالفعل رواية مؤثرة. بالرغم من اللغة غير الملائمة، والميئوس منها، استطاع جيريمى أن يستشف حماس الشاب للحرية والعدل، وجرأته، وحبه لزملائه، وشعوره الجارف بالحنين للماضى، حتى فى وسط هذا الجو الذى توجد فيه هذه الشفة العليا القصيرة، وحتى فى وسط البحث العلمى الذى يستغرقه، لأن حياة الرجال يجمعها الولاء لقضية ما، تجعلهم يقفون فى وجه الصعوبات، والخطر المشترك، والموت المحتم.

ظل يكرر:

- آه كانوا شباناً رائعين.

كانوا كلهم رائعين - ناد الذى أنقذ حياته ذات مرة هناك فى الأراجون، وأنطون وماك والمسكين دينو الصغير الذى قُتل، وأندريه الذى فقد ساقه، وجان الذى كان متزوجا وله ابنتان، وفريتز الذى قضى ستة أشهر فى معسكرات النازية، وكل الباقين - أفضل مجموعة أولاد فى العالم. وماذا فعل هو لهم، غير إصابته

بحمى روماتيزمية، ثم فطريات - مما كان يعنى إيقافه عن الخدمة العملية، وإبقاءه جالسا لا يفعل شيئا. أوضح بنبرة اعتذارية أن هذا هو سبب وجوده هنا. ولكن ياه - كم كانت هذه الفترة جيدة! فى ذلك الوقت مثلا، عندما ذهب هو وناد أثناء الليل وصعدا حافة هاوية فى الظلام الدامس، وفاجآ كتيبة من المغاربة وقتلا نصف دستة منها ثم عادا ومعهما رشاش وثلاثة أسرى...

- وما رأيك فى العمل الخلاّق يا مستر بورديج؟

فاجأه السؤال وأحس فورا بالذنب لعدم انتباهه المشين، فتمتم العمل الخلاّق؟ محاولا كسب بعض الوقت، ثم قال ثانية:

- العمل الخلاق؟ بالطبع أنا معه تماما. بالتأكيد.

قال الدكتور مالدج:

- أنا سعيد بقولك هذا لأن هذا ما أريده فى طارزانا. العمل الخلاّق - الخلاّق أكثر وأكثر. هل أقول لك ما هو أقصى طموحى؟

لم يرد المستر ستويت ولا جيريمى، ولكن الدكتور مالدج قال لهم رغما عنهم:

- أن أجعل طارزانا مركزا حيويا للحضارة الجديدة التى جاءت لتزدهر هنا فى الغرب.

رفع يداً كبيرة بدينة، وأكمل فى تأكيد ووجوم:

- أثينا القرن العشرين على شفا أن تتجلى هنا فى لوس أنجيلوس العاصمة. أريد طارزانا أن تكون بارثينونا [١٣] لها، وأكاديميتها، وأن تكون مثل الستوا [١٤] فى هذه البلد، ومعبدا لآلهة الموسيقى والفنون. الدين ، الفن، الفلسفة، العِلم - أريدهم كلهم أن يجدوا بيتا لهم فى طارزانا، ليشعروا الناس بتأثرها من حرَم الجامعة إلى ...

١٣- البارثينون: معبد بنى فوق الأكروبوليس بأثينا فى القرن الخامس.
١٤- ستوا: مبنى على الطراز الإغريقى القديم.

بينما يحكى بيت عن المغاربة والهوة السحيقة، لاحظ أن المقدمة فقط كانت تستمع له، أما فيرجينيا فقد التفتت بعيدا، خلسة فى البداية، ثم صراحة ومجاهرة - التفتت إلى يسارها، حيث صديقتها الأقل شقراوية تجلس، والدكتور أوبيسبو يهمس لها شيئا.

قالت فيرجينيا:

- ماذا؟

مال الدكتور أوبيسبو عليها ، وبدأ ثانية. تلامست الثلاث رؤوس: السوداء الناعمة الزيتية، والبنية المجعدة، والبنية الفاتحة اللامعة، . من وجوههم، استطاع بيت أن يستشف أن الدكتور أوبيسبو يقص عليهم واحدة من قصصه القذرة. عاوده الألم الذى شعر به فى قلبه، مثل ذلك الذى أصابه حينما ابتسمت له، وطلبت منه أن يحكى لهما عن أسبانيا. كان ألما مُركبا، خليطاً من الغيرة وإحساساً بالضياع واليأس وعدم القيمة، وخوفاً من أن يقوم أحدهم بإفساد ملاكه، بل وخوفًا آخر أكثر عمقا، رفض عقله أن يقبله، وهو الخوف من أنه لا يوجد إفساد أكثر من هذا، وأن الملاك ليس ملائكيا كما حمله حبه لها على الاعتقاد. توقف عن الاسترسال فى الرواية ، ولاذ بالصمت.

سألت المقدمة باشتياق، وتعبير إعجاب يملأ وجهها وكأنها تخاطب بطلا تعبده:

- ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

كان يمكن لأى شاب آخر أن يجد ذلك إطراء جميلا، لكنه هز رأسه وقال:

- لا شىء يُذكر.

- ولكن هؤلاء المغاربة...

قال بعصبية:

– اللعنة! ماذا يهم على أية حال؟

غرقت كلماته وسط انفجار ضاحك، جعل الثلاثة رؤوس المتآمرة، السوداء والبنية والبنية الفاتحة الجميلة، تطير بعيدا عن بعضها بعضاً. نظر إلى فيرجينيا فرأى وجهها مشوها من المرح. ولكن على ماذا؟ أخذ يسأل نفسه في ألم شديد، محاولا قياس مدى فسادها، وجاءته فجأة الذاكرة التليسكوبية الاصطناعية عن كل حكايات الأولاد في المدرسة، وكل هذه النكات والمقطوعات الشعرية الهزلية التي قد سمعها آنذاك.

هل كانت تضحك على هذه؟ أم تلك؟ أو، يا إلهي، ربما هذه؟ تمنى وصلى ألا تكون. لكن كلما تمنى وصلى، تأكد أكثر لدرجة الجنون، أنها هي التي تضحكها.

كان الدكتور مالدج يقول:

– ... وفوق كل هذا، العمل الخلاّق في الفنون. ومن ثم الاحتياج المُلِح لمدرسة للفنون – مدرسة تليق بطارزانا، وتليق بأعلى تقاليد الـ...

استمرت ضحكات الفتيات العالية منفجرة بقوة من المرح تعادل قوة التابو الاجتماعي المحيط بهن. التفت المستر ستويت بحدة تجاه الصوت وقال في نبرة شك واضحة:

– ما النكتة؟

لن يترك البيبي تستمع لمثل هذه القاذورات. إنه لا يوافق على القاذورات أمام الآخرين، بكل كيانه، مثلما كانت تفعل جدته التي من بليموث.

سأل:

– ما كل هذا الضجيج؟

جاءت الإجابة من الدكتور أوبيسبو. إنه يروى لهم قصة مضحكة كان قد سمعها فى المذياع. قدم هذا الشرح بأدب جم، كاد يكون ساخرا. إنها نكتة ممتعة حقا، فربما يريد المستر ستويت أن يعيدها له؟

تململ المستر ستويت بعنف، واستدار بعيدا عنه.

نظرة على وجه مضيفه الغاضب، أقنعت الدكتور مالدج أنه من الأفضل أن يؤجل الحديث عن مدرسة الفنون لوقت آخر يكون مناسبا. إنه لشىء محبط، لأنه كان يعتقد أنه يحرز تقدما ملحوظا فى الموضوع. ولكن ها هى! مثل هذه الأشياء تحدث أحيانا. كان الدكتور مالدج رئيسا للكلية ، ولذلك كان فى احتياج مزمن للتبرعات. لكنه يعرف كل شىء عن الأثرياء، فيعرف مثلا، أنهم مثل الغوريللات، كائنات يصعب ترويضها، شكاكة بعمق، تمل بسرعة، ضيقة الروح. ينبغى الاقتراب منها بحرص، والتعامل معها برقة ودهاء كبيرين. وحتى بعد كل هذه الاحتياطات، يمكنها فجأة أن تصبح متوحشة، وتُريك أسنانها. نصف عمر من التجارب مع رؤساء البنوك، وأرباب تجارة الصلب، وتجار اللحوم المتقاعدين، علّمت الدكتور مالدج أن يأخذ مثل هذا الذى حدث اليوم، بصبر فلسفى حقيقى، وببشاشة وابتسامة على وجهه الكبير الإمبريالى الرومانى. لذلك كله، استدار إلى جيريمى وقال:

– ما رأيك فى طقسنا الكاليفورنى يا مستر بورديج؟

فى تلك الأثناء كانت فيرجينيا قد لاحظت التعبير على وجه بيت، واستطاعت فورا تخمين سبب تعاسته. مسكين بيت. ولكن حقا، لو كان يظن أنه ليس لديها شىء تفعله أفضل من الاستماع لحديثه عن هذه الحرب الغبية فى إسبانيا – أو إن لم تكن إسبانيا، فكان الحديث عن المعمل، وإذا كانوا يقومون بالتشريح هناك، والذى

هو فى الواقع شيء بشع، لأنه فى النهاية عندما تذهب للصيد فالحيوانات لديها الفرصة للهرب، خاصة لو كنت لا تعرف الصيد مثلها. ثم إن الصيد فيه الكثير من الإثارة، ويمكنك أن تشعر بسعادة وأنت فوق هناك، فى الجبال وفى الجو الجميل، أما بيت فإنه يقوم بتقطيعها تحت الأرض، فى ذلك القبو... لا، لو كان يظن أنه ليس لديها شيء أفضل تفعله سوى ذلك، فهو مخطيء خطأ جسيما. على أية حال إنه ولد لطيف، ولكن بالنسبة لكونه يحب فهذا شيء آخر! أن يكون حولك أشخاص تشعر هكذا نحوك، لأن هذا يعطيك شعورا جيدا نوعا ما. ولكن قد يكون ذلك مصدرا للضيق أحيانا، لأنهم يشعرون أن لهم شيئا ما عليك، فيظنون أن من حقهم أن يقولوا لك أشياء، ويتدخلون فى حياتك. لا يفعل هذا بيت بالكلام، وإنما كانت له طريقة ما فى النظر إليك – مثلما قد يفعل كلب ما إذا بدأ فجأة فى توجيه نقد إليك لأنك تناولت كوكتيلا آخر. إنه يقولها بعينيه، مثل هيدى لامار[١٥] – ولكنها ليست نفس ما تقوله هيدى بعينيها، بل فى الواقع العكس تماما. وكان هذا العكس الآن – وماذا فعلت؟ مللت من هذه الحرب الغبية واستمعت لما يقوله سيج لمارى لو. على أية حال كل ما يمكن قوله، هو أنها لن تجعل أحدا يتدخل فى طريقة اختيارها لحياتها. هذا شأنها هى وحدها. بل إنه سيء فى طريقة نظرته إليها، مثل العم چو، أو أمها، أو الأب أورايلى. إلا أن هؤلاء بالطبع لم ينظروا فقط، بل كانوا يقولون أشياء أيضا. إنها تعلم أنه لا يقصد شيئا سيئا بالطبع، مسكين بيت. إنه فقط طفل بلا تجارب، وفوق كل شيء يحب مثل الأطفال – مثل تلميذ مدرسة الثانوية فى صورة دينا ديربن الأخيرة. مسكين بيت. حظه سيء. ولكن الواقع لا تشعر تجاه هذا النوع من الشباب بأية جاذبية، وهو النوع الكبير الأشقر الذى يشبه كارى جرانت[١٦]. لا تنجذب لهم، وهذا كل ما فى الأمر. كانت تستلطفه، وتستمتع بكونه مغرما بها. ولكن هذا كل ما فى الأمر.

عبر المائدة شدت عينيه، وأعطته ابتسامة مبهرة، ودعته، إن كان لديه نصف ساعة فارغة بعد الغداء، ليأتى ويعلمها هى والبنات كيف يقذفن حدوة الحصان.

١٥– هيدى لامار: ممثلة أمريكية.
١٦– كارى جرانت: ممثل أمريكى.

الفصل السابع

أخيرا انتهى الغداء، وانفض الحفل. كان لدى الدكتور مالدج موعد فى باسادينا، لمقابلة أرملة تاجر كاوتشوك، والتى ربما تعطيه ثلاثين ألف دولار لبناء بيت طالبات. أما مستر ستويت فقد ذهب إلى لوس أنجيلوس لحضور اجتماع مجلس الإدارة المعتاد ظهر كل يوم جمعة، وللقيام ببعض الاستشارات العملية. الدكتور أوبيسبو قال إنه سيجرى عملية على بعض الأرانب، لذلك نزل إلى المعمل لتجهيز الأدوات، بينما بيت ينبغى أن يطلع على مجموعة من الدوريات العلمية ، ومع ذلك أعطى نفسه بضع دقائق من السعادة فى صُحبة فيرجينيا. أما بالنسبة لـ جيرنيمى فلديه قراءة بعض أوراق الهوبيرك. كاد شعوره بالارتياح يكون ملموسا، وكأنه عائد إلى بيته حيث ينتمى، عائد إلى السطح. مرت فترة الظهيرة – وبأية فرحة، وأية مكاسب! خلال ثلاث ساعات، اكتشف مجموعة أخرى من خطابات موليئوس[1] وسط كتب الحسابات والمراسلات العملية. كذلك الجزئين الثالث والرابع من فيليشيا، وطبعة مصورة من أبواب الكرمة، وأيضا، نسخة من أندر أعمال الماركيز الإلهى وهى المائة وعشرون يوما لسدوم [2]، ملفوفة مثل كتاب صلاة. أى كنز هذا! أى حظ غير متوقع! أو ربما ، فى الواقع، كان متوقعا، إذا أخذ فى الاعتبار تاريخ عائلة الهوبيرك. لأن تاريخ الكتب يرجح أنها ملك للإيرل الخامس – الرجل الذى حمل اللقب أكثر من نصف قرن، ومات فى سن تفوق التسعين، فى عصر ويليام الرابع، غير تائب على الإطلاق. وأخذاً فى الاعتبار شخصية الرجل، لا يوجد سبب يدعو للدهشة من وجود مخزون من الأشياء الإباحية – بل إن لديه

١- موليئوس: نسبة إلى ميجويل موليئوس (١٦٤٠–١٦٩٦) قس أسبانى ومؤسس طائفة الكوايتيست، ومن أشهر كتاباته ((الدليل الروحى)) التى نشرت عام ١٦٧٥ .

٢- الماركيز الإلهى: اسم أطلق على الماركيز دى ساد، (١٧٤٠–١٨١٤) الكاتب الفرنسى الذى تنسب إليه اسم السادية، ومن أشهر أعماله المائة يوم فى سدوم والتى كتبها عام ١٧٨٥ .

أسباباً عديدة فى الواقع، ليأمل فى المزيد منها.

ارتفعت روح چيريمى المعنوية مع كل اكتشاف جديد، وكدليل أكيد على السعادة، بدأ يدندن كعادته، الأنغام التى كانت مشهورة أثناء طفولته. موليئوس أخرج منه نغمات «تارارارا، بووم دى داى». وفيليشيا وأبواب الكرمة اشتركتا فى النغمة الموسيقية لزهر العسل والنحل، بينما المائة وعشرون يوما لسدوم والتى لم يقرأها من قبل أو حتى رأى نسخة منها، فإن اكتشافها أسعده لدرجة أنه، كنوع من الروتين البيبليوغرافى، رفع الغطاء الكَنسى، وتوقع أن يرى الطقوس الأنجليكانية، لكنه وجد بدلا منها النثر الراقى البارد للماركيز دى ساد، فانفجر فى نغمة الوردة والخاتم، وهى نغمة علمتها له أمه، ليكررها عندما كان فى الثالثة من عمره، والتى بقيت معه كرمز للبهجة والدهشة الطفولية، وكرد فعل مناسب تماما لأى بركة مفاجئة تحل عليه، أو أية مفاجأة سعيدة إلهية.

« آه، أية سعادة أن نحصل على كعكة البرقوق،

كم أتمنى ألا تنتهى»

ولحسن الحظ أنها لم تنته، بل لم تبدأ بعد. الكتاب لا يزال غير مقروء، وبيت التسلية والتعليم لا يزال أمامه. متذكرا إحساس الغيرة الذى انتابه هناك فوق، فى حمام السباحة، ابتسم لنفسه. فليأخذ مستر ستويت كل الفتيات التى يريدها، لكن قطعة واحدة من الأدب المكشوف من القرن الثامن عشر،المكتوب بشكل جيد، أفضل من أية مونسيبل. أغلق المجلد، فرأى الغطاء المصنوع من جلد الماعز المدبوغ المزخرف، خشنا وأنيقا، ومكتوب فوق الغلاف «كتاب الصلاة العامة»، مدموغة بالذهب الذى لم تستطع السنوات أن تمحوه. وضعه مع الشىء الغريب الآخر، فى جانب من مكتبه. عندما ينتهى من عمله فى المساء، سوف يأخذ

المجموعة كلها معه، إلى غرفة نومه.

« آه، أية سعادة أن نحصل على كعكة البرقوق»

استمر فى الغناء أثناء فتح مجموعة أخرى من الأوراق، ثم غنى:

« ذات مساء صيفى حيث زهر العسل وكل الطبيعة هادئة»

هذه اللمسة الوردزورثية عن الطبيعة دائما تعطيه سعادة خاصة. اتضح أن مجموعة الأوراق الجديدة عبارة عن مراسلات بين الإيرل الخامس ومجموعة من الويجز[٣] بخصوص شرائه ثلاثة آلاف فدان من الأراضى فى نوتنجهامشاير. وضعهما چيريمى فى ملف، وكتب محتوياته باختصار على كارت، ووضع الملف فى الدولاب والكارت فى الدرج الخاص به، ثم عاد وغرق مرة أخرى فى الكعكة، وتناول مجموعة أخرى. قطع الرباط.

« أنت زهرتى، زهرة العسل، وأنا النحلة».

ما رأى الدكتور فرويد فى هذا؟ كانت المطبوعات بدون اسم كاتبها، وكانت ضد الألوهية، إلا أنها كانت مملة، فرماها جانبا. ولكن ها هى نسخة من النداء الجاد للو[٤] مع تعليقات من إدوارد جيبون[٥]، وها هى بعض الحسابات المقدمة من المستر روجرز من ليفربول، للإيرل الخامس، وهى حسابات مصروفات وأرباح ثلاث رحلات استكشافية لتجارة الرقيق، والتى ساهم الإيرل فى تمويلها. يبدو أن الرحلة الثانية كانت ذات فأل طيب، إذ أن خُمس البضاعة نفقت فى الطريق، ومن ثم حققت أسعارا عالية ومرضية فى سافانا. كان المستر روجرز يرجو الإيرل أن

٣- الويجز: حزب إنجليزى ليبرالى.

٤- لو: نسبة إلى ويليام لو (١٦٨٦-١٧٦١) كاتب لاهوتى أثار جدلا كثيرا، واشتهر بكتابه «النداء الجاد لحياة التقوى والكمال المسيحى» الذى نشر عام ١٧٢٩، وقيل عنه إنه أفضل ما كتب فى هذا الموضوع على الإطلاق من حيث الشكل والمضمون.

٥- إدوارد جيبون: (١٧٣٧-١٧٩٤) سياسى وكاتب إنجليزى، ومن أشهر كتاباته، كتاب «التاريخ» الذى قدم فى بعض فصوله نقدا لاهوتيا، مما أثار حفيظة بعضهم فرد عليها بكتب أخرى.

يبعث حوالة مالية قدرها سبعة عشر ألفا ومائتين وأربعة وعشرين جنيها، وأحد عشر شلنا، وأربعة بنسات. ثم خطاب من فينيسيا، مكتوب بالإيطالية، حيث أعلن كاتبه لنفس الإيرل الخامس عن ظهور نصف مريم المجدلية لتيتيان [٦] في السوق، بسعر وصفه المراسل الإيطالي بأنه تافه. وقد حصل البائع على عروض أخرى، لكنه، احتراما للعلامة الإنجليزي المبجل، سوف ينتظر ردا من سعادته، لكنه بالرغم من ذلك، ينصح سعادته بألا يتأخر عليه طويلا وإلا...

كانت الساعة الخامسة، وقد بدأت الشمس تغيب في السماء، فجاءت فيرجينيا لتشاهد موعد إطعام الببوانات، مرتدية حذاء وجوربا وشورتا أبيض، وكابا و سويتر حريرياً ورديّ اللون.

أطفأت موتور السكوتر الوردية، وركنتها بجانب الرصيف على بعد ثلاثين أو أربعين قدما فوق القفص. نزلت بمصاحبة الدكتور أوبيسبو وبيت، لترى الحيوانات عن قرب.

أمامهم مباشرة، فوق صخرة اصطناعية، جلست ببوانة أم، تمسك بين ذراعيها جثة طفلها اليابسة، والتي بدأت تتفكك، وقد رفضت التخلي عنها بالرغم من مرور أربعة عشر يوما على وفاته. بين الحين والآخر، في مودة عنيفة ولا إرادية، كانت تلعق الجسم الشاحب الصغير. فكانت خصلات من الشعر الأخضر وقطع من اللحم تتفكك تحت وطأة حركة لسانها العنيفة. وبرقة بالغة بأصابعها السوداء، كانت تنتقي الشعر من فمها، ثم تبدأ من جديد.

فوقها، في فوهة الكهف الصغير، بدأ ببوانان شابان يتصارعان. امتلأ الجو

٦- تيتيان: نسبة إلى تيزيانو فيتشيللي، رسام إيطالي من فينيسيا (١٤٨٧-١٥٧٦) .

بالصراخ والنباح وصرير الأسنان، إلى أن هرب أحدهما، وفى لحظة كان الآخر قد نسى الصراع، وبدأ يبحث عن بعض القشر فوق صدره. إلى اليمين، فوق صخرة أخرى، وقف ببوان هائل عجوز، بخطمه الجلدى، وشعره الرمادى القصير مثل علماء اللاهوت الأنجليكانيين من القرن السابع عشر، حارسا على أنثاه الخاضعة. كانت حراسة شديدة، إذ كلما حاولت الحراك بدون إذنه كان يستدير فورا ويقضمها، بينما عيناه الصغيرتان السوداوان، وفتحتا أنفه فى نهاية خطمه الطويل، ظلتا تلتفتان هنا وهناك بشك لا ينام. رمى بيت قطعة بطاطس من السلة التى يحملها فى اتجاهه، ثم عاد فرمى قطعة جزر ثم قطعة بطاطس أخرى. بوميض مفاجىء لمؤخرته الحمراء، اندفع نازلا من وقفته على الجبل الصناعى، وخطف الجزرة، وبينما هو يأكلها، حشر قطعة البطاطس فى خده الأيسر، والأخرى فى الأيمن، ثم وهو لا يزال يقضم الجزر، تقدم نحو السلك ونظر طالبا المزيد. كان الطريق ممهدا. الببوان الشاب الذى كان منهمكا فى البحث عن القشر وجد فرصته فجأة. مرتعشا من الانفعال، وثب إلى المكان الذى تجلس فيه الأنثى فى خوف حتى من أن تتبع سيدها. وخلال ثوان معدودة بدآ يتضاجعان.

صفقت فيرجينيا فى سعادة وصاحت:

– أليست جميلة؟ أليست مثل الإنسان؟

ضجيج وصراخ تاليان أغرقا كلماتها.

قطع بيت توزيع الطعام ليقول إنه قد مر وقت طويل منذ أن رأى المستر بروبتر، فلماذا لا يذهبون جميعا وينزلون الجبل لزيارته؟

قال الدكتور أوبيسبو:

– من قفص الببوانات إلى حقل بروبتر، ومن حقل بروبتر عودة إلى منزل

ستويت، وبيت كلاب مونسيبل. ما رأيك يا ملاكي؟

كانت فيرجينيا منهمكة، ترمي البطاطس للقرد الكبير بحيث تجبره على أن يستدير ويتقهقر للوراء نحو المكان الذي ترك فيه أنثاه. كانت تأمل أنه إذا استدار، سيتمكن من رؤية كيف تقضي صديقته وقتها في غيابه. قالت دون أن تستدير:

– نعم، دعونا نذهب لنرى بروبي العجوز.

قذفت قطعة بطاطس أخرى في القفص. بحركة سريعة من شعره القصير الرمادي، هجم البببوان عليها، ولكن بدلا من النظر إلى أعلى، ورؤية مدام ميم تطارح الرجل الثلجي الغرام، التفت الحيوان المثير للسخط فورا ناحية السور، طالبا المزيد. صاحت فيرجينيا: «أيها العجوز الأحمق!!»، وقذفت قطعة البطاطس هذه المرة عليه مباشرة، فاصطدمت بأنفه. ضحكت واستدارت إلى الآخرين وقالت:

– يعجبني بروبي العجوز. يخيفني قليلا، ولكنه يعجبني.

قال الدكتور أوبيسبو:

–حسنا إذن،لنذهب إلى المستر بورديج في طريقنا ونحضره معنا.

وافقت فيرجينيا وقالت:

– نعم هيا بنا لنحضر العاج العجوز.

ربتت على خصلاتها البنية، إشارة إلى صلعة چيريمي، وأضافت:

– إنه ظريف نوعا ما، ألا تظن ذلك؟

صعدا الطريق تاركين پيت يكمل إطعام البببوانات، وصعدوا سلما على الناحية الأخرى منه، يؤدي مباشرة إلى نافذة حجرة چيريمي المنحوتة في الصخر. فتحت فيرجينيا الباب الزجاجي وصاحت:

– أيها العاج، لقد جئنا لنضايقك.

بدأ چيريمى يتمتم بشىء مضحك وفيه مروءة، ولكنه توقف فى منتصف الجملة. تذكر فجأة مجموعة الأدب المدهشة الموضوعة على جانب مكتبه. لو قام ووضع الكتب فى الدولاب، سيشد الانتباه إليها، ثم إنه لا توجد جريدة ليغطيها بها، ولا أية كتب أخرى ليخبئها وسطها. لا يوجد شىء يستطيع أن يفعله. لا شىء سوى الأمل فى حدوث أفضل الممكن. ولأنه تمنى ذلك بشدة، فقد حدث الأسوأ فورا. رفعت فيرچينيا أحد أجزاء نيرسيات، لا لشىء سوى الرغبة فى عمل شىء عضلى مهما كانت تفاهته، وفتحته على إحدى الصور الدقيقة جدا، ألقت نظرة واحدة عليها، ثم بعينين مفتوحتين على آخرهما، نظرت مرة أخرى إليها، وأطلقت صوتاً فيه دهشة وذهول. نظر الدكتور أوبيسبو وصاح أيضا، ثم انفجر الاثنان ضاحكين بصوت عالٍ.

جلس چيريمى يشعر بالإحراج والتعاسة، وابتسم بوهن، عندما سألاه عما إذا كانت تلك هى الطريقة التى يقضى بها وقته، وعما إذا كانت تلك هى الأشياء التى يدرسها. تمنى چيريمى لو كان الناس غير متعبين بهذه الطريقة، ولا يتعاملون هكذا بلا لباقة وبشكل قمىء.

قلبت فيرچينيا الصفحات حتى وجدت رسما آخر. مرة أخرى علت صيحات الدهشة، ولكن هذه المرة كانت صيحات عدم التصديق أيضا. هل هذا ممكن؟ هل يمكن أن يحدث هذا فعلا؟ قرأت التعليق المكتوب بالفرنسية أسفل الرسم :

ـ «الشهوانيون يقرعون كل الأبواب».

هزت رأسها فى تكدر واضح. هذا سىء، لأنها لا تستطيع أن تفهمه. كانت دروس اللغة الفرنسية أيام الدراسة الثانوية فظيعة، وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنها. لم يعلّموها شيئا سوى الكلام الفارغ مثل «هذا قلم عمى» و «هل تعرف كيف

تزرع الشو؟». دائما تقول إن الدراسة مضيعة للوقت، وقد ثبت لها هذا الآن. ثم لماذا طبعوا هذا الشيء باللغة الفرنسية على أية حال؟ بدأت الدموع تترقرق فى أعين فيرجينيا، لمجرد التفكير فى عيوب النظام التعليمى فى ولاية أوريجون، والذى حرمها من قراءة أندريه دى نيرسيات. إنه شيء مؤسف حقا!

فجأة جاءت لچيريمى فكرة رائعة حقا. لماذا لا يعرض عليها ترجمة الكتاب جملة جملة، كالمترجم الفورى باجتماعات مجلس عصبة الأمم؟ نعم، ولم لا؟ كلما فكر فى الفكرة أعجبته أكثر. اتخذ قرارا، وبينما يفكر فى صياغة العرض فى جمل مفيدة، رفع الدكتور أوبيسبو الكتاب من يد فيرجينيا بهدوء، ورفع ثلاثة أجزاء أخرى من على المكتب، بالإضافة إلى أبواب الكرمة و الأيام المائة وعشرين لسدوم ووضعها كلها فى جيب سترته الجانبى، ثم قال لفيرجينيا:

– لا تقلقى. سأقوم بترجمتها لك. والآن دعونا نعود للببوانات. سوف يتساءل بيت عما حدث لنا. هيا بنا يا مستر بورديج.

سار چيريمى خلفهما عبر الباب الفرنسى، ونزل السلم فى صمت وغليان داخلى، وغضب من نفسه بسب عدم كفاءته، ووقاحة الدكتور أوبيسبو.

كان پيت قد أفرغ سلته وكان مستندا إلى السور، يتابع بعينيه بدقة، تحركات الحيوانات فى الداخل. عندما اقتربوا استدار ناحيتهم، فبدا وجهه الشاب مبتهجاً ولامعاً من الفرحة.

قال:

– أتعلم يا دكتور، أعتقد أن له مفعولا.

قالت فيرجينيا:

– ما الذى له مفعول؟

جاءتها إجابة بيت الباسمة، تملأها السعادة. كم كان سعيدا! مرتين وثلاث مرات سعيدا، بسبب تصرفاتها اللطيفة، فقد عوّضت فيرجينيا الألم الذى سببته له عندما التفتت لتلك القصة القذرة. وعلى كل، ربما لم تكن قصة قذرة فى النهاية، وقد ظلمها، وظن فيها السوء دون داع. لا، بالتأكيد لم تكن قصة قذرة – ليست قذرة. لأنها عندما استدارت له، كان وجهها مثل وجه هذه الطفلة فى صورة الكتاب المقدس فى منزله، والتى تنظر ببراءة ولطف، بينما المسيح يقول «من هذا ملكوت السموات». ولم يكن هذا السبب الوحيد لسعادته. كان أيضا سعيدا لأن المزرعة البكتيرية على فطريات الشبوط، أثبتت بالفعل أن لها تأثيراً على الببوانات التى استُخدمت فى التجربة.

قال لهم شارحا:

– أعتقد أنهم أصبحوا أكثر حيوية. حتى فروتهم تبدو أكثر لمعانا.

أعطاه هذا شعورا بالرضاء، تماما مثل وجود فيرجينيا الذى يزيد ضوء الشمس علىّ فى المساء، ومثل التفكير فى لطفها معه، والاقتناع المشجع ببراءتها المحتمة. فى الواقع، وبطريقة غير مفهومة، كانت حيوية الببوانات ولطف فيرجينيا مرتبطين – ليس فقط ببعضهما بعضاً، ولكن أيضا بإسبانيا فى ولائها ومحاربة الفاشية. كانت الأشياء الثلاثة مختلفة، ولكنها شىء واحد... كان قد تعلم بعض الشعر فى المدرسة، ماذا يقول؟

«لا أستطيع أن أحبك أكثر يا حبيبتى

لو لم أكن أحببت شيئا أو آخر(لا يستطيع أن يتذكر ماذا) أكثر»

لم يكن يحب أى شىء أكثر من فيرجينيا.

ولكن اهتمامه بالعلم والعدل، واهتمامه بأبحاثه والأولاد هناك فى إسبانيا، أثار

شيئا ما معا، ليجعل حبه لها أكثر عمقا، بل إنه يشعر أنه يحبها من كل قلبه، بالرغم من كون هذا نوعا من التناقض.

أخيرا قال:

- إذن هيا نتحرك.

نظر الدكتور أوبيسبو إلى ساعة يده وقال:

- عليّ أن أكتب بعض الخطابات قبل موعد العشاء. أعتقد أنى سأرى المستر بروبتر فى وقت آخر.

قال بيت محاولا أن يُظهر أسفاً مهذباً، لا يعنيه فى واقع الأمر:

- هذا مؤسف حقا.

لقد كان معجبا بالدكتور أوبيسبو، بل ويعتقد أنه باحث غير عادى - ولكنه ليس من النوع الذى ينبغى أن تتعامل معه فتاة بريئة وصغيرة مثل فيرجينيا. كان يخاف عليها من تأثير تهكمه الدائم وصلابته. ثم بالنسبة لعلاقته هو بفيرجينيا، كان الدكتور أوبيسبو يشكل عقبة دائمة.

قال مرة أخرى «هذا مؤسف حقا»، وقالها بسعادة عميقة، حتى كاد يجرى صاعداً السلم المؤدى إلى قفص الببوانات، ليصل إلى الشارع - وقد جرى سريعا بالفعل، حتى إن قلبه بدأ ينبض بشدة، وبدأ يفقد بعض نبضاته. اللعنة على هذه الحمى الروماتيزمية!

رجع الدكتور أوبيسبو خطوتين للوراء، ليسمح لفيرجينيا بالمرور، ثم ربت على الجيب الذى يحوى الأيام المائة والعشرين لسدوم، وغمز لها بعينه، فغمزت له فيرجينيا، وتبعت بيت، صاعدة السلم.

بضع دقائق أخرى، وكان الدكتور أوبيسبو يسير صاعدا الشارع، بينما

الآخرون ينزلون فى الاتجاه المضاد. أو، بدقة أكثر، كان پيت وچيريمى سائرين، بينما فيرجينيا، والتى لا تستطيع مجرد التفكير فى استخدام قدميها للذهاب من مكان إلى آخر، جلست على السكوتر الوردية والمختلطة بالأبيض، ووضعت يدها على كتف پيت، وسمحت لقوة الجاذبية بسحبها.

تلاشى صوت الببوانات خلفهم، وبعد المنحنى الأول للطريق كانت الجيامبولونيا واقفة، ولم تزل المياه تتدفق من صدرها اللامع دون كلل. قطعت فيرجينيا فجأة حديثها عن كلارك جيبل وقالت بصوت مجاهدة ضد اللا-أخلاقيات، وفى تذمر تقى وورع:

– لا أفهم لماذا يسمح الْعم چو بوقوف هذه هنا. إنها مثيرة للاشمئزاز.

قال چيريمى فى دهشة:

– الاشمئزاز؟

قالت بتأكيد:

– الاشمئزاز!!

سأل وهو يتذكر عُريها فى قطعتىْ الساتان اللتين كانت ترتديهما هناك فى حمام السباحة:

– هل تعترضين على كونها بلا ملابس؟

هزت رأسها تنفى بعصبية:

– إنها الطْريقة التى تخرج بها الماء.

كان التعبيرعلى وجهها كمن تذوق شيئا كريها.

– أعتقد أنه شىء بشع.

وكان هذا هو كل الإيضاح الذى استطاعت أن تعطيه. طفلة فى عمرها، وهو

فى هذه الحالة، عمر زجاجة الرضاعة وحبوب منع الحمل، شعرت بالغضب الشديد من هذه القطعة التى تشى بعدم اللياقة، الآتية من زمن بعيد مضى. كانت شيئا بشعا. هذا كل ما يمكن أن يقال عنها. استدارت الى پيت واستمرت تتحدث عن كلارك جيبل.

تركت فيرجينيا السكوتر أمام مدخل الكهف المقدس. كان العمال قد أنهوا عملهم فى المقبرة وذهبوا، فكان خاليا. ضبطت فيرجينيا الكاب المائل الأنيق، كنوع من الاحترام، وجرت على السلم، وتوقفت عند العتبة ورشمت الصليب قبل الدخول، ثم ركعت بضع ثوان أمام الصورة. انتظر الباقون فى الشارع فى صمت.

أوضحت فيرجينيا لچيريمى عندما خرجت ثانية قائلة:

– السيدة العذراء كانت عظيمة معى عندما كنت أعانى من جيوبى الأنفية فى الصيف الماضى، ولهذا جعلت العم چو يقيم لها هذا الصرح. ألم يكن رائعا عندما جاء المطران لتدشينها؟

التفتت إلى پيت. هز پيت رأسه بالإيجاب.

استمرت فيرجينيا من فوق السكوتر، وقالت:

– لم تصبنى ولا حتى نزلة برد منذ أن جاءت هنا.

كان وجهها لامعا بالانتصار، كل نصر لملكة السموات، كان أيضا نصرا شخصيا لفيرجينيا مونسيبل. ثم فجأة بدون إنذار، مرت بيدها على جبهتها، وكأنها تقوم باختبار سينمائى وتسلمت توا الأمر بتمثيل الإرهاق والشفقة على النفس، وفى صوت يملؤه الاكتئاب ووهن العزيمة، قالت:

– على أية حال أنا متعبة هذا المساء. أعتقد أننى ظللت فى الشمس مدة طويلة بعد الغداء مباشرة. يستحسن أن أذهب لأستريح قليلا.

ويمودة لكن بحزم، رفضت عرض بيت بالعودة معها إلى القصر، وأدارت السكوتر لتواجه ناحية صعود الجبل. أعطت الشاب نظرة أخيرة وساحرة بشكل خاص، كانت أن تكون بحب شديد، وابتسمت له، ثم قالت: «مع السلامة يا عزيزى»، وأدارت مفتاح السكوتر وانطلقت بسرعة صاعدة الطريق الحاد، حتى اختفت بعيدا عن أنظارهم. بعد خمس دقائق كانت فى حجرتها تحضّر الآيس كريم بالموز، بجانب نافورة الصوداء، وكان الدكتور أوبيسبو جالسا على كرسى مطلىّ ومنجد بألوان الساتان، يقرأ بصوت عال ويترجم بينما يقرأ، الجزء الأول من «الأيام المائة والعشرون لسدوم».

الفصل الثامن

جلس المستر برويتر على مقعد خشبي تحت شجرة اليوكاليبتس الكبيرة. في ناحية الغرب بدت الجبال مثل السيلويت، أمام خلفية السماء المسائية. ولكن إلى اليسار أمامه، بدت المنحدرات العالية حية بالضوء والخيال، وبالألوان الذهبية الوردية وفي عمق اللون النيلي. في المقدمة، ارتدى القصر ثوبا خرافيا ورومانسيا غير مسبوق. نظر مستر برويتر إليه ثم إلى الجبال، ثم إلى أعلى، إلى السماء الباهتة، من بين أوراق شجر اليوكاليبتس الساكنة بلا حراك. أغمض عينيه وردد إجابة الكاردينال بيريول [1] على سؤال «ما هو الإنسان»؟ كان ذلك منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، أثناء كتابة دراسته عن الكاردينال، وقرأ تلك الكلمات للمرة الأولى، وقد أثرت فيه آنذاك لجمال ودقة الصياغة. مع مرور الوقت ونمو تجربته، بدت الكلمات ذات معنى أغنى وذات دلالة أعمق. همس لنفسه: ما هو الإنسان؟ «هو لا شيء يحيط بالله، معوز وقدير بالله، مملوء بالله، إذا أراد». وما هو هذا الإله الذي يمكن للإنسان أن يكون قديرا به؟ أجاب المستر برويتر بالتعريف الذي أعطاه جون تولير[2] في الفقرة الأولى من كتابه إتباع المسيح: «الله منسحب من خليقته، قوة حرة، عمل نقي. الإنسان إذن، هو لا–شيء، يحيط به، وقدير بشخصه، منسحب عن خليقته، لا شيء قادر على القوة الحرة، مملوء بالعمل النقي إن هو أراد». فكر مستر برويتر بنوع من الحزن المرير المفاجيء، «إن هو أراد»! ولكن قلائل هم الذين يريدون، أو، وهم يريدون، يعلمون ماذا يريدون، بل وكيف يصلون إليه! المعرفة الحقيقية نادرة بقدر النية على العمل بها. ومن بين القلائل الذين

١– الكاردينال بيريول: كاردينال وسياسي فرنسي اسمه بيير دي بيرولل (١٥٧٥–١٦٣٩)، اشتهر بقوته وذكائه السياسي، وله العديد من المؤلفات الدينية.

٢– جون تولير: نسبة للواعظ والصوفي الألماني يوهانس تولير (١٣٠٠–١٣٦١) والذي تأثر بكتابات إيكهارت وتوماس أكيناس.

يبحثون عن الله، فإن غالبيتهم يجدون، بسبب جهلهم، انعكاسا لإرادتهم الشخصية، إله الحرب، وإله الشعب المختار، ومجيب الصلوات، والمخلّص.

وبما أن مستر بروبتر انحرف في تفكيره هكذا نحو السلبية، استمر في الانشغال بشيء أقل فائدة، وهو هموم اليوم المادية والخاصة. تذكر لقاءه هذا الصباح مع هانسن، وكيل أعمال چو ستويت في الوادى. كانت معاملة هانسن للمهاجرين العاملين في جمع الفاكهة أسوأ من المتوسط، إذ يستغل أعدادهم واحتياجهم الماس، ليخفض أجورهم. في الحقول التى يديرها، يعمل الأطفال طوال اليوم في الشمس بمعدل سنتين أو ثلاثة سنتات في الساعة. وفي نهاية يوم عمل شاق، يعودون إلى منازل لا تعدو كونها صفوفًا من الحظائر الغاصة بالهوام والحشرات، في الأرض الفضاء بجانب النهر. وكان هانسن يحاسبهم على عشرة دولارات في الشهر، إيجاراً لهذه الحظائر. عشرة دولارات في الشهر لامتياز التجمد والاختناق، ولامتياز النوم في مضاجعة قذرة، ولامتياز أن يأكلك البق والقمل، ولالتقاطك الرمد، وربما دودة الأنكلستوما، أو الدوسنتاريا الأميبية. إلا أن هانسن كان رجلا محترما وطيبا، إذ يصدمه رؤية كلب يتألم، ويطير ليحمي امرأة تُساء معاملتها، أو طفل يبكي. وعندما نبهه مستر بروبتر لذلك، احمر وجه هانسن غضبا وقال:

– هذا مختلف.

حاول المستر بروبتر معرفة لماذا هو مختلف، فأجاب هانسن أن هذا واجبه.

ولكن كيف يمكن أن يتضمن واجبه معاملة الأطفال أسوأ من العبيد، وتطعيمهم بالأنكلستوما؟

إنه واجبه نحو الأملاك، فهو لا يفعل شيئا لنفسه.

ولكن لماذا يكون فعل الخطأ من أجل شخص آخر، مختلفا عن فعل الخطأ

لنفسه؟ النتيجة واحدة فى كلتا الحالتين، فالضحية لا تتأثر بشكل أقل عندما تقوم بما تسميه واجبك ، عنها عندما تقوم بما تتصور أنه من أجل خاطرك أنت.

فى هذه المرة، انفجر الغضب وأصبح شتائم عنيفة. لاحظ مستر برويتر أنه غضب رجل ذى نوايا حسنة، ولكنه رجل غبى، واضطر رغما عنه، أن يسأل نفسه أسئلة محرجة، عن أشياء كان يفعلها بشكل طبيعى من قبل. لا يريد أن يسأل هذه الأسئلة، لأنه يعرف أنه لو فعل، سوف يُجبر إما على الاستمرار فيما يفعل، ولكن بوعى ساخر بأنه يرتكب خطأ، أو، إذا كان لا يريد أن يكون ساخرا، أن يغير نمط حياته كلها ،ليجعل رغبته على فعل الصواب فى توافق مع الحقائق كما أظهرها استجوابه لذاته. وبالنسبة لمعظم الناس، فإن أى تغيير جذرى يعتبر شيئا بغيضا جدا أكثر من السخرية. إن الطريق بين قرنى المأزق هو الاستمرار فى الجهل بأى ثمن، لأن الجهل يسمح للفرد أن يستمر فى ارتكاب الخطأ، وهو يؤمن مرتاح البال، أنه يقوم بواجبه – واجبه نحو الشركة، نحو المستثمرين، نحو المدينة، نحو الدولة، نحو الوطن، ونحو الكنيسة. لأن قضية هانسن المسكين بالطبع ليست فريدة من نوعها بأى حال من الأحوال، ولكنها فقط على نطاق أضيق، وبالتالى له قدرة أقل على ارتكاب الشر. لقد كان يتصرف مثل هؤلاء الموظفين ومسئولى الدولة، والكهنة، الذين يسيرون فى الحياة ينشرون البؤس والدمار باسم معتقداتهم، وبأوامر من مأموريهم المُطلقين.

فكر مستر برويتر بحزن أنه لن يصل لشىء مع هانسن. لابد أن يحاول مرة أخرى مع مستر ستويت ذاته. فى الماضى كان يرفض مستر ستويت دائما الاستماع إليه، تحت دعوى أن الأملاك كانت من اختصاص هانسن. كانت الذريعة مناسبة جدا حتى انه عرف مسبقا أنه من الصعب تكسيرها.

ومن هانسن وجو ستويت، سرحت أفكاره إلى تلك العائلة من عمال التراحيل الآتين من كانساس، والذين جاءوا حديثا، وقام بإعطائهم واحدا من أكواخه. الأطفال الثلاثة وسوء تغذيتهم، بأسنانهم التى بدأت تتآكل فى أفواههم، والمرأة الهزيلة، بسبب - الله أعلم - أية أمراض مركّبة، غارقة فى اللامبالاة والضعف، ثم الزوج الذى يعانى من الامتعاض والرثاء على نفسه، والعنف والوجوم.

ذهب مع الرجل لإحضار بعض الخضروات من الحديقة، وأرنب لعشاء العائلة. جالسا هناك، أثناء تنظيف الأرنب، اضطر للاستماع إلى شكواه غير المفهومة وسخطه. شكواه وسخطه من سوق القمح الذى يكسد فكلما بدأ يربح فيه، ومن البنوك التى اقترض منها ولم يستطع تسديد ما عليه لها، ثم من الجفاف والرياح اللذين حولا أرضه إلى مائة وستين فدانا من التراب والأرض القاحلة، ومن الحظ العاثر الذى كان دائما ضده هو بالذات، ومن الناس التى كانت دائما تسيء معاملته فى كل مكان، طوال حياته.

قصة مألوفة لدرجة الكآبة ! سمعها آلاف المرات من قبل مع بعض الاختلافات. أحيانا كانوا جامعى محاصيل من أقصى الجنوب، استغنى عنهم المُلاك، فى محاولة يائسة لجعل الفِلاحة تدر عليهم مكسبا. وأحيانا أخرى كانوا مثل هذا الرجل، ذوى أراضٍ خاصة، ولكن استغنت عنهم قوى الطبيعة - تلك القوى الطبيعية التى جعلوها هم أنفسهم مدمِّرة، باقتلاعهم الحشائش ولأنهم لا يزرعون شيئا إلا القمح. وأحيانا أخرى كانوا رجالا مأجورين تم استبدالهم بالميكنة. وفى النهاية، كلهم جاءوا إلى كاليفورنيا كما للأرض الموعودة، وكاليفورنيا جردتهم إلى حالة مَدينين ورحّالة، وحولتهم بسرعة إلى منبوذين. أخذ المستر بروِيتر يفكر أن القديس فقط هو الذى يستطيع أن يكون مَدينا ومنبوذا ولكن

ذو حصانة أيضا، لأن القديس يمكن أن يقبل هذا الوضع بسرور وكأنه اختاره بمحض إرادته. الفقر والمعاناة يجعلان الإنسان أكثر نبلاً فقط عندما يكونان اختياريين. أما الفقراء والذين يعانون دون اختيار، فإنهم يصبحون أسوأ من ذى قبل. إنه أسهل لجمل أن يمر من ثقب الإبرة عن أن يدخل رجل فقير بدون إرادته، إلى ملكوت السموات. ها هو مثلا، الوغد المسكين من كانساس . كيف وصل إلى الفقر والمعاناة لا إراديا؟ يستطيع المستر برويتر أن يحكم بنفسه، أن الرجل كان يعوض نفسه عن سوء حظه بالقسوة على من هم أضعف منه. انظر طريقة صراخه فى الأطفال... كلها أعراض مألوفة جدا.

عندما انتهيا من تنظيف الأرنب، قطع مستر برويتر مونولوج رفيقه وقال فجأة:

– هل تعرف أسوأ مقطع فى الإنجيل؟

فى دهشة واستغراب واضح، هز الرجل من كانساس رأسه بالنفى.

قال المستر برويتر وهو يناوله هيكل الأرنب:

– إنه هذا: «لقد أبغضونى بدون سبب» .

تحت شجر اليوكاليبتوس تنهد مستر برويتر متعجبا. إن الشرح لمن هم الأقل حظا أنهم بشكل ما مسئولون بالتأكيد عن سوء حظهم، وتوضيح أن جهلهم وغباءهم كانا عقابا طبيعيا وليس عن ضغينة مقصودة، كانت مهمة غير سارة. دائما غير سارة، ولكن أيضا دائما ضرورية. لأنه أى أمل، وأية بارقة أمل هناك، لرجل يؤمن حقا أنهم أبغضوه بلا سبب؟ وأنه لا دخل له فى مصائبه؟ بالتأكيد لا أمل على الإطلاق. إننا نعرف، كنوع من الواقع المؤلم، أن المصائب والكراهية دائما ليستا بلا سبب. إننا نرى أيضا أن بعض هذه الأسباب هى بشكل عام تحت سيطرة هؤلاء الذين يعانون من تلك المصائب، أو الذين هم هدف أو موضوع الكراهية. إنهم

مسئولون عنها بشكل مباشر أو غير مباشر، وهو مباشر عن طريق التصرفات الغبية والضغائن. وهو غير مباشر بسبب عدم استخدام الذكاء والمودَة قدر استطاعتهم، وإذا قاموا بهذه الاستبعادات، فإن ذلك عامة لأنهم اختاروا تقليد المستويات المحلية وطريقة المعيشة الحالية، دون تفكير. عاد مستر بروبتر يفكر في الرجل المسكين من كانساس . لا شك أن لديه برا ذاتيا، وبالتأكيد يضايق جيرانه، وهو فلاح غير كفء. ولكن تلك ليست كل القصة. إن أسوأ إساءاته كانت قبوله الحياة التي وجد نفسه فيها، كشيء مُسلّم به، ومنطقي وصائب. مثل كل الباقين، سمح لأصحاب الإعلانات أن يضاعفوا احتياجاته، وتعلم أن يساوي بين سعادته وممتلكاته، وازدهاره بحجم المال الذي ينفقه في محلٍ ما. ومثل كل الآخرين، تخلى عن أية فكرة عن الفلاحة من أجل البقاء، ليفكر فقط في المحصول الذي يدرّ مالا، بل وظل يفكر بهذه الطريقة حتى عندما لم يعد المحصول يدر مالا. ثم مثل كل الآخرين، أصبح مديونا للبنك. وفي النهاية، مثل كل الآخرين أيضا، تعلم أن ما ظل يقوله الخبراء عبر أجيال كثيرة كان صحيحا جدا: الحشائش، في البلد شبه الجافة، هي التي تُبقي التربة، لذلك إذا نزعت الحشائش، تموت التربة. ومع الوقت ماتت بالفعل، وأصبح الرجل من كانساس اليوم مَدينا ومنبوذا، وقد صنعت منه التجربة رجلا أسوأ مما كان.

كان القديس بيتر كلافر[٣] أحد الشخصيات التاريخية التي درسها. عندما جاءت مراكب العبيد إلى الميناء في كارتاجينا، كان بيتر كلافر الرجل الوحيد الذي جازف بالنزول إلى القاع، وسط الرائحة النفّاذة البشعة والسخونة، ووسط البخار المعبأ

٣- بيتر كلافر: القديس بيتر كلافر عاش تقريبا ما بين (١٥٨١-١٦٥٤)، وهو قديس إسباني عرف باسم رسول الزنوج إذ كان يحارب من أجل إطلاق العبيد، وعندما فشل في ذلك حارب من أجل رفع الظلم والوحشية عنهم.

بالصديد والبراز. وقد قام برعاية المرضى، ومداواة تقرحات من جرحته القيود، بل واحتضن بين ذراعيه الرجال الذين أصابهم اليأس، وقام بمواساتهم، وكلمهم بمحبة - وبين هذا وذاك، حدثهم عن خطاياهم. خطاياهم هم!! لاشك أن الإنسان العصرى سوف يضحك من هذا، إن لم تصبه الدهشة. وبالرغم من ذلك - وهذه هى النتيجة التى توصل إليها مستر بروبتر تدريجيا وبالرغم من نفسه - كان القديس بيتر كلافر غالبا مصيبا. ليس كلية بكل تأكيد، لأن تصرفه هذا كان ناتجا عن معرفة خاطئة، ولا يمكن لرجل مهما كانت نواياه حسنة فى مثل هذه الحالة، أن يكون مصيبا إلا جزئيًا فقط. ولكنه كاد يكون مصيبا، على أية حال، كما يمكن لرجل صالح، ذى فلسفة معاكسة للإصلاح الكاثوليكى، أن يكون. كان مصيبا فى إصراره أن الإنسان، تحت أية ظروف يجد نفسه فيها، ينبغى أن يُغفل بعض الأمور ليكون صالحا، وينبغى لهذا الإغفال، إن أمكن، أن يكون مُحيّداً. لقد كان مصيبا فى إيمانه أنه صالح بالنسبة حتى للمُخطأ فى حقهم ، وأن يقوم بتذكيرهم بقصورهم.

لكن العيب فى رؤية بيتر كلافر للعالم هو فى كونها خاطئة، بالأساس . بينما يميزها فى بساطتها ودراماتيكيتها. مع معطيات «الرب الشخصى»، المُعطى للمغفرة، ومعطيات الجنة والنار، وواقع الذات الإنسانية، ومع ميزة وجود النوايا الحسنة، والإيمان الذى لا يشك فى مجموعة من الآراء الخاطئة، ومع معطيات الكنيسة الواحدة الحقيقية، وجدوى وساطة القساوسة، وسحر الأُسرار المقدسة - مع كل تلك المعطيات، كان بالفعل سهلا للغاية أن يقنع العبد المستورد حديثا أنه خاطئ، وأن يشرح له ما ينبغى أن يفعله حيال ذلك. ولكن فى حالة عدم وجود كتاب واحد مُلهم، ولا كنيسة مقدسة فريدة، ولا وساطة قساوسة، ولا سحر أسرار مقدسة، وفى حال عدم وجود إله شخصى يُسترضى لمغفرة الإساءات، وإذا كان

هناك حتى فى العالم الأخلاقى، مجرد أسباب ونتائج، والتركيبة المعقدة للعلاقات الكبيرة المتداخلة – إذن فمهمة شرح ما ينبغى أن يفعله البشر حيال قصورهم تصبح مهمة أكثر صعوبة، لأن كل فرد فى هذه الحالة، ليس مطلوباً منه فحسب أن يظهر النوايا الحسنة، التي لا تكل، بل أيضا الذكاء الذى لا يكل. وهذا ليس كل شىء، فلو أن الفردية ليست مطلقة، لو كانت الذات شيئا وهميا، ونسجًا من الخيال، مصنوعاً من الإرادة الذاتية العمياء لحقيقة وجود وعى أكثر–من–ذاتى، بلا حدود ولا رفض، فلابد من تحويل كل مجهودات الإنسان فى النهاية، لتحقيق هذا الوعى الأكثر–من–ذاتى. حتى إن الذكاء ذاته لا يكفى كملحق للنوايا الحسنة. لابد أيضا من وجود ذاكرة تسعى لتحويل الذكاء وتخطيه. الكثيرون يُطلبون، ولكن القليلين هم المختارون – لأن القليلين يعرفون مكونات الخلاص أصلا. لنتأمل مرة ثانية هذا الرجل من كانساس ... هز مستر بروبتر رأسه بحزن. كان كل شىء ضد هذا الشخص المسكين – أرثوذكسيته الأصولية، وذاتيته المجروحة المتضخمة، وتهيجه العصبى، وذكاؤه المحدود. ربما يمكن إزالة العيوب الثلاثة الأولى. ولكن هل يمكن فعل أى شىء حيال الرابعة؟ إن طبيعة الأشياء متصلبة تجاه الضعف. الذى ليس معه يؤخذ منه، حتى هذا الذى معه. وما هى كلمات سبينوزا [٤]؟ «يمكن أن يكون الفرد معذورا ولكن هذا لا يمنع أن يتعذب بطرق عديدة. الحصان معذور لأنه ليس إنساناً، ولكن بالرغم من ذلك لابد أن يظل حصانا وليس إنسانا.» على كل حال، لابد أن هناك شيئا ما يمكن عمله لمثل هذا الرجل من كانساس – شىء لا يتضمن قول اللاحقيقة المؤذية، عن طبيعة الأشياء. اللاحقيقة مثلا كقول إن شخصاً ما هناك فى العلا، أو هذه اللاحقيقة الأكثر حداثة والتى تقول إن القيم الإنسانية

٤– سبينوزا: نسبة إلى بندكت دى سبينوزا (١٦٣٢–١٦٧٧)، الفيلسوف الهولندى.

مطلقة وإن الله هو الأمة، أو الحزب، أو الجنس البشرى بأكمله. بالتأكيد يوجد شيء يمكن عمله لمثل هؤلاء الناس. لقد بدأ الرجل من كانساس أولا برفض ما قاله عن سلسلة الأسباب والنتائج، وشبكة العلاقات – رفضها كنوع من الإهانة الشخصية. ولكن بعد ذلك، عندما رأى أنه لم يكن المُلام، وأنه لم تكن هناك أية محاولة لكسبه، بدأ يُظهر بعض الاهتمام، ليرى إذا كان فى آخر الأمر شيئا مفيدا له. قد يستطيع أن يجعله يفكر تدريجيا بنوع من الواقعية، على الأقل فيما يخص عالم الحياة اليومية، وهو عالم المظاهر الخارجى ، وعندما ينجح فى هذا، ربما لن يكون عسيرا عليه بعد ذلك أن يفكر بشكل أكثر واقعية، فيرى هذه الذات المهمة كضرب من الخيال، أو كابوس، أو لا – شيء مضطرب وثائر بجنون، ربما لو هدأت ثورته، يمكنه أن يمتلئ بالله، أن يرى الله ويختبره ككيان أكثر من مجرد وعى شخصى، كقوة حرة، كعمل نقى، كشخص منسحب... فجأة، عندما عاد إلى نقطة البداية، أدرك مستر بروبتر الطريق الطويل الملتوى، غيرالمجدى الذى سار فيه حتى يعود إليها. لقد جاء إلى هذه الدكة تحت شجرة اليوكاليبتوس ليستجمع ذاته، ليرى ولو للحظات، وجود هذا الوعى الآخر فى خلفية تفكيره وأحاسيسه الشخصية، هذه القوة الحرة النقية الأكبر منه. لقد أتى من أجل هذا، ولكن ذكرياته خانته بينما هو غير منتبه. بدت تأملاته، مثل سحابة وراء الأخرى، أو مثل عصافير البحر تخرج من عشها لتحجب الشمس وتجعلها داكنة. العبودية هى حياة الذات، بسبب العبودية سوف تُحارِب النفس بلا كلل، وبكل الطرق وبالعناد الخبيث. إن ثمن الحرية هو الصحوة الأبدية، وقد فشل فى أن يبقى صاحيا. القضية ليست أن الروح تريد، ولكن الجسد ضعيف. هذا تضاد خاطئ. إن الروح دائما تريد، ولكن الشخص، الذى هو عقل كما هو جسد، هو الذى دائما لا يريد – وذلك الشخص، بالمناسبة، ليس

ضعيفا، بل قويا جدا.

نظر إلى الجبال، والسماء الباهتة عبر أوراق الشجر، ثم إلى جزع شجرة اليوكاليبتوس ذات الألوان الوردية والخمرية الناعمة الممزوجة بالبنفسجية والرمادية، أغلق عينيه مرة أخرى.

- «لا شيء يحيط به الله، مستقل عن الله، قادر بالله، مملوء من الله، إن هو أراد. ولكن ما هو الله؟ كائن منسحب من الخليقة، قوة حرة، عمل نقى».

لم تعد صحوته تدريجيا، عملا إراديا، و إزالة متعمدة للأفكار والرغبات والمشاعر الشخصية التى لا صلة لها الآن. إذ أصبحت هذه الأفكار والرغبات والمشاعر مستقرة تدريجيا، مثل الرواسب العكرة فى إناء مياه، وعندما استقرت أصبحت لصحوته الحرية فى أن تحول نفسها لنوع من الوعى المستقل بلا مجهود، حاد وساكن، يقظ ومستسلم - هذا الذى يحيط بالكلمات. ولكن هذا الذى يحيط بالكلمات هو الوعى ذاته، لأن هذه الصحوة، والتى أصبحت الآن وعياً بلا مجهود - ما هى إلا وِجهة واحدة، تعبير جزئى، عن هذا الوعى غير الشخصى، وغير المضطرب، الذى سقطت فيه الكلمات، والتى تسقط من خلالها ببطء. وكلما سقطت اتخذت معنى جديداً لهذا الوعى الذى تبعها إلى عمق ذاته - معنى جديداً ليس بالنسبة للكيانات التى تعنيها الكلمات، ولكن فى طريقة فهمها، والتى لكونه كائنا مثقفا، أصبحت حدسية ومباشرة، حتى إن طبيعة الإنسان فى كينونته، وطبيعة الله فى حقيقتها، أصبحتا متاحتين من خلال التجربة الحسية المشابهة، ومن خلال التفاعل بدون وساطة.

لاشىء إلاذاته المشغولة، اختبرها فى تجاوزها، وقدرتها على السلام والنقاء،

وعلى الانسحاب من النفور والرغبات، و على نعيم الحرية من الذات...

صوت اقتراب أقدام جعله يفتح عينيه. إنه بيتر بون، ومعه ذلك الرجل الإنجليزى الذى جلس معه في السيارة، وكانا يقتربان من مكانه تحت شجرة اليوكاليبتوس. رفع مستر برويتر يده مرحبا بهم، وابتسم. كان يحب بيت الشاب، إذ يتميز بالذكاء والطيبة الفطريين، وكذلك بالحساسية، والكرم، والأخلاقيات وردود الأفعال العفوية. كلها صفات جذابة وجميلة! ولكن المؤسف حقا، أنها فى حد ذاتها، وبدون توجيه ومعرفة سليمة عن طبيعة الأشياء، تصبح عاجزة عن عمل الخير، وغير قادرة على أى شيء يمكن لأى رجل منطقى أن يسميه الخلاص. إنه مثل الذهب الراقى، ولكن فى طوره الخام، غير المنصهر، لم يشتغل فيه أحد. ربما فى يوم ما، سيتعلم هذا الشاب كيف يستخدم ذهبه، ولكن عليه أولا أن يرغب فى أن يتعلم – ويرغب أيضا فى أن «يزيل» ما تعلمه من أشياء كثيرة يراها الآن واضحة وصحيحة فى ذاتها. لكن هذا كله سيكون عسيرا عليه – ربما عسيرا – ولكن لأسباب أخرى، غير ذلك الرجل من كانساس.

قال:

– أهلا بيت. تعال اجلسْ معى هنا. جاء معك مستر بورديج، هذا حسن.

تحرك إلى منتصف الدكة، حتى يجلسا على جانبيه.

سأل چيريمى مشيرا نحو القصر:

– وهل قابلت الغول؟

لوى چيريمى عضلات وجهه وهز رأسه بالإيجاب وقال:

– تذكرت الاسم الذى كنتم تتادونه به فى المدرسة، وقد جعل الأمور أكثر

يسرا.

قال مستر برويتر:

– مسكين چو. مفروض أن البدناء يبدون أكثر سعادة. ولكن من يستمتع بكونه أضحوكة للناس؟ هذه الطريقة المبهجة التي يتعاملون بها، والنكات التي يلقونها على حساب أنفسهم – إنها فقط مسألة أعذار ووقاية، فهم بسخريتهم كمن يطعّمون أنفسهم حتى لا يقوموا برد فعل عنيف حيال سخرية الآخرين منهم.

ابتسم چيريمي. كان يعلم هذا. قال:

– إنه مَخرِج جيد للخروج من مأزق غير سار.

هز مستر برويتر رأسه بالإيجاب وقال:

– مع الأسف، لم يكن هذا مسلك چو؛ إذ هو من نوع الأولاد الذين يتصدون للآخرين، النوع الذي يحارب. ويستبد ويتغطرس، النوع الذي يتباهى ويستعرض، النوع الذي يشترى حب الناس بشراء الآيس كريم للبنات، حتى لو سرق عشرة سنتات من محفظة جدته. إنه النوع الذي يستمر فى السرقة حتى بعد أن يُفتضح أمره ويُضرب، ومع ذلك يصدقهم عندما يقولون له إنه سيذهب للجحيم. مسكين چو. لقد كان من ذلك النوع من الأولاد البدناء طوال حياته.

أشار مرة أخرى ناحية القصر واستمر قائلا:

– هذا صرحه الذى يعبر به عن خلل غُدَّته النُخامية.

ثم التفت إلى پيت وسأل:

– ما أخبار سير عملك؟

كان پيت يفكر فى فيرجينيا بوجوم – متسائلا للمرة المائة عن سبب تركها لهم،

وما إذا كان قد فعل شيئا ليضايقها، وعن ما إذا كانت فعلا مرهقة أو أن هناك سببا آخر. عندما ذكر مستر برويتر العمل، نظر إليه وأضاء وجهه، وقال بسرعة :

–سوف يكون جيدا.

ثم فى جمل سريعة وحماسية، وبخليط غريب من الإنجليزية الدارجة والألفاظ التقنية، روى للمستر برويتر النتائج التى توصلوا إليها مع فئرانهم، والتى بدأت تظهر، فيما يبدو، أيضا مع البيوانات والكلاب.

سأل مستر برويتر :

– وإذا نجحت، ماذا يحدث لكلابك؟

– سوف تطول حياتهم بالطبع.

قال الرجل الأكبر سنا:

– نعم، نعم، أعرف هذا. ما قصدته شيئا مختلفا. الكلب عبارة عن ذئب لم يكتمل، أى هو مثل الجنين الذئب، أكثر من ذئب ناضج. أليس كذلك؟

هز بيت رأسه بالإيجاب.

قال المستر برويتر:

– أى بمعنى آخر، إنه حيوان دمث وسلس لأنه لم يكبر، ولم يصل إلى مرحلة التوحش. أليست هذه آلية للتطور والارتقاء؟

هز بيت رأسه ثانية بالإيجاب، وقال موضحا:

– هناك نوع من التوازن فى الغدد. ثم يأتى تغيير ما ويطرحها جانبا، فيحدث توازن جديد يؤخر معدل النمو. أنت تكبر، ولكن ببطء، حتى إنك تموت قبل أن تصبح مثل جنين جد، جد، جد جدك.

قال مستر بروبتر:

– تماما . ماذا يحدث إذن لو أطلت حياة حيوان تطور بهذه الطريقة ؟

ضحك بيت وهز كتفيه:

– أعتقد أنه علينا أن ننتظر ونرى.

قال مستر بروبتر:

– لابد أنه شيء مقلق نوعا، لو أن كلابك عادت للوراء فى إطار نموها.

ضحك بيت ثانية بابتهاج وقال:

– تصور أرامل كلاب البيكينيز تطاردها أبناؤها.

نظر إليه مستر بروبتر فى فضول ثم لاذ بالصمت، وكأنه ينتظر تعليقا آخر من بيت، وعندما لم يأت التعليق، قال:

– أنا سعيد أنك هكذا سعيد بالموضوع.

ثم استدار إلى چيريمى واستمر فى كلامه:

– «النمو...» – لو كنت أتذكر جيدا يا مستر بورديج – «النمو مثل شجرة كبيرة الحجم لا يجعل الإنسان بالضرورة أفضل».

ابتسم چيريمى بسعادة كما يفعل دائما عندما يقول له أحد مقولة مناسبة فى الوقت المناسب وأضاف:

– «ولا الوقوف طويلا مثل شجرة البلوط، ثلاثمائة عام.»

قال مستر بروبتر بتأمل:

– ماذا ستفعل فى سن الثلاثمائة؟ هل تعتقد أنك ستظل عالما وجنتلمان؟

تنحنح چيريمى وربت على رأسه الصلعاء، ثم أجاب:

– بالتأكيد لن أكون جنتلمان. حمدا لله لقد بدأنا نتوقف عن ذلك من الآن.

– ولكن العالِم سوف يستمر فى الطريق؟
– توجد كتب كثيرة فى المتحف البريطانى.
سأل مستر برويتر:
– وأنت يا پيت؟ هل تعتقد أنك ستستمر فى أبحاثك العلمية؟
قال الشاب بإصرار:
– ولم لا؟ ماذا يمنعنى من الاستمرار فيها إلى الأبد؟
قال مستر برويتر:
– إلى الأبد؟ ألا تعتقد أنك سوف تصاب بالملل؟ تجربة وراء الأخرى. أو كتاباً وراء الآخر.
أضاف الجملة الأخيرة ونظر إلى چيريمى، ثم قال:
– شىء ملعون وراء الآخر بشكل عام. ألا تعتقد أنها سوف تفترس عقلك قليلا؟
قال پيت:
– لا أرى سببا لذلك.
– لا يضايقك الوقت إذن؟
هز پيت رأسه بالنفى وتساءل:
– ولماذا يضايقنى؟
قال مستر برويتر مبتسما بود واستمتاع:
– ولماذا لا يضايقك؟ أتعلم أن الوقت شىء يضايق؟
– ليس وأنت لا تخاف الموت أو الشيخوخة.
قال مستر برويتر بإصرار:
– نعم هو كذلك، حتى لو كنت لا تخاف. إنه كابوس فى حد ذاته – كابوس بطبيعته، إذا كنت ترى ما أعنيه.

سأل بيت بارتباك:

- بطبيعته؟ لا أفهم. كابوس بطبيعته؟

قال چيريمى:

- كابوس فى الوقت الحاضر بالطبع. أما إذا أخذته فى وضعه كحفريات فى شكل أوراق الهوبيرك، مثلا...

ترك الجملة دون أن يكملها.

قال مستر برويتر موافقا على النتيجة الضمنية:

- هذا يسعدنى فعلا. ولكن مع كل ذلك، التاريخ ليس الشىء الحقيقى، فالزمن الماضى شر عن بعد فقط. وبالطبع فإن دراسة الزمن الماضى فى حد ذاته مرحلة من الوقت. تبويب قطع الحفريات الشريرة لا يمكن إلا أن يكون بديلا أقل جودة من تجربة الأبدية.

نظر إلى بيت بفضول، محاولا تكهن رده على ما قال. إن الدخول هكذا فى قلب الموضوع، بداية من القلب ذاته ومركز الغموض - كان مجازفة بلا شك، إذ هناك دائما خطر من إثارة لاشىء سوى التشويش الفكرى، أو، بالتناوب، لا شىء سوى الغضب المستخف. لكن رد فعل بيت كان أقرب إلى النوع الأول، ولكنه كان أيضا تشويشا مشوبا بالاهتمام، كمن ينظر وكأنه يريد أن يعرف عما يتحدثون.

فى ذات الوقت بدأ چيريمى يشعر أن الحوار بدأ يأخذ منحى غير مرغوب فيه. قال بشكل لاذع:

- عن ماذا نتحدث بالضبط؟ أورشليم الجديدة؟(٥) ابتسم له مستر برويتر بروح رياضية وقال:

- لا تخف. لن أقول كلمة عن آلة الهارب أو الأجنحة (٦).

٥- أورشليم الجديدة: يقصد بها الفردوس.
٦- الهارب والأجنحة: يقصد الملائكة

قال چيريمى:

– هذا حسن.

استمر مستر برويتر في كلامه:

– لا أستطيع أن أرتضى بخطاب لا معنى له. أحب أن تكون الكلمات التى أستخدمها ذات علاقة ما بالحقائق. لهذا السبب أنا مهتم بالأبدية – الأبدية السيكولوجية، لأنها واقع حقيقى.

قال چيريمى بنبرة تنم عن أن الناس الأكثر تحضرا لا يعانون من مثل هذه الهلاوس:

– ربما بالنسبة لك.

– بل بالنسبة لأى شخص يختار أن يحقق الشروط التى يمكن من خلالها تجربة هذا الشىء.

– ولماذا يختارأى شخص تحقيق هذا؟

– لماذا يختار أى شخص الذهاب إلى أثينا ليرى البارثينون؟ لأنه يستحق التعب. ونفس الشىء بالنسبة للأبدية. إن تجربة الصلاح الأبدى تستحق كل التعب الذى يأتى منها.

كرر چيريمى الكلمات بنفور:

– الصلاح الأبدى. لا أفهم معنى هذه الكلمات.

قال مستر برويتر:

– ولماذا تفهم؟ نحن لا نفهم المعنى الحقيقى لكلمة البارثينون حتى نراه فعلا.

– نعم، ولكنى على الأقل رأيت صورا له، وقرأت شرحا عنه.

أجاب المستر برويتر:

– لقد قرأت شرح الصلاح الأبدى، بل المئات منها. فى كل أدبيات الفلسفة والدين. قرأتها، ولكنك لم تشتر تذكرتك إلى أثينا.

فى صمت ونفور، اعترف چيريمى لنفسه أن هذا حقيقى. ولأنه حقيقى، أصبح غير راض عن الحوار أكثر بكثير من ذى قبل.

كان مستر بروبتر يقول لبيت:

– أما بالنسبة للوقت، فى هذا الإطار بالذات فما هو سوى الوسيط الذى يتكاثر من خلاله الشر ذاته، وهو العنصر الذى يعيش فيه الشر، أكثر من كونه مجرد وسيط له. إذا ذهبت أبعد من هذا فى تحليلك، فسوف تجد أن الوقت هو الشر، لأنه أحد عناصر تكوينه الأساسية.

استمع چيريمى وقد خامره شعور متزايد من الضيق والنفور. لقد كانت مخاوفه مبررة، إذ أن الرجل العجوز بدأ يُطلق عليه أسوأ أنواع اللاهوت. الأبدية، التجربة الخيرة بلا حدود، الوقت كأساس للشر – يعلم الله أن كل هذا موجود بما فيه الكفاية فى الكتب، ولكن هكذا، أن يكون مصوبا نحوك مباشرة، من خلال شخص يأخذ تلك المسائل مأخذ الجد، فإنه لشىء مخيف حقا. لماذا بحق السماء لا يقدر الناس أن يعيشوا حياتهم بشكل منطقى ومتحضر؟ لماذا لا يأخذون الأشياء كما هى؟ الإفطار فى التاسعة، الغداء فى الواحدة والنصف، الشاى فى الخامسة. الأحاديث. والتمشية اليومية مع مستر جلادستون كلبه اليوركشير. والمكتبة، وأعمال فولتير[٧] فى ثلاثة وثمانين مجلدا، وكنوز هوراس والبول[٨] التى لا تنتهى، ومن أجل التغيير، «الكوميديا الإلهية»[٩]. ثم فى حالة أخذك العصور الوسطى مأخذ الجد، فالسيرة

٧– فولتير: الاسم المستعار للكاتب الفرنسى الشهير فرانسوا مارى آويت (١٦٩٤–١٧٧٨).
٨– هوراس والبول: كاتب إنجليزى (١٧١٧–١٧٩٧).
٩– الكوميديا الإلهية: التى كتبها دانتى أليغييرى (١٢٦٥–١٣٢١).

الذاتية لساليمبين[١٠]، وقصة الطحان[١١]. وأحيانا الزيارات المسائية – الكاهن، السيدة فريدجوند بلاعب المزمار السيد فيل. والمناقشات السياسية – إلا أنه في هذه الشهور الأخيرة منذ الأنشلاس وميونيخ، وجد أن المناقشات السياسية أصبحت غير سارة ومن الحكمة تجنبها .ثم الرحلة الأسبوعية للندن، والغداء في مطعم الريفورم، والعشاء دائما مع ثريب العجوز من المتحف البريطاني، والحديث السريع مع أخيه المسكين توم في مكتبة الخارجية (إلا أن هذا أيضا أصبح من الأشياء التي لابد من تجنبها) . ثم بالطبع مكتبة لندن و الصلوات الرسمية في كاتدرائية ويست مينيستر، خاصة لو كانوا يرنمون لبالاسترينا[١٢]. ثم كل أسبوع آخر بين الخامسة والسادسة والنصف، ساعة ونصف الساعة يقضيها مع ماري أو دوريس في شقتهما بالميدا فيل. قذارة بلا نهاية في الغرفة الصغيرة، كما كان يحب أن يسميها. تُسعد بعمق سحيق. هذه هي الأشياء التي كانت تأتي، فلماذا لا يأخذونها بهدوء ورشد؟ ولكن لا، لابد أن يتحدثوا عن الكلام الفارغ والأبدية وكل الأشياء الأخرى. مثل هذه الأشياء كانت تجعل چيريمي دائما يريد أن يجدّف – أن يسأل لو كان الله مثلا له مؤخرة، وأن يعترض، مثل الياباني في النادرة الذي كان مندهشا ومشوشا تماما بموقف العصفور المحترم. ولكن مع الأسف، كان الموقف الآن من تلك المواقف المثيرة للسخط بشكل خاص، والتي كان رد فعلها في غير محله. لأنه بعد كل شيء، برويتر العجوز هو كاتب «الدراسات القصيرة»، ولا يمكن استبعاد ما يقول على أنه بخار عقل مخلول. ثم أنه لم يتحدث عن المسيحية، فأصبحت نكاته عن التشبيه في غير محلها. كان شيئا مثيرا للسخط حقا! وضع على وجهه تعبير

١٠– ساليمبين: موسيقار وراهب فرانسسكاني إيطالي (١٢٢١–١٢٨٨).
١١– قصة الطحان: قصة من ((قصص كانتربري)) التي كتبها جيفري تشوسير (١٤٠٠–١٣٥٤).
١٢– بالاسترينا: نسبة إلى الموسيقار جيوفاني دي بالاسترينا الإيطالي، وقد اشتهر بموسيقاه المقدمة للكنيسة الكاثوليكية.

انفصال متعالٍ وبدأ يدندن نغمة الزهرة والنحلة، أراد به الإيحاء بأنه كائن متعالٍ، لا يمكن أن نتوقع منه أن يضيع وقته فى الاستماع لمثل هذه الأشياء.

نظر إليه مستر برويتر وأحس أنه منظر مثير للضحك، إلا أنه بالطبع كان فى ذات الوقت، مثيرا للاكتئاب بشدة.

الفصل التاسع

قال مستر برويتر:

– الوقت والشهوة – إنهما وجهان لذات الشيء، وهذا الشيء هو المادة الخام للشر.

التفت إلى پيت وقال بنبرة مختلفة:

– إذن أترى يا پيت أى حاضر شاذ سوف تساعد على قيامه، لو نجحت فى عملك؟ ستزيد قرناً آخر من الوقت والشهوة. حياتان من الشر المحتمل.

قال الشاب معترضا بإصرار:

– وخير محتمل أيضا.

وافقه مستر برويتر وقال:

– نعم، وخير محتمل، ولكنه بعيد تماما عن الوقت الإضافى الذى ستعطيه لنا.

قال پيت:

– ولماذا تقول ذلك؟

أجاب متأملا:

– لأن الشر المحتمل موجود داخل الوقت، أما الخير المحتمل فليس كذلك. كلما امتدت حياتنا، اصطدمنا لا إراديا بالشر. إننا لانجد خيرا أكثر بمجرد امتداد حياتنا فترة أطول. من الغريب حقا أننا دائما نركز على مشكلة الشر بشكل مطلق، وكأن طبيعة الخير مسلّم بها، بالرغم من أنها ليست كذلك، لأنه توجد مشكلة خير بذات إشكالية مشكلة الشر.

قال پيت متسائلا:

– وما الحل؟

– الحل بسيط جدا ولكنه غير مقبول. الخير الحقيقى يقع خارج الزمن.

– خارج الزمن؟ كيف إذن...؟

قال مستر برويتر:

– قلت لك إنه غير مقبول.

– ولكن إذا كان خارج الزمن إذن...

– ...إذن لا شيء داخل الزمن يمكن أن يكون خيرا حقيقيا. الوقت هو الشر المحتمل، والرغبة تحوّل هذا الاحتمال إلى شر حقيقى، بينما التصرف الوقتى لا يمكن إلا أن يكون خيراً محتملا، وهذا الاحتمال لا يمكن أن يتحقق فى الواقع سوى خارج الزمن.

– ولكن داخل الزمن هنا – أنت تعلم، بينما نفعل الأشياء العادية – اللعنة! أحيانا نفعل أشياء خيّرة. لكن ما هى الأعمال الخَيِّرة؟

قال مستر برويتر:

– فى الواقع، لا يوجد. ولكن عمليا، أعتقد أنه يمكن تبرير إعطاء هذا المسمى لبعض الأعمال. أى عمل يساهم فى تحرر المعنيين به – يمكن تسميته عملا خيرا.

ردد الشاب الكلمة متشككا:

– التحرر؟ التحرر من ماذا؟

دائما كانت توحى له هذه الكلمة بمعانٍ اقتصادية وثورية، ولكن من الواضح أن مستر برويتر لم يكن يتحدث عن ضرورة التخلص من الرأسمالية.

تردد مستر برويتر قبل أن يجيب. هل يستمر فى هذا؟ كان من الواضح أن الرجل الإنجليزى أصبح عدائيا، وقد أصبح الوقت ضيقا، بينما الشاب نفسه جاهل تماما، ولكنه جهل مخفف بالنوايا الطيبة، ورغبة مؤثّرة للكمال. فى النهاية قرر أن

يستمر، وقال:

– التحرر من الوقت. التحرر من الرغبات والكراهيات. التحرر من الذات.

قال پيت:

– ولكن اللعنة! إنك تتحدث دائما عن الديمقراطية. ألا يعنى هذا احترام الذات؟

وافقه المستر برويتر وقال:

– طبعا. احترامها من أجل أن تتخطى نفسها. العبودية والتعصب يزيدان الإحساس بالاستحواذ بالوقت والشر والذات. وتلك هى قيمة المؤسسات الديمقراطية وطريقة التفكير التى تتشكك فى الأشياء. كلما احترمت الذات، أصبحت فرصتك أفضل لاكتشاف أن كل الذوات لا تعدو كونها سجنا. الخير المحتمل هو كل شيء يساعدك على الخروج من هذا السجن. الخير الحقيقى إذن يقع خارج السجن، فى اللاوقت، فى حالة الوعى النقى، الذى ليست له اهتمامات.

قال الشاب:

– لست أجيد التجريد، فاعطنى بعض الأمثلة الملموسة. ماذا عن العِلم مثلا؟ هل هو خير؟

– خير وشر وبين الاثنين، وهذا يعتمد على كيفية السعى وراءه واستخدامه. خير وشر وما بين الاثنين، أولا بالنسبة للعلماء أنفسهم – تماما مثلما يمكن أن يكون الفن والدراسة، لا أكثر من خير وشر، ثم لا هذا ولا ذاك بالنسبة للفنانين والدارسين. إنه خير إذا سهّلت التحرر، وهى لا هذا ولا ذاك إذا لم تساعد ولم تعرقل، وهى فى النهاية شر إذا جعلت التحرر أكثر صعوبة، من خلال تكثيف الاستحواذ بالذات. وتذكّر أن إنكار الذات الظاهر على العلماء والفنانين ليس بالضرورة تحررا من الذات. إن العلماء والفنانين مُكرسين لما نسميه، بشكل مبهم،

المُثُل العليا. ولكن ما هى المثل العليا؟ إنها مجرد إبراز للذات على نطاق متضخم جدا.

قال بيت:

– قل هذا ثانية.

حتى چيريمى نسى انفصاله المتعالى وأبدى اهتماما واضحا.

قال مستر برويتر ثانية:

– هذا حقيقى عن كل المُثُل العليا، إلا قيمة التحرر إذ هى أعلاها، – التحرر من الذات، التحرر من الوقت والرغبات، التحرر والوصول إلى اتحاد مع الله، إذا كنت لا تعترض على هذه الكلمة يا مستر بورديج. الكثيرون يعترضون، لأنها إحدى تلك الكلمات التى ترى السيدات مدّعيات الثقافة أنها نوع من الصدمة. إننى أحاول دائما أن أتجنبها كلما استطعت. والآن لنعود إلى مُثُلنا.

شعر بسعادة أن چيريمى اضطر أن يبتسم رغما عنه.

– إذا خدم أى مُثُل سوى أعلاها – سواء كانت قيمة الجمال عند الفنان أو قيمة الحقيقة عند العالِم، أو القيمة الإنسانية لما نسميه اليوم بالخير – فهو حينئذ لا يخدم الله، بل يخدم ذاته المتضخمة. من الجائز جدا أن يكون مكرسا لها، ولكن فى التحليل الأخير، نجد أن هذا التكريس مُسلط نحو جزء من ذاتيته. إن عدم أنانيته ليست فى الواقع تحررا من ذاتيته، وإنما هى نوع آخر من العبودية، وهذا يعنى أن العلِم يمكن أن يكون شرا للعلماء، حتى عندما يبدون وكأنهم مخلصون. ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة للفنون الجيدة، والدراسة والإنسانيات.

فكر چيريمى بحنين فى مكتبته بالأروكارياس. لماذا لا يسعد هذا الرجل العجوز بالأشياء كما هى؟

سأل بيت:

– وماذا عن باقى البشر؟ ألم يساعد كونهم من غير العلماء فى تحررهم؟

هز مستر برويتر رأسه بالإيجاب:

– بل وساعد أيضا على أن يربطهم بذواتهم أكثر. وبالإضافة إلى ذلك، أعتقد أن ذلك زاد من عبوديتهم أكثر من كونه قللها – وسوف يظل يزيدها بشكل تصاعدى.

– وكيف تحسب هذا؟

قال مستر برويتر:

– من خلال التطبيقات. تطبيقات الحرب أولا. طائرات أفضل تفجيرات أفضل، بنادق وغازات أفضل – كل التعديلات لتزيد قدر الخوف والكراهية، وتوسع من درجة الهيستيريا القومية. بمعنى آخر، كل تقدم فى التسليح، يجعل من الصعوبة بمكان أن تهرب الناس من ذواتها، ومن الصعوبة بمكان نسيان هذا التجسيد للذات والذى يطلقون عليه مُثُلهم عن الوطنية والبطولة، والمجد، وكل هذه الأشياء الأخرى. وحتى بالنسبة للتطبيقات العلمية الأقل تدميرا فهى فى الواقع ليست أفضل حالا، لأن ما هى نتيجتها؟ مضاعفة الأشياء التى نمتلكها – اختراع أدوات تحفيز جديدة، وتوزيع احتياجات جديدة من خلال الدعاية التى تعادل بين الممتلكات والصلاح، والتحفيز المستمر بالسعادة. بالرغم من أن السعادة المستمرة من الخارج لا تعدو كونها نوعاً من العبودية. وكذلك الانشغال بالممتلكات. والآن ها أنت تهدد بإطالة حياتنا حتى نستمر فى تحفزنا، ونستمر فى رغبتنا فى الامتلاك، ونستمر فى رفرفة أعلام الكراهية فى وجه أعدائنا، ونستمر فى الخوف من الهجوم الجوى – ونستمر ونستمر، جيلا وراء جيل، غائصين أكثر فأكثر فى مستنقع قذارة

ذواتنا.

هز رأسه ثم أضاف:

- لا أستطيع أن أشاركك تفاؤلك بالعِلم.

ساد صمت بينما بيت يتجادل مع ذاته حول ما إذا كان ينبغي أن يسأل مستر برويتر عن الحب. فى النهاية قرر ألا يسأل، إذ كانت فيرجينيا مقدسة جدا بالنسبة له. (ولكن لماذا عادت وهم هناك عند الكهف؟ ماذا قال أو فعل ليضايقها؟) وحتى يمنع نفسه من التفكير مليا فى تلك المشكلات، ولأنه يريد أن يعرف رأى الرجل العجوز فى الأشياء الثلاثة التى تبدو له ذات أهمية قصوى، نظر إلى مستر برويتر وقال:

- وماذا عن العدل؟ أعنى خذ مثلا الثورة الفرنسية، أو روسيا. وماذا عن هذه المسألة الإسبانية - الحرب من أجل الحرية والديمقراطية ضد الاعتداء الفاشى؟

لقد حاول جاهدا أن يظل هادئا وعلميا حيال هذا الموضوع ، لكن صوته ارتجف قليلا وهو يتفوه بهذه الكلمات الأخيرة، فبالرغم من أنها مألوفة له، (أو ربما بسبب أُلفتها) كانت كلمات مثل «الاعتداء الفاشى» لا تزال قوية الوقع، بحيث تحركه من الأعماق.

قال مستر برويتر بعد فترة صمت:

- لقد خرج لنا نابليون من الثورة الفرنسية، والقومية الألمانية خرجت من نابليون. حرب ١٨٧٠ خرجت من القومية الألمانية، وحرب ١٩١٤ خرجت من حرب ١٨٧٠ . وهتلر خرج من حرب ١٩١٤ . كل تلك تُعَد النتائج السلبية للثورة الفرنسية. أما النتائج الإيجابية فهى منح الحقوق المدنية للفلاحين، ونشر الديمقراطية السياسية. ولكن ضع النتائج الإيجابية فى كفة من ميزانك، والنتائج

السلبية فى الكفة الأخرى، وانظر أيهما أثقل، ثم افعل نفس الشيء مع روسيا. ضع إلغاء نظام القيصر والرأسمالية فى كفة، وفى الأخرى، ضع ستالين والبوليس السرى، والمجاعات، وعشرين عاما من معاناة مائة وخمسين مليون شخص، وتصفية المثقفين وطبقة أغنياء الفلاحين، والبولشوفيين القدامى، وأفواجًا من العبيد فى معسكرات السجون، وضع التجنيد العسكرى للجميع، رجالا ونساء، من الطفولة إلى الشيخوخة، وضع دعاية الثورة التى حركت البرجوازية لاختراع الفاشية.

هز مستر برويتر رأسه فى أسى وأكمل كلامه قائلا:

– أو خذ الحرب من أجل الديمقراطية فى إسبانيا. كانت هناك حرب من أجل الديمقراطية فى أوروبا كلها فى وقت ليس ببعيد. التكهن العاقل يمكن فقط أن ينبنى على التجربة السابقة. انظر إذن إلى نتائج ١٩١٤، ثم اسألْ نفسك ما هى فرص أن يؤسس الولائيون نظاما حرا فى نهاية الحرب الطويلة؟ مع الأسف الآخرون هم المنتصرون الآن، لذلك لن تتاح لنا الفرصة لرؤية ما كان يمكن أن تقود إليه الظروف ويقود إليه شغفهم، إذا ما أتى هؤلاء الليبراليون، ذوو النوايا الحسنة، للحكم.

انفجر پيت:

– ولكن اللعنة! ماذا تتوقع أن يفعل الناس عندما يهاجمهم الفاشيون؟ أن يجلسوا وينتظروا حتى تُقطع رقابهم؟

قال مستر برويتر:

– بالطبع لا. أتوقع أن يحاربوا. ولكن توقعى مبنى على معرفتى المسبقة بالطبيعة البشرية. ولكن كون الناس عامة يتصرفون هكذا فى مثل هذه الأوضاع، لا يثبت بالضرورة أن تلك هى أفضل طريقة رد فعل. ولكن التجربة أيضا تجعلنى أتنبأ بأنهم لو تصرفوا هكذا، فسوف تكون النتائج كارثة.

– إذن كيف تريدنا أن نتصرف؟ هل تريد أن نبقى ساكنين ولا نفعل شيئا؟

قال مستر برويتر:

– ليس لا شيء. ولكن افعل شيئا مناسبا.

– ولكن ما هو المناسب؟

– ليست الحرب على أية حال. ولا الثورة العنيفة. لا، ولا السياسة كذلك، فيما أعتقد.

– ماذا إذن؟

– هذا ما ينبغى اكتشافه. إن الخطوط العريضة واضحة، ولكن هناك عمل كثير ينبغى أن نفعله بالنسبة للتفصيلات العملية.

لم يستمع بيت. فقد عاد ذهنه إلى ذلك الوقت فى أراجون، عندما كانت حياته ذات معنى كبير. انفجر قائلا:

– ولكن هؤلاء الشباب هناك، فى إسبانيا، أنت لا تعرفهم يا مستر برويتر، كانوا رائعين، حقا رائعين. لا يمكن أن يتعاملوا بسخف، وكانوا شجعان وذوى ولاء و... وكل شيء.

تصارع مع عدم كفاءة مفرداته، خائفا أن يبدو وكأنه يستعرض ذاته بالكلام الكبير، مثل الذين يتباهون بثقافتهم.

– كانوا لا يعيشون من أجل أنفسهم، أستطيع أن أؤكد لك ذلك يا مستر برويتر.

نظر إلى وجه الرجل العجوز بنوع من الرجاء، وكأنه يرجوه أن يصدقه.

– كانوا يعيشون لشيء أبعد من أنفسهم – مثل هذا الذى كنت تتحدث عنه الآن. أنت تعلم، شيئا أكثر من كونه شخصيا.

قال مستر برويتر:

– وماذا عن صبية هتلر؟ وماذا عن صبية موسوليني؟ هل تعتقد أنهم فقط يفتقدون الشجاعة بالقدر الكافى، أو أنهم ليسوا طيبين بعضهم مع بعض، وليسوا ذوى ولاء لهدفهم، أو أنهم غير مقتنعين بأنه هدف العدل والحق والحرية والصواب والشرف؟

نظر إلى پيت متسائلا، ولكن پيت لم ينطق.

– أن يكون لدى بعض الناس فضائل كثيرة لا يثبت بالضرورة شيئاً من ناحية عدم صلاح تصرفاتهم. يمكن أن يكون لك كل الصلاح – إلا اثنان فى الواقع، هما الفهم والشفقة – يمكن أن يكون لك كل الباقى، ومع ذلك تظل رجلا سيئا. بل فى الواقع لا يمكن أن تكون سيئا حقا إلا إذا امتلكت كل الصفات الحسنة تقريبا. انظر إلى إبليس ميلتون [1] على سبيل المثال، فستجده شجاعًا وقوياً وكريما وذا ولاء، فَطِناً ومعتدلاً، ومضحياً بنفسه. دعونا إذن نعطى الديكتاتوريين الإقرارات التى يستحقونها: البعض منهم حقيقة يمتلك فضائل كثيرة، تماما مثل إبليس – ليس بالضبط، وأنا أقر بذلك، ولكن تقريبا مثله. لكن لهذا السبب يستطيعون القيام بكل هذا الشر.

جلس پيت مقطب الوجه، واضعا مرفقى يديه على ركبتيه. ثم أخيرا قال

– ولكن ذلك الإحساس ... ذلك الإحساس الذى كان بيننا. أنت تعلم – الصداقة – بل كانت أكثر من صداقة عادية. والإحساس بأننا هناك معا – نحارب من أجل نفس الشيء – وهذا الشيء يستحق كل هذا – ثم الخطر، والمطر، والبرد القارس فى الليل، والحر فى الصيف، والإحساس بالعطش، وحتى ذلك القمل، وتلك القذارة – التعاون، والمشاركة فى كل شيء جيد وسيء – والمعرفة أن غدا قد يكون دورك

١– ميلتون: نسبة إلى جون ميلتون (١٦٠٨–١٦٧٤) شاعر وكاتب إنجليزى شهير، ومن أهم كتاباته «الجنة المفقودة»ظ و«الجنة العائدة»، ومن أهم شخصياتها إبليس.

أنت، أو دور واحد من الشباب – دورك فى المستشفى (وفى الغالب لن يكون لديهم البنج الكافى إلا ربما للبتر أو لشىء من هذا القبيل)، أو دورك أنت لحفل الدفن. كل تلك الأحاسيس يا مستر برويتر – لا يمكن تصديق أنها لا تعنى شيئا.

قال مستر برويتر:

– بل معناها فى ذاتها.

وجد چيريمى الفرصة للهجوم المضاد، وبسرعة غير معهودة به، انتهزها وقال:

– ألا ينطبق نفس الشىء على إحساسك بالأبدية أو أيا ما كانت؟

قال مستر برويتر:

– بالطبع تنطبق.

– إذن والوضع كذلك، كيف تدّعى أية صلاحية لها بينما الإحساس موجود فى حد ذاته، وهذا كل ما فى الأمر؟

وافقه مستر برويتر وقال:

– إنها تعنى ذاتها. ولكن ما هو ذاتها بالضبط؟ أى بمعنى آخر، ما هى طبيعة هذه الأحاسيس؟

هز چيريمى رأسه بشكل كوميدى مضطرب، وقال رافعا حاجبيه:

– لا تسألنى، فأنا حقا لا أعرف.

ابتسم مستر برويتر:

– أعلم أنك لا تريد أن تعرف، ولن أسألك. سوف أقول لك فقط الحقائق. الإحساس الذى نتحدث عنه هو تجربة غير شخصية للسلام الأبدى، ومن ثم فهى تعنى ما هو غير شخصى، وأبدى، وسلام. والآن دعونا نفكر فى الإحساس الذى كان يتحدث عنه پيت. كلها أحاسيس شخصية، ناجمة عن المواقف الوقتية، وتتميز

بالإحساس والإثارة. إنها إذن تكثيف للذات وسط عالم الوقت والرغبات – هذا هو معنى هذه الأحاسيس.

قال بيت:

– ولكنك لا تستطيع أن تسمى التضحية بالذات تكثيفاً لها.

قال مستر بروبتر بإصرار:

– بل أستطيع، وهذا ما أقوله بالفعل، لسببٍ بسيط أنها فعلا كذلك ... إن التضحية بالذات من أجل أى شيء سوى الهدف الأسمى، لا تعدو كونها تضحية لقيمة ما، والتى هى إبراز للذات، وما يُعرف باسم التضحية بالذات ما هو إلا تضحية بجزء من الذات من أجل جزء آخر، ومجموعة من الأحاسيس والمشاعر من أجل مجموعة أخرى من الأحاسيس والمشاعر – مثل الأحاسيس المرتبطة بالمال والجنس والتى نضحى بها من أجل أن تشعر الذات بالتفوق، والتضامن والكراهية، وكلها مرتبطة دائما بالوطنية، أو أى نوع من التعصب السياسى أو الدينى.

هز بيت رأسه وابتسم بحيرة آسفة، ثم قال:

– أحيانا تتحدث مثل الدكتور أوبيسبو. أنت تعلم – بسخرية.

ضحك مستر بروبتر وقال:

– إنه شيء جيد أن تكون ساخرا. هذا بالطبع لو كنت تعلم متى تتوقف. معظم الأشياء التى تعلمنا أن نحترمها ونقدسها – لا تستحق سوى السخرية. خذ مثلا حالتك أنت. لقد علموك أن تعبد قيما مثل الوطنية، والعدل الاجتماعى والعلم والحب الرومانسى، وعلموك أن قيماً مُثل الولاء والاعتدال والشجاعة والفطنة أشياء جيدة فى حد ذاتها وتحت أية ظروف، وأكدوا عليك أن التضحية دائما رائعة، وأن المشاعر الراقية دائما صالحة. وهذا كله هراء ومجموعة من الأكاذيب، اخترعها

البشر ليبرروا استمرارهم فى نفى الله، ويبرروا إغراقهم فى ذواتهم. أما إذا لم تكن ساخرا باستمرار تجاه هراء الوجوم الذى يقوله الكهنة ومديرو البنوك والأساتذة والسياسيون وكل الآخرين، فإنك سوف تضيع، بل وتضيع تماما، وسيكون محكوماً عليك بالسجن الأبدى داخل ذاتك - ومحكوماً عليك أن تكون ذاتاً فى عالم الذوات، وعالم الذوات فى هذا العالم، هو عالم الجشع والخوف والكراهية والحرب والرأسمالية والديكتاتورية والعبودية. نعم، لابد أن تكون ساخرا يا بيت. بل وساخرا بشكل خاص من كل التصرفات والمشاعر التى تعلمت أن تعتبرها جيدة. إن معظمها ليس جيدا، بل هو مجرد شر يبدو ذا مصداقية. ولكن مع الأسف، الشر ذو المصداقية لا يقل سوءا عن الشر بدون مصداقية. الكتَبة والفريسيون ليسوا أفضل ، فى التحليل الأخير، من العشارين والخطاة. بل إنهم أسوأ فى أغلب الأحيان، وذلك لأسباب كثيرة، إذ بمَ أن الآخرين يعتقدون أنهم أفضل، فقد أصبحوا يعتقدون أنهم أفضل، ولا شىء يؤكد الذاتية مثل التفكير الجيد عن ذاتك. ثانيا، إن العشارين والخطاة بشكل عام، بشر حيوانيون، بدون الطاقة الكافية، أو السيطرة على الذات الكافية، لارتكاب الأذى الكثير. أما الكتبة والفريسيون فلديهم كل الفضائل، إلا المهم منها، ولديهم الذكاء لكى يفهموا كل شىء إلا طبيعة العالم الحقيقية. العشارون والخطاة يتضاجعون ويأكلون أكثر من حاجتهم، ويسكرون أيضا. أما الذين يبدأون الحروب، والذين يدنون زملاءهم من مستوى العبودية، والذين يقتلون ويعذبون ويقولون الأكاذيب باسم أهدافهم المقدسة، فهم الأشرار الحقيقيون - ليسوا أبدا العشارين والخطاة. لا. إنهم الرجال الفضلاء المحترمون، الذين يملكون أفضل المشاعر، وأفضل العقول وأنبل المُثل.

سأل بيت بنبرة غضب ويأس:

– إذن فالنتيجة التى ننتهى بها من كل هذا، هى أننا لا نستطيع أن نفعل شيئا. أليس كذلك؟

قال مستر برويتر بطريقته الهادئة القضائية:

– نعم ولا. على المستوى البشرى المحض، وعلى مستوى الوقت والرغبات، أعتقد أن هذا صحيح. فى النهاية، لا يوجد شىء تستطيع أن تفعله.

قال بيت معترضا:

– ولكن هذه انهزامية.

– هل هى انهزامية أن نكون واقعيين؟

– لابد أن هناك شيئا ما يمكن عمله.

– لا أرى أى لابد فى الموضوع.

– إذن ماذا عن المُصلحين وكل هؤلاء الناس؟ إذا كنت مصيبا، فإنهم يُضيعون وقتهم.

أجاب مستر برويتر:

– هذا يعتمد على ما يعتقدون أنهم فاعلون. إذا كانوا يظنون أنهم يقومون بتخفيف بعض المضايقات مؤقتا، وإذا كانوا يرون أنفسهم كبشر يحاولون تغيير مسار الشر من ممراته القديمة إلى ممرات جديدة ومختلفة قليلا، ففى هذه الحالة يمكن أن يدّعوا النجاح. أما إذا كانوا يظنون أنهم يجعلون الخير يتجلى مكان الشر، فإن التاريخ يظهر بوضوح أنهم فعلا يضيعون وقتهم.

– ولكن لماذا لا يستطيعون تبديل الخير مكان الشر الذى كان؟

– لماذا نسقط عندما نقفز من نافذة الدور العاشر؟ لأن طبيعة الأشياء كذلك: أن نسقط. وطبيعة الأشياء هى أنه على المستوى البشرى، الذى يحوى الوقت

والرغبات، لن نتمكن من الوصول إلى شيء سوى الشر. إذا اخترت أن تعمل بشكل مطلق على هذا المستوى، وبشكل مطلق من أجل القيم والأهداف التى تميزها، إذن فأنت مجنون لو توقعت أنك تقدر أن تحول الشر إلى خير. إنك مجنون لأنه كان عليك أن تتعلم من التجربة أنه لا يوجد أى خيرعلى هذا المستوى. هناك فقط درجات وأشكال مختلفة من الشر.

– إذن ماذا تريد أن يفعل الناس؟

قال مستر برويتر:

– لا تتحدث وكأن الذنب ذنبى. أنا لم أخترع الكون.

– إذن ماذا ينبغى أن يفعل الناس؟

– إن إرادات الناس تنويعات جديدة للشر، فليستمروا فيما يفعلون الآن. ولكن إن كانوا يريدون الخير، فلابد أن يغيروا تكتيكاتهم. والشيء المُشجع حقا أنه توجد تكتيكات سوف تثمر عن الخير. لقد رأينا أنه لا يوجد شيء نفعله على المستوى البشرى المحض، أو بالأحرى، هناك الملايين من الأشياء التى يمكن أن نفعلها، ولكن لن تصل بنا أى منها إلى الخير. ولكنَّ هناك شيئا مؤثرا فعلا يمكن أن نفعله على المستويات الموجود فيها الخير. أترى يا بيت، إننى لست انهزاميا، بل إستراتيجيا، إذ أؤمن بأنه إن وُجدت معركة فلابد أن ندخلها، ولكن تحت الشروط التى بها على الأقل بعض الفرص لكسبها. أؤمن أنك لو كنت تريد صوفا ذهبيا، فمن الأوقع أن تذهب إلى المكان الذى يوجد به مثل تلك الأصواف بدلا من الجرى وعمل أشياء خارقة من الشجاعة فى بلد لا يوجد بها غير الأصواف فاحمة السواد.

– إذن أين نحارب من أجل الخير؟

– فى المكان الذى يوجد فيه الخير.

– ولكن أين هو؟

– فى المستوى تحت البشرى وفوق البشرى. فى المستوى الحيوانى وفى مستوى ... عليك أن تختار الاسم بنفسك: مستوى الأبدية، المستوى الإلهى (لولم يكن لك اعتراض عليه)، مستوى الروح – إلا أن هذه الكلمة من أكثر الكلمات ازدواجية فى اللغة. على المستوى الأدنى، الخير موجود كوظيفة مناسبة للكائن العضوى، بالتناسب مع قوانين وجوده. إنه موجود، على المستوى الأعلى، فى هيئة المعرفة بالعالم دون رغبة أو كراهية. إنه موجود كتجربة للأبدية، ولتجاوز الذات، وكامتداد للوعى بعد الحدود المفروضة على الذات. الأنشطة البشرية المحضة أنشطة تمنع ظهور الخير على المستويين الآخرين. لأنه فيما أننا بشر، فإننا مستحوذون بالوقت ومهتمون بشدة بذواتنا، وبهذه الإسقاطات لذواتنا التى نسميها السياسات أو مُثُلنا العليا، أو دياناتنا. وما هى النتيجة؟ الاستحواذ بالرغبة والقلق. ولكن لا شىء يعرقل الوظائف الطبيعية للكائنات العضوية مثل الرغبة والكراهية، والطمع والخوف والقلق. معظم متاعبنا الجسدية وعجزنا ناتج عن القلق والرغبة، بشكل مباشر أو غير مباشر. إننا نقلق ونُرغّب أنفسنا لدرجة أننا نصاب بضغط الدم، وأمراض القلب، والسل، وقرحة المعدة، والمقاومة الضعيفة للأمراض، وضعف الأعصاب، والانحرافات الجنسية، والجنون والانتحار، هذا بدون ذكر كل الأمراض الأخرى.

أشاح مستر بروبتر بيده واستمر قائلا:

– إن الرغبة تمنعنا حتى من الرؤية الجيدة، وكلما حاولنا الرؤية أكثر، أخطأنا أكثر فى التكيف. ونفس الشىء بالنسبة للموقف الجسدى: كلما أصابنا القلق حول عمل الأشياء التى أمامنا مباشرة فى الوقت، تعارض هذا مع موقف جسدنا الصحيح، ومن ثم تسوء وظائف الكائن العضوى كله. أى بمعنى آخر، بما أننا بشر،

فإننا نمنع أنفسنا من معرفة الصلاح الفيسيولوجي والفطرى الذى يمكننا معرفته كحيوانات. وبالمثل، نفس الشيء ينطبق على المستوى الأعلى. بما أننا بشر، فإننا نمنع أنفسنا من التعرف على الصلاح الروحي والأبدى الذى نستطيع معرفته كسكّان دائمين محتملين للأبدية، وكمستمتعين محتملين للرؤية المُغتبطة. إننا نقلق ونرغب أنفسنا حتى نخرج خارج إمكانية تجاوز الذات، ومعرفة الطبيعة الحقيقية للعالم، أولا من خلال الثقافة ثم من خلال التجربة المباشرة.

صمت مستر برويتر قليلا، ثم بابتسامة مفاجئة استمر قائلا:

– لحسن الحظ غالبيتنا لا يستطيعون التصرف كبشر طوال الوقت. إننا ننسى ذواتنا الصغيرة البائسة، وهذه الإسقاطات الكبيرة المخيفة لذواتنا فى العالم المثالى – ننساها ونرتد إلى الحيوانية غير الضارة معظم الوقت. وهكذا يتاح للكائن العضوى الفرصة ليعمل حسب قوانينه هو، أى بمعنى آخر، تتاح له الفرصة ليحقق الصلاح القادر عليه. لهذا السبب نحن بهذا الشكل الصحى والعقلى. حتى فى المدن الكبيرة، يستطيع أربعة أشخاص من بين كل خمسة أن يعيشوا فى الحياة بدون علاج فى مصحة عقلية. لو كنا بشراً بشكل ثابت، فإن معدل الحالات العقلية كانت سترتفع من عشرين إلى مائة. ولكن لحسن الحظ معظمنا لا يقدر على الثبات – فالحيوان دائما يُطالب بحقه. وبالنسبة لبعض الناس يتكرر ذلك مرارا. لكن ربما بين الحين والآخر يأتى بعض وميض استنارة للكثيرين – لمحات خاطفة وقتية فى طبيعة العالم، مثل وعى متحرر من شهوة الوقت، عن العالم كما يمكن أن يكون، لو لم نكن قد اخترنا رفض الله، من خلال كوننا ذواتاً شخصية. هذا الوميض يأتى إلينا ونحن غير ملتفتين، ثم نعود فورا للرغبات والقلق، ويختبىء الضوء مرة أخرى خلف ذواتنا ومُثُلها المجنونة، وسياساتها وخططها الإجرامية.

ساد الصمت. كانت الشمس قد غربت. خلف الجبال تجاه الغرب تلاشى ضوء أصفر باهت ليحل محله الأخضر ثم الأزرق وأخذ ينحو إلى الأزرق الداكن تدريجيا فى صعود. فى القمة كان الليل قد حلّ.

جلس بيت ساكنا، يحدّق فى السماء المظلمة التى لم تزل شفافة فوق القمم الشمالية. الصوت الذى كان هادئا فى البداية ثم بدأ فى الرنين فى النهاية بقوة هكذا، وهذه الكلمات التى أصبحت الآن ساخرة بلا رحمة من كل الأشياء التى أعطى لها ولاءه كله، وأصبح الآن محتقنا بالوعود نصف-المفهومة عن أشياء أكثر قيمة من الولاء، كل هذا تركه متأثرا من الأعماق، لكن فى ذات الوقت مشوشا وضائعا. فهم أنه لابد أن يعيد التفكير فى كل شىء، ومن البداية - العلم، السياسة، ربما حتى الحب، وحتى فيرجينيا. كان مذهولا من الموضوع، ولكنّ جزءاً آخر من ذاته كانت منجذبة له. كان رافضا التفكير فى مستر بروبتر، ولكن فى ذات الوقت كان يحب الرجل العجوز المثير للقلق. كان يحبه لما يفعله، وفوق كل شىء لما كان فى ذاته، كما عرفه بيت بإعجاب من خلال تجربته - وهو الصديق بدون نفعية، صافٍ وقوى، رقيق وشديد، مُبتعد ولكن موجود بكثافة، موجود ومتألق أكثر حتى من أى شخص آخر.

وجد چيريمى بورديج نفسه أيضا مهتما بما يقوله الرجل العجوز، بل وإنه أيضا، مثل بيت اختبر حراك نوع من القلق والانزعاج - انزعاج ليس بقليل لكونه قد أزعجه من قبل. كان مغزى ما قاله مستر بروبتر مألوفا له، إذ أنه بالطبع، قد قرأ كل الكتب ذات الدلالة المعنية بهذا الموضوع - بل كان يمكن أن يعتبر نفسه غير مثقف وهمجى لو لم يكن قد قرأها - لقد قرأ سنكارا وإيكارت(٢)، ونصوص

٢- إيكارت: نسبة إلى يوهانس إيكارت (١٢٦٠-١٣٢٧) عالم لاهوت ألمانى، وقد أدانه الفاتيكان بعد وفاته بسبب كتاباته.

البـــالى[٣] ونصــوص جـون الصليـبى[٤] وتشـارلز كـونـدران وبـاردو وبـانتـانجلى[٥] والديونيسياس المزيف. كان قد قرأها جميعا وتأثر بها لدرجة أنه تساءل إذا ما كان ربما ينبغى أن يفعل شيئا حيال ذلك. ثم لأنه تأثر بهذه الطريقة، فقد فعل كل ما بوسعه ليسخر منها، ليس فقط أمام الناس، بل أيضا، وفوق كل شيء، أمام نفسه.

قال الرجل «لم تشتر لنفسك تذكرة لأثينا». اللعنة على هاتين العينين! لماذا يريد قذف هذه الأشياء فى وجهنا؟ كل ما نريده هو أن نُترك فى سلام، لنأخذ الأشياء كما تأتى – كتبه، مقالاته الصغيرة، ومزمار أذن الليدى فريدجوند، والباليستريتا، وكعكة اللحم والكبد فى الريفورم ومارى ودوريس. وجعله بهذا يتذكر أن اليوم هو الجمعة، ولو كان فى إنجلترا لقضى الأمسية فى البيت، فى مايدا فيل. استدار بعيداً عن مستر بروينز عن عمد، وفكر بدلا منه فى أمسيات أيام كل جمعة أخرى، وفى الأباجورات وردية اللون، ورائحة بودرة التلك والعرق، والنساء الطروادِيات، كما كان يسميهن لأنهن كن يعملن بجد، مرتديات الكيمونو من محلات ماركس وسبنسر، ثم الصور المقلدة المبروزة لبوينتر[٦] وألما تاديما[٧]، (ومن سخريات القدر الجميلة أن الأعمال التى اعتقد الفيكتوريون أنها فن، أصبحت اليوم، بعد جيل واحد، تُستخدم كقطعة من الفن الفاضح فى حجرة نوم بغى). ثم أخيراً، الروتين الجنسى، منحط بطبيعته، كريه ودنىء بشكل كلى وحرفى، بانحطاط ودناءة تُشكل بالنسبة

٣- نصوص البالي: الكتابات الدينية التي كتبت بلغة البالى، وهى لغة البوذيين الجنوبيين فى سرى لانكا، وبورما، وتايلاند، ولاوس، وكامبوديا.

٤- جون الصليبي: وهو دوق برجاندي بفرنسا (١٣٧١-١٤١٩) وقد عرف باسم جون الذي لا يهاب شيئا وذلك لجرأته الحربية.

٥- بانتانجالي: نسبة إلي أحد مطوري اليوجا وهو من القرن الثاني بعد الميلاد، وقد طورها كطريق للوصول إلي الاستنارة من خلال التحكم بالجسد والتأمل.

٦- بوينتر: نسبة لسير دوارد جون بوينتر (١٨٣٦-١٩١٩) رسام بريطاني.

٧- ألما تاديما: نسبة إلي سير لورانس ألما-تاديما (١٨٣٦-١٩١٢) رسام هولندى اشتهر برسوماته الرومانسية ولوحاته التاريخية.

لجيريمى أفضل سحر فيه، حتى أنه كان يعتبره أغلى من أى قدر من الحب والرومانسية، بل وأى عدد من القصائد الغنائية وقصائد الحب. الدناءة المتناهية فى الغرفة الصغيرة! كان هذا تأليه للرُقى، والنتيجة المنطقية للذوق الرفيع.

الفصل العاشر

فى يوم الجمعة هذا، على غير العادة، كان مساء مستر ستويت بدون أحداث تُذكر، أثناء وجوده فى البلد. لم يحدث شيء غير لائق طوال الأسبوع السابق. خلال اجتماعاته ومقابلاته العديدة لم يقل أو يفعل أحد شيئا يجعله يفقد أعصابه. كل تقارير الأحوال التجارية كانت مرضية. اليابانيون اشتروا مائة ألف برميل آخر من البترول، والنحاس زاد بمقدار سنتين، وكان الطلب على القروض من البنك مؤسفا، إلا أن وباء الإنفلونزا جعل نسبة الإقبال الأسبوعى على البانثيون أعلى من المتوسط.

كانت الأمور تسير بسلاسة لدرجة أن مستر ستويت أنهى كل أعماله فى حوالى ساعة كاملة وأسرع مما توقع، ولأنه وجد نفسه بلا عمل، توقف فى طريقه إلى البيت عند وكيل أعماله، ليقف على ما يحدث فى أملاكه. لم تدم المقابلة أكثر من بضع دقائق – ولكنها كانت كافية لتجعل مستر ستويت يجرى مسرعا فى غضب نحو سيارته.

أغلق الباب بعنف وقال آمراً سائقه بلهجة خشنة:

– اذهب إلى مستر بروبتر.

ظل يسأل نفسه ماذا يظن بيل بروبتر أنه فاعل؟ لماذا يدس أنفه فى شئون الآخرين؟ وكل هذا بسبب الأغبياء القذرين الذين جاءوا ليجمعوا البرتقال! كل هذا من أجل الصعاليك، هؤلاء الأقذار ذوو الرائحة العطنة! كان مستر ستويت يشعر بكراهية خاصة تجاه مجموعات عمال التراحيل المهلهلين، الذين يعتمد عليهم فى جمع محصوله – كراهية تفوق كراهية الرجل الغنى العادى للفقراء. ليس أنه لم يختبر هذا الشعور المختلط بالخوف والقرف، والعطف المكتوم والخجل الذى تحول

من خلال الكبت إلى غيظ مزمن. بل كان يشعر بكل هذا، بالإضافة إلى الكراهية العادية والطبيعية بين أمثاله للفقراء، كانت تحركه كراهيات خاصة أخرى. كان مستر ستويت رجلا غنيا بعد فقر. في السنوات الست ما بين هروبه من أبيه وجدته في ناشفيل، وحتى الوقت الذي تبناه فيه العم توم الذي تكرهه كل العائلة في كاليفورنيا، تعلم جو ستويت كما تصور، كل ما يمكن تعلمه عن الفقر. لقد تركت تلك السنوات لديه كراهية لا تمحى تجاه الفقر، وفي ذات الوقت كراهية لكل الأغبياء أو الضعفاء أو غير المحظوظين الذين لم يتمكنوا من الصعود خارج هذا الجحيم الذي سقطوا فيه أو ولدوا به. كان الفقراء منفرين له، ليس فقط لأنهم تهديد محتمل لمكانته في المجتمع، وليس فقط لأنهم يُذكّرونه بمعاناته في الماضي، بل لأنهم كانوا لا يزالون فقراء وهذا إثبات كافٍ لاستحقاقهم الازدراء، بل وإثبات أيضا لتفوقه هو. وبمَ أنه عانى مما يعانونه اليوم، فإن الصواب أن يظلوا يعانون مما عاني منه هو. وأيضا بما أن فقرهم المستمر يثبت أنهم يستحقون الازدراء، فاللائق أنه وقد أصبح ، غنيا الآن، أن يعاملهم بكل وسائل الازدراء التي أثبتوا أنهم يستحقونها.

هكذا كان منطق مشاعر مستر ستويت، وها هو بيل بروبتر يسير عكس منطقه حين قال لوكيله إنهم لابد ألا ينتهزوا فرصة وفرة قوة عمل العابرين ليخفضوا المرتبات، بل على العكس من ذلك، ينبغي رفعها – رفعها إذا سمحت، في الوقت الذي يعج فيه هؤلاء الأغبياء في الولاية مثل وباء من الصراصير المورمونية [1]. وهذا ليس كل شيء، بل ينبغي أن يبنوا لهم أماكن للإيواء – أكواخا، مثل التي بناها هذا الأبله العجوز المجنون بيل لنفسه، مكونة من غرفتين، تكلف كل منها ستمائة أو سبعمائة

---

١ – المورموليون: طائفة مسيحية.

دولار – من أجل أغبياء مثل هؤلاء، ونسائهم، وهؤلاء الأطفال المقرفين القذرين لدرجة أنه لن يُدخلهم مستشفاه، إلا إذا كانوا سيموتون فعلا من المصران أو شيء من هذا القبيل – في هذه الحالة لن تستطيع رفضهم بالطبع. وإلى أن يحدث هذا، فماذا يظن بيل بروبتر أنه يفعل بحق الجحيم؟ ثم إن هذه ليست المرة الأولى أيضا التي يحاول أن يتدخل فيها. متهاديا وسط حقول البرتقال في الغسق، ظل مستر بروبتر يخبط كفه الأيسر بقبضته اليمنى.

همس لنفسه:

– سوف أعطيها له هذه المرة . سوف أعطيها له.

منذ خمسين عاما كان بيل بروبتر هو الطفل الوحيد في المدرسة الذي لم يسخر منه بسبب بدانته، بالرغم من أنه كان أكبر وأقوى الأطفال. وقد تقابلا ثانية عندما كان بيل يقوم بالتدريس في جامعة بيركلي، وقد بدأ ينجح في لعبة السمسرة، ثم دخل مجال البترول. جزئيا، وكنوع من العرفان بالجميل للطريقة التي عامله بها بيل بروبتر عندما كانا طفلين، وجزئيا أيضا حتى يستعرض قوته، ليعيد صياغة ميزان القوة لصالحه، أراد جو ستويت أن يفعل شيئا خيّرا مع المدرس المساعد الشاب. ولكن بالرغم من مرتبه الضئيل، والاثنان أو ثلاثة آلاف دولار في السنة البائسة التي تركها له والده، لم يكن بيل بروبتر يريد أن يفعل أحد شيئا له. كان بدا بالفعل معترفا بالجميل، وكان مهذبا بشدة وودودا للغاية، ولكنه فقط لا يريد أن يأتي إلى الدور الأرضي لزيوت كونسول – لم يكن يريد – كما أوضح له – لأن لديه كل احتياجاته، وكان يُفضل ألا يحصل على أي شيء آخر. فشلت محاولات جو ستويت لضبط ميزان القوة. بل فشلت فشلا ذريعا، لأنه برفضه العرض، وبالرغم من أن جو ستويت أسماه آنذاك غبيا، إلا أنه أجبره على احترامه أكثر من أي وقت مضى.

ولأن هذا الإعجاب كان خارجا عن إرادته، فقد أفضى فى النهاية إلى رفضٍ موازٍ للرجل ذاته. غضب چو ستويت أن بيل أعطاه أسبابا كثيرة ليحبه. كان يفضل لو أنه أحبه بدون سبب، بالرغم من قصوره. ولكن لم يكن لدى بيل قصور كثير، وكانت فضائله كثيرة، بل هى فضائل غير موجودة لدى چو ستويت ذاته، وكونها موجودة فى بيل اعتبرها چو ستويت إهانة له. وهكذا فإن كل الأسباب التى جعلت چو يحب بيل بروبتر هى ذاتها المبرر لكراهيته. ظل يدعو بيل بالأحمق، ولكنه شعر أيضا أنه يؤنبه. وهذا التأنيب كان لأنه يحب صحبة بيل. بل لقد قرر مستر ستويت أن يبنى قصره هنا لأن بيل كان قد استقر على قطعة أرض مكونة من عشرة فدادين، فى هذا الجزء من الوادى. كان يريد أن يظل بجوار بيل بروبتر بالرغم من أنه عمليا، لا يوجد شىء يمكن أن يفعله أو يقوله بيل لا يسبب له ضيقا اليوم. واليوم، كان ضيقه المزمن قد ازداد مع إضافة كراهيته لعمال التراحيل، وتحول إلى غضب جامح.

أخذ يكرر لنفسه مرة وراء الأخرى:

– سوف أعطيها له هذه المرة.

وقفت السيارة، وقبل أن يفتح له السائق الباب ، اندفع مستر ستويت خارجها مسرعا نحو هدفه، لا ينظر يمينا أو يسارا، مهرعا عبر الطريق المؤدى من الشارع العمومى إلى كوخ صديقه القديم.

قال صوت مألوف من تحت ظلال شجرة اليوكاليبتوس:

– أهلا چو.

استدار مستر ستويت ونظر فى ضوء الغسق، ثم هرع صوب الدكة التى كان يجلس عليها الرجال الثلاثة دون أن ينطق بكلمة. قابله الرجال الثلاثة بكلمات

الترحاب، وعندما اقترب وقف بيت بأدب وعرض عليه مكانه. متجاهلا الحركة، بل ومتجاهلا وجوده أصلا، خاطب بيل بروبتر مباشرة وصاح:

- لماذا بحق الجحيم لا تترك رجلى فى حاله؟

نظر إليه مستر بروبتر بدهشة معتدلة، فقد كان معتادا لمثل هذه الانفعالات من چو المسكين، وقد عرف منذ زمن أسبابها الأساسية، وعرف كذلك بالتجربة كيفية التعامل معها.

سأل:

- أى رجل يا چو؟

- بوب هانسن بالطبع. ماذا تعنى بذهابك إليه خلف ظهرى؟

قال مستر بروبتر:

- عندما جئت إليك قلت لى إنه شأن هانسن. لذلك ذهبت إلى هانسن.

كان هذا حقيقيا بدرجة مثيرة للغيظ حتى أن مستر ستويت لم يستطع سوى أن يلجأ إلى الزئير، وأخيرا قال:

- إنك تتدخل فى عمله. ما الفكرة بالضبط؟

قال مستر بروبتر:

- بيت يعرض عليك مكانه. أو، إن كنت تفضل، يوجد كرسى حديدى وراءك. يُفضل أن تجلس يا چو.

جأر مستر ستويت وقال:

- لن أجلس وأريد جوابا منك. ما الفكرة؟

قال مستر بروبتر الهادئ البطيء:

- الفكرة؟ إنها فكرة قديمة فى الواقع. أنت تعلم. لم أخترعها.

- ألا تستطيع أن تعطينى إجابة؟

- الفكرة أن الرجال والنساء عموما بشر وليسوا طفيليات.

- هؤلاء الأغبياء!

استدار مستر برويتر نحو بيت وقال:

- يمكنك الجلوس ثانية.

- هؤلاء الأغبياء! إننى أقول لك، لن أتحمل هذا.

استمر مستر برويتر:

- ثم إننى رجل عملى، وأنت لست كذلك.

ردد مستر ستويت بدهشة وسخط:

- أنا لست عمليا؟ لست عمليا؟ إذن انظر لهذا المكان الذى أعيش فيه وهذه الزبالة التى تعيش فيها.

- بالضبط. هذا يثبت ما أعنيه. إنك رومانسى بلا أمل يا چو - رومانسى لدرجة أنك تظن أن الناس يمكن أن تعمل بينما ليس لديهم ما يكفيهم ليأكلوا.

- إنك تحاول أن تجعلهم شيوعيين.

كلمة «شيوعيون» أعادت لمستر ستويت انفعاله، وفى نفس الوقت بررته له. توقف سخطه عن كونه سخطا شخصيا، وأصبح يتحدث بتقوى شديدة:

- لستَ سوى مشاغب شيوعى.

لاحظ مستر برويتر بحزن أن صوته ارتجف تماما مثلما ارتجف صوت بيت منذ نصف ساعة عندما قال «الاعتداء الفاشى». تساءل فى نفسه لو لاحظ الشاب هذا، أو، لو كان قد لاحظ، إن كان فهم المعنى.

كرر مستر ستويت كلماته بحماس المبشرين قائلا:

- لستَ سوى شيوعى مشاغب.

قال مستر بروبتر:

- كنت أعتقد أننا نتحدث عن الطعام.

- أنتَ تراوغ!

- الطعام والعمل - ألم يكونا هذين؟

قال مستر ستويت:

- لقد تحملت كل هذه السنوات من أجل العِشرة بيننا. ولكننى انتهيت منك الآن. تتحدث عن الشيوعية مع هؤلاء الأغبياء! إنك تجعل المكان خطرا بالنسبة للناس المحترمين.

ردد مستر بروبتر وراءه:

- محترمون؟

كان يريد أن يضحك، ولكنه راجع نفسه فورا. لو ضحك عليه أمام بيت ومستر بورديج، فربما يفعل هذا الشخص المسكين شيئا غبيا لا يمكن علاجه.

ظل مستر بروبتر يزأر:

- سوف أطردك من الوادى. سوف أرى أنك...

سكت فجأة فى منتصف جملته، وتوقف بضع ثوان دون أن ينبس بكلمة، وفمه لا يزال مفتوحا ومتحركا، بينما عيناه مفتوحتان. هذا النقر فى أذنيه، وهذه السخونة المدغدغة فى وجهه - ذكّرته فجأة بضغط دمه، وبالدكتور أوبيسبو وبالموت. الموت، وهذا النَص الملون الملتهب فى غرفة نومه فى المنزل. «شىء مخيف أن نسقط فى يد الإله الحىّ» - ليس رب برودنس بالطبع، ولكن هذا الرب الآخر الحقيقى، رب أبيه وجدته.

تنهد مستر ستويت بعمق، وأخرج منديله ومسح به وجهه وعنقه، ثم دون أن ينبس بكلمة أخرى استدار ومشى بعيدا عنهم.

هب مستر بروبتر من مكانه وأسرع وراءه، وبالرغم من أن الآخر شد ذراعه بعيدا، فقد أمسك به بروبتر وسار بجانبه، ثم قال:

– أريد أن أريك شيئا. شيئا سوف يثير اهتمامك فيما أعتقد.

قال مستر ستويت من بين أسنانه:

– لا أريد أن أراه.

لم يلتفت له مستر بروبتر، وظل يقوده نحو خلفية بيته. قال:

– إنه ابتكار ميكانيكى كان يعمل عليه رئيس دير السميثسونيان منذ مدة طويلة. لاستخدام الطاقة الشمسية.

توقف ونادى على الآخرين ليتبعوهم، ثم استدار مرة أخرى إلى مستر ستويت واستمر فى الحديث:

– إنه أصغر من أى شىء صُنع من قبل، وأكثر فعالية.

استمر يشرح نظام العاكسات المصنوع على شكل الحوض ، ومواسير الزيوت التى تم تسخينها لدرجة حرارة تصل إلى أربعمائة وخمسمائة درجة فهرنهايت، والغلاية لرفع البخار إن كنت تريد أن تشغل موتورا من الضغط المنخفض، ثم موقد الطبيخ وسخان المياه لو كنت تستخدمه فقط لأغراض منزلية.

قال وقد وقفوا أمام الماكينة:

– خسارة أن الشمس قد غربت. كنت أود أن أريك كيف تعمل. لقد أصبح عندى مقدار قوة حصانين، لمدة ثمانى ساعات فى اليوم الواحد، وذلك منذ أن جعلت هذا الشىء يعمل خلال الأسبوع الماضى. هذا ليس سيئا لأننا لا نزال فى

شهر يناير، سوف نجعلها تعمل أكثر فى فترة الصيف.

كانت نية مستر ستويت أن يظل صامتا - فقط ليرى بيل أنه لا يزال غاضبا، وأنه لن يسامحه. ولكن اهتمامه بالماكينة، ثم فوق كل هذا اهتمامه الذى يغيظه بفلسفات بيل الغبية المجنونة، فاقت قدرته على الاحتمال، فقال:

- ولماذا بحق الجحيم تحتاج إلى قوة حصانية لمدة ثمانى ساعات فى اليوم؟

- لتشغيل المولد الكهربائى.

- ولكن لماذا تريد مولدا كهربائيا؟ ألا تأتيك الكهرباء من المدينة؟

- طبعا، ولكنى أحاول أن أرى مدى إمكانية استقلالى عن المدينة.

- لماذا؟

ضحك مستر برويتر وقال:

- لأننى أؤمن بديمقراطية جيفرسون [٢].

قال مستر ستويت بضيق متصاعد:

- وبحق الجحيم ما علاقة ديمقراطية جيفرسون بهذا؟ ألا يمكن أن تؤمن بجيفرسون ومع ذلك تستخدم كهرباء المدينة؟

قال مستر برويتر:

- هذه بالضبط المسألة. تقريبا لا يمكن.

- ماذا تعنى؟

أجاب مستر برويتر بلُطف:

- ما أقوله بالضبط.

قال مستر ستويت معلنا بنظرة تحدٍ:

٢- نسبة إلى توماس جيفرسون (١٧٤٣-١٨٢٦) الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية.

– أنا أيضا أؤمن بالديمقراطية.

– أعلم هذا. وأنت تؤمن أيضا أنك لابد أن تكون الرئيس الذى لا يناقشه أحد فى كل أعماله.

– أتمنى هذا.

قال لمستر بروبتر:

– توجد تسمية أخرى للرئيس الذى لا يناقشه أحد: الديكتاتور.

– ماذا تحاول أن تقول؟

– مجرد حقائق. إنك تؤمن بالديمقراطية، ولكنك رئيس لكل أعمالك التى لابد أن تديرها بشكل ديكتاتورى. وأتباعك لابد أن يقبلوا ديكتاتوريتك لأنهم يعتمدون عليك فى معيشتهم. إنهم يعتمدون فى روسيا على مسئولى الحكومة من أجل معيشتهم. ربما تظن أن هذا تحسن؟

قالها واستدار ينظر إلى بيت، فهز بيت رأسه بالإيجاب وقال:

– إننى أؤمن تماما بالملكية العامة لسُبُل الإنتاج.

لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يجاهر بمعتقداته أمام مخدومه. كان سعيدا أنه تجرأ وأصبح دانيالاً [٣].

كرر مستر بروبتر وراءه:

– الملكية العامة لسُبُل الإنتاج. ولكن مع الأسف بعض الحكومات لديها طريقتها فى النظر إلى الأشخاص المنتجين على أنهم أحد هذه السُبُل. بصراحة، أفضّل أن يكون رئيسى جو ستويت عن أن يكون جو ستالين.

وضع يده على كتف مستر ستويت وأكمل قائلا:

٣– دانيالا: نسبة إلى النبى دانيال وجلياط فى العهد القديم.

– هذا الـچو – هذا الجو لا يمكن أن يحكم عليك بالإعدام، ولا يمكن أن يرسلك إلى القطب الشمالى، ولا يمكن أن يمنعك من الحصول على وظيفة فى خدمة رئيس آخر. أما چو الآخر...

هز رأسه وأكمل قائلا:

– لا ليس هذا. بل إننى أتوق لأن يكون هذا الچو هو رئيسى.

زمجر مستر ستويت وقال:

– سوف أقوم بطردك بسرعة.

قال مستر بروبتر:

– أنا لا أريد أى رؤساء. كلما كثر الرؤساء كلما قلّت الديمقراطية. لو لم يستطع الناس أن يصرفوا على أنفسهم، فعليهم أن يظلوا تحت رئيس يفعل هذا بدلا عنهم. إذن كلما قلّ الاعتماد على الذات كلما قلّت الديمقراطية. فى أيام جيفرسون اعتمد كثير من الأمريكيين على أنفسهم، وكانوا مستقلين اقتصاديا – مستقلين عن الحكومة ومستقلين عن الأعمال الكبيرة. ولذلك كان الدستور.

قال مستر ستويت:

– لا يزال عندنا الدستور.

وافقه مستر بروبتر وقال:

– بلا شك، ولكن لو كان علينا أن نصنع دستورا جديدا اليوم، فكيف سيكون؟ دستورا يتوافق مع حقائق نيو يورك وشيكاجو وديترويت، مع شركة صلب الولايات المتحدة والمرافق العامة، وجنرال موتورز والسى. آى. أو، والإدارات الحكومية. كيف سيكون بحق السماء؟ إننا نحترم الدستور القديم ولكننا نعيش فى ظل دستور

جديد. وإذا كنا نريد أن نعيش بظل القديم فعلينا إعادة اختراع شيء ما مثل الظروف التى صُنع الدستور الأول فى ظلها. لهذا السبب أنا مهتم بهذا الاختراع الميكانيكى.

ربت على الماكينة واستمر قائلا:

– لأنه ربما يساعد على منح الاستقلالية لكل من يريدها، ليس لأنه يوجد الكثيرون الذين يريدونها. إن الدعاية فى صالح التواكل قوية جدا. لقد أصبح الناس لا يؤمنون بإمكانية أن تكون سعيدا إلا إذا كنت معتمدا كلية على الحكومة، أو الأعمال المركزية. ولكن بالنسبة للقليلين المهتمين بالديمقراطية، والذين يريدون أن يصبحوا أحرارا فعلا بالمفهوم الجيفرسونى، ربما يساعدهم هذا الشيء. إذا جعلهم مستقلين عن الوقود والطاقة، فهذا شيء كبير جدا.

نظر إليه مستر ستويت بقلق:

– هل تعتقد حقا أنها ستفعل هذا؟

قال مستر بروبتر:

– ولم لا؟ توجد شمس شديدة فى هذا الجزء من البلاد، تذهب هباء.

فكر مستر ستويت فى رئاسته لشركة بترول كونسول وقال:

– لن يكون هذا جيدا لبيزنيس البترول.

قال مستر بروبتر بمرح:

– ما كنت أحببته لو كان جيدا لبيزنيس البترول.

سأل مستر ستويت:

– وماذا عن الفحم؟ (كانت لديه اهتمامات بمجموعة من المناجم فى ولاية ويست فيرجينيا) والسكك الحديدية؟ (كانت لديه هذه المجموعة الكبيرة من الأسهم فى اليونيون باسيفيك التى كانت تملكها برودنس) لا يمكن أن تعمل السكك

الحديدية بدون الجرارات والصُلب. (قال هذه الأخيرة بلا اكتراث لأن نصيبه فى شركات صُلب بيثلهام يكاد لا يذكر) وماذا سيحدث للصُلب إذا آذيت السكك الحديدية وقللت النقل؟ إنك تسير ضد التقدم.

انفجر عند هذه الكلمات فى سخط وتقوى مرة ثانية وقال:

– إنك تدير الساعة للوراء.

قال مستر برويتر:

– لا تقلق يا چو. لن تؤثر على أسهمك لمدة طويلة قادمة. يوجد وقت كافٍ للتأقلم على الظروف الجديدة.

بمجهود كبير استطاع مستر ستويت أن يسيطر على أعصابه، وقال بكبرياء:

– يبدو أنك تعتقد أننى لا أفكر فى شىء سوى المال. ربما يهمك أن تعرف أننى قررت أن أعطى الدكتور مالدج ثلاثين ألف دولار أخرى لبناء كلية الفنون.

القرار كان بالطبع قد اتُخذ توا، ليكون نوعاً من السلاح فى الحرب الأزلية مع بيل برويتر. بعد لحظات تفكير أضاف:

– وإذا كنت تظن أننى مهتم فقط باهتماماتى الشخصية، فاقرأ قسم مهرجان العالم فى عدد «النيو يورك تايمز».

ثم أضاف بوجوم الأصولى الذى يعطى النصيحة بقراءة سِفر الرؤيا:

– سوف ترى أن أكثر الرجال تطورا فى هذا البلد يفكرون مثلى.

تكلم كمن يمسح بالزيت، بشكل غير معتاد وغير ملائم، فى جمل تشبه بلاغة ما بعد العشاء، وقال:

– إن طريق التقدم هو طريق التنظيم الأفضل وإعطاء خدمة أكثر، ومواد استهلاكية أكثر للمستهلكين.

ثم قال بكلام غير مترابط:

– انظر إلى الطريقة التى تذهب بها سيدة البيت إلى البقال لتشترى بعض البقول المعلن عنها محليا، أو شيئاً من هذا القبيل. هذا هو التقدم، وليس فكرتك المجنونة عن عمل كل شىء فى المنزل بهذه الآلة الغريبة.

عاد مستر ستويت إلى طريقته المعتادة وقال:

– كنت دائما أحمق يا بيل، وأعتقد أنك ستظل كذلك دائما. تذكر ما قلته لك عن التدخل فى شئون بوب هانسن. لن أقبل هذا.

فى صمت دراميّ سار بعيدا، ولكن بعد بضع خطوات توقف، والتفت قائلا:

– تعال إلى العشاء إن كنت تريد.

قال مستر بروبتر:

– شكرا. سوف آتى.

سار مستر ستويت سريعا نحو سيارته. لقد نسى ضغط دمه العالى والرب الحىّ، وأحس فجأة وبدون سبب أو منطق، أنه سعيد. ليس لأنه أحرز أى نجاح ملحوظ فى صراعه مع بيل بروبتر، لأنه فى الواقع لم يحرز شيئا. بل أكثر من هذا، لأنه لم يحرز أى نجاح، جعل نفسه أحمق، والأسوأ أنه لاحظ ذلك. لكن مصدر سعادته كان فى شىء آخر. كان سعيدا بالرغم من عدم رغبته للاعتراف بذلك، لأنه بالرغم من كل شىء، كان بيل فيما يبدو يحبه.

فى السيارة، متجها إلى القصر، أخذ يصفر.

دخل مستر ستويت عبر القاعة الكبيرة، مرتديا قبعته كالعادة، لأنه حتى بعد كل هذه السنوات كان لا يزال يستمد سعادة طفولية من الفارق بين القصر الذى يعيش فيه والسلوك البروليتارى الذى يتصنعه. دخل المصعد، ومن هناك اتجه

مباشرة إلى مخدع فيرجينيا.

عندما فتح الباب كان الاثنان جالسين وبينهما على الأقل خمسة عشر قدما، إذ كانت فيرجينيا جالسة إلى الطاولة تأكل الآيس كريم بالموز والشيكولاتة وكأنها غارقة في تفكير عميق، بينما كان الدكتور أوبيسبو جالسا بأناقة فوق واحد من الكراسي الكبيرة وردية اللون المصنوعة من الساتان، وكان يشعل سيجارة.

كان تأثير الشك والغيرة هو الصفعة الموجهة مباشرة إلى شبكة الأوعية الدموية كلها للمستر ستويت، إذ كانت الصدمة بدنية ومركزة في الحجاب الحاجز. انقبض وجهه ألما، ومع ذلك لم يكن قد رأى شيئا، ولم يكن هناك داعٍ واضح لغيرته، ولا يوجد سبب جلي في طريقتهما، أو تصرفاتهما، أو تعبيراتهما، يدعو إلى الشك. كان سلوك الدكتور أوبيسبو سلسا وطبيعيا تماما، وابتسامة البيبي مرحبة بدهشة وسعادة ملائكية في صراحتها.

صاحت راكضة نحوه وواضعة ذراعيها حول عنقه:

– العم جو! العم جو!

كان لدفء صوتها ونعومة شفتيها تأثير مضاعف على مستر ستويت. لقد أثرت فيه لدرجة أنه قال كلمة «بيبي» بمعناها المزدوج وبإصرار وتباطؤ. إن مجرد التفكير في أنه شك، ولو للحظات، في هذه الطفلة النقية الرائعة الدافئة المرنة المعطرة، ملأه بالخجل. ثم قام الدكتور أوبيسبو وأمطر رأسه بالفحم الملتهب، إذ قال وهو ينهض من كرسيه:

– لقد شعرت ببعض القلق عليك بسبب الطريقة التي كنت تسعل بها بعد الغداء، لذلك جئت إلى هنا لكي أتأكد من الوصول إليك فور عودتك.

وضع يده في جيبه، وأخرجها، ثم بسرعة أعاد طرف المجلد الصغير الجلدي

الذى يشبه كتاب الصلاة، وعاد فأخرج سماعته بدلا منه، ثم قال:

– الوقاية خير من العلاج. لن أجعلك تصاب بالإنفلونزا إذا كنت أستطيع منع ذلك.

تذكر مستر ستويت الأسبوع النشط فى بانثيون بيفرلى بسبب الوباء، فقال بفزع:

– لا أشعر بشىء، وأعتقد أن هذا السعال لم يكن شيئا. إنه فقط – أنت تعلم – النزلة الشعبية المزمنة القديمة.

– ربما هى كذلك، ولكن على أية حال أود أن أستمع لها.

بسرعة وحرفية، وضع الدكتور أوبيسبو طرفى السماعة حول رقبته. قالت البيبى:

– معه حق يا عم چو.

متأثرا بكل هذا الاهتمام الشديد، وفى نفس الوقت مضطربا من فكرة احتمال إصابته بالإنفلونزا، خلع مستر ستويت معطفه والصديرى، ثم بدأ يفك رباط عنقه، وبعد لحظات كان واقفا عاريا حتى وسطه، تحت الثريا الكريستالية. عادت فيرجينيا إلى شرابها. فى حياء. أدخل الدكتور أوبيسبو أطراف سماعته الملتوية فى أذنيه، وقال وهو يدفع الفوهة فى صدر مستر ستويت:

– خذ نفسا عميقا. مرة ثانية.

ثم قال بلهجة آمرة:

– والآن اسعل.

نظر عبر الدلو المشعر البدين، إلى الحائط المقابل، حيث يستعد سُكّان جنة واتو الحزانى للسفر بالمركب إلى جنة أخرى، هى فى أغلب الظن أكثر بؤسا.

قال الدكتور أوبيسبو بلهجة آمرة ، وقد عاد من «الصعود إلى سيثيرا» إلى الرؤية الأقرب لقفص مستر ستويت الصدرى ولحنجرته:

– قل: تسع وتسعون.

قال مستر ستويت :

– تسع وتسعون، تسع وتسعون. تسع وتسعون.

بدقة وحرفية، حرك الدكتور أوبيسبو فوهة السماعة من نقطة إلى أخرى فوق دلو اللحم الموجود أمامه. لا شيء بالطبع أصاب الصقر العجوز. فقط الحشرجة والأزيز المعتادان. ربما يبدو أكثر واقعية لو أخذ هذا المخلوق إلى مكتبه ووضعه أمام الجهاز الفلورسنتى. ولكن لا، لا يريد أن يزعج نفسه. ثم أن هذه التمثيلية الهزلية كافية بلا شك.

قال:

– اسعل ثانية.

وضع آلته وسط الشعر الأبيض حول حلمة مستر ستويت اليسرى. ثم بينما يُجبر مستر ستويت نفسه على السعال المتتالى المصطنع، لاحظ ، من بين أشياء أخرى، أن أجولة الأمعاء القديمة كانت ذات رائحة غير سارة بالمرة. كيف يمكن لأى فتاة شابة أن تتحملها، حتى من أجل المال، فهذا شيء يصعب عليه فهمه. ولكن الواقع يقول إنه يوجد آلاف منهن اللاتى لم يتحملنها فقط، بل أيضا يستمتعن بها. أو ربما كلمة يستمتعن غير صائبة، لأن فى معظم الحالات مسألة الاستمتاع لم تكن مطروحة بالمعنى الفيسيولوجى الحقيقى للكلمة. كان كله يحدث فى العقل، وليس فى الجسد. كن يحببن أجولة الأمعاء العجوز بعقولهن، ويحببنها لأنهن معجبات بها، ومتأثرات بمكانة أجولة الأمعاء فى الحياة، أو بمعرفتهن، أو بشهرتهن. إنهن لا

يضاجعن الرجل، بل سُمعته التى هى تجسيد لعمل ما. ثم بالطبع كانت الفتيات يشبهن فتيات إعلانات يوم الأم، بعضهن يشبهن فلورنس نايتنجيل[٤] فى شبابها، يبحثن عن الحرب الكريميانية. فى هذه الحالات كانت أمراض أجولة الأمعاء بمثابة جاذبية إضافية، إذ أعطتهن رضاء ليس فقط بمضاجعة سمعة أو حكمة كبيرة، وليس فقط قاضيا فيدراليا مثلا، أو رئاسة الغرفة التجارية، ولكن أيضا، وفى نفس الوقت، جنديا مصابا، أو طفلا أبله أو رضيعا صغيرا ذا رائحة نفاذة، لا يزال يتبول فى سريره. حتى هذه اللطيفة (نظر الدكتور أوبيسبو نظرة خاطفة نحو الطاولة) حتى هذه بها شىء يشبه فلورنس نايتينجيل، أو الأم ذات النجمة الذهبية. (وهذا بالرغم من أنها بعقلها الواعى، تشعر بنوع من الكراهية البدنية من الأمومة الحقيقية). كان چو ستويت جزئيا طفلها، وجزئيا جنديها. وفى ذات الوقت كان بالطبع أيضا ابراهام لينكولن الشخصى لها. وبالمصادفة أيضا كان هو ذاته الرجل الذى يمتلك دفترا للشيكات، وهذا شىء يؤخذ فى الاعتبار بالطبع. ولكن لو كان الوضع كذلك ما بدت فيرجينيا هكذا سعيدة بأى حال من الأحوال، وهى تبدو كذلك حقيقة. كان دفتر الشيكات أكثر جاذبية لأنه بين يدى شبه إله، ينبغى أن تكون له مربية لتغير له حفّاضته.

– استدر من فضلك.

أطاع مستر ستويت. لم يكن ظهره منفرا مثل وجهه. ربما لأنه ليس شخصيا. قال:

– خذ نفسا عميقا.

كان ينوى أن يلعب التمثيلية الهزلية مرة أخرى ومن البداية على هذا المسرح

٤– فلورانس نايتنجيل: (١٨٢٠–١٩١٠) ممرضة تعتبر أول من أسس مهنة التمريض ومؤسسة المستشفيات الحربية.

الجديد.

– ونفسا آخر.

تنفس مستر ستويت بعمق مثل الحوت. قال الدكتور أوبيسبو:

– ونفسا آخر، وآخر.

بينما الرجل يتنفس كان الدكتور أوبيسبو يفكر أن الميزة الرئيسية التى تميزه هى اختلافه المنعش عن هذا الكيس القديم العجوز ذى الرائحة النفاذة. سوف تأخذه، بل أكثر من ذلك، سوف تأخذه بشروطه . لا تمثيليات مثل روميو وجولييت، لا هراء عن الحب بالأحرف الكبيرة، ولا شيء مثل هذه الأغنية الشعبية عن السماء الزرقاء، والأحلام التى تتحقق، والجنة التى بين يديك. مجرد شهوانية لذاتها، أى الشيء الحقيقى الملموس، وليس أقل من هذا بالتأكيد. ولكن (لأن الداعرات بالطبع يحاولن دائما أن يرفعهن المرء فوق ركيزة تمثال، أو أن يجعلنك رفيق روحهن) ولكن أيضا لا أكثر من هذا. لا أكثر، بداية، لأن ذلك يشكل احتراما للحقيقة العلمية، إذ كان يؤمن بالحقيقة العلمية. الحقائق هى الحقائق، ولابد أن يقبلها على ما هى عليه. كانت حقيقة مثلا أنه يسهل إغراء الفتيات الصغيرات اللواتى يدفع لهن الرجال المسنون الأغنياء، بدون أية صعوبات. وكان أيضا حقيقيا أن الرجال المسنين الأغنياء، مهما كان نجاحهم فى البيزنس فهم خائفون بشكل عام، وجهلة وأغبياء، لدرجة أن أى شخص ذكى يستطيع أن يخدعهم إن أراد.

قال بصوت عال:

– قل: تسع وتسعون مرة ثانية.

– تسع وتسعون. تسع وتسعون.

أيضا احتمالات عدم اكتشافهم شيئا كان تسعاً وتسعين بالمائة. وهذه هى حقيقة

الرجال المسنين. أما حقيقة الحب فإنه مكون بالأساس من الانتفاخ ثم عدم الانتفاخ. لماذا إذن نزيّن الواقع بالخيال دون داعٍ؟ لماذا لا نصبح واقعيين؟ لماذا لا نتعامل مع الموضوع كله بشكل علمي؟

استمر مستر ستويت:

- تسع وتسعون. تسع وتسعون.

واستمر الدكتور أوبيسبو في تأملاته، مستمعا بلا اكتراث إلى الهمسات والهنات الصادرة من داخل الدلو الدافئ ذي الرائحة النفاذة. ثم أن هناك أسباباً شخصية أكثر تجعله يفضل أن يأخذ الحب بدون تنميق، ويأخذه في حالته الكيميائية النقية. أسباب شخصية بالطبع تشكل أيضا حقيقة لابد من قبولها، حيث كان من الحقيقي أن يجد متعة شخصية إضافية في فرض إرادته على الشريكة التي يختارها. لكي تكتمل متعته، لابد أن يكون فرض الإرادة هذه مسألة صعبة، وهذا شيء واضح وأكيد، ولهذا فهو يستبعد المحترفات. كان على الشريكة أن تكون هاوية، ومثل كل الهواة مكرسة لنظرية أن الانتفاخ وعدم الانتفاخ لابد أن يكونا مرتبطين بالحب والعاطفة القوية، ورِفاقة الروح - كلها بأحرف كبيرة. أما عندما يفرض إرادته، فكان يفرض مذهبا متناقِضا، وهو الانتفاخ وعدم الانتفاخ من أجل الانتفاخ وعدم الانتفاخ. كل ما يطلبه هو أن تعطي الشريكة لهذه النظرية حق التجربة العلمية - مهما كانت رافضة مهما كانت تجريبية، فقط مرة واحدة. لأنه في الواقع لا يهتم. مجرد تجربة واحدة. بعد ذلك تتوقف المسألة عليها. لولم يستطع أن يحولها بشكل دائم ومتحمس، كما يرى هو، فذلك إذن خطأ فيه هو.

قال مستر ستويت بصبر يُضرب به الأمثال:

- تسع وتسعون. تسع وتسعون.

قال الدكتور أوبيسبو بأدب:

– يمكنك أن تتوقف الآن.

مجرد تجربة واحدة، ويمكن بعدها أن يضمن لنفسه فعليا النجاح. إنه فرع من الفيسيولوجيا التطبيقية، وقد كان خبيرا ومتخصصا فيه. كان مثل كلود برنارد [٥] فى الموضوع. ولنتكلم عن فرض الإرادة: إنها تبدأ بإجبار الفتاة على قبول نظرية المخالفة بوضوح لكل الأفكار التى تربت عليها، خاصة القصة المشوشة الطويلة فى الأيديولوجيا الشعبية عن الأحلام التى تتحقق. وهذا فى حد ذاته يعد نجاحا هائلا بلا شك. ولكن فقط عندما تنزل إلى الفيسيولوجيا التطبيقية، تبدأ سلسلة الانتصارات المرضية حقا. تأخذ إنسانة عاقلة فى العادة بنسبة مائة بالمائة، وأمريكية ذات خلفية ومكانة فى المجتمع، ومجموعة من التقاليد، وميثاقا قيميا، ودينا (كاثوليكيا فى هذه الحالة كما تذكّر الدكتور أوبيسبو) تأخذ هذه المواطنة الصالحة، التى يضمن لها الدستور حقوقها كاملة وبشكل رسمى، تأخذها – وربما تكون عائدة لتوها إلى المكان المحدد لها فى سيارة زوجها الباكار، أوعائدة توا من حفل تكريم الدكتور موراى باتلر [٦] مثلا، أو مطران ولاية إنديانابوليس الذى على وشك التقاعد – فأقول تأخذها وتبدأ بشكل منهجى وعلمى فى تجريد هذه الشخصية الفريدة إلى مجرد جسد متشنج، يتأوه ويتمتم تحت تأثير المتعة المعذبة التى وضعتها أنت فيها، مثل كلود برنارد الموضوع، وأنت مسئول عنه، وتظل من خلاله أنت المستمتع دائما، والمنفصل دائما، أى المتفرج المستمتع الساخر.

– بضعة أنفاس أخرى إن كنت لا تمانع.

تنفس مستر ستويت بأزيز، ثم أفرغ رئتيه بتنهيدة مثل نخير الحصان.

٥– كلود برنارد: (١٨١٣–١٨٧٨) عالم فيسيولوجى، وقد كان رئيسا للأكاديمية الملكية العملية.

٦– نيكولاس موراى باتلر: (١٨٦٢–١٩٤٧) تربوى أمريكى تخرج من جامعة كولومبيا ونال جائزة نوبل بالمشاركة عام ١٩٣١، له العديد من المؤلفات التربوية والتعليمية.

الفصل الحادى عشر

ساد الصمت بعد ذهاب مستر ستويت. صمت طويل، بينما كل واحد منهم يفكر بأفكاره الخاصة. كان بيت أول من تحدث فقال بوجوم:

– مثل هذه الأشياء تجعلنى أتساءل لو كان المفروض أن استمر فى أخذ نقوده. ماذا كنت ستفعل يا مستر بروبتر لو كنت مكانى؟

قال مستر بروبتر بعد لحظة تفكير:

– ماذا أفعل؟ استمر فى العمل فى معمل جو، ولكن مادمت متأكداً أننى لن أتسبب فى الأذى أكثر من الخير. لابد أن نكون نفعيين فى هذه الأشياء. نفعيين مع الفارق، بنثام [1] مخلوط بإيكهارت مثلا، أو ناجاريونا [2].

قال جيريمى وهو يفكر فى فظاعة ما يرتكبونه نحو من سُمى باسمه:

– مسكين بنثام.

ابتسم مستر بروبتر وقال:

– مسكين بنثام فعلا! كان رجلا صالحا ولطيفا وغريبا وذكيا! مقتربا جدا من الصواب، ولكن مخطئا بفظاعة. كان يخدع نفسه بفكرة أن أكثر سعادة بالفعل ممكنة لأكثر عدد من الناس، ويمكن الوصول إليها على المستوى البشرى المحض – مستوى الوقت والشر، مستوى غياب الله. مسكين بنثام. كان يمكن أن يكون رجلا عظيما لو أنه استوعب فقط أننا لا يمكن أن نصل للصلاح حيث هو.

قال بيت:

– بالإشارة لهذا النوع من النفعية التى تتحدث عنها الآن، كيف سيكون شعوره

١– بنثام: نسبة إلى جيريمى بنثام (١٧٤٨–١٨٣٢) الفيلسوف الإنجليزى الذى أسس الفلسفة النفعية.
٢– ناجاريونا: فيلسوف هندى من القرن الأول والثانى الميلادى، وقد أسس مدرسة البوذية المسماة بالطريق الوسطى.

تجاه العمل الذى أقوم به الآن؟

أجاب مستر برويتر:

– لا أعرف. لم أفكر فى الموضوع كثيرا لكى أخمن ما يمكن أن يقوله. ثم على أية حال لم نحصل بعد على المادة الاستقرائية التى تمكننى من بناء رأى مناسب. كل ما أعرفه أننى لو كنت مكانك لأصبحت حذرا، وحذرا حتى النهاية.

قال بيت:

– وماذا عن النقود؟ لأننى أرى من أين تأتى ولمن هى، هل تظن ينبغى أن آخذها؟

أجاب مستر برويتر:

– كل النقود قذرة، ولا أرى سببًا يجعل نقود چو المسكين أكثر قذارة من غيرها. ربما تعتقد أنها كذلك، ولكن هذا فقط لأنك، ولأول مرة، ترى المال من منبعه – منبعه الشخصى والبشرى. إنك مثل أطفال المدينة الذين اعتادوا أن يروا اللبن فى زجاجات معقمة تأتيهم فى سيارات بيضاء حتى المنازل، لكن حين يذهبون للقرية ويرون اللبن يضخ من حيوان ذى رائحة نفاذة وكبير وسمين، يصابون بصدمة ويشعرون بالاشمئزاز. إنه نفس الشيء بالنسبة للمال. لقد اعتدت الحصول عليه من خلف طلاء برونزى فى بنك رخامى كبير. والآن ها قد أتيت إلى القرية وأصبحت تعيش فى بيت البقرة مع الحيوان الذى يخرج الشيء شخصيا. والطريقة لا يراها شهية، أو نظيفة. ولكن ذات الأسلوب كان مستمرا، حتى عندما كنت جاهلا به. .وإذا لم تكن تعمل لدى چو ستويت، فأغلب الظن أنك كنت ستعمل لدى جامعة أو كلية. ولكن من أين تحصل الكليات والجامعات على نقودها؟ من الأثرياء. بمعنى آخر، من أمثال چو ستويت. مرة أخرى إنها القذارة المعبأة فى

آنية معقمة – وهذه المرة، من جنتلمان يرتدى كاباً وعباءة.

قال بيت:

– إذن تعتقد أنه لا ضير فى استمرارى هكذا؟

قال مستر بروبتر:

– لا ضير بمعنى أنها ليست أسوأ من غيرها.

ابتسم فجأة وقال بصوت مختلف وأخف:

– لقد سعدت عندما سمعت أن الدكتور مالدج حصل على مدرسة الفنون التى كان يريدها، بل وفورا بعد القاعة أيضا. إنه مال وفير. ولكنى أعتقد أن هيبة أن تكون راعيا للعلم تستحق هذا. وبالطبع هناك ضغوط إجتماعية كبيرة على الأغنياء ليصبحوا رعاة للعلم. يضغط عليهم الخجل وتجذبهم الرغبة الملحة ليؤمنوا أنهم بالفعل رعاة للإنسانية. ومع الدكتور مالدج يمكن للرجل الغنى أن يحصل على مجده آمنا وبسعادة بالغة. لن يغير أى عدد من مدارس الفنون بطازانا من وضعه الحالى. أما لو طلبت من جو خمسين ألف دولار لتمويل أبحاث حول تقنيات الديمقراطية، سيرفض رفضا قاطعا. لماذا؟ لأنه يعرف أن مثل هذه الأشياء خطرة. إنه يحب الحديث عن الديمقراطية. (بالمناسبة فإن الدكتور مالدج رائع حقا فى هذا الموضوع)، ولكنه لا يوافق على الماديين الغليظين الذين يحاولون أن يكتشفوا كيف يطبقون هذه المُثُل. أنت رأيت كيف غضب بسبب آلتى الشمسية الصغيرة المسكينة، لأنه بشكل ما مُصغّر، تعتبر إنذارا بالخطر للبيزنيس الكبير الذى يدر عليه المال. ونفس الشيء مع الابتكارات الصغيرة التى أحدّثه عنها بين الحين والآخر. تعالا لتنظرا إن لم تكونا قد مللتما.

أخذهم اداخل المنزل. ها هى الطاحونة الكهربائية الصغيرة، بالكاد أكبر من

ماكينة القهوة ، والتى يطحن فيها الدقيق حسب احتياجه. وها هو النول الذى تعلم عليه وأصبح الآن يعلم الآخرين كيف ينسجون عليه.

بعد ذلك اصطحبهما خارجاً إلى الحظيرة، والتى كانت معدة لعمل كل أشكال النجارة، وبعض الأعمال المعدنية الخفيفة، وذلك فقط ببضع مئات من الدولارات تكلفة هذه المعدات الكهربائية. بعد الحظيرة قادهم إلى بعض الصوبات غير مكتملة النمو، وذلك لأن أماكن الخضراوات لم تكن كافية لمتطلبات العابرين.

أشار من خلال الظلال إلى صفوف الأكواخ المضاءة، وأوضح أنهم هناك. استطاع أن يفعل هذا إلى البعض منهم فقط، أما الباقون فكانوا مضطرين للعيش فى أكوام الزبالة مكان النهر الجاف - يدفعون إيجارا للجو ستويت لهذا الامتياز. بالطبع ليست أفضل الأشياء، ولكن مثل هذا البؤس لا يترك لنا الاختيار. لم يكن علينا غير الاعتناء بهم. لقد أتى البعض منهم فاقدين أرواحهم المعنوية تماما، ومن وسط هؤلاء البعض يمكنه أن يرى ما ينبغى عمله وما يعنيه كل هذا. اثنان أو ثلاثة كانوا يعملون معه هنا، وقد تمكن من إيجاد المال لإقامة اثنين أو ثلاث آخرين فوق أرض بجانب سانتا سوزانا. مجرد بداية ، إلا أنها غير مرضية، لأنك بالطبع لا يمكن أن تبدأ بالتجربة الفعلية الصحيحة إلا إذا كان لديك مجتمع كامل يعمل تحت ظروف جديدة. ولكن إيقاف مجتمع ما على قدميه، يتطلب مالا كثيرا. والأغنياء لن يقربوا هذا العمل، لأنهم يفضلون مدارس الفنون فى طارزانا. أما المهتمون فليس لديهم نقود، بل وربما يكون هذا أحد أسباب اهتمامهم. وفى ظل النسب التجارية الحالية، فإن السلفة شيء خطير، لأنه باستثناء ظروف نادرة وجيدة، فإنك فى أغلب الظن سوف تبيع نفسك فى حالة من العبودية للتسديد لبنك ما.

قال مستر برويتر وهم فى طريقهم للعودة إلى المنزل:

– ليس أمرا سهلا، ولكن الشيء الرائع حقا، سواء كان سهلا أم لا، أن هناك عملا ينتظرنا لنقوم به، لأنه يا بيت بعد كل شيء، يوجد بالفعل ما يمكن عمله.

دخل مستر برويتر لحظات إلى بيته ليطفىء النور، ثم خرج ثانية إليهما. سار الثلاثة معا فى الممر حتى الطريق الخارجى. وقف القصر أمامهم أسود كبيرا، يتخلله بعض الضوء.

قال مستر برويتر:

– يوجد شيء يمكن أن تفعله، ولكن بشرط أن تعرف طبيعة العالم. لو عرفت أن المستوى البشرى هو مستوى الشر، لن تضيع وقتك فى محاولة لعمل الخير على هذا المستوى. الخير يظهر فقط على المستوى الحيوانى وعلى المستوى الأبدى. عندما تعرف ذلك، سوف تدرك أن أفضل ما يمكن أن تفعله على المستوى البشرى هو فى مقام الوقاية فقط. سوف ترى أن الأنشطة البشرية البحتة لا تتدخل كثيرا فى تجلى الخير على المستويات الأخرى. هذا هو كل شيء. ولكن السياسيين لا يعرفون طبيعة هذه الحقيقة. لو عرفوا، ما أصبحوا سياسيين. رجعيين أو ثوريين، كلهم إنسانيون ورومانسيون، يعيشون فى عالم الوهم، عالم كله إبراز لذواتهم البشرية. يتصرفون بطريقة قد تكون مناسبة لو أن العالم الذى يظنون أنهم يعيشون فيه كان بالفعل موجودا. ولكن مع الأسف، لا وجود له سوى فى خيالهم، لذلك فلا شيء مما يفعلونه مناسب للواقع المعيش. كل تصرفاتهم تصرفات مجانين، وكلها، كما يبين التاريخ، تنبىء بالكارثة. هذا بالنسبة للرومانسيين. إنهم يعرفون أن الأنشطة البشرية بشكل مطلق نحو الحياة، دائما قاتلة، وأنها لابد أن توظف للخير الحيوانى والروحى. أى إنهم يعرفون أن شغل الإنسان الشاغل لابد أن ينحصر فى جعل العالم

آمنا للحيوانات والأرواح. أو...

التفت تجاه چيريمى وأكمل قائلا:

- ... أو ربما كرجل إنجليزى، تفضل مقولة لويد جورج [٣] على ويلسون [٤]: بيت يليق بأن يعيش فيه الأبطال - ألم يقل هذا؟ بيت مناسب للحيوانات والأرواح، للفيسيولوجيا، والوعى غير المبالى. أخشى أن أقول، هذا كلام غير مناسب على الإطلاق الآن. إن العالم الذى أقمناه لأنفسنا هو عالم من الأجسام المريضة والذوات المجنونة أو الإجرامية. كيف نجعل هذا العالم آمنا لأنفسنا كحيوانات وأرواح؟ لو تمكنا من الإجابة على هذا السؤال نكون قد اكتشفنا ما يمكن عمله.

توقف مستر برويتر عند مكان يشبه الضريح، وفتح بابا صغيرا من الصلب بمفتاح يحمله فى جيبه. رفع سماعة التليفون المعلقة بداخله وأعلن عن وجودهم لبواب غير مرئى فى مكان ما على الناحية الأخرى من الخندق.

استمروا فى السير. قال مستر برويتر:

- ما هى الأشياء التى تجعل العالم غير آمن للحيوانات والأرواح؟ إنها -لاشك- الجشع، الخوف، الرغبة فى السلطة، الكراهية، الغضب...

فى تلك اللحظة ظهر ضوء مفاجىء لطمهم على وجوههم، ثم اختفى فجأة. صاح چيريمى:

- ما هذا بحق السماء...

أجاب پيت:

- لا تقلق. إنهم يريدون فقط التأكد من شخصياتنا، وإننا لسنا عصابة. إنها

٣- لويد جورج: (١٩٤٥-١٨٦٣) سياسى إنجليزى وكان رئيسا لوزراء بريطانيا من ١٩٢٢-١٩١٦).
٤- ويلسون: إشارة إلى وودرو ويلسون (١٩٢٤-١٨٥٦) الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية.

أضواء الكشافات.

قال مستر بروبتر ممسكا بذراع چيريمى:

– إنه مجرد صديقنا العجوز جو يعبِّر عن شخصيته. أى بمعنى آخر، يعلن للعالم أنه خائف لأنه كان جشعا ومسيطرا. وهو كذلك للعديد من الأسباب، منها أن النظام الحالى يضع أولوية لمثل هذه الخصال. إن مشكلته هى إيجاد نظام يتيح فرصة، ولو بسيطة، للبؤساء مثل جو ستويت ليحققوا ذواتهم.

انخفض الجسرعندما اقتربوا من الخندق، ودقت الأخشاب تحت أرجلهم مدوية بصوت الفراغ أسفلهم.

قال مستر بروبتر:

– قد تعجبك الاشتراكية يا پيت، ولكن الاشتراكية مهتمة بشكل قاتل بالمركزية والإنتاجية المدينية الجماعية. ثم إننى أرى فرصاً كثيرة للاستبداد – فرصاً للجبروت ليشيعوا جبروتهم، وللكسالى ليجلسوا ويصبحوا عبيدا.

انفتح الحاجز الحديدى وانفتحت البوابات لاستقبالهم.

– إذا كنت تريد أن تجعل العالم آمنا للحيوانات والأرواح، لابد أن تُوجِد نظاما يقلل من حجم الخوف والجشع والكراهية والسيطرة، إلى أقل معدل لها. وهذا يعنى أنك ينبغى أن تُوجد أمانا اقتصاديا كافيا، يخلصك بعض الشىء من هذا القلق. لابد أن توجد مسؤولية ذاتية لتمنع الناس من السباحة فى الحضيض، وممتلكات تكفى لتحميهم من جبروت الأغنياء. ونفس الشىء بالنسبة للحقوق السياسية والسيطرة – الكثير من الأولى لحماية الكثيرين، والقليل من الثانية لسيطرة القلة.

قال پيت متشككا:

– يبدو أنك تعنى الفلاحين.

– نعم الفلاحون، بالإضافة إلى الماكينات الصغيرة، والطاقة. وهذا يعنى أنهم لن يصبحوا فلاحين إلا فى كونهم يعتمدون على أنفسهم.

– ومن يصنع الماكينات؟ الفلاحون؟

– لا. نفس الأشخاص الذين يصنعونها اليوم. لابد أن تظل الأشياء التى لا يمكن صناعتها بشكل مُرضى سوى بالإنتاج بالجملة، كما هى. إنها تشكل حوالى ثلث الإنتاج – هذا هو العدد. أما الثلثان الآخران فيتم صناعتهم بشكل اقتصادى فى المنزل أو فى ورش صغيرة. المشكلة الآنية والعملية هى إيجاد تقنيات لهذه الإنتاجية صغيرة الحجم. كل الأبحاث الآن متجهة إلى اكتشاف مجالات جديدة للإنتاج بالجملة.

فى الكهف، وقفت خمس وعشرون شمعة كهربائية تحترق فى عبادة دائمة أمام السيدة العذراء. إلى أعلى، فى ملعب التنس، وقف الخادم الثانى، وخادمتان، وكبير الكهربائيين يلعبون بالأضواء الكثيرة.

– وهل تظن أن الناس ستريد أن تترك المدن لتعيش بالطريقة التى تقترحها، فى مزارع صغيرة؟

قال بروبتر وعلامات الرضا تبدو على وجهه:

– آه، أخيرا تتحدث يا پيت! بصراحة إذن لا أتوقع أن يتركوا المدينة، كما لا أتوقع أن يكفوا عن الحروب والثورات. كل ما أتوقعه هو أننى إذا قمت بعملى وكان مرضيا، سوف أجد من يريد أن يتعاون معى. هذا كل شيء.

– ولكن لو ستحصل على القلة فقط. فما الهدف إذن؟ لماذا لا تحاول أن تفعل شيئا بالمدن والمصانع، خاصة وأنت ترى أن معظم الناس ستبقى هناك؟ أليس هذا

عمليا أكثر؟

قال مستر برويتر:

– هذا يتوقف على تعريفنا للكلمة. مثلا أنت تعتقد أنه عمليا أن تساعد الكثير من الناس ليتبعوا سياسة معروف أنها قاتلة فى النهاية، بينما تجد أنه ليس عمليا أن تساعد القلة القليلة منهم ليتبعوا سياسة توجد أسباب كثيرة لاعتبارها صالحة. أنا لا أوافقك.

– ولكن الكثيرين موجودون. لابد أن نفعل شيئا حيالهم.

أبدى مستر برويتر موافقته وقال:

– لابد أن نفعل شيئا حيالهم، ولكن فى نفس الوقت توجد ظروف لا يمكن أن تفعل شيئا حيالها، لأنك لا يمكن أن تفعل شيئا مؤثرا حيال شخص لا يختار أو لا يستطيع التعاون معك فى عمل الشيء الصالح. فمثلا، عليك أن تساعد الذين تقتلهم الملاريا. ولكن عمليا، لا يمكن أن تساعدهم إذا رفضوا وضع أسلاك على نوافذهم أوإذا أصروا على السير بجانب المياه الراكدة فى المساء. نفس الشيء بالنسبة لأمراض الجسم السياسى. لابد أن تساعد الناس فى الحروب أو الدمار أو الأسر، أو لو كانوا تحت تهديد الثورة المفاجئة أو انحطاط بطيء. نعم، لابد أن تساعد. ولكن بالرغم من ذلك، تبقى حقيقة واضحة، وهى أنك لن تستطيع أن تساعدهم إذا أصروا على نفس طريقة تصرفاتهم التى أدت بهم إلى المشاكل أصلا. مثلا لن تستطيع حماية الناس من أهوال الحرب إذا لم يتخلوا عن نشوة الوطنية، ولن تستطيع أن تنقذهم من التهاوى والاكتئاب إذا ظلوا يفكرون فى المال فقط، باعتباره الخير المطلق. ولن تستطيع منع الثورات والأسر إذا ظل الناس يساوون بين التقدم وازدياد المركزية، وكذلك بين الرفاهية وازدياد الإنتاج بالجملة. لن تستطيع

حمايتهم من الجنون الجماعي والانتحار اذا أصروا أن يقدسوا المُثُل التي هي في الواقع إبراز لذواتهم، أي بمعنى آخر، إذا أصروا يعبدون ذواتهم بدلا من الله. هذا بالنسبة للكلام الشرطي. أما الآن فدعنا نتحدث عن الحقائق الآنية. من أجل حوارنا، فإن الحقائق الأكثر دلالة هي الآتية: إن سُكان كل دولة متحضرة مهددون دائما، ورغبتهم الحقيقية هي أن يتم إنقاذهم من هذا الدمار القادم. الغالبية العظمى منهم ترفض تغيير طريقة تفكيرها، ومشاعرها وتصرفاتها المعتادة، والتي هي كلها، وبشكل مباشر، مسؤولة عن وضعهم الحالي. بمعنى آخر، لا يمكن مساعدتها لأنها غير مستعدة للتعاون مع أي مُساعد يأتيها ليقترح طريقا عقلانيا وواقعيا. تحت هذه الظروف، ماذا ينبغي أن يفعل هذا المُساعد؟

قال بيت:

- لابد أن يفعل شيئا.

ابتسم مستر بروبتر بحزن وقال:

- حتى لو كان بهذه الطريقة يُسرّع عملية الدمار؟ إنه العمل من أجل العمل فقط. إنني أُفضّل أوسكار وايلد. إن الفن السيء لا يمكن أن يتسبب في أذى كثير، مثل عمل سياسي أُسيء تقديره. إن عمل الخير عموما، لو لم يكن في أضيق الحدود، يحتاج إلى ذكاءٍ أكبر مما يمتلكه معظم الناس. لابد أن يسعد الناس فقط بالابتعاد عن الأذى، لأن ذلك هو الأسهل، ونتائجه ليست مخيفة مثل محاولة فعل الخير بالطريقة الخاطئة. العبث بالأصابع وحسن السلوك في معظم الأحيان، أكثر فائدة من عمل الأشياء بسرعة وبنوايا حسنة.

وقفت حورية جيامبولونيا تبعث الماء منها بلا كلل وسط الأضواء المنبعثة حول أقدامها، وفي خلفيتها أظلمت الدنيا كالقطيفة السوداء. نظر إليها چيريمي. لقد كُتب

على الكهرباء والنحت أن يكونا شركاء. ما أكثر الأشياء التى كان يمكن أن يفعلها برنينى لو كانت لديه مجموعة من الكشافات... الأضواء المذهلة، والظلال الغنية الرائعة، والأنوثة الصوفية فى نشوتها، والملائكة المتجمعة، والجماجم خارجة من المقابر البابوية مثل الصواريخ السمائية، والقديسين فى ملابسهم الخفاقة مثل أعاصيرهم الذاتية، وشعرهم المجعد يرفرف فى الهواء. أية نشوة! أى جمال! أى تأكيد على الذات! أى روعة مذهلة! أى ذوق سيء للغاية! وكم هو مخجل أن الرجل كان عليه أن يرتضى بضوء النهار والشموع المشحمة!

كان مستر بروبتر يجيب على سؤال اعتراضى من الشاب:

– لا، لا. أنا بالطبع لا أنصح بالتخلى عنهم. بل أنصح دائما بإعادة صياغة الحقائق التى قيلت لهم من قبل مرات ومرات عبر ثلاثة آلاف سنة، وأثناء ذلك، أقوم بعمل فعّال تجاه تقنيات تحسين النظام، والتعاون الفعّال معَ القلة التى تفهم النظام، والتى لديها الاستعداد لدفع ثمن تحقيقه. وبالمناسبة إن الثمن غالٍ جدا بالقياس للبشر، إلا أنه بالطبع أقل من الثمن المطلوب بطبيعة الحال، خاصة من هؤلاء المُصرين على التصرف بالطريقة البشرية العادية. إنه أقل من ثمن الحرب مثلا – خاصة الحرب بالأسلحة الحديثة، وأقل من ثمن الركود الاقتصادى والأسر السياسى.

قال چيريمى بصوت يشبه آلة الفلوت:

– وماذا يحدث إذا حصلت على حربك؟ هل ستكون القلة أفضل من الكثرة؟

أجاب مستر بروبتر:

– الشيء الغريب أنه يوجد احتمال لذلك. لهذا السبب. إذا تعلم الناس تقنيات الاكتفاء الذاتى سوف يجدون من السهل عليهم البقاء أحياء فى وقت الفوضى، أكثر

من هؤلاء الذين يعتمدون فى معيشتهم على النظم المركزية والمتخصصة. لا يمكن أنْ تعمل للخير دون الاستعداد فى ذات الوقت للأسوأ.

توقف عن الكلام، وساروا وسط صمت لا يتخلله سوى صوت محطتى مذياع منبعثتين من أعلى فى اتجاه القصر. وكانت البيوانات، على العكس من ذلك، نائمة فى سبات عميق.

الفصل الثانى عشر

فى كنيسة السيدة الصغيرة، ذات الأعمدة والأرفف والأشياء المستحضرة من جنوب إيطاليا، والبرانكوسى [1] وتابوتها الحجرى من إتروسكا [2] المستخدم كعامود شمسية، بدأ چيريمى يشعر فجأة بالحيوية، وكأنه عاد توا إلى منزله.

قال وهو يبتسم فى سعادة، واضعا القبعة فوق العامود، وسائرا وراء الآخرين نحو القاعة الكبيرة:

– إن هذا يشبه السير فى عقل مجنون.

ثم أوضح أكثر:

– أو بالأحرى أبله، لأننى أعتقد أن المجنون شخص أحادى الاتجاه. بينما هذا...

أشار بيده فى شكل دائرة وأكمل موضحا:

– إنه عقل بلا اتجاه أصلا. وهو بلا اتجاه لأنه متعدد الاتجاهات إلى ما لا نهاية. إنه عقل أبله عبقرى، مملوء عن آخره بأفضل ما قيل وما فكر فيه الناس.

قالها بنوع من التأكيد على كل كلمة مثل امرأة عانس، مما جعله يبدو سخيفا. أضاف:

– اليونان، المكسيك، الخلفيات، الصلبان، الآلات، جورج الرابع، أميدا بوذا، العلوم، الكريستيان سايس، الحمامات التركية – أى شىء يمكن أن تذكره. وكل منها لا يمت للآخر بصلة.

مسح يديه معا وبرقت عيناه من خلال نظارته ثم أضاف:

١– البرانكوسى: نسبة إلى كولستانتين برانكوسى (١٨٧٦–١٩٥٧) نحات رومانى–فرنسى اشتهر بتكويناته الغريبة والتى تكون أشكال الإنسان والحيوان.

٢– إتروسكا: نسبة إلى حضارة إيطالية قديمة يرجع تاريخها إلى ما بين القرن الثامن إلى الأول قبل الميلاد.

– كنت قلقا فى البداية، ولكن أتعلم؟ لقد بدأت أستمتع بها. وجدت أننى غالبا أستمتع بالعيش داخل شخص أبله.

قال مستر بروبتر كنوع من تقرير واقع:

– لا أشك فى هذا. إنه الذوق الشعبى.

شعر چيريمى بالإهانة. فقال وهو يشير برأسه إلى لوحة الجريكو:

– لا أظن أن مثل هذا الشىء شعبى.

قال مستر بروبتر موافقا:

– إنه ليس كذلك. ولكنك تستطيع أن تعيش فى العالم الأبله دون المرور ببناء هذا الإسمنت أو حشوه بالأعمال الفنية.

سادت فترة صمت وهم يدخلون المصعد، ثم استمر مستر بروبتر قائلا:

– يمكنك أن تعيش داخل أبله مثقف، وداخل مجموعة من الكلمات والمعلومات غير المتصلة. أو إن كنت من قليلى العلم والآداب، يمكنك أن تعيش فى عالم الأغبياء الذى ينتمى إليه الإنسان المتوسط الحسى، حيث الأشياء غير المتصلة مكونة من صحف، وكرة البيسبول، والجنس، والقلق، والإعلانات، والمال، المرض، ومحاولة مجاراة آل جونز. إنها هيرركية من الأغبياء، لكن بالطبع أنت وأنا نفضّل التنويعات رفيعة المستوى.

توقف المصعد. فتح بيت الباب وخرجوا جميعا إلى الردهة البيضاء للبدروم الذى تحت البدروم.

أكمل مستر بروبتر قائلا:

– لا يوجد شىء مثل الكون الأبله، إن كنت تريد أن تعيش بلا مسؤوليات. هذا بالطبع إن كنت تستطيع تحمُّل الغباء، إذ أن الكثيرين لا يستطيعون. بعد مرور

بعض الوقت، يتعبون من العالم الذى يسير بدون اتجاهات، ويشعرون بالحاجة إلى أن يكونوا مُركزين وذوى اتجاه ما. يريدون لحياتهم معنى ما، وهذا هو الوقت الذى يذهبون فيه إلى الشيوعية، أو ينضمون إلى كنيسة روما، أو لجماعة أوكسفورد، أو أى شىء يجعلهم ذوى اتجاه واحد. وبالطبع الغالبية العظمى تختار الطريق الخاطىء. لا شك يوجد مليون طريق خاطىء وواحد فقط صائب - مليون مُثُل، ومليون إبراز للذات، وإله واحد ورؤية واحدة لجلب السعادة. غالبيتهم يسيرون فى طريق الغباء المتعدد إلى طريق واحد مجنون، أو كما هى العادة، طريق إجرامى، فهذا يعطيهم الإحساس بأنهم أفضل بالطبع، ولكن بشكل برجماتى، فإن الحالة الأخيرة أسوأ دائما من الحالة الأولى. إن كنت لا تريد الشىء الوحيد الذى يستحق أن تريده، فخذ نصيحتى: التزم بالغباء.

عندما فتح چيريمى باب مكتبته قال بروبتر بنبرة مختلفة فى صوته:

- هل هذا محل عملك؟ وهذه أوراق الهوبيرك فيما أعتقد. لقد فنى اللقب، أليس كذلك؟

هز چيريمى رأسه بالإيجاب وقال:

- وكذلك العائلة - أو أوشكت، ولم يبق غير امرأتين عانستين فى بيت مسكون، ودون أية نقود.

برقت عيناه وهو يتنحنح كالمعتاد، ويربت على رأسه الصلعاء، ثم قال بتأكيد مُبالغ فيه:

- سيدات تتآكلن.

أى فن خطابة هذا! كان من أفضل تعبيراته. أكمل قائلا:

- والتآكل لابد أنه ذهب إلى أبعد مدى، وإلا لما باعتا الأوراق. لقد رفضتا كل

العروض السابقة.

قال مستر برويتر:

- كم نحن محظوظون أننا لا ننتمى لعائلة عريقة. كل هذه الولاءات للطوب والمونة، وكل هذه الالتزامات نحو المقابر قصاصات الورق والقماش المرسوم. أى نوع كئيب من العبادة الجبرية!

فى تلك الأثناء كان چيريمى قد عبر الغرفة وفتح درجا، وعاد بملف أوراق أعطاه للمستر برويتر ثم قال:

- انظر إلى هذه.

نظر مستر بويتر ثم قال بدهشة:

- من موليئوس!

قال چيريمى مستمدا سعادته الخبيثة من الحديث عن أمور صوفية بلغة غير مناسبة على الإطلاق:

- ظننت أنها مثل فنجان شايك المفضل [٣]!

ابتسم مستر برويتر وقال:

- فنجان شايى المفضل، ولكن ليس الماركة التى أحبها. هناك شيء ما لم يكن جيداً عند موليئوس المسكين. به وترٌ - كيف أعبر عنه؟ - وترٌ من الشهوانية السلبية. لقد كان يستمتع بالمعاناة العقلية، والجانب المظلم الليلى للروح - كان حقا يتمرغ فيها. بالتأكيد كان هذا المسكين يؤمن حقا أنه يدمر الإرادة الذاتية، ولكن دون أن يدرى كان يحوّل عملية الدمار إلى تأكيد آخر للإرادة الذاتية.

أخذ مستر برويتر الخطابات واقترب بها من الضوء لينظر إليها أكثر وأضاف:

٣- فنجان شايك المفضل: تعبير إنجليزى يعنى أفضل ما يحب، ونورده هنا كما هو لأن برويتر يلعب على نفس الكلمات فى إجابته.

– شيء مؤسف لأن بالتأكيد كانت لديه بعض التجارب المباشرة عن الحقيقة، وهذا يثبت أنك لا يمكن أن تكون متأكدا من الوصول إليها حتى وأنت قريب منها بحيث تستطيع أن ترى ما تفعله. وها هى جملة جميلة: حب الله، وكأنه بداخلك وليس كما يقال عنه، وليس كما هو فى خيالك.

كاد چيريمى أن يضحك للمصادفة التى جعلت مستر برويتر يختار نفس الفقرة التى لفتت نظر الدكتور أوبيسبو هذا الصباح، مما أعطاه نوعاً من الارتياح. قال:

– خسارة أنه لم يقرأ بعضاً من كانط. إن «حب الله» تبدو مثل الهراء وهى تبدو غير معروفة للعقل البشرى.

وافقه مستر برويتر وقال:

– غير معروفة للعقل البشرى الشخصى. لأن الشخصية هى الإرادة الذاتية، والإرادة الذاتية هى رفض للحقيقة، ورفض لله. بالنسبة للعقل البشرى العادى كان كانط مصيبا عندما قال إن الشيء ذاته لا يمكن معرفته. حب الله لا يمكن أن يفهمه وعى بسيط تسيطر عليه الذاتية. ولكن لنفترض أن هناك طريقة لإزالة الذاتية من الوعى، لو كنت تستطيع أن تفعل هذا، سوف تقترب من الحقيقة، وسوف تكون فى وضع لتفهم حب الله.،والآن الشيء الشيق فعلا أن الواقع المحض يقول إننا يمكن أن نفعل هذا الشيء وأنه قد تم فعله مرات ومرات. حارة كانط العمياء هى لمن اختار أن يبقى على المستوى الإنسانى. لو اخترت الصعود للمستوى الأبدى فالحارة المسدودة لن يعود لها وجود.

ساد صمت. أخذ المستر برويتر يقلب الصفحات، ويتوقف بين الحين والآخر ليفك رموز سطر أو اثنين من الخط اليدوى الجميل. ثم قرأ بصوت عالٍ بالإسبانية:

- «هناك ثلاثة طرق للصمت: الأول بالكلام، والثانى بالرغبات، والثالث بالفكر. إنه يكتب جيدا، ألا تعتقد هذا؟ أغلب الظن أن لذلك علاقة بنجاحه الباهر. إنها كارثة عندما يعرف الرجل كيف يقول الأشياء الخاطئة بالطريقة الصائبة!

نظر إلى جيريمى مبتسماً وأكمل قائلا:

- بالمناسبة، قليلون هم الكتاب الكبار الذين قالوا أشياء صائبة، وهذه إحدى المشكلات فى تعليم الدراسات الإنسانية. أفضل ما قيل وفكر فيه الإنسان، جميل جدا ولكن الأفضل بأى معنى؟ مع الأسف أفضل فى الشكل فقط، وأما المضمون ففى العادة شيء بغيض.

عاد مرة أخرى إلى الخطابات، ولفتت نظره فقرة أخرى بعد قليل فقرأ بالإسبانية:

- «إن الشخص المنطقى سوف يسمع ويقرأ هذه الأمور الروحية، ولكنه لن يستطيع أن يفهمها. يقول القديس بولس: إن الإنسان الحيوانى لا يستطيع أن يفهم ماهية الروح. وليس فقط الإنسان الحيوانى، ولكن أيضا الإنسان البشرى، بل إنه قبل كل شيء الإنسان البشرى. ويمكن أيضا أن تضيف أن الإنسان الإنسانى لن يفهم الإنسان الحيوانى. بما أننا نفكر فقط كبشر، فإننا نفشل فى فهم ما هو أقل منا تماما مثلما نفشل فى فهم ما هو أعلى. ثم أنه توجد مشكلة أخرى: لنفترض أننا توقفنا عن التفكير بشكل إنسانى محض، ولنفترض أننا جعلنا من الممكن لأنفسنا أن يكون لنا حدس فيما يتصل بالحقائق البشرية، والتى بشكل ما نكون منغمسين فيها. هذا حسن وجيد. ولكن ماذا يحدث عندما نحاول نقل المعرفة التى حصلنا عليها عن هذا الطريق؟ نكون مُقعدين. المفردات الوحيدة التى بين أيدينا هى المفردات المعنىّ بها أساساً التفكير البشرى فقط والاهتمامات البشرية. ولكن الأشياء التى نريد أن نتحدث

عنها هى حقائق لا بشرية وطريقة تفكير لا بشرية، ولكن عدم جدوى كل الجمل التى تقال حول الطبيعة الحيوانية وهى أكثر من ذلك، كل تصريحاتنا عن الله والروح والأبدية.

تنحنح چيريمى ثم قال:

– أستطيع أن أفكر فى بعض الجمل المناسبة جدا عن...

توقف. أشرق وجهه بابتسامة، ثم ربت على صلعته اللامعة وأكمل بخجل:

– مثلا عن الأشياء الأكثر حميمية المتصلة بطبيعتنا الحيوانية.

فجأة علت وجهه سحابة عندما تذكر كنزه، وسرقة الدكتور أوبيسبو الوقحة.

سأل مستر بروبتر:

– ولكن على ماذا يعتمد نفعها؟ ليس على مهارة الكاتب بقدر رد فعل القارىء. الحدس المباشر الحيوانى لا يمكن أن يُترجم بالكلمات. الكلمات تذكرك فقط بتجارب مماثلة. «نوتاس كالور»، كما قال فيرجيل[٥] عندما تحدث عن مشاعر فالكان فى حضن فينوس[٦]. السخونة المألوفة. لم يحاول الشرح أو التحليل، ولم يجهد نفسه ليبحث عن مقولة معادلة للحقائق. مجرد تذكرة. ولكن هذه التذكرة تكفى لتجعل هذه الفقرة من أكثر الفقرات شهوانية فى الشعر اللاتينى. لقد ترك فيرجيل العمل لقرائه، وعادة هذا ما يفعله معظم الكتاب الذين يكتبون عن الجنس ويسعدون بهذه الطريقة. القليلون فقط يحاولون أن يقوموا بالعمل بأنفسهم، وعليهم أن يعبثوا بالمجاز والتشبيه والتوازى. أنت تعلم هذه الأشياء: النار والعواصف، والجنة والسهام.

قال چيريمى مستشهدا ببيت شعر:

٥– فيرجيل: نسبة إلى الشاعر الإغريقي بابليوس فيرجيليوس مارو (٧٠–١٩ ق.م.)، ونوتاس كالور تعني باللغة اللاتينية اللهيب الزائف.

٦– فالكان وفينوس: كان فالكان إله النار الروماني، ويعتبر مساعد العاملين فى المعادن، وهو ابن هيرا الذى قذفه زيوس من جبل أوليمب وسقط على رجله بعد تسعة أيام فأصبح أعرج، وقد اتخذ أفروديتى أو فينوس زوجة له، ولكنها لم تكن مخلصة.

– وادى الزنبق وظلال النشوة.

قال مستر بروينر:

– هذا بالإضافة إلى إرهاق الروح بلا فائدة فى الخزى، ومثل تلك الاستعارات، تنويع بلا نهاية، وشىء واحد مشترك بينهما، وهو أنها كلها مكونة من مجموعة من الكلمات التى لا تنم عن الموضوع الذى يُفترض أنها تشرحه.

قال چيريمى مضيفا:

– نقول شيئا لنعنى به شيئا آخر. ألا يمكن أن يكون هذا تعريف مُحتمل للأدب الخيالى؟

أجاب مستر بروينر:

– ربما. ولكن ما يهمنى بالأساس فى الوقت الحالى هو أن حدسنا الحيوانى الآنى لم يُعط أبدا سوى تعبيرات موجزة لا تفى بالغرض. إننا نقول مثلا أحمر أو الشعور بالنشوة ونتركها هكذا بدون محاولة البحث عن المنطوق المعادل للأوجه المتنوعة لرؤية الاحمرار أو تجربة الشعور بالسعادة.

سأل پيت:

– أليس هذا لأنك لا تستطيع تخطى أكثر من الأحمر والنشوة؟ إنها وقائع. مجرد وقائع.

أضاف چيريمى:

– مثل الزرافات. الشخص العقلانى يقول لا يوجد مثل هذا الحيوان عندما يرى صورة له. ثم ها هو يدخل برقبته كله.

قال مستر بروينر:

– نعم هذا صحيح. الزرافات حقيقة مطلقة لابد أن تقبلها سواء أعجبتك أم لا،

ولكن قبول الزرافات لا يمنعك من دراسته أو وصفه، ونفس الشيء ينطبق على الاحمرار والشعور بالنشوة أو «النوتاس كالور». يمكن أن نحللها ويمكن أن نصف نتائج التحليل بكلمات مناسبة، ولكن الحقيقة التاريخية هى أن هذا لم يحدث قط.

هز بيت رأسه بالإيجاب وقال:

– ولماذاحدث هذا فى رأيك؟

أجاب مستر برويتر:

– فى الحقيقة يمكن أن أقول: إن الإنسان كان دائما مهتما بالفعل والإحساس أكثر من الفهم، وكان دائما مشغولا بعمل الخير والإثارة، وعمل ما تم عمله، بالفعل، وعبادة الأصنام المحلية. إنه مشغول بكل هذا حتى أنه انصرف عن أية رغبة فى الحصول على منطوق مناسب يشرح تجاربه. انظر إلى اللغات التى ورثناها، إنها قادرة – بلا جدال – على إثارة المشاعر العنيفة والمثيرة، بل إنها مساعِدة دائمة الوجود لكل من يريد الاستمرار فى الحياة، ولكنها أسوأ من سيئة لكل من يتوق للفهم الموضوعى، ولذلك حتى على المستوى البشرى المحض فإن الحاجة ملحة إلى لغات غير ذاتية مثل الحساب والمفردات التقنية للعلوم المختلفة. أينما أراد الإنسان أن يفهم، تخلى عن اللغة التقليدية واستبدلها بلغة أخرى خاصة وأكثر دقة، وفوق كل شيء أقل تلوثا بالمنفعة الذاتية. والآن ها هى حقيقة ذات دلالة كبيرة، أن الأدب الخيالى مَعنى بالأساس بالحياة اليومية للرجال والنساء، بينما هذه الحياة اليومية للرجال والنساء مكونة إلى درجة كبيرة من التجارب الحيوانية الآنية. ولكن صانعى الأدب الخيالى لم يزيفوا لغة غير شخصية وغير ملوثة للتعبير عن التجارب الآنية، بل اكتفوا فقط باستخدام أسماء التجارب عارية وبدون تحليل، كنوع من المساعدة لذاكرتهم وذاكرة قرائهم. كل حدس مباشر هو نوتاس كالور بما تنم عنه

الكلمات متروكا مفتوحا، لكل قارئ منفردا ليعطى حسب طبيعة تجربته أو تجربتها الماضية. مسألة بسيطة ولكنها ليست بالضرورة عملية. ولكن الناس لا تقرأ الأدب لتفهم. إنهم يقرأونه لأنهم يريدون أن يعيشوا مرة ثانية فى المشاعر والأحاسيس التى أثارتهم فى الماضى. يمكن للأدب أن يكون أشياء كثيرة، ولكن فى التطبيق الواقعى فإن معظمه مجرد معادل عقلى للخمر والمخدرات.

نظر مستر بروبتر مرة ثانية لخطوط خطابات مولينوس القريبة من بعضها ثم قرأ بالإسبانية بصوت عال:

- «الإنسان العقلانى سوف يسمع ويقرأ هذه الأشياء الروحية ولكنه لن يستطيع أن يفهمها. سوف يسمع ويقرأ هذه الأشياء ولكنه لن ينجح فى فهمها».

أغلق مستر بروبتر الملف وأعطاه لچيريمى وأكمل قائلا:

- ولن ينجح فى فهمها - لن ينجح - لسبب مهم من اثنين: إما لأنه لم ير الزرافات من قبل، ولكونه إنسانا عاقلا يعلم جيدا أنه لا يوجد مثل هذا الحيوان، أو لأنه لمحه بشكل خاطف أو لديه سبب آخر يجعله مؤمنا بأنه موجود، ولكنه لا يفهم ما يقوله الخبراء عن الموضوع. وإنه لا يفهم بسبب قصور اللغة التى توصف بها عادة حيوانات العالم الروحى. أى بمعنى آخر، إما أنه لم يحصل على التجربة المباشرة للأبدية، وبالتالى لا يوجد سبب يجعله يؤمن أن الأبدية موجودة، أو أنه لا يؤمن بالأبدية أصلا ولكنه لا يفهم رأساً من قدم فى هذه اللغة التى يتحدث بها البعض ممن مروا بتجربتها. بالإضافة إلى ذلك عندما أراد أن يتحدث عن الأبدية بنفسه - وقد يرغب فى ذلك إما لنقل تجربته للآخرين أو لفهمهم بشكل أفضل من وجهة النظر البشرية - فيجد نفسه فى معضلة. إما أنه يعترف بأن اللغة الحالية غير مناسبة - وفى هذه الحالة له اختياران عقلانيان، وهما ألا يقول شيئا على الإطلاق،

أو يخترع لغة تقنية جديدة أفضل، كنوع من الإحصاء الأبدى أو جَبر خاص بالتجربة الروحية – وإذا قام بالفعل باختراعها فلن يفهم أى أحد ممن لم يتعلمها ما يعنيه. هذا بالنسبة للشق الأول من المعضلة. أما الشق الثانى فمحجوز لهؤلاء الذين لا يلاحظون قصور اللغة الحالية، أو حتى من يلاحظون ولكن لديهم الأمل اللاعقلانى ليجربوا استخدام أداة يعرفون مسبقا أنها بلا قيمة، وهؤلاء سوف يكتبون باللغة الموجودة، ولكن كتاباتهم سوف يُسيء فهمها غالبية القراء بشكل أو بآخر، وهذا لا محالة، لأن الكلمات التى يستخدمونها لا تتوافق مع ما يتحدثون عنه، إذ أن أغلبها كلمات مأخوذة من لغة الحياة اليومية ... ولكن لغة الحياة اليومية تشير بشكل يكاد يكون مطلقًا، للأشياء البشرية المحضة. ماذا يحدث حينما تطبق كلمات مستمدة من هذه اللغة على التجارب التى على المستوى الروحى، ومستوى التجربة الأبدية؟ بالطبع إنك تخلق سوء فهم، إذ تقول ما لا تعنيه.

قال بيت مقاطعا:

– أريد مثالا يا مستر بروبتر.

أجاب الآخر:

– حسنا. لنأخذ الكلمة المألوفة فى كل الأدبيات الدينية – الحب. ماذا يعنى الحب على المستوى البشرى؟ إنه يكاد يعنى كل شيء بدءا من الأم وانتهاء بالماركيز دى ساد.

تذكر چيريمى «المائة وعشرون يوما لسدوم» وما حدث لها. حقا إنه شيء غير محتمل! يا للوقاحة!!

– إننا حتى لا نفرق بين التعبير الإغريقى «إيرا»، و«فيلو»، و«إيراس» و«أجابى»[7]، إذ بالنسبة لنا كل شيء مجرد حب، سواء كان مضحيا بالذات أو أنانيا،

٧– إيرا، فيلو، إيراس، أجابى: كلها مرادفات فى اللغة اليونانية للحب، والشهوة.

أو كان صداقة أو شهوة، أو جنوناً قاتلا. إنه كله مجرد حب. يا لها من كلمة غبية! حتى وأنت على المستوى البشرى فهى ذات معنيين بشكل لا أمل فيه. وعندما تبدأ فى استخدامها فيما يتصل بالتجارب على المستوى الأبدى – فإنها تصبح كارثة. «حب الله»، «حب الله لنا»، «حب القديس لرفاقه». ماذا تعنى هذه الكلمة فى مثل هذه الجمل؟ وبأى شكل ترتبط بما تعنيه عندما نطبقها على أم صغيرة ترضع وليدها؟ أو على روميو وهو يصعد إلى غرفة جولييت؟ أو على عطيل وهو يخنق ديدمونة؟ أو للباحث فى العلوم الذى يحب العلم؟ أو للوطنى الذى على استعداد للموت فى سبيل وطنه – ليموت ولكن فى ذات الوقت يقتل، ويسرق، ويكذب وينصب، ويُعذِّب من أجله؟ هل هناك بالفعل شيء مشترك بين ما تعنيه الكلمة فى هذه الأطر، وبين ما تعنيه عندما تتحدث مثلا عن حب بوذا لكل البشر الحساسين؟ بالتأكيد الإجابة لا، لا يوجد. على المستوى البشرى، الكلمة تعبّر عن حالات مختلفة وكثيرة من العقل وطريقة التصرف غير متشابهة فى أشياء كثيرة، ولكنها متشابهة على الأقل فى أنها يصحبها كلها إثارة للمشاعر، وفيها كلها عامل الاشتياق، بينما الملمح الأكثر وضوحا لتجربة الإنسان المستنير هو السكينة وعدم الاهتمام، أى بمعنى آخر، غياب الإثارة والاشتياق.

كرر پيت فى نفسه «غياب الإثارة والاشتياق» بينما لاحت أمام عينيه صورة فيرجينيا مرتدية الكاب وممتطية دراجتها السكوتر، وراكعة أمام مدخل الكهف بالشورت.

كان مستر بروپتر يقول:

– الفارق فى الواقع لابد أن يعادله فارق فى اللغة. إذا لم يكن كذلك. فينبغى ألا نتوقع أن نتحدث بكلام ذى معنى. وبالرغم من ذلك، إننا نصر على استخدام كلمة

واحدة لتنم عن أشياء مختلفة لا نهائية. إننا نقول «الله محبة»، وهى نفس الكلمة التى نستخدمها عندما نتحدث عن كوننا واقعين فى الحب، أو أننا نحب أطفالنا، أو مُلهمين بمحبة بلدنا. ومن ثمة فإننا بشكل أو بآخر نعتقد أن الشيء الذى نتحدث عنه لابد وأن يكون بشكل أو بآخر نفس الشيء. إننا نتصور بشكل مُبهم ومن باب الاحترام أن الله مكوّن من اشتياق كبير ومُضخّم جدا.

هز رأسه وأكمل:

– إننا نخلق الله على صورتنا لأن ذلك يدغدغ غرورنا، وبالطبع إننا نفضل الغرور على الفهم، ومن ثمة كان الإرباك فى اللغة. إذا كنا نريد فهم الكلمة، وكنا نريد أن نفكر فيها بشكل واقعى، لابد أن نقول إننا نحب، ولكن الله إكس–حب. بهذه الطريقة منَ لم يكن لهم أى اختبار مباشر على المستوى الأبدى سوف تتاح لهم الفرصة للمعرفة العقلية بأن ما يحدث على هذا المستوى ليس مثل ما يحدث على المستوى البشرى المحض، وسوف يعرفون؛ لأنهم سوف يرون أن هناك فرقًا بين الحب والإكس–حب مكتوب ومطبوع، وبالتالى سوف يكون لديهم عذر أقل مما لدى بعضهم اليوم، ليتصوروا أن الله مثلهم، ولكنهم أيضا سوف يصبحون أكثر ميلا تجاه الاحترام وأقل بالطبع تجاه الناحية الأخرى.ولاشك أن ما ينطبق على كلمة الحب ينطبق كذلك على كل الكلمات الأخرى المستمدة من اللغة اليومية، والمستخدمة لوصف التجربة الروحية. كلمات مثل المعرفة، الحكمة، القوة، العقل، السلام، الفرح، الحرية، والخير، كلها تعنى أشياء معينة على المستوى البشرى. أما الأشياء التى يحاول الكتاب أن يجبروها أن تعنيه عندما يصفون أحداثا على المستوى الأبدى فهى تختلف، وبالتالى فإن استخدامها يسبب ارتباكا للأمور فقط، فهم يجعلون من المستحيل لأى فرد أن يعرف عما يتحدثون. وفى تلك الأثناء لابد

أن تتذكر أن الكلمات المستخدمة من لغة الحياة اليومية ليست المشكلات الوحيدة، فالذين يكتبون عن تجاربهم على المستوى الأبدى يستخدمون أيضا الجمل التقنية المأخوذة من الأنظمة الفلسفية المختلفة.

قال بيت:

– أليس هذا مثل معادلة الجبر فى التجربة الروحية؟ أليست هذه هى اللغة العملية الخاصة التى كنت تتحدث عنها؟

أجاب مستر برويتر:

– إنها محاولة للوصول لمثل هذه المعادلة الجبرية، ولكن مع الأسف محاولة فاشلة جدا، لأن هذه المعادلة مستمدة من لغة الميتافيزيقيا – وبالمناسبة الميتافيزيقيا السيئة – إن الذين يستخدمونها يورطون أنفسهم – سواء أرادوا أو لا – لشرح الحقائق بالإضافة لوصفها، أى شرح تجاربهم الفعلية فى إطار الكيانات الميتافيزيقية والتى يعتبر وجودها أصلا مجرد افتراض لا يمكن إثباته. وبمعنى آخر، إنهم يصفون الحقائق فى إطار نسيج من الخيال، ويشرحون ما هو معروف أصلا فى إطار غير المعروف، وإليك بعض الأمثلة، بل وها هو مثال سهل، كلمة النشوة. إنها كلمة تقنية تشير إلى قدرة الروح على الخروج من الجسد، وبالطبع تحمل أيضا المعنى الضمنى، إننا نعرف ما هى الروح وكيفية اتصالها بالجسد وبباقى الكون. أو خذ مثالا آخر، وهو تعبير تقنى ضرورى لنظرية الكاثوليكية عن التصوف: التأمل المغروس. هنا يبدو أن المعنى الضمنى يشير إلى أنه يوجد كائن آخر من خارجنا يصب نوعا من التجربة السيكولوجية فى عقولنا. والمعنى الآخر أيضا أننا نعرف من هو هذا الشخص. أو تأمل حتى جملة «التوحد مع الله». إن معناها يعتمد على تربية المتحدث، فقد تعنى التوحد مع يهوه من العهد القديم، أو قد تعنى التوحد مع

الذات الإلهية فى المسيحية الأرثوذكسية، أو قد تعنى ما كانت فى الغالب تعنيه مثلا لإيكهارت وهو التوحد مع الذات الإلهية والتي جزء منها إله الأرثوذكسية. وبالمثل أيضا لو كنت هنديا، قد تعنى التوحد مع إيسفارا أو التوحد مع برهما[٨]. وفى كل هذه الحالات الكلمة تفترض ضمنيا معرفة سابقة عن طبيعة الأشياء التى لا يمكن معرفتها أصلا، أو فى أفضل الأحوال، يمكن استنتاجها من طبيعة التجارب التى من المفترض أن الكلمة تصفها. وها هو الشق الثانى من المعضلة – المعضلة التى يضع فيها نفسه كل من يستخدم لغة الدين الحالية لوصف تجربته.

قال چيريمى متسائلا:

– والطريق للخروج من المعضلة؟ أليس هو الطريق الذى كتب به أطباء النفس المتخصصون عن الصوفية؟ لقد طوروا لغة مناسبة، ولكنك لم تذكرهم.

قال مستر بروبتر:

– لم أذكرهم لنفس السبب الذى جعلنى لا أذكر متخصصى الجمال عندما أتحدث عن الجمال، خاصة الذين لم يدخلوا قط معرضا للوحات.

– أتعنى أنهم لا يعرفون عم يتحدثون؟

ابتسم مستر بروبتر وقال:

– قد أطرحها بشكل مختلف . إنهم يتكلمون عما يعرفونه، ولكن ما يعرفونه لا يستحق الحديث عنه، لأن ما يعرفونه هو أدبيات الصوفية وليس التجربة ذاتها.

قال چيريمى مختتما الحوار:

– إذن لا يوجد مخرج من المعضلة.

برقت عيناه خلف نظارته وابتسم بخبث كطفل منتصر بعد فعلة شقية. استمر

٨– إيسفارا وبرهما: الآلهة الأعلى فى الميثولوجيا الهندوسية.

قائلا:

– أى لذة هذه أنه لا يوجد مخرج من الورطة! هذا يجعل العالم يبدو جميلا ودافئا عندما تتعرى كل الأمور ولا يوجد مكان للذهاب إليه بكل أدواتك المعدنية وملابسك اللامعة. هيا يا جنود، إلى الأمام يا كتيبة مضيئة! وكل الوقت أنت تدور وتدور – من الرأس إلى القدم، وامش وراء الفوهرر – مثل يرقة قابير. هذا حقا يعطينى سعادة كبيرة.

هذه المرة ضحك مستر بروبتر مباشرة وقال:

– أنا آسف لأننى مضطر أن أخيب ظنك ولكن مع الأسف يوجد مخرج من الورطة وهو عبر الطريق العملى. يمكنك أن تذهب وتبحث عن معنى ذلك بنفسك ومن خلال التجربة المباشرة، مثلما يمكنك أن تعرف شكل لوحة آل جريكو صلب القديس بطرس وذلك بصعودك المصعد إلى القاعة. ولكنى أخشى أنه فى هذه الحالة لا يوجد مصعد. لابد أن تصعد على قدميك، ولا تخطئ.

ثم استدار إلى بيت وأضاف:

– توجد سلالم كثيرة جدا.

اعتدل الدكتور أوبيسبو وأخرج طرفى السماعة من أذنيه ووضع الآلة داخل جيبه بجانب كتاب المائة وعشرين يوما لسدوم.

سأل مستر ستويت بقلق:

– هل من سوء؟

– هز الدكتور أوبيسبو رأسه بالنفى وابتسم له ابتسامة طمأنينة ثم قال:

– لا توجد إنفلونزا على أية حال. مجرد زيادة طفيفة فى الحالة الرئوية وسوف

أعطيك شيئا لها الليلة قبل أن تذهب للفراش.

ارتخى وجه مستر ستويت وبدا متجهما، ثم قال وهو يستدير ليجذب ملابسه الملقاة فى كومة على الأريكة تحت لوحة الواتو:

– أنا سعيد أنه كان إنذارا خاطئا.

صاحت فيرجينيا من مقعدها وقالت بانتصار أليس هذا رائعا! ثم أضافت بصوت أكثر جدية:

– أتعلم يا عم جو لقد أخافنى جدا بهذا السعال. جدا.

ابتسم العم چو بإنتصار ولطم صدره بعنف حتى إن جلده ذا الشعر الكثيف الذى كاد يكون أنثويا اهتز مثل الچيلى من وطأة اللطمة. قال متفاخرا:

– لا شىء فىّ.

ظلت فيرجينيا ترقبه من فوق كوبها وهو يرتدى قميصه ويُحكِمْ ربطةَ عنقه. كان التعبير على وجهها البرىء الصغير ينم عن السكينة المُطلقة، ولكن خلف هاتين العينين الزرقاوين الشفافتين كان عقلها يغلى نشاطا. أخذت تردد لنفسها: «كان هذا قريباً جدا! كان قريبا»، كلما تذكرت هذه الانتفاضة العنيفة الفزعة عندما سمعا باب المصعد يُفتح، وهذه الأقدام المسرعة نحوهما فى الممر، أحست بدغدغة ما من الخوف والمتعة، ومن الترقب والانتصار، مثل إحساسها وهى طفلة تلعب الاستغماية فى الظلام. لقد كان هذا قريباً فعلا! ثم ألم يكن سيج رائعا حقا؟أى حضور ذهنى! وخدعة السماعة هذه التى أخرجها من جيبه – أى ذبذبات عقل! لقد أنقذت هذه الحركة الموقف، لأنه لولا حركة السماعة تلك لقام العم چو بأحد مشاهد الغيرة. إلا أنه بأى حق يُصاب بالغيرة، حقا لا تعلم! وبإحساس شديد بالحرج، استمرت تفكر فى هذا. ثم أنه لم يحدث شىء بالفعل سوى بعض القراءة بصوت عال. وعلى كل

حال، لماذا لا يُسمح لفتاة شابة أن تقرأ هذه النوعية من الأشياء إن كانت تريد؟ خاصة وإنها باللغة الفرنسية. ثم إلى جانب هذا تريد أن تعرف من يكون العم چو ليتصرف هكذا بطريقة مفرطة فى الاحتشام؟ إنه يغضب من الناس عندما يقصون قصصا مضحكة، بينما أتبيّن ما يفعله هو نفسه طوال الوقت - ثم يتوقع منك أن تتحدث مثل لويزا م. ألكوت[٩] معتقدا أنه ينبغى أن يحميك من سماع كلمة قذرة واحدة! أيضا الطريقة التى لا يسمح بها لها أن تقول الحقيقة عن نفسها حتى لو كانت تريد... إنه يبنيها لتصبح على غير ما هى عليه فى الحقيقة - تتصرف تقريبا كأنها ديزى ماى من سلسلة الكرتون، وهو آبنر الذى سينقذها فى الوقت المناسب. إلا أنها بالطبع لابد أن تعترف أن هذا قد حدث بالفعل على الأقل مرة واحدة قبل أن يأتى، لأنه لو لم يكن قد حدث، لكان بلا عذر الآن. لقد حدث بالفعل - ولكن بدون إرادتها - أتعلم - كنوع من الاغتصاب - أو شخص يستغل كونها غبية وبريئة - فى نادى الكونغو، وهى مرتدية لاشىء سوى قطعة مايوه واحدة رفيعة وبودرة التلك. وبالطبع كان لابد أن تكره هذا، وأن تظل تبكى حتى يجئ العم چو، ثم يتغير كل شىء. ولكن فى هذه الحالة، وقد خطر هذا على بال فيرجينيا فجأة، لو كانت تلك هى الطريقة التى يفكر بها فيها، فماذا بحق الجحيم يعنى بعودته للمنزل هكذا، فى السابعة وخمس عشرة دقيقة، بينما كان قد قال لها إنه لن يعود حتى الثامنة؟ الغشاش العجوز! هل يحاول التجسس عليها؟ لأنه لو كان كذلك، فلن تقبل هذا، ولو كانت تلك هى الطريقة التى سيعاملها بها فسوف تطلب من سيج المجىء كل يوم وقراءة فصل آخر. وبالمناسبة إنها لا تدرى كيف سيظل الرجل الذى كتب هذا الكتاب يكتب هكذا لمدة مائة وعشرين يوما، إنها حقا لا تدرى،

٩- لويزا م. ألكوت: (١٨٣٢-١٨٨٨) روائية أمريكية تكتب عن الحياة الأسرية فى أمريكا، ومن أشهرها نساء صغيرات (١٨٦٨).

هذا مع الأخذ فى الاعتبار ما حدث فى الأسبوع الأول - وها هى كانت تظن أنه لا يوجد شيء لا تعرفه! حقا نعيش ونتعلم. إلا أن البعض منه كانت لا تريد أن تعلمه على الإطلاق، لأنها أشياء تجعل معدتها تمرض. بشعة! فى بشاعة الولادة! ارتجفت. ليس لأنه لا توجد أشياء غريبة ومضحكة فى الكتاب أيضا، مثل هذه الفقرة التى جعلت سيج يقرأها مرات ومرات - كانت عظيمة وقد أضحكتها بالفعل. وهذه الفقرة الأخرى حيث الفتاة...

قال مستر ستويت وهو يغلق آخر أزرار قميصه:

- إذن يا بيبى أنت لا تتحدثين كثيرا، أليس كذلك؟ مَن أخذ عقلك!

رفعت فيرجينيا هذه الشفة العليا الطفولية وابتسمت تلك الابتسامة التى تجعل القلب يذوب حنانا ورغبة وقالت:

- كنت أفكر فيك يا عم چو.

الفصل الثالث عشر

«لو كنت تبدو غير متأثر بالفكر الرصين
فإن طبيعتك ليست أقل ألوهية،
إذ أنك ترقد فى حضن إبراهيم طوال العام
وتتعبد فى الهيكل الداخلى
فالله معك ، وإن كنا لا نعرف ذلك.»

قال چيريمى بصوت عال:

– وجميل أيضا.

أخذ يفكر أن الكلمة هى الشفافية، والمعنى كان موجودا مثل ذبابة فى الكهرمان، أو بالأحرى لا توجد ذبابة، كان هناك فقط الكهرمان، والكهرمان هو المعنى. نظر إلى ساعته، ثلاث دقائق قبل منتصف الليل. أغلق كتاب وردزورث، وظل يذكّر نفسه بمرارة أنه كان من الممكن بدلا من هذا أن يكون الآن قد أنعش عقله ب فيليشيا! وضع المجلد على المائدة بجوار سريره وخلع نظارته. أصبحت عيناه فى حالة سيكولوجية يائسة بعد أن حرمهما من ست درجات ونصف من التصحيح. لقد أصبحت عيناه تعتمدان على الكريستال المقوس، وبدون هذه النظارة كانت ستصبح مثل قنديل البحر المأخوذ فجأة خارج المياه. ثم انطفأ النور، وكأنه أسقط العينين المسكينتين بلا رحمة فى حوض أسماك.

مدد چيريمى جسده تحت الغطاء وتثاءب، أى يوم هذا! ولكن الآن حمدا لله ها هو نعيم السرير، وها هى السيدة المباركة تميل فوق سرير النعيم الذهبى، ولكن كانت هذه الملاءات مصنوعة من القطن وليست من الكتان، وهو شىء غير لائق

ببيت كهذا، حيث لوحات روبين وآل جريكو. أما صلب القديس بطرس – فأى آلة رائعة حقا، تكاد تكون فى جمال الصعود الموجودة فى التوليدو[١]، والتى فى الغالب قد أصيبت بقنبلة أصلا، وهذا يثبت ما يحدث عندما تؤخذ الأمور بجدية أكثر من اللازم. ليس لأنه لا يوجد شيء مؤثر فى ذلك المسمى ببرويتر – لأنه قرر أن يسميه الشيء–برويتر فى عقله – وعندما يكتب لأمه. ربما مثل نوع من البحّار العجوز[٢]، أو ضيف الفرح الذى يلطم صدره أحيانا، وربما كان الأجدر به أن يلطمها مرات أكثر، بسبب الانحطاط المخيف لكل الآداب العامة، وبخاصة قلة الآداب العامة، مثل فيليشيا، ومثل كل يوم جمعة آخر فى مايدا فايل، وكان ذلك الكائن مغروسًا فيه، لكن ليس بدون قدر كبير من الإقناع – اللعنة على عينيه اللامعتين! إذ أن هذا البحار بالتحديد لا يمسكك بعينيه فقط، ولكنه فى ذات الوقت كان كالمزمار الجهير الذى تريد أن تسمعه، بل وتسمعه دون إرغام – إلا أنه بالطبع لم تكن لديه النية للسماح بإغواء هياكله الصغيرة المكونة من اللياقة وعدم اللياقة الأدبية. لم يسمح للدين (من بين كل الأشياء!) أن يغزو قدسية حياته الخاصة من قبل. إن بيت أى رجل إنجليزى هو قصره، والغريب أنه بدأ يكتشف بعد أن زالت الصدمة الأولى، أن قصر الرجل الأمريكى أصبح بيته، وهو بيته الروحى، لأنه تجسيد لعقل الأبله الذى يفتقر إلى طريق محدد، لأنه لا توجد أصلا قضايا ولا شيء يؤدى إلى أى مكان، وأية ورطة لها طرق متعددة مغلقة، فتظل تدور وتدور مثل

١– التوليدو: متحف فى إسبانيا.

٢– البحار عجوز: نسبة إلى قصيدة بهذا الإسم كتبها كوليردج الشاعر الإنجليزى نشرت عام ١٧٩٨، وتحكى عن بحار قديم قابل ثلاثة أشخاص ذاهبين لعرس ما فأوقف أحدهم ليحكى له حكايته، وكيف أن مركبه سحبتها عاصفة إلى القطب الجنوبى، وعندما أحاطت بها الثلوج قابلته بجعة كبيرة فأطلق عليها الرصاص مما تسبب فى إحلال لعنة على المركب ومن فيه، ويموت كل من عليها سوى هذا البحار، وتزول اللعنة عندما يدرك جمال الطبيعة ويحمد الله عليها فى قلبه، ويظل يرحل من مكان إلى الآخر ليبشر للكل ويعلم تقدير مخلوقات الله.

شرنقة برقات فابر في كون مغلق من السكينة - تدور وتدور بين أوراق الهوبيرك ، من القديس بطرس إلى مورفيل الصغيرة، إلى الجامبولونيا إلى البوديستافاس المطلية، إلى الببوانات، إلى الماركيز دى ساد إلى القديس فرنسواز دى سال إلى «فيليشيا»، وتدور لتعود مرة أخرى في حينها إلى القديس بطرس. تدور وتدور في سكينة من الأفكار والأحاسيس والأفعال التي بلا قضايا، وفي فنون علم مغلق في زجاجة كالرهبان، في ثقافة من أجل الثقافة، وفي اللياقة الأدبية القليلة، وقلة اللياقة الأدبية التي تعطّي اكتفاء ذاتياً، وفي ورطات لا يمكن تخطيها، وأسئلة أخلاقية تجيب عليها البلاهة بما فيه الكفاية.

تدور وتدور، تدور وتدور، من أقدام بطرس، إلى مؤخرة مورفيل الصغيرة، إلى الببوانات، من الحلزون الصيني الجميل في طيات رداء بوذا، إلى العصفور الغنّاء وهو يشرب متعلقا في الهواء، عودة مرة أخرى إلى قدميْ بطرس بالمسامير... النعاس أظلم فجأة، مفسحاً الطريق للنوم.

في غرفة أخرى من نفس الطابق، لم يحاول پيت بوون أن ينام، بل على العكس كان يحاول فهم الأشياء. يحاول فهم العلوم والمستر بروبتر، والعدل الاجتماعي، والأبدية وفيريجينا ،والضد-فاشية. لم يكن الأمر سهلا، لأنه لو كان المستر بروبتر مصيبا، فلابد أن يبدأ التفكير بشكل مختلف. البحث عن الحقيقة بدون انشغال ذاتي - هذا ما كنت ستقوله لو أُجبرت في أي وقت أن تقول شيئا محرجا عن أسباب كونك عالما بيولوجيا. أما بالنسبة للاشتراكية فكانت بسبب الإنسانية، وبسبب تحقيق أكثر سعادة لأكبر عدد. وبالطبع فإن هذا مرتبط بالبيولوجيا أيضا: السعادة والتطور من خلال العلم والاشتراكية. وبينما السعادة

والتطور فى طريق التحقيق، فلابد من وجود الولاء لقضية ما. لقد تذكر فقرة عن الولاء من أيام الجامعة، كتبها جوزايا رويس[٣]، وكانت مقررة عليه فى السنة الثانية، تقول ما معناه أن جميع المخلصين يستوعبون بطريقتهم الخاصة نوعاً من الحقيقة الدينية، ويكتسبون نوعاً من البصيرة الدينية الحقيقية. فى ذلك الوقت تركت هذه الكلمات أثرا كبيرا فى نفسه، إذ كان قد فقد توا الإيمان بمسألة دم الخروف تلك التى تربى عليها، وجاءت هذه الكلمات كنوع من الطمأنينة - جعلته يشعر أنه بعد كل شىء، لايزال متدينا حتى لو لم يعد يذهب إلى الكنيسة، وكان متدينا لأن لديه ولاء، وهو ولاؤه للقضايا وللأصدقاء. بدا له أنه كان متدينا هناك فى أسبانيا، ومتدينا أيضا فى الطريقة التى يشعر بها نحو فيرجينيا. ولكن لو كان مستر بروبتر مصيبا، فإن كل أفكار رويس عن الولاء خاطئة، بل وعلى العكس من ذلك، يمكنها أن تمنعك من البصيرة - بل قطعا بالتأكيد ستمنعك. لو أنك أعطيت ولاءك لأى شىء أقل من أسمى القضايا. وأسمى القضايا، لو كان مستر بروبتر مصيبا، كانت تقريبا مخيفة فى بعدها وغرابتها. تكاد تكون مخيفة، ولكن كلما فكر فيها، كلما شعر بالتشكك فى كل شىء آخر. ربما كانت بالفعل الأسمى، ولكن لو كانت كذلك فالاشتراكية إذن غير كافية، وهى غير كافية لأن الإنسانية غير كافية، لأن السعادة الأكبر غير موجودة فى المكان الذى يظنه الناس، لأنك لن تستطيع جلب السعادة من خلال العمل فى المجالات التى تعمل فيها لو كنت مصلحا اجتماعيا. أفضل ما تستطيع عمله فى هذه المجالات هو عملية تسهيل للآخرين ليذهبوا إلى حيث يمكن أن يحصلوا على أكبر قدر من السعادة. وبالطبع فإن ما ينطبق على الاشتراكية ينطبق كذلك على البيولوجيا، أو أى علم آخر، لو فكرت فيه كوسيلة للتطور. ولكن

٣- جوزايا رويس: (١٨٥٥-١٩١٦) فيلسوف أمريكى من أبرز المنادين بالمثالية.

مرة بعد أخرى لو كان مستر بروبتر مصيبا، فإن البيولوجيا وباقى العلوم هى البحث بدون ذاتية، عن جانب واحد فقط من الحقيقة. ولكن نصف الحقيقة هو الزيف ذاته، ويظل مزيفا حتى لو قلته وأنت تظن أنها الحقيقة كلها. إذن يبدو أن هذا التبرير لن ينجح أيضا - أو على أى الحالات، كأنه لن ينجح، إلا إذا كنت فى ذات الوقت، وبدون ذاتية، تحاول أن تكتشف الجانب الآخر من الحقيقة، وهو الجانب الذى كنت تبحث عنه عندما أعطيت ولاءك إلى القضية الأسمى من كل القضايا. وفى ذات الوقت ماذا عن فيرجينيا؟ سأل نفسه هذا السؤال فى لوعة متصاعدة - ماذا عن فيرجينيا؟ لأنه لو كان مستر بروبتر مصيبا، فإن فيرجينيا غير كافية - بل حتى فيرجينيا ربما تكون بالفعل حاجزاً يمنعه من إعطاء ولائه لأسمى القضايا. هاتان العينان وبراءتهما، وهذا الفم الخرافى، وحتى ما يشعر به تجاهها، وحتى الحب نفسه، وحتى أفضل أنواع الحب - إذ يستطيع أن يقول حقيقة أنه يكره النوع الآخر - بيت الدعارة هناك فى برشلونة مثلا، وهنا فى البيت، كل هذه الأحضان بعد الكوكتيل الثالث أو الرابع، وتلك اللمسات فى السيارات المركونة فى الشوارع - نعم حتى أفضل أنواع الحب قد تكون غير كافية ، بل قد تكون أسوأ من ذلك. «لا أستطيع أن أحبك يا عزيزتى هكذا كثيرا، لو لم أكن قد أحببت شيئا ما أكثر منك». حتى الآن كان هذا الشيء هو البيولوجيا والاشتراكية. ولكنهما الآن لا يفيان بالغرض، وحتى لو أخذهما ككفاية فى حد ذاتهما، فهى أسوأ من غير كافية. لا يوجد ولاء صالح فى حد ذاته، أو يستطيع أن يمنحه أية بصيرة دينية، سوى الولاء لأسمى القضايا. «لا أستطيع أن أحبك يا عزيزتى هكذا كثيرا، لو لم أكن قد أحببت شيئا ما أكثر منك». ولكن السؤال المؤلم حقا كان، هل تستطيع أن تحب أسمى القضايا وتظل تشعر بنفس المشاعر نحو فيرجينيا؟ إن أسوأ أنواع الحب كان بالطبع

غير ملائم للولاء لأسمى القضايا، وهو بالطبع هكذا لأن أسوأ أنواع الحب كان مجرد الولاء للفيسيولوجيا، بينما لو كان مستر بروبتر مصيبا، لا يمكن أن تصبح مخلصا لأسمى القضايا بدون رفض هذه الولاءات لنفسك. ولكن بعد كل شيء، هل أفضل أنواع الحب مختلف جذريا عن الأسوأ؟ إن الأسوأ هو أن تكون أمينا لفسيولوجيتك. إنه شيء بشع أن يعترف بهذا، ولكن أفضل أنواع الحب كذلك هو أن تكون ذا ولاء لفسيولوجيتك في ذات الوقت، وهذا ما يميز هذا النوع الأخير، أن تكون أمينا أيضا تجاه أسمى مشاعرك،و لهذا الألم الخاوى من الشوق، ولهذا الحنان اللانهائي، ولهذه العبادة، وهذه السعادة، وهذه الآلام، وهذا الإحساس بالوحدة، وهذا الاشتياق للذات. تكون مخلصا لكل هذا، وكونك مخلصا له، فهذا تعريف لأفضل أنواع الحب، ولما يسميه الناس الرومانسية، ويمتدحونه كأفضل ما في الحياة. ولكن ولاءك لهذه الأشياء هو ولاؤك لذاتك، ولا يمكن أن تكون مخلصا لذاتك وفي نفس الوقت مخلصا لأسمى القضايا. الخاتمة العملية كانت بديهية. ولكن بيت رفض هذه الخاتمة. هاتان العينان الزرقاوان الشفافتان، وهذا الفم الرائع في براءته، ثم كم هي لطيفة وكم تراعى مشاعر الآخرين! لقد تذكر حوارهما وهما في طريقهما للعشاء. سألها عن صداعها فهمست له:

– لا تتحدث عنه لأنه قد يضايق العم جو، فقد كان الدكتور أوبيسبو عنده اليوم بسماعته تمر فوق جسده كله – ولا يعتقد أنه بخير هذا المساء، لذلك لا أريده أن يقلق عليّ أنا. ثم على أية حال، ما هو الصداع؟

إنها ليست جميلة فقط، وليست بريئة ولذيذة فقط، ولكنها شجاعة أيضا وغير أنانية. وكم كانت لطيفة معه طوال المساء، تسأله عن عمله، وتحكى له عن بيتها في أوريجون، وقد جعلته يتحدث عن بيته هناك في ال باسو. وفي النهاية جاء

مستر ستويت وجلس بجانبهما – فى صمت، وجهه أسود مثل الرعد. نظر پيت إلى فيرجينيا فى تساؤل، فأعطته نظرة معناها أرجوك اذهب، ثم أعطته نظرة أخرى عندما قام ليقول تصبحون على خير، وكانت هذه النظرة اعتذارية برجاء شديد، مملوءة بالامتنان، متفهمة ولذيذة وحنونة، حتى إن مجرد التفكير فيها كان يجعل عينيه تغرورقان بالدموع. جالسا هناك فى الظلام، أخذ يبكى فى سعادة.

لا شك أن الكوّة فى الحائط فى غرفة نوم فيرجينيا بين الحائط والنافذة، كان مقصوداً بها أن تكون مكتبة، ولكن بم أن فيرجينيا لم تكن مهتمة بالكتب، فقد تم وضع معبد صغير بدلا منها، بحيث تفتح ستارتان بيضاوان مصنوعتان من القطيفة – لأن كل شىء فى الغرفة كان أبيض – فهناك وسط الورود الاصطناعية، تقف السيدة العذراء مرتدية ملابس حريرية حقيقية، وألطف تاج صغير فوق رأسها، وستة صفوف من اللؤلؤ حول عنقها، وكانت مضاءة بذكاء بمجموعة من اللمبات الكهربائية المخبأة. كانت فيرجينيا حافية القدمين، ترتدى بيجامتها البيضاء المصنوعة من الساتان، وكانت راكعة أمام بيت الدمية المقدس، تتمتم بصلوات المساء. بدت لها السيدة العذراء وكأنها لطيفة بشكل خاص وطيبة هذا المساء. وبينما شفتاها تنطقان صياغات المديح والتضرع، قررت أن أول شىء ستفعله فى الغد هو الذهاب مباشرة إلى غرفة الخياطة والإتيان بإحدى الفتيات لتصنع لها عباءة بلا أكمام للسيدة العذراء من هذه القماشة الزرقاء الجميلة المنسوجة بالقصب، التى اشترتها فى الأسبوع الماضى من محل الخردة فى جلنديل. رداء أزرق منسوج بالقصب، مقفول من الأمام بزر من الذهب، أو حتى أفضل من هذا، برباط صغير ذهبى تستطيع أن تربطه فى فيونكة بينما أطرافه مدلاة حتى أقدام السيدة. آه سوف يكون هذا رائعا! تمنت لو جاء الصباح حتى تبدأ فورا فى هذا.

تمتمت فيرجينيا بآخر صلواتها، ورشمت الصليب ثم قامت من ركعتها، لكنها أثناء قيامها وهى تنظر إلى أسفل، وجدت لفرط هولها، أن بعض الطلاء السيكلامانى كان قد زال وتقشر من الإصبعين الثانى والثالث فى قدمها اليسرى. بعد دقيقة واحدة كانت جالسة القرفصاء على الأرض بجانب السرير، ساقها اليسرى ممدودة، والثانية فوقها، فى وضع استعداد لإصلاح التلف، وبجانبها زجاجة مفتوحة، وكانت ممسكة بفرشاة صغيرة فى يدها، تغلفها رائحة الأسيتون الصناعية، وتطغى على عطر شياباريللى المسمى بالصدمة، والذى كان جسدها مغموراً به. بدأت فى العمل، وبينما هى منحنية للأمام انفلتت خصلتان من شعرها البنى المحمر وسقطتا على جبهتها. تحت حاجبيها المقطبين كانت عيناها الزرقاوان الكبيرتان تحدقان بتركيز، وللمساعدة على التركيز أيضا كان طرف لسانها الوردى ممسوكا بين أسنانها. قالت «اللعنة» فجأة بصوت عال بعد أن صنعت خطا خاطئا، ثم عادت الأسنان تمسك باللسان مرة أخرى.

توقفت عن عملها حتى تسمح لطبقة الطلاء الأولى أن تجف، وأدارت بصرها من أصابع قدميها إلى عظم الساق بين الركبة والقدم، وبطن الساق اليسرى. لاحظت بضيق أن الشعر قد بدأ ينمو مرة ثانية ، وسوف يحين الوقت قريبا لإحدى وسائل الإزالة. تركت عقلها يسرح مع أحداث اليوم، وهى تربت على ساقها بتفكير عميق. لا تزال ذكرى اللقاء الذى كاد ينكشف مع العم چو يصيبها برجفة من الإثارة المترقِبة، ثم بدأت تفكر فى سيج بسماعته تلك، فارتفعت شفتها العليا بابتسامة استمتاع، ثم ذلك الكتاب... إن العم چو يستحق، فقد جعلها تدفع سيج ليقرأه لها. وبالطبع كان سيج يغازلها بين الفصل والآخر، ولكن هذا أيضا يستحقه العم چو لأنه يحاول التجسس عليها. لقد تذكرت غضبها من سيج – ليس بسبب ما

فعله – لأنه بجانب أن العم چو يستحق هذا، وبالطبع اكتشفت أنه يستحق هذا فيما بعد، فإن ما فعله كان بالفعل مثيرا، وليس العكس، لأنه بعد كل شيء (كان سيج جذابا للغاية، وبهذه الطريقة لا يُحسب العم چو – بل إنك حتى تستطيع أن تقول إنه يحسب بالعكس – في الخط الأحمر كما يقولون – يُحسب أقل من أي أحد، لدرجة أن أي شخص جذاب يبدو بالفعل أكثر جاذبية بجانب العم چو. لا، لم يغضبها منه بالفعل، ولكنها طريقة تصرفاته، إذ يضحك عليها هكذا! إنها لا تمانع الهَرَج بالأوقات العادية، ولكن أن يهرج وهو يغازلها بالفعل، فكأنه يعاملها كداعرة من الشارع. لا رومانسية ولا شيء، مجرد تلك الضحكة المكتومة والقفشات القذرة. ربما كان ذلك نوعًا من الدراية بشؤون الحياة، ولكنه لا يعجبها. ثم ألا يرى أنه من الغباء أن يتصرف هكذا؟ لأنه في النهاية، عندما تقرأ هذا الكتاب مع شخص جذاب هكذا مثل سيج، فإنك تشعر أنك ترغب في بعض الرومانسية. رومانسية حقيقية مثل الأفلام، بضوء القمر، وموسيقى السوينج، أو ربما غناء التورتش، لأنه كان شيئا لطيفا أن تشعر بالحزن وأنت سعيد، وشاب يقول لك أشياء جميلة، وقبلات كثيرة، ثم في النهاية، وتقريبا بدون أن تعرف، وكأن شيئاً لم يحدث، لدرجة أنك لن تشعر أن هناك شيئا خاطئا أو شيئا يمكن أن تعترض عليه السيدة العذراء ... تنهدت فيرجينيا بعمق وأغلقت عينيها. بدا على وجهها تعبير كالسَكينة الساروفيمية. تنهدت مرة ثانية وهزت رأسها وقطبت حاجبيها، ثم فكرت بغضب أنها بدلا من ذلك، أفسد سيج كل هذا بتصرفاته المتمرسة الواثقة. لقد أطلق الرصاص على الرومانسية وحطمها إلى قطع صغيرة، وجعلك تثور عليه. وما المقصود من كل هذا؟ ظلت فيرجينيا تفكر في ذلك بضيق. ما المقصود سواء من وجهة نظره أو من وجهة نظرها؟

بدت طبقة الطلاء الأولى وكأنها جفت، فانحنت على قدمها ونفخت فيها قليلا، ثم بدأت فى طلاء الطبقة الثانية. خلفها، فجأة، انفتح باب الغرفة، وأُغلق ثانية.

قالت بصوت تساؤل ونوع من الدهشة دون أن ترفع رأسها:

– العم چو؟

لم تأتها الإجابة، ولكنها سمعت صوت اقتراب أقدام. قالت مرة ثانية:

– العم چو؟

استدارت لتنظر، فرأت الدكتور أوبيسبو واقفا بجانبها. همست فى دهشة:

– سيج! ماذا تفعل هنا؟

ابتسم الدكتور أوبيسبو بإعجاب ساخر، وبنوع من الحدة المصحوبة بالرغبة الجنسية الفاضحة الساخرة وقال:

–ظننت أنه ربما يمكننا إكمال درس اللغة الفرنسية.

قالت بتوجس وهى تنظر نحو الباب:

– أنت مجنون! إنه عبر الردهة مباشرة. ربما يأتى...

اتسعت ابتسامة الدكتور أوبيسبو فى سرور واستهزاء وقال:

– لا تقلقى من العم چو.

– سوف يقتلك لو وجدك هنا.

أجاب الدكتور أوبيسبو:

– لن يجدنى هنا. لقد أعطيته قرص نمبوتال قبل النوم. سوف ينام حتى المزمار الأخير.

قالت فيرجينيا:

– أعتقد أنك فظيع!

ولكنها لم تستطع منع نفسها من الضحك، جزئيا بسبب الارتياح، وجزئيا لأنه شيء مضحك فعلا أن تفكر في العم چو يُشخر في الغرفة المجاورة بينما سيج يقرأ لها ذلك الشيء. سحب الدكتور أوبيسبو كتاب الصلوات العامة من جيبه، وقال وهو يحاول ادّعاء الأدب والتهذيب:

– لا تجعليني أقطع عليك عملك. عمل المرأة لا ينتهي. استمري وكأني لست موجودا. سوف أجد الفقرة التي توقفنا عندها، وأبدأ في القراءة.

ابتسم إليها بوقاحة وهدوء أعصاب، وجلس على حافة السرير الروكوكو وأخذ يقلب صفحات الكتاب.

فتحت فيرجينيا فمها لتقول شيئا، ولكنها أمسكت بقدمها اليسرى وأغلقت فمها ثانية، تحت وطأة احتياج أكثر إلحاحا من أن تشير إلى الموضع الذي توقفا عنده، إذ قد جف الطلاء وبدا ككتل غير منتظمة، لذلك فإن لم تستمر في عملها فورا، سوف تبدو أصابعها بشعة. بسرعة أغرقت فرشاتها في زجاجة الطلاء الأسيتوني، وعادت تطلي مرة ثانية بتركيز شديد مثل تركيز فان آيك[٤] أثناء عمله في التفاصيل الميكروسكوبية للوحته عبادة الخروف.

نظر الدكتور أوبيسبو من كتابه وقال:

– لقد أعجبتني الطريقة التي تعاملتِ بها مع پيت اليوم، ومغازلته هكذا طوال فترة العشاء حتى إنك جعلت الرجل العجوز يغار منه. كان ذلك بارعا، أو ربما نقول – تصرفت كالعشيقة.

أطلقت فيرجينيا لسانها وقالت بتأكيد:

٤– فان آيك: رسام فلمنكي (١٣٦٦–١٤٢٦).

– بيت ولد لطيف.

قال الدكتور أوبيسبو موضحا:

– ولكنه غبى.

تمدد على السرير برشاقة واعية وبوقاحة أثارت فيها الغيظ، لأنه كان يبدو كمن يتمدد فى بيته وعلى سريره. استمر ضاحكا:

– وإلا ما كان وقع فى غرامك هكذا. المسكين يعتقد أنك ملاك – ملاك صغير سماوى، مكتمل بأجنحته، والهارب وعُذرية مثل الخاتم الماسى ذى الثمانية عشر قيراطاً المصنوع فى سويسرا. اذا لم يكن هذا غباء...

قالت فيرجينيا بنبرة تهديد، دون أن ترفع رأسها لأنها كانت قد وصلت لنقطة حساسة فى إنجاز عملها الفنى:

– انتظر قليلا حتى يكون لدى الوقت لك!

تجاهل الدكتور أوبيسبو تعليقها واستمر بعد فترة صمت:

– كنت دائما أقلل من قيمة تعلّم الدراسات الإنسانية. ولكنى الآن لا أقع فى مثل هذا الخطأ.

ثم فى صوت هادىء مثل ويتيير[٥] وهو يقرأ أحد أعماله قال:

– دروس الأدب العظيم! الحقائق العميقة! جواهر الحكمة!

قالت فيرجينيا:

– اصمت!

استمر الدكتور أوبيسبو بنفس الطريقة التنبؤية:

– عندما أفكر فيما أنا مدين به لدانتى و جوته! خذى مثلا حالة باولو يقرأ

٥– ويتيير: نسبة إلى جون جرينليف ويتير، شاعر أمريكى (١٨٠٧–١٨٩٢).

بصوت عال لفرانشسكا، ويحصل على أفضل النتائج:

- «نحن نصحو ذات يوم مثل لانسيلوت لنحب، ولكن لا يوجد لدينا أدنى شك أبدا فيما سوف يحدث لنا. لايوجد لدينا أدنى شك.»

نظر الدكتور أوبيسبو إلى أحد النقوش على كتاب «المائة وعشرون يوما لسدوم» وقال:

- لا، ولا يوجد أدنى شك حتى فى جهنم، إلا أنهم بالطبع لابد أن يحذروا منها. كان ينبغى أن تكون لديهم الفطنة الأساسية ليحموا أنفسهم من أن يُرسلوا إلى هناك بصدمة الموت المفاجىء. لو أخذوا بعض الاحتياطات الصغيرة فقط، لحصلوا على أفضل ما فى العالمين. كان يمكنهم أن يحصلوا على متعتهم بينما الأخ بعيد عن الطريق، وعندما ينتهى وقت الاستمتاع كان يمكن أن يتوبوا ويموتوا فى عطر القديسين. ولكن لابد أن نعترف أنه لم تكن لديهم ميزة قراءة فاوست لجوته. لم يتعلموا أن الأقرباء المزعجين يمكن إعطاؤهم حبوباً منومة، وحتى لو كانوا تعلموا هذا، لما استطاعوا أن يذهبوا إلى االصيدلية لشراء زجاجة نمبوتال. وهذا يبين أن تعلم الإنسانيات ليس كافيا، بل لابد من تعلم العلوم أيضا. دانتى وجوته يعلمانك ماذا تفعل، وأستاذ علم الدواء يُريك كيف تصيب الصقر العجوز بالغيبوبة ببعض الحبوب المنومة.

أنهت فيرجينيا طلاء أصابعها. استدارت إلى ضيفها وهى لا تزال ترفع قدمها اليسرى حتى تمنع أى مس قد يلحق بها ضررا قبل أن يجف الطلاء تماما، وقالت بغيظ:

- لن أسمح لك أن تسميه الصقر العجوز.

قال الدكتور أوبيسبو مقترحا:

– هل نقول إذن ابن الزنا؟

قالت فيرجينيا وفى صوتها نبرة إخلاص حقيقى:

– إنه أفضل مما يمكن أن تكونه أنت. أعتقد أنه رائع.

قال الدكتور أوبيسبو:

– تعتقدين أنه رائع ولكن بالرغم من ذلك بعد خمس عشرة دقيقة سوف تضاجعيننى.

ضحك وهو يتحدث وانحنى للأمام وأمسك ذراعيها من تحت إبطيها من الخلف. حاولت فيرجينيا الإفلات منه ولكنه قال:

– احترسى لأصابعك.

الخوف من إفساد عملها الفنى جعلها تتردد قليلا قبل أن تبدأ فى الحراك. استغل الدكتور أوبيسبو ترددها وانحنى فوقها وقبلها فوق عنقها الجميل، ثم من خلال هالة الأسيتون، واقترابا من عطر «الصدمة»، وصل إلى فمها الدافئ الحازم، عبر وجنتها وشعرها الحريرى. نزعت فيرجينيا رأسها بعيداً وهى تلعنه، ولكن بدأ شعور جميل يسيطر عليها، ويدغدغ أحاسيسها فى نفس الوقت مع الإحساس بالتذمر.

هذه المرة قبلها الدكتور أوبيسبو خلف أذنها، وهمس:

– هل أقول لك ما سأفعله بك؟

أجابته بأنه قرد قذر، وبالرغم من ذلك قال لها كل شيء بالتفصيل الدقيق.

مرت أقل من خمس عشرة دقيقة عندما فتحت فيرجينيا عينيها ونظرت عبر الغرفة التى أصبحت الآن مظلمة. لمحت السيدة العذراء تبتسم بعطف وسط أزهار بيت دميتها المضاء، قفزت من مكانها بصرخة فزع، ودون أن ترتدى ملابسها جرت نحو المعبد وأغلقت الستائر. انطفأ الضوء تلقائيا. مدت يديها أمامها فى الظلام وبحثت عن طريق عودتها إلى السرير بحذر.

الجزء الثانى

الفصل الأول

بعد ثلاثة أسابيع، كتب چيريمى خطابا لأمه قال فيه:

«مرة ثانية لا يوجد قحط فى الأخبار، أخبار من كل نوع وشكل ومن كل القرون. وكبداية، ها هى بعض الأخبار حول الإيرل الثانى، فيما بين خسائره الحربية أمام تشارلز الأول، كان الإيرل الثانى شاعراً، ولكنه كان شاعرا سيئا بالطبع – لأن الفرصة دائما ألف لواحد أن يكون أى شاعر جيدا – ولكن مع بعض الانحرافات غير المقصودة نحو الجاذبية. ماذا عن هذه مثلا والتى وجدتها فى المخطوطات بالأمس فقط:

«شمعة واحدة تحترق، ولكنها كثير جدا،

حبنا يحتاج إلى الاختفاء الكامل

فلندع النظر يحل محل الأطراف والشفاه.»

ألا تعتقدين أنها جيدة؟ ولكن مع الأسف فهى الشذرة الوحيدة التى عثرت عليها وسط الطمى. لو كان الباقى صمتاً! ولكن هذه مشكلة الشعراء، الجيدين منهم والسيئين. لن يغلقوا شراكهم أبدا، كما نقول نحن أهل شمال الكرة الأرضية، أية سعادة لو كان باقى وردزورث كله صمتاً، وباقى كوليردج وباقى شيلى!

وأثناء ذلك كله، أدهشنى الإيرل الخامس بالأمس بسبب مذكرة مملوءة بالملاحظات العابرة المتنوعة. لقد بدأت توا فقط فيها، لأننى لابد ألا أقضى وقتى كله على أية واحدة منها قبل أن أكون قد فككت وفهرست المجموعة كلها بشكل مبدئى. ولكن القطع التى قرأتها بالتأكيد فاتحة للشهية. وجدت هذه مثلا فى الصفحة الأولى: «اللورد تشسترفيلد كتب لابنه أن الجنتلمان لا يتحدث بنبرة فظة إلى خادمه، ولا حتى إلى الشحاذ فى الشارع، ولكن يقوم بإصلاح الأول ببرود،

ويرفض الثانى بإنسانية ...». إذن فصاحب السيادة كان لابد أن يضيف أن هناك فنا من خلاله يمكن لمثل هذا البرود أن يكون هائلا أكثر من الغضب، بل ومثل هذه الإنسانية أكثر تجريحا من الإهانة.

بالإضافة إلى هذا، فالخدم والشحاذون ليسوا الأشياء الوحيدة التى يمكن ممارسة هذا الفن عليهم. صاحب السعادة نسى بكل قلة شهامة، أن يذكر الجنس، لأنه هناك أيضا فن للتعامل ببرود، بل وإغاظة أنثى مخلصة، وانتهاك شخصها، بكل الذوق الذى يليق بأفضل الجنتلمانات.

إنها ليست بداية سيئة. سأظل أخبرك بأية اكتشافات متتالية فى هذا المجال.

أما الأخبار العصرية فهى غريبة، ومُربكة، وغير مريحة بعض الشيء، فبداية العم جو متجهم الوجه بشكل مزمن، وحاد المزاج هذه الأيام. إننى أشك فى الوحش أخضر العينين[1]، لأن الوحش أزرق العينين، أى مس مونسيبل البيبى، كانت تديرهما منذ فترة نحو بيت الصغير. إن كانت تدير أكثر من العينين فهذا ما لا أعرفه، وإن كنت أعتقد أنها تفعل ذلك، لأن لها هذه النظرة الداخلية الحالمة، وهى النظرة البعيدة كتعبير وجه السائرين نياما، والتى يمكن ملاحظتها عادة على أوجه الفتيات الصغيرات اللاتى يقمن بالكثير من المضاجعة الجهيدة. أنت تعرفين التعبير الذى أعنيه، وهو تعبير روحى فاخر، يشبه ما قبل الرفائيلية[2]، ما علينا سوى أن ننظر إلى هذا الوجه لنعلم أن الله موجود. الملمح الوحيد الغريب فى تلك اللحظة هو الملابس. تعبير ما قبل الرفائيلية يحتاج إلى ملابس ما قبل الرفائيلية، ذات الأكمام الطويلة، والكمرات المربعة، وياردات وياردات من قطيفة الحرية. أما عندما ترينها

١- الوحش أخضر العينين: كناية عن الغيرة فى اللغة الإنجليزية.
٢- رفائيلية: نسبة إلى رافائيل الرسام الإيطالى (١٤٨٣-١٥٢٠).

كما رأيتها اليوم، ترتدى شورتاً أبيض وعصابة رأس وقبعة كاوبوى فإنك سترتبكين وتفقدين الاهتمام. ولكن دفاعا عن شرف البيبى، لابد أن أصرّ أن كل هذه تكهنات وتخمينات فقط. قد يكون طبعا هذا التعبير الروحى الجديد على وجهها ليس نتيجة لإجهاد المضاجعة، بل على العكس، أن البيبى قد تحولت من خلال تعليم الشيء–بروبتر، وأنها الآن تمشى فى حالة من السرمدية الدائمة. ومن ناحية أخرى، فإننى أراها بالفعل تغازل وتعطى عين الرضاء لپيت. بل والأكثر من ذلك أن العم چو يُبدى كل أعراض الشك فيهما، وهو حانق جدا على كل الآخرين، وأنا من بينهم بالطبع، بل ربما منى أكثر من الآخرين، لأننى قرأت كتبا أكثر منهم جميعا وبالتالى فإننى أمثّل الثقافة. والثقافة بالطبع شيء يكرهه كالتتار، ولكن على عكس التتار، إنه لا يريد حرق الآثار الثقافية، بل يريد شراءها. إنه يعبّر عن تفوقه على الموهبة والعلم من خلال التملك وليس التدمير، ومن خلال تعيين ثم إهانة الموهوبين والمتعلمين بدلا من قتلهم. إلا أنه ربما قتلهم لو سنحت لديه فرصة وقوة التتار. كل هذا يعنى أننى عندما لا أكون فى السرير أو تحت الأرض فى أمان مع أوراق الهوبيرك، فإننى أقضى وقتى أبتسم رغما عنى وأتحمل، وأفكر فى ذى البطن الچيلى ومُرتبى الجميل، لكى أنشغل عن التفكير كثيرا فى أخلاق العم چو السيئة. كلها أشياء غير سارة، لكنها لحسن الحظ محتملة، ثم إن الهوبيرك بمثابة عزاء كبير وتعويض لى.

هذا بالنسبة للصعيد الجنسى والثقافى. أما بالنسبة للصعيد العملى، فالأخبار تعنى أننا غالبا أقرب ما نكون للعيش طويلا مثل التماسيح. حتى وقت كتابة هذه الكلمات، لم أقرر بعد إن كنت أريد أن أعيش طويلا مثل التمساح أم لا».

عندما خطّ كلمة تمساح للمرة الثانية، أحس چيريمى بوخزة مفاجئة. سوف تبلغ أمه سبعة وسبعين عاما فى أغسطس القادم. تحت كل هذه المدنية، وخلف الأحاديث الجذابة المثيرة للإعجاب، كان لديها نهم عميق للحياة. قد تتحدث بشكل موضوعى عن قرب فنائها، وقد تقول النكات الصغيرة عن موتها وجنازتها. ولكن خلف كل هذا الكلام والنكات الصغيرة كان هناك، كما يعرف چيريمى، تربص وإصرار شرس للتمسك بما تبقى، لتستمر فى فعل ما كانت تفعله دائما، بين أسنان الموت، وبالتحدى للشيخوخة. هذا الكلام عن التماسيح قد يؤلمها، إذ قد تُفسر تشككه فى إطالة الحياة بأنه نقد غير مستحب لها، أخذ چيريمى ورقة جديدة وبدأ الفقرة من جديد.

- «هذا بالنسبة للصعيد الجنسى والثقافى. أما بالنسبة للصعيد العلمى فلا جديد، إلا أن الدكتور أوبيسبو أصبح أكثر غروراً من ذى قبل. وهذا ليس بجديد لأنه كان دائما أكثر غرورا من ذى قبل، إنه ليس من أحب شخصياتى – إلا أنه ليس غير ممتع أيضا، خاصة عندما أشعر أننى أميل لبضع لحظات من العربدة، يبدو أن فكرة إطالة العمر تتقدم. بار العجوز[٣] والكونتيسة ديزموند فى الطريق.

وماذا على الصعيد الدينى؟ إن الشىء-بروبتر قد يئس من الحض على الفضيلة على الأقل فيما يخصنى. حمدا لله! لأنه كم تكون صحبته ممتعة عندما ينزل من على حصانه! إن عقله مملوء بكل أشكال «المتبقيات» وكل «المتبقيات» هذه مُرتبة مثل كعكة التفاح. إننى أحسده على تماسكه الثقافى، ولكنى أعزى نفسى بأننى لو فكرت مثله، ولو كان لدى مثل هذا التماسك، لأفسدت حياتى الخاصة الصغيرة.

٣- بار العجوز: اللقب الذى اشتهر به توماس بار (١٤٨٣-١٦٣٥) والذى تحدث عن حياته الطويلة بعض الشعراء مثل تايلور، وقد أرسل إلى السجن عام ١٦٣٥ حيث قيل إن تغيير نمط حياته قد قتله.

عندما يمتلك موهبة الوقوف برشاقة فوق رؤوسنا، أصبحنا أغبياء وغير ممتنين لو حسدنا عدّاء الماراثون. إن مقالة أدبية مضحكة صغيرة فى اليد تساوى على الأقل ثلاثاً من نقد العقلانية البحت الذى على الشجرة.

أما آخر شيء فهو الصعيد المنزلى، وأشير إلى خطابك الأخير من جراس. أى احتفال هذا! روايتك عن مدام دى فيليمبول كانت لا تقل عن كتابات بروست[٤]. أما شرحك للطريق إلى كاب داى وقضاؤك اليوم مع مخلفات الأميرة، وهذا الرجل المسكين – فماذا أقول سوى أنه يليق بموراساكى[٥]: أصل كل التراجيديا مُصفى إلى ملعقتين من الشاى بلون العنبر فى فنجان من البورسلين فى حجم زهرة الماجنوليا. أى درس هذا فى فن الطهارة الأدبية مثير للإعجاب! إن اتجاهاتى – فقط فى عالم الأدب حمدا لله، هى تجاه نوع من الاستعراض. أما النثر العُذرى الذى تكتبينه فقد أخجلنى.

إذن لم يعد هناك شيء بعد لقوله، كما كنت أكتب فى المدرسة بخط كبير جدا، أتذكرين؟ كنت أحاول أن أجعل الكلمات تملأ نصف صفحة من الكراس. لا يوجد شيء أقوله سوى بالطبع ما لا يمكن قوله، وسأتركه دون أن يُقال لأنك تعرفينه أصلا».

أغلق چيريمى خطابه وكتب عليه العنوان – أروكارياس – لأن أمه سوف تعود من جراس بينما الخطاب يعبر الأطلنطى – ووضع الخطاب فى جيبه. كانت أوراق الهوبيرك حوله تناديه ليلتفت إليها، ولكنه ظل متكاسلا بعض الوقت. ووضع مرفقيه على المكتب فى وضع صلاة، وبدأ فى حك رأسه – حكها بيديه الاثنتين فى

٤– بروست: نسبة إلى مارسيل بروست (١٨٧١–١٩٢٢) وهو روائى فرنسى.
٥– موراساكى: نسبة إلى الكاتبة الروائية اليابانية شيكيبو موراساكى (٩٧٨–١٠٢٦)، وتعتبر روايتها «قصة جنجى» أقدم رواية معروفة فى العالم.

الأماكن التى تركت بقع جُلبة صغيرة عند جذور شعره الذى نبقى له – وهى جُلبة كان يستمد سعادة غريبة فى تقشيرها بظفر إصبعه وإزالتها بعناية. كان يفكر فى أمه، وبالرغم من أنه قد قرأ الأدبيات الفرويدية عن مسألة أوديب هذه، وكل الروايات بدءا من «أبناء وعشاق»[٦] إلى آخره، حول خطورة ولاء الابن لأمه: ومخاطر الحب الأمومى الزائد عن الحد – بالرغم من أنه قرأها كلها إلا أنه لا يزال، وبعينين مفتوحتين، مستمرا فى أن يظل كما هو: ضحية لأم متسلطة طمّاعة ومستأثِرة. وربما الأغرب من كل هذا، أن هذه الأم المستأثِرة قد قرأت أيضا كل الأدبيات المرتبطة بهذا الموضوع وكانت تعي تماما أنها فعلت ما فعلت بابنها. ولكن بالرغم من ذلك هى أيضا ظلت كما هى، تفعل ما كانت تفعله دائما – مثله تماما، وبعينين مفتوحتين ليس أقل منه. (ها قد أزيلت القشرة تحت اليد اليمنى. جذبها خارج خصلة الشعر الكثيف فوق أذنه ونظر إلى النسيج الليفى الصغير المجفف، وتذكر فجأة البيبوانات. ولكن بعد كل شيء، ولماذا لا؟ إن أكثر المُتع استمرارية وضمانا هى أصغر وأبسط المتع الحيوانية الأولية – متعة الرقود فى حمام ساخن مثلا، أو تحت الملاءات بين الصحو والنوم فى الصباح، ومتعة الاستجابة إلى نداء الطبيعة، ومتعة التدليك من قِبل مُدلك محترف، وأخيرا متعة الحك عندما يصاب بالحكة الجلدية. لماذا الخجل؟ أسقط القشرة المجففة فى صندوق القمامة واستمر يحك باليد اليسرى).

لا شيء مثل معرفة الذات. أن تعرف لماذا تفعل الخطأ والغباء، إذ أن ذلك يمنحك مبرر الاستمرار فى فعله. التبرير من خلال التحليل النفسى – وهو البديل الحديث للتبرير بالإيمان، مثل الأسباب البعيدة التى جعلتْك ساديا أو محبا للمال، أو

٦– أبناء وعشاق: رواية للكاتب الأمريكى د.هـ.لورانس (١٨٨٥–١٩٣٠).

عـابدا لأمك أو آكلا للحوم البشر. إذن لديك المبرر الكامل للاستمرار فى أن تكون آكلا للحوم البشر، وعابدا لأمك ومحبا للمال وساديا. لا عجب إذن أن أجيالاً بأكملها قامت لتبارك اسم فرويد! على أية حال هذه هى الطريقة التى يتعامل بها هو وأمه. كانت المسز بورديج تقول على نفسها - وفى حضور الكاهن كذلك، «نحن الأمهات مصاصات دماء». أو تصيح فى طبلة أذن المسز فريدجوند تعلن براءتها، وتقول، «الچوكاستا[٧] العجائز مثلى مع إبن فى منتصف العمر فى البيت». ويكمل چيريمى لعبتها فيعبر الغرفة ويصرخ وسط هذه المقبرة من الحوار الذكى ويقول طرفة هزلية ضعيفة عن كونه أصبح عانسا عجوزا مثلا، أو عن أن الجهبذة العلمية بديلاً للتطريز - أو أى عفن ينفع. والعجوز الشمطاء تعطيه تلك الضحكة العميقة مثل ضحكات أفراد العصابات، وتهز رأسها فيهتز أى شىء تضعه على رأسها فى ذلك الوقت مثل القبعة المزخرفة بالنوارس المحنطة، أو بزهور البتونيا الصناعية - والتى تهتز مثل الريش الزينة فوق حصان فى مهرجان فرنسى من الدرجة الأولى. نعم، كم كان غريبا، ولكن أيضا كم كان رشيدا منهما، أنهما، هو وأمه، لا يريدان شيئا أكثر من استمرارهما كما هما. الأسباب التى جعلتها تريد أن تظل متسلطة كانت واضحة جدا، إذ لاشك إنه شىء ممتع أن تصبح ملكة، وممتع أكثر أن تتلقى فروض الطاعة ويكون لها رعيّة أمينة. ولكن ما كان أقل وضوحا، على الأقل بالنسبة لشخص من خارجهما، هو أسبابه هو لتفضيل الوضع القائم. ولكن بالنظر إلى الموضوع، بدا له مقنعا بشكل كافٍ، بادئ ذى بدء كانت هناك مودة، لأنه تحت نوع من السخرية السطحية والتكلّف كان مرتبطا ارتباطا شديدا بأمه. ثم كانت هناك العادة - العادة طويلة الأمد، حتى إنه أصبح يعتبر أمه جزءاً من أعضاء

٧- چوكاستا: وهى أم أوديب التى تزوجها.

جسده، جزءاً لا يقل أهمية عن البنكرياس أو الكبد. بل كان هناك إحساس بالامتنان تجاهها لأنها فعلت أشياء له بدت فى حينها قاسية بشدة وبلا مبرر. كان قد أحب فتاة وهو فى الثلاثين من عمره، وكان يرغب فى الزواج منها. أما أمه، دون أن تقوم بمشهد واحد، ودون أن تفعل أى شىء سوى إظهار المحبة العطوفة نحوه، والتصرف بجاذبية شديدة فى كل تعاملاتها مع آيلين الصغيرة العزيزة، كانت المسز بروديج تقلل دائما من شأن العلاقة بين الاثنين، وقد نجحت فى ذلك الهدف بشكل جيد، حتى إن العلاقة تقوضت على نفسها مثل البيت الذى انهار أسفله. كان تعيسا فى ذلك الوقت، وجزء منه على الأقل كره أمه لما فعلته. ولكن مع مرور السنوات بدأت مرارته تقل شيئا فشيئا، حتى إنه أصبح الآن بلا شك ممتنا لها لأنها خلصته من بشاعات المسئولية، والعائلة والعمل المنتظم الذى يدرّ ربحا وفيرا - ومن زوجة كانت فى أغلب الظن ستصبح طاغية أسوأ من أمه، لأن آيلين أصبحت تدريجيا سيدة وقورة نشيطة ولكنها كانت من أسوأ أنواع الإناث بين كل معارفه. كانت شيئا تقليديا بحرارة، فخورة بانفراج زاويتها، ومثل النملة فى كفاءتها، وخيّرة بشكل طاغٍ. باختصار، مارد جبار. لولا خطة أمه الإستراتيجية لأصبح اليوم المستر ويلكين سىء الحظ الذى هو الآن زوج آيلين وأباً لما لا يقل عن أربع ويلكينات صغار فى نفس سوء آيلين فى طفولتهم وصباهم مثلما أصبحت آيلين فى منتصف عمرها. كانت أمه بلا شك تقول الحقيقة عندما أسمت نفسها چوكاستا، وأم متسلطة مصاصة للدماء، وبلا شك أيضا كان أخوه توم مصيبا عندما أسماه بيتر بان، وتحدث بتهكم عن «احبال المريلة». ولكن تبقى حقيقة أنه أصبحت لديه الفرصة ليقرأ ما يريد، ويكتب مقالاته الصغيرة، فى حين أن أمه اهتمت بكل الجوانب العملية فى حياته، وطالبت فى المقابل بكم من الولاء لم يكن صعبا عليه أن يمنحه

لها، وتركته حرا، كل يوم جمعة آخر، ليتذوق المتعة الراقية فى القذارة اللانهائية فى مايدا فيل. بينما انظر ما حدث لتوم المسكين! السكرتير الثانى فى طوكيو، السكرتير الأول فى أوسلو، المستشار فى لاباز، والآن عودة إلى الأبد، فى مكتب الخارجية، يصعد ببطء الهيرركية، نحو وظائف ذات مسئوليات أكبر ودناءة متزايدة. وكلما زاد المرتب وزادت أخلاقيات ما كان مطلوباً منه أن ينجزه كلما غطس أكثر، كان عدم ارتياح المسكين يتزايد إلى حد أنه أخيرا، وبسبب الخلاف حول الحبشة، لم يعد يستطيع التحمل، فأصيب بانهيار عصبى وهو على شفا الاستقالة، وتمكن فى الوقت المناسب أن يحول نفسه إلى الكاثوليكية. ومنذ ذلك الحين استطاع أن يجمع مسئوليته الأخلاقية فى الإثم العام، ويأخذها إلى شارع المزرعة، ويتركها هناك فى الكافور، مع الآباء اليسوعيين. ترتيب يدعو للإعجاب! لقد جعله ذلك رجلا جديدا. وفجأة أنجبت زوجته طفلا بعد أربعة عشر عاما من العقم، وكانت غالبا – كما قام چيريمى بعملية حسابية – قد حملت به ليلة بدء الحرب الأهلية الإسبانية. ثم بعد يومين من نهب نانكينج قام توم بنشر ديوان من الأشعار الكوميدية – شيء مدهش حقا عدد الكاثوليك الإنجليز الذين يكتبون الأشعار الكوميدية. وفى تلك الأثناء كان قد بدأ وزنه يزيد، فبين أنشلاس و ميونيخ زاد وزنه أحد عشر رطلا. بعد عام أو اثنين آخرين سوف يزيد توم أربعة عشر أخرى، وسوف يكون قد انتهى من كتابة كلمات أوبرا لكوميديا موسيقية. لا. لقد قرر چيريمى أن هذا لن يكون مسموحا به. الأفضل أن يظل بيتر بان بحبال المريلة وبالقذارة اللا نهائية فى الغرفة الصغيرة ... أفضل ألف مرة. أولا أفضل بشكل جمالى، لأن السمنة عن طريق السياسة الحقيقية، وكتابة الأشعار الكوميدية على هوامش نقوش الصلب، حقا كل هذا لم يكن لائقا. وهذا ليس كل شيء. كان وضعه

هكذا أيضا أفضل أخلاقيا، لأنه بالطبع الشيء-بروبتر كان مصيبا فيما قال: لو كنت غير متأكد أنك تفعل الخير الأكيد، على الأقل ابق بعيداً عن الأذى. وها هو توم المسكين العجوز، صار مشغولا مثل القندس، وبما أنه الآن تابع للكنيسة الكاثوليكية، فهو سعيد كالقنبرة، يعمل بالتحديد فى المكان الذى يمكن أن يسبب فيه أقصى قدر من الأذى لأكبر عدد ممكن من الناس.

انفلتت القشرة الأخرى. تنهد چيريمى ومال إلى الوراء فى كرسيه.

إننا نحك أنفسنا مثل البيوانات، ونعيش فى سن الرابعة والأربعين فى أمان خيال والدتنا، وحياتنا الجنسية فى ذات الوقت طفولية وفاسدة. ولذلك فلا يمكن أن نعتبر عملنا بأى حال من الأحوال، مفيدا أو مهمًا. ولكن عندما يقارن بين نفسه والآخرين، مع توم مثلا، أو حتى مع النوابغ والمبجلين، مع الوزراء وأرباب صناعات الصلب والمطارنة والكتّاب المشهورين – فحقا لا يبدو سيئا لهذه الدرجة. وبالاحتكام إذن إلى معيار عدم الأذى السلبى، بدا حتى كأنه جيد جداً. يأخذ كل شيء عن أى شيء، وبما أنه توصل لهذا القرار، فقد حان وقت العودة للهوبيرك.

الفصل الثانى

لم تصحُ فيرجينيا هذا الصباح حتى العاشرة تقريبا، وحتى بعد أن أخذت حماما وتناولت فطورها بقيت فى سريرها ساعة أو اثنتين أخريين، عيناها مغلقتانِ، مستندة بلا حراك إلى الوسادات المكومة خلفها، مثل فتاة جميلة صغيرة فى حالة نقاهة، خارجة توا من وادى الظل.

وادى ظل الموت، الموت الأكبر وكل موت صغير. من خلال الموت تأتى التجليات. من أراد أن ينقذ حياته لابد أن يُضيعها. نساء ورجال يحاولون دائما إضاعة حياتهم، الحياة غير المنعشة، غير المجدية، والتى بلا معنى.

دائما يحاولون التخلص منها، وبألف طريقة مختلفة. فى طيش القمار والإحياء الدينى، فى هوس الجشع والانحراف، فى الأبحاث والطائفية والطموح، فى الجنون التعويضى للخمر، فى القراءة، فى أحلام اليقظة، فى المورفين، فى هلوسات الأفيون والسينما والطقوس، فى التشنجات الهائجة للحماس السياسى واللذة الجنسية، فى غيبوبة المنومات والإرهاق. إلى الهروب، نسيان الذات القديمة المتعبة، ليصبحوا أشخاصا آخرين، أفضل من ذلك، شيئا آخر، مجرد جسد، فاقد الحس بشكل غريب، أو ربما حساس أكثر من اللازم، أو ربما مجرد حالة من التعقل غير الذاتى، ونوعاً من الوعى غير الفردى. أية سعادة، وأى تخفيف هانىء، حتى بالنسبة لمن لم يعِ من قبل أن هناك شيئا ما يستدعى التخفيف. كانت فيرجينيا من هؤلاء، سعيدة فى حدودها، غير واعية بما يكفى بشخصيتها الذاتية لدرجة أنها لا تلاحظ قبحها ونقصها، أو البؤس العام للوضع البشرى. ومع ذلك عندما هنْدّس الدكتور أوبيسبو بشكل علمى عملية هروبها إلى التشنجات الجنسية، وكانت أكثر قوة من أى شىء عرفته أو حتى تصورته من قبل، عرفت فيرجينيا أنه فى النهاية، يوجد شىء

ما فى الوجود بحاجة إلى تخفيف، وأن هذه القفزة فى ظلام النسيان الكامل إلى وعى أقوى وغريب جدا عنها، كانت بالتحديد التخفيف الذى يحتاجه هذا الشىء.

ولكن مثل كل أنواع الإدمان الأخرى، سواء للمخدرات أو للكتب، للسلطة أو للتصفيق، كان إدمان اللذة يجعل الحالة التى يخففها مؤقتا تتفاقم. ينزل المدمن إلى وادى ظل موته الذاتى الصغير – ينزل بلا كلل، بيأس، بحثا عن شىء آخر، شىء ليس نفسه، شىء آخر وأفضل من الحياة التى يعيشها بائسا كبشر فى العالم البشع المملوء بالذوات البشرية. إنه ينزل، إما بعنف أو بقوة الدفع الجميلة، ليموت ويتجلى، ولكنه يموت فقط لفترة قصيرة، ويتجلى لفترة قصيرة، وبعد الموت الصغير توجد القيامة الصغيرة، قيامة من اللاوعى، خارج الإثارة، حتى لدرجة إبادة الذات، عودة إلى بؤس معرفة الذات، فى وحدة وضعف ولا قيمة، عودة إلى انفصال أكثر اكتمالا، وإحساس أقوى بالذات. وكلما أحسست أكثر بانفصال الذات، كلما كان الطلب أكثر إلحاحا لتجربة أخرى من تخفيف الموت والتجلى. الإدمان يخفف، بينما تزيد الرغبة فى التخفيف.

كانت فيرجينيا راقدة ومسنودة إلى وسادتها، تعانى من قيامتها اليومية، من وادى ظل موتها الليلى، من كونها شيئا متشنجا آخر. بدأت تستعيد ذاتها مرة ثانية – تلك الذات التى لاتزال بلا إحساس إلى حد ما، وكانت مذهولة من الإرهاق، ولا تزال تسكنها ذكريات مناظر غريبة ومشاعر جامحة، ولكن بالرغم من ذلك هى نفسها لا تزال فيرجينيا القديمة، المعجبة بالعم چو لنجاحه، والتى تشعر بالامتنان له لأنه منحها وقتا جميلاً، وهى نفسها فيرجينيا التى كانت تضحك دائما وتعتقد أن الحياة عظيمة، والتى لم تكترث لشىء. نفس تلك الفيرجينيا التى جعلت العم چو يبنى لها الكهف المقدس، والتى أحبت السيدة العذراء منذ أن كانت طفلة. والآن ها

هى هذه الفيرجينيا تخدع العم چو المسكين العجوز الذى يعجبها. لم تكن فقط تقول بعض الكذب الأبيض الصغير، والذى يفعله أى شخص، ولكنها تخدعه عن عمد وبشكل منهجى. وأيضا لا تخدعه هو فقط، بل كانت تخدع بيت المسكين كذلك. كانت تتحدث معه طوال الوقت، وتعطيه عين المحبة – عين المحبة على أية حال بقدر استطاعتها تحت هذه الظروف – بل وتكاد تطارحه الغرام على الملأ، لكى لا يشك العم چو فى سيج. ليس لأنها لن تسعد نوعا ما لو أن العم چو شك فى هذا الأخير، فقد كانت تود لو تلقى لكمة فى فكه وتراه يُرمى خارجا. كم كانت تود ذلك! ولكن مع ذلك كانت تعمل كل ما بوسعها للتغطية عليه، بينما تجعل هذا الولد المسكين الغبى يتصور أنها مرتبطة به هو. مخادعة – هذا كل ما فى الأمر. مخادعة. لقد أقلقها معرفة ذلك، وجعلها تشعر بالتعاسة والخجل. لقد امتنعت عن الضحك على الأشياء مثلما كانت تفعل من قبل، وجعلها تظل تفكر، وتشعر بالضيق مما تفعل، وتقرر عدم ارتكابه ثانية. تقرر ولكن لا تستطيع أن تمنع نفسها من ارتكابه ثانية، بالرغم من أنها كرهت نفسها لذلك، وكرهت سيج لأنه يجعلها ترتكب ذلك الفعل، بل و فوق كل ذلك، لأنه يقول لها كيف فعل ذلك ولماذا لا تستطيع مقاومته بهذه الطريقة البشعة الواثقة الساخرة. ومن بين الأسباب التى تجعلها تريد أن تفعل ذلك ثانية هو أن هذا يوقف إحساسها السيء حول كونها قد ارتكبته من قبل. ولكن بعد ذلك كانت تشعر بالضيق ثانية. كانت تشعر بالضيق حتى إنها كانت تخجل من النظر مباشرة إلى وجه السيدة العذراء. بالرغم من مرور أسبوع الآن، ظلت الستائر البيضاء القطيفة مغلقة أمام بيت الدمية المقدس. ببساطة، لم تجرؤ على فتحها لأنها كانت تعلم أنها لو فتحتها، ولو أعطت وعدا للسيدة العذراء هناك وهى راكعة ، فلن يكون ذلك ذا جدوى. عندما يأتى هذا السيج

البشع مرة أخرى، سوف تشعر بهذا الإحساس الغريب فى داخلها، وكأن كل عظامها قد تحولت إلى مطاط، وتخور قواها، وقبل أن تعرف أين هى، يحدث كل شىء ثانية. وسوف يكون ذلك أسوأ بكثير من كل المرات السابقة بسبب وعدها للسيدة العذراء، ولذلك فالأفضل ألا تعطى أية وعود بالمرة – ليس الآن على أية حال، ليس دون وجود فرصة أفضل للحفاظ عليها، لأنه بالطبع لا يمكن أن تستمر الأمور على ما هى عليه إلى ما لا نهاية. لقد رفضت ببساطة أن تصدق أنها سوف تظل دائما تشعر بذات الإحساس المطاطى فى عظامها. يوما ما سوف تشعر بالقوة بمكان، بحيث تستطيع أن تقول لسيج أن يذهب للجحيم. وعندما تفعل ذلك سوف تعطى هذا الوعد. لكن إلى أن يحين هذا الموعد، فالأفضل ألا تفعل.

فتحت فيرجينيا عينيها ونظرت بحنان لتلك الكوة بين النافذة والستائر المغلقة التى تخبىء بداخلها الكنز – التاج الصغير الداهية، وحبات اللؤلؤ، والثوب الأزرق الحريرى، والوجه الحنون، والأيدى الصغيرة الرائعة. تنهدت فيرجينيا بعمق، وأغلقت عينيها ثانية، تحاول التظاهر بالنوم، لتعيد إمساك لحظات النسيان السعيد التى أخرجها منه ضوء النهار رغما عنها.

الفصل الثالث

قضى مستر ستويت صباحه فى بانثيون بيفرلى رغما عنه، إذ كان لديه فزع شديد من المقابر حتى لو كان يملكها. ولكن تكنيز المال كان شيئا مقدسا بالنسبة له، وكان العمل واجبا يمكنه أن يضحى من أجله بأية اعتبارات شخصية. البيزنس! كان لبانثيون بيفرلى أهم أملاك عقارية فى البلد. وقد اشترى الأرض بخمسمائة دولار للفدا ن الواحد أثناء الحرب، وتحسنت – عن طريق إنشاء الطرق والتاج محل الصغير والخزائن ومجموعة التماثيل – حتى وصلت الآن إلى عشرة آلاف دولار للفدان، وهو الآن يبيعها كمقابر منفصلة بالقطعة بمعدل مائة وستين ألفا للفدان – ويبيع بسرعة كبيرة لدرجة أن رأس مال التكلفة الأولية للمشروع قد تم إيفاؤه كله، حتى إنه من الآن فصاعدا أصبح كل شيء مجرد مكسب. وبالطبع كلما زاد عدد سكان لوس أنجيلوس، أصبح المكسب أكثر وفرة، وكان والسكان بالفعل يزيدون بواقع عشرة فى المائة تقريبا كل عام – بل والأهم أن الزيادة الأساسية مكونة من المسنين على المعاش قادمين من ولايات أخرى من الاتحاد، وهم بالتحديد الذين سيدرّون مكسبا فوريا للبانثيون. ولذلك عندما أرسل له تشارلى هاباكوك ليأتى ليحدثه عن أحدث خطط التحسين والامتداد، وجد مستر ستويت أنه من المستحيل أخلاقيا أن يرفض. كبح نفوره وأدى واجبه. طوال الصباح جلس الرجلان فى مكتب تشارلى أعلى قمة برج القيامة، بالسيجار فى فمهما، وقام تشارلى بتلويح يديه ونفث دخان السيجار من فتحتى أنفه، وتحدّث – يا الله كم تحدث! وكأنه أحد هؤلاء الرجال الذين يرتدون الطربوش ويحاولون أن يجعلوك تشترى سجادة شرقية – وبالمناسبة فكر مستر ستويت فى وجوم أن تشارلى كان بالفعل يشبههم تماما، إلا أن لديه نظام تغذية أفضل من معظم باعة السجاد هؤلاء ومن ثمة كان أكثر سمنة.

زمجر مستر ستويت بصوت عال:

– كُف عن كلام الباعة هذا. يبدو أنك نسيت أننى أمتلك المكان.

نظر إليه تشارلى بوجه تعلوه الدهشة المتألمة. كلام باعة؟ ولكن هذا ليس كلام باعة. إنه حقيقى، وجاد كل الجدية. كان البانثيون مثل ابنه – لقد اخترع المكان بنفسه. إنه هو الذى فكر فى التاج محل الصغير، فى الكنيسة وفى شكسبير. اشترى بمبادرة منه شخصيا مجموعة من التماثيل اللُقطة بالجملة من جنوا، وكان هو الذى اخترع سياسة حقن الموت بالجاذبية الجنسية، وهو الذى قاوم بعناد كل محاولة لتقديم أى نوع من الحزن أو الشيخوخة أو أى رمز للفناء، وأية صورة للمسيح المعذب، فى تلك المقابر. كان عليه أن يحارب من أجل أفكاره، وعليه أن يستمع للنقد الكثير، ولكن النتائج أثبتت أنه على حق، إذ أن كل من يشتكى من عدم وجود صلبان فى المكان يمكن أن يُحال إلى الحسابات المنشورة. وها هو مستر ستويت يسخر من كلام الباعة. كلام باعة فعلا، عندما يكون الطلب على مكان فى البانثيون كبيرا جدا لدرجة أن الوضع الحالى سوف يصبح غير كافٍ فى القريب العاجل. لابد من وجود توسعات، أماكن أكثر، ومبانٍ أكثر، ومرافق أكثر. أكبر وأفضل، تقدم خدمات.

فى أعلى قمة برج القيامة كشف تشارلى هاباكوك عن خططه. لابد أن يحوى التوسع الجديد على ركنٍ للشعراء، ويكون مفتوحا لكل ذوى النوايا الحسنة – بالرغم من أنه يخشى أنه لن يُسمح لكتّاب الإعلانات أن يدخلوه، وهو شيء مؤسف حقا لأن البعض منهم يكسب المال الكثير، ويمكن إقناعه بدفع المزيد من أجل شرف دفنه مع ممثلى السينما المتحركة. ولكن هذا السلاح ذو حدين – لأن كتّاب السيناريو لن يشعروا أن ركن الشعراء قاصر عليهم بالدرجة الكافية لو أدخل صبية

الإعلانات. وبما أن أفراد السينما المتحركة يكسبون أكثر بكثير من الآخرين – فيكون منطقياً إذن هكذا. نعم، قرر تشارلي أنه من المنطقي هكذا. وبالطبع لابد أن تكون لديهم نسخة طبق الأصل من كاتدرائية ويستمينستر[1] في ركن الشعراء. ويستمنستر صغيرة – سوف يبدو هذا جيدا. وبم أنهم بحاجة إلى أفران المدافن على أية حال، فلابد من تركيبها هناك في فناء القسيس. وسوف يضعون جهاز اسطوانات موسيقية أوتوماتيكية في القبو تحت الأرض حتى يكون هناك تنوع موسيقيّ. ليس لأن الناس لا يقدّرون الوورليتزر – بل كانوا يقدرونها. ولكن بالرغم من ذلك أحيانا يصبح مملا بعض الشيء، حتى أنه فكر ربما يحصل على بعض التسجيلات من كورال يغني الترنيمات والأشياء، وربما بين الحين والآخر، لمجرد التغيير، قد يعطي واعظاً ما رسالة ملُهمة، حتى إنك تستطيع أن تجلس في حديقة التأمل مثلا، وتستمتع للوورليتزر، ثم صوت باريتون لطيف يقول مثلا جزءاً من خطاب جيتيسبرج أو اضحكْ تضحك معك الدنيا ، أو مثلا شيء لطيف مشوق تغنيه المسز إيدي[2] أو رالف والدو ترابن – أي شيء ينفع طالما كان ملهما بما يكفي. ثم كانت هناك فكرة سراديب الموتي. وحقا كانت أفضل ما فكر فيه. قاد مستر ستويت إلى النافذة الشرقية، وأشار عبر واد من المقابر وشجر السّرو والأضرحة المصغرة للآثار الزائفة، إلى حيث الأرض ترتفع مرة أخرى إلى حافة مرتفعة من الجبال المشرشرة على الناحية الأخرى. صاح بانفعال إنه هناك، في هذه الحدبة في الوسط، سوف يحفرون نفقاً في هذا. مئات الياردات من السراديب، مبطنة بالإسمنت المسلح ليجعلها مقاومة للزلازل. السراديب من الطبقة الأولى الوحيدة في العالم. وكنائس صغيرة، مثل تلك الموجودة في روما. والكثير من

١– كاتدرائية ويستمينستر: أشهر كاتدرائية في إنجلترا، مدفون بها معظم الشعراء والكتاب المشهورين.
٢– المسز إيدي: نسبة إلى ماري باكر جلوفرمؤسسة طائفة الكريستيان سايئس.

الصور الجدارية المزيفة التى تشبه الحقيقية. يمكنك أن تنفذها رخيصة التكلفة من خلال أحد مشاريع إدارة تقدم العمل تلك. ليس أن هؤلاء يعرفون كيف يرسمون لوحات بالطبع، ولكن لا بأس لأن اللوحات لابد أن تبدو مزيفة على أية حال. ولن يكون حولها شيء سوى الشموع والمصابيح ليحملها الناس معهم - بدون لمبات كهربائية على الإطلاق، إلا فى نهاية كل هذه السراديب الملتوية والسلالم، حيث توجد كنيسة كبيرة تحت الأرض، بها إحدى تلك التماثيل العارية التى تباع فى أسواق سان فرانسيسكو، وسوف يسعدون ببيعها بألف دولار أو أقل عندما ينتهى السوق - واحدة من هذه النساء العصريات ذوات العضلات الكثيرة - وسوف يوقفونها فى الوسط، وربما يضعون حولها نافورة تقذف المياه، بأضواء وردية مخبأة لتبدو حقيقية. بل إن السائحين سوف يأتون آلاف الأميال ليرونها، لأنه لا يوجد شيء يحبه الناس أكثر من الكهوف. أنظر مثلا إلى كهوف كارلزباد[٣] وكل هذه الكهوف الأخرى فى فيرجينيا. وهذه مجرد كهوف طبيعية فى حديقة عادية، بدون لوحات جدارية أو أى شيء من هذا القبيل. أما هذه فسوف تكون سراديب. نعم يا سيدى، سراديب حقيقية، مثل الأشياء التى عاش فيها الشهداء المسيحيون - وياالله هذه فكرة أخرى! الشهداء! بل سوف يُقيم كنيسة للشهداء، بها تماثيل لمجموعة من الفتيات بدون ملابسهن، على وشك أن يأكلهن أسد. لن يتحمل المشاهدون الصلب، ولكنهم سوف ينبهرون.

استمع مسترستويت بإرهاق ونفور. إنه يكره البانثيون وكل شيء يتصل به. يكرهه لأن بالرغم من التماثيل والووركيتزر، فإنها لا تحدّثه عن شيء سوى المرض

٣- كهوف كارلزباد: كهوف فى حديقة أسفل جبال الجوادالوب جنوب شرق نيو-مكسيكو، وهى عبارة عن مجموعة كبيرة جدا من الممرات والغرف المعقدة تحت الأرض، لم يكتشف سوى البعض منها فقط، وقد تكونت نتيجة لتسرب المياه الجوفية إلى الصخور منذ أكثر من ستين مليون سنة.

والموت والفساد ويوم الحساب، إذ أنهم سوف يدفنونه هناء في البانثيون، عند أسفل تمثال القبلة لرودان – ذات يوم أخطأ مساعد المدير ونصحه بذلك وقد تم فصله على الفور، ومع ذلك لم يستطع إغفال ذكرى ما ارتكبه. لم يُثر حماس تشارلى للسراديب والويستمنستر الصغيرة أى رد فعل دافىء، ولكن مجرد شخير بين الحين والآخر، ثم في النهاية موافقة بوجه مكفهر، على كل شيء باستثناء كنيسة الشهداء. ليس لأن كنيسة الشهداء هذه فكرة سيئة بالنسبة لمستر ستويت، بل على العكس من ذلك، كان مقتنعا أن الجمهور سوف يُجنّ عليها. إن رفضه لها كان من باب المبدأ – لأنه لا يصح أبدا أن يسمح لتشارلى هاباكوك أن يظن أنه دائما على صواب.

قال بصوت آمر عنيف كاد يكون مثل التأنيب:

– أحضِر الخطط والتقديرات لكل شيء آخر، ولكن لا شهداء. لن أسمح بأى شهداء.

أخذ تشارلى يرجوه وهو يكاد يبكى، طالبا ولو حتى أسداً واحداً، مجرد عذراء مسيحية واحدة من العصر الأول بيدين مربوطتين خلف ظهرها – لأن الناس تنبهر دائما بأى شيء يتعلق بالحبال أو الكلبشات. بالطبع لو كان هناك عذراوان أو ثلاث فهذا يكون أفضل، ولكنه سوف يرضى بواحدة.

قال وهو يضم يديه المعبرتين وبرجاء:

– مجرد واحدة يا مستر ستويت. مجرد واحدة.

هز مستر ستويت رأسه بالنفى وهو يصم أذنيه بعناد لكل رجاء، وقال:

– لا شهداء هنا. وهذا نهائى.

وليظهر أن هذا نهائى، قذف سيجاره بعيدا وقام ليذهب.

بعد خمس دقائق كان تشارلى هاباكوك ينفّس عن نفسه مع سكرتيره. دائما

الناس ناكرون للجميل. يا للغباء! بل إنه يفكر فى الاستقالة حتى يرى الصقر العجوز أنه لن يستطيع الاستمرار بدونه – ولا حتى خمس دقائق. من صنع هذا المكان ليصبح بالصورة التى عليه الآن، كأفضل مقابر فى العالم؟ بالتأكيد الوحيد من نوعه. من؟ – خبط تشارلى نفسه على صدره. ومن كسب كل المال؟ چو ستويت. وماذا فعل هذا الأخير ليجعل المكان ناجحا؟ لا شىء على الإطلاق. ولم يكن الشيطان العجوز معترفا بالجميل أو حتى مهذبا بما يكفى. كان يدفعك وكأنك أبله فى الشارع! ولكن هناك شىء واحد مريح فى الموضوع، أن چو العجوز لا يبدو فى حالة جيدة هذا الصباح. ذات يوم فى المستقبل ربما، سوف ينالون سعادة دفنه – هناك فى الأسفل، فى بهو الخزائن، ثمانية أقدام تحت الأرض. وكم كان مستحقًا لذلك!

لم يكن فقط فى حالة سيئة. استند مستر ستويت إلى الوراء فى السيارة التى أخذته إلى أسفل تجاه بيفرلى هيلز فى طريقه إلى كلانسى، وظل يفكر فى نفسه مثلما فكر كثيرا هذين الأسبوعين أو الثلاثة الأخيرة، بأنه يشعر أنه ليس على ما يرام. كان يصحو فى الصباح وينتابه إحساس بخمول وبالثقل نوع ما، ولم يكن ذهنه صافيا كما كان من قبل. قال أوبيسبو إنها أعراض أنفلونزا مكتومة، وجعله يأخذ هذه الحبوب كل ليلة، ولكنها تبدو بلا مفعول، واستمر يشعر هكذا بالرغم من ذلك. وفوق كل شىء آخر، كان يقلق نفسه حتى المرض على فيرجينيا. كانت البيبى تتصرف بطريقة غريبة، مثل شخص غير موجود حقيقة، هادئة جدا، لا تلاحظ شيئا، وتنتفض عندما يتحدث إليها متسائلة عما يقول. كانت تتصرف تجاه العالم مثل واحدة من هذه الإعلانات عن السال هلبيتيكا، أو مشروب تين كاليفورنيا، وهذا ما كان يمكن أن يعتقده لولا الطريقة التى تتعامل بها مع هذا

الشخص المسمى بيتر بون. كانت دائما تحدثه أثناء تناول الطعام وتطلب منه الذهاب معها للاستحمام، وتريد النظر داخل ميكروسكوبه – وماذا يهمها هى بالميكروسكوب، يريد أن يعرف؟ – إنها ترمى نفسها عليه – هذا ما بدا له على السطح. وهذه الطريقة فى التصرفات مثل مشروب التين ذاك – مثل هؤلاء الذين كانوا يحضرون اجتماعات الكويكرز التى كانت فيرجينيا تأخذه إليها قبل أن تتحول للكريستيان سانيس – كل هذا فى الموضوع أيضا. يمكنك أن تقول إنها مغرمة بهذا الشخص. ولكن لماذا حدث ذلك فجأة خاصة وأنها لم تُظهر أية علامات عن كونها مغرمة به من قبل؟ كانت دائما تعامله كما تعامل كلباً كبيراً – بمودة وكل هذه الأشياء، ولكن عندما يهز ذيله تفكر هى فى شىء آخر. لا. لا يستطيع أن يفهم هذا – لا يستطيع أن يحلله. كانت تبدو وكأنها مغرمة به، ولكن فى ذات الوقت تبدو وكأنها لا تلاحظ إن كان ولداً أو كلباً. لقد أولته اهتماما كبيرا – ولكن بالطريقة التى يمكن أن تبديها لكلب صيد جميل. وهذا ما أربكه. لو كانت مغرمة ببيت بالطريقة العادية، كان سيجن، ويفتح جهنم عليهما، ويرمى الولد خارج البيت. ولكن كيف يمكنه أن يفتح باب جهنم على كلب صيد؟ كيف يُصاب بالجنون تجاه فتاة لأنها تقول لكلبها إنها تريد أن تنظر داخل ميكروسكوبه؟ لن يستطيع حتى لو حاول ذلك، لأن جنونه بلا معنى. كل ما تمكن منه هو الشعور بالقلق، محاولا أن يفهم الأُشياء، ولكنه لم يستطع. هناك شىء واحد واضح وهو أن البيبى تعنى له أكثر مما كان يعتقد، وأكثر مما كان يمكن أن يتصور نحو أحد على الإطلاق. لقد بدأ الموضوع برغبته فيها فقط – رغبته فى لمسها وحضنها والتعامل معها والتهامها – رغبته فيها لأنها كانت دافئة وذات رائحة عطرة، ولأنها شابة بينما هو عجوز، ولأنها كانت بريئة بينما هو قد تعب من كل شىء سوى البراءة التى تثيره. هكذا بدأ. ولكن

بعد ذلك مباشرة حدث شيء آخر. شبابها هذا، وهذه البراءة واللذة – كانوا أكثر من مجرد إثارة بالنسبة له. كانت ظريفة جدا وجميلة وطفولية، فكان يشعر وكأنه يريد أن يبكي عليها، حتى وهو يريد إمساكها والتعامل معها والتهامها. فعلت أغرب الأشياء به – أعطته إحساسا جيدا، مثلما يشعر عندما يكون في الكنيسة، أو يستمع إلى ويليام جينكنز بريان، أو يسعد طفلة مسكينة بإعطائها عروسة أو أي شيء من هذا القبيل. ولم تكن فيرجينيا طفلة أي أحد هكذا، مثل هؤلاء الأطفال في المستشفى، بل كانت طفلته هو، ملكا له هو. لم تستطع برودنس أن تعطيه أطفالا، وكان آنذاك يشعر بالمرارة. ولكنه الآن سعيد، لأنه لو كان لديه طابور من الأطفال، لوقفوا في طريق البيبي. وكانت فيرجينيا تعني بالنسبة له أكثر من ابنة. لأنها حتى لو كانت مجرد ابنة، وهي لم تكن كذلك، ولربما كانت أفضل من واحدة من دمه ولحمه – خاصة وأن آل ستويت كلهم يتمتعون بوجه متجهم. وكانت برودنس عنيدة نوعا ما وإن كانت امرأة خيِّرة – ومما لا شك فيه أنها كانت خيرة – وربما خيرة أكثر مما ينبغي. بينما مع البيبي كل شيء هكذا كان رائعا وكاملا. لقد أصبح أكثر سعادة من أي وقت آخر منذ أن تعرف عليها. بدت الأشياء مرة أخرى ذات قيمة في وجودها. لم يعد يسير في الحياة متسائلا: لماذا؟ مسببات كل شيء هناك، أمامه، مرتدية كاب البحارة الصغير الذكي، أو ربما مرتدية ملابسها كاملة، مرصعة بالزمرد وكل شيء، ومستعدة للذهاب إلى حفل ما مع جماعة من ممثلي السينما المتحركة.

والآن حدث شيء ما. لقد أُخذ منه سبب استمراريته. لقد تغيرت البيبي. كانت تتلاشى بعيدا عنه، وذهبت إلى مكان آخر. ولكن أين ذهبت؟ ولماذا؟ ولماذا تريد أن تتركه؟ تتركه هكذا وحيدا. في هذه الوحدة التامة كان رجلا عجوزا، وكانت الكتلة

الصلبة البيضاء فى بهو الخزائن هناك فى انتظاره.

لقد سألها «ماذا بك يا بيبى؟» مرارا وتكرارا بلوعة فى قلبه ، وكان بائسا لدرجة أنه لم يعد يستطيع الغضب، خائفا من أن تتركه هناك بمفرده، لدرجة أنه لم يعد يهتم لكرامته أو حقوقه أو أى شيء سوى الاحتفاظ بها بأى ثمن كان. «ماذا بك يا بيبى؟»

وكل ما كانت تفعله هو النظر إليه وكأنها تراه من مكان ما يبعد ملايين الأميال – تنظر إليه هكذا وتقول لا شيء. كانت بخير، لا شيء يشغل ذهنها، ولا، لا يوجد شيء يمكن أن يفعله لها، لأنه قد أعطاها كل شيء، وهى سعيدة جدا.

ولو ذكر پيت – بشكل عابر – نوعا ما حتى لا تعتقد أنه يشك فى أى شيء – لا يهتز لها جفن، وكانت تجيبه بأن پيت حقا يعجبها، فهو ولد لطيف، ولكنه غير متمرس – وكان يجعلها تضحك، وهى تحب الضحك.

ولكنه يقول ولكن يا بيبى أنت مختلفة، وكان عسيرا عليه أن يمنع صوته من الارتجاف لأنه كان بائسا جدا، وكان يضيف إنك لا تتصرفين كما كنت يا بيبى.

وكل ما كانت تجيب به هو أن هذا غريب جدا لأنها تشعر وكأنها كما هى.

وكان يجيب: ولكنك لا تشعرين نحوى بنفس الشعور، فكانت تقول إنها لا تزال كما هى، وهو يقول لا، وهى تجيب هذا غير صحيح، ما الأسباب التى تجعله يقول إنها تشعر بشعور مختلف نحوه؟ وبالطبع كانت على صواب إذ لم يكن هناك سبب يمكن أن يضع إصبعه عليه، ولا يمكن أن يقول حقا إن تصرفاتها أقل وداً مما كانت، أو أنها لا تريده أن يقبّلها، أو أى شيء من هذا القبيل. كانت مختلفة لسبب لا يستطيع أن يعطيه اسما. شيء ما فى طريقة نظرتها وحركتها وجلستها، لا يستطيع أن يصفه سوى بأنها كانت كمن ليست هناك حيث يظن، بل فى مكان آخر، لا يمكن أن تلمسها أو تحدثها أو حتى تراها حقا فيه. الأمر هكذا. ولكن كلما

حاول أن يشرحه لها، ضحكت منه، وقالت إنه بالتأكيد يمتلك حدس الأنثى الذى تقرأ عنه فى الروايات - إلا أن حدسه الأنثوى هذا كان مخطئا تماما.

وهكذا يعود من جديد من حيث بدأ، محاولا حل اللغز دون أن يتمكن من ذلك، ويظل يشعر بالقلق الشديد. نعم، قلق حتى المرض لأنه بعد أن يتخطى إحساس الثقل والكسل اللذين أصبحا العادة كل صباح، كان يشعر بالقلق على البيبى لدرجة أنه يبدأ فى الصراخ فى الخدم، ويصبح وقحا مع هذا الرجل الإنجليزى الملعون، ويستشيط غضبا من أوبيسبو. والشيء التالى الذى يحدث هو أنه لا يتمكن من هضم طعامه. لقد أصيب باحتراق فى القلب والمعدة، بل وذات يوم أصيب بألم جعله يظن أنه المصران الأعور. ولكن أوبيسبو قال إنها غازات ناتجة عن الإنفلونزا المكتومة. وحينئذ استشاط غضبا وقال للرجل إنه بلا شك طبيب فاشل لأنه لا يستطيع معالجة شيء صغير مثل هذا. وقد وضع هذا بالتأكيد خوف الله فى قلب أوبيسبو إذ قال «أعطنى يومين أو ثلاثة آخرين وهذا كل ما أحتاجه لإتمام العلاج». وقد قال إن الإنفلونزا المكتومة شيء غريب حقا لأنها لاتظهر مثل أى شيء بل تسمم النظام كله حتى إنك لا تستطيع التفكير بشكل مستقيم، وتبدأ فى تخيل الأشياء والقلق عليها، وهى التى لم تكن حقا موجودة.

وبشكل عام، قد يكون هذا حقيقيًا، إلا أنه فى هذه الحالة يعرف أن كله ليس محض خيال. لقد كانت البيبى بالفعل مختلفة، وكان لديه سبب وجيه للقلق.

سار مستر ستويت عبر الطريق الجبلى الملتوى، غارقا فى مزاجه المرتبك ووجومه القلق، ومن خلال الواحة المظللة بالأشجار فى منطقة بيفرلى هيلز متجها شرقا - لأن كلانسى يعيش فى هوليوود - وعبر طريق سانتا مونيكا. لقد شرح كلانسى هذا الصباح عبر التليفون إحدى خططه التآمرية الميلودرامية. من القصص الطويلة المشوشة والتلميحات والإشارات الغامضة والأسماء التى تبدلت، فاستطاع مستر ستويت أن يفهم أن الأخبار كانت جيدة. يبدو أن كلانسى والأولاد

قد نجحوا فى شراء الغالبية العظمى من أفضل أرض متاحة فى وادى سان فيليبى. لو كان هذا فى وقت آخر، لتهلل مستر ستويت انتصارا. ولكن اليوم، حتى فكرة حصوله على مليون أو اثنين آخرين لم تمنحه أية سعادة. فى العالم الذى أصبح يعيش فيه، كانت الملايين بلا قيمة، فماذا ستفعل الملايين لتزيل عنه بؤسه؟ إنه بؤس رجل عجوز ومرهق وخاوٍ، رجل لا هدف فى حياته سوى ذاته، لا فلسفة ولا معرفة سوى ما يهمه هو، لا تقدير ولا حتى أصدقاء - مجرد ابنة عشيقة، محظية طفلة، يريدها بجنون، ويتوق إليها لدرجة العبادة. والآن هذا الكائن بدأ يخيب ظنه. لقد بدأ يشك فى إخلاصها - ولكن يشك بلا أسباب ملموسة، ويشك لدرجة أنه لا يوجد رد فعل مرضٍ ومناسب من الغضب والعنف والمهاترة. كان الإحساس قد بدأ يخرج من حياته ولم يعد يستطيع أن يفعل شيئا، لأنه فى وضع لم يعد يعرف كيف يتعامل معه. كان مشوش الفكر لدرجة ميئوس منها. ودائما، فى خلفية تفكيره، تهوّم صورة هذه الحجرة الرخامية المستديرة، وصورة رغبة رودين فى منتصف الغرفة، وتلك الكتلة البيضاء فى أرضيتها أسفلها - تلك الكتلة التى ستحتوى يوما ما على اسمه، جوزيف بانتون ستويت، منحوتا فيها، وتواريخ ميلاده ووفاته. ومع هذه الكتابة رأى كتابة أخرى بأحرف برتقالية على خلفية سوداء فاحمة «إنه شىء مخيف أن نسقط فى يد الله الحى»، بينما ها هو كلانسى يعلن انتصاره بطريقة تآمرية. أخبار سعيدة! أخبار سعيدة! بعد سنة أو اثنتين من الآن سيصبح أغنى مليوناً أخرى. ولكن تلك الملايين كانت فى عالم، بينما الرجل العجوز التعس الخائف فى عالم آخر، ولم يكن هناك أى اتصال بينهما.

الفصل الرابع

ظل چيريمى يعمل ساعتين، يفرغ ويفحص ويفهرس بشكل مؤقت، ويرتب. لم يجد أية اكتشافات هذا الصباح – مجرد حسابات، ووثائق قانونية، وخطابات عمل، وكلها ليست من التى يحبها على الإطلاق على الإطلاق، بل تنفع أمثال كولتون وتونى[١] وآل هاموند[٢].

عندما دقت الساعة الثانية عشرة والنصف كان ثقل الملل أكثر مما يتحمل، فأوقف العمل بحثا عن بعض المنعشات الروحية، ولذلك أحضر أجندة الإيرل الخامس المغلّفة بالجلد الرقيق.

بدأ يقرأ:

– «يوليو١٧٨٠ . ترتبط الشهوانية بالحزن، وقد يحدث أحيانا أن الأرملة الباكية من فرط صدق حزنها، يخونها إحساسها فتجد نفسها غير قادرة على مقاومة إلحاح ضيف الجنازة الذى يعرف فن المرور دون أن يراه أحد من العزاء إلى الأُلفة. أنا نفسى خُنت دوق و فايكونتان بعد وفاتهما مباشرة – أحدهما بالأمس فقط – فوق ذات الأسِرّة التى نُقلوا من عليها فى أُبّهة، قبل بضع ساعات من ذلك، إلى المقبرة العتيقة.»

خَصّ شيئا لأمه، لأنه من نوعية الأشياء التى تعشقها. إنه يفكر جديا فى إرساله لها فى خطاب الليلة، لو لم يكن ذلك مكلفا.

عاد إلى أجندته:

١– تونى: نسبة إلى ريتشارد هنرى تونى (١٨٨٠–١٩٦٢) إقتصادى إنجليزى .
٢– هاموند: فى الغالب نسبة إلى هنرى هاموند (١٨٠٧–١٨٦٤) صحافى وسياسى أمريكى كان مؤيدا لنظام العبيد بشدة، وقد قدم استقالته من الكونجرس عندما تم انتخاب أبراهام لنكولن.

– «بما أن مكان أحد القساوسة فى منطقتى قد فرغ، فقد أرسلت لى شقيقتى اليوم توصيلى بقس شاب وتشكر فى أخلاقه النزيهة. لكنى لن أسمح بوجود قساوسة حولى سوى الذين يشربون كثيرا، ويركبون مع الكلاب للصيد، ويتحسّسون على زوجات وبنات الرعيّة. القس النزيه لا يفعل شيئا ليُجرّب إيمان رعيته أو يمارسه، ولكن، كما كتبت لشقيقتى، «بالإيمان وحده نحصل على الخلاص».

جاء القيد الثانى بتاريخ مارس ١٧٨٤:

– «فى مقابر قديمة تم فتحها حديثا يوجد نوع من اللزوجة تتدلى كالأحبال من السقف وتغلّف الحائط. إنها الرطوبة العفنة المكثفة».

– «يناير ١٧٨٦ . نصف دستة زهور البانسيه على مر سنوات كثيرة. لو ملأت كتابا بهذا المعدل، فلابد أن سأعيش أكثر من الآباء. إننى نادم على كسلى، ولكنى أعزى نفسى بأن البشر الآخرين يستحقون التهكم، فلا أريد إذن أن أضيع وقتى لتعليمهم أو تسليتهم».

مر چيريمى سريعا عبر ثلاث صفحات من التأملات حول السياسة والاقتصاد. وتحت تاريخ ١٢ مارس ١٧٨٧ وجد مدخلا أكثر تشويقا:

– «الموت تقريبا هو أقل عمل روحى وسط أعمالنا، وهو أكثر حسّية حتى من ممارسة الحب. آلام الموت مثل إجهاد الإمساك أثناء التبرز. اليوم رأيت م.ب. يموت».

– «يناير ١٧٨٨ . لقد ولدت فى مثل هذا اليوم منذ خمس وخمسين عاما. من وحدة الرحم نخرج، إلى الوحدة بين البشر، ونعود ثانية إلى الوحدة فى القبر. نعيش حياتنا فى محاولات لتخفيف هذه الوحدة. لكن القرب ليس هو التلاحم، فإن أكثر المدن الآهلة بالسكان ليست إلا حشداً من الوَحشة. نتبادل الكلمات، لكننا نتبادلها من

سجن إلى سجن، دون أمل فى أنها ستعطى للآخرين ما تعطيه لنا، نتزوج، فنصبح فردين وحيدين فى البيت بدلا من واحد. ننجب الأطفال، ويمتلئ البيت بمستوحدين كثيرين. نكررعملية المضاجعة، ولكن مرة ثانية القرب ليس أبدا مثل التلاحم. إن أكثر الحركات حميمية هى مجرد حركة على السطح، ونتزاوج مثلما رأيت السجناء فى نيوجيت يتزاوجون مع عاهراتهم من بين قضبان أقفاصنا. لا يمكن أن نشارك السعادة. مثل الألم، يمكن فقط أن نختبرها أو نتسبب فيها، وعندما نعطى السعادة إلى عشاقنا أو نهب الإحسان إلى المحتاجين، نفعل ذلك ليس إرضاء للشخص المعنى بالعطف، ولكن إرضاءً لأنفسنا فقط. لأن الحقيقة هى أننا كرماء لذات السبب الذى يجعلنا قساة: لكى تزيد من إحساسنا بقوتنا، وهذا ما نحاول أن نفعله دائما أبدا، بالرغم من أنه بعملنا هذا، نشعر أنفسنا بالوحدة أكثر من ذى قبل. إن طبيعة الوحدة هى نفسها فى كل البشر. خاصة وأنه لا يوجد تخفيف لها سوى عن طريق النسيان، والغباء أو الأوهام. ولكن إحساس الرجل بالوحدة يزيد أو ينقص بالتناسب مع إحساس وحقيقة قوته. تحت أى نوع من الظروف، كلما ازدادت قوتنا، شعرنا بوحدتنا أكثر. لقد تمتعت بقوة كبيرة فى حياتى».

- «يونيو ١٧٨٨ . جاء القبطان بافى اليوم ليسلم علىّ، وهو رجل مستدير ومرح ومنحط. وحتى انبهاره بى لا يمنعنى تماما من الانفتاح نحوه بالمرح السوقى الذى يألفه. لقد سألته عن رحلته الأخيرة، وقد شرح لى تفصيليا طريقة وضع العبيد فى عنابر السفينة، والسلاسل المستخدمة لربطهم، وإطعامهم، التمارين التى يمارسونها على سطح السفينة حين يكون الجو هادئاً. إلا أنهم دائما يضعون الشباك حول متاريس السفينة ليمنعوا الأكثر بؤسا من إلقاء أنفسهم فى البحر. حكى عن العقوبات المطبقة على المعاندين المقاومين، وأسراب أسماك القرش الجائعة التى تتبعهم،

وروى عن داء الإسقربوط والأمراض الأخرى، وتآكل جلد الزنوج بسبب صلابة الألواح الخشبية التى يرقدون عليها مع الحركة الدائمة للأمواج، والرائحة الكريهة لدرجة أن أعتى البحارين يشحب وجهه ويسقط مغشيا عليه لو حاول النزول إلى العنبر. روى عن الموت الكثير والتعفن الذى يكاد يكون فوريا، خاصة مع الرطوبة الشديدة بجانب الخط الاستوائى. عندما قام ليمشى، أعطيته هدية عبارة عن علبة نشوق مصنوعة من الذهب. ولأنه لم يكن يتوقعها فقد كان صوته عاليا ومتحشرجا وهو يقدم لى شكره، ويعبر عن امتنانه وإخلاصه المستقبلى لمصالحى، فاضطررت إلى إيقافه عن هذا. لقد كلفتنى علبة النشوق ستين جينيا[٣]، وقد أحضر لى القبطان بافى خلال الثلاث رحلات الأخيرة أكثر من أربعين ألفا من الجينيات. السلطة والمال يزيدان بالتناسب مباشرة مع بُعد الرجل عن الأشياء المادية التى يستمد منها فى النهاية السلطة والمال. أمام كل مخاطرة يخوض فيها الضابط العام، يخوض العسكرى الخاص مائة ، بينما كل جينى يحصل عليه هذا الأخير، يحصل الضابط على مائة مقابله. هكذا الحال بينى وبين بافى وبين العبيد. العبيد يعملون فى الحقول بلا مقابل سوى الضرب والتجويع، والقبطان بافى يخوض المصاعب ومخاطر البحار، ويعيش ليس بأفضل من خردواتى أو تاجر خمور. إننى أضع يدى على لا شيء سوى حسابات البنوك وأمطار من الذهب الذى يسقط علىَّ من جراء عملى هذا. فى عالم مثل عالمنا، الرجل أمامه ثلاثة اختيارات: أولا يمكن أن يفعل كما كانت الملايين تفعل دائما، ومن ثمة لأنه غبى ولا يمكن أن يصبح وغدا، يخفف انحطاطه الفطري بحماقة فطرية. ثانيا، يمكنه أن يقلد الأكثر غباء، وهم الذين ينكرون انحطاطهم الفطرى بشدة لكى يمارسوا الفضيلة. ثالثا، يمكن أن يختار

٣- جينى: عملة إنجليزية قديمة.

أن يصبح رجلا عاقلا – ذلك الذي يعرف مقدار انحطاطه الفطرى – ومن ثم يتعلم كيف يستخدمه من خلال تلك المعرفة، ليرتفع فوقه، وفوق الرفاق الحمقى الآخرين. لقد اخترت شخصيا أن أكون رجلا عاقلا».

– «مارس ١٧٨٩ . العقل يَعِدُ بالسعادة. المشاعر تعترض وتؤكد أنها هى السعادة. الرشد وحده يمنح السعادة. والسعادة ذاتها كالتراب فى الحلق».

– «يوليو ١٧٨٦ . لو استخدم الرجال والنساء غبطتهم بنفس إزعاج القطط حين تغتبط، فلن يأمل أى فرد منا فى لندن أن ينال قسطا من النوم أثناء الليل».

– «يوليو ١٧٨٩ . لقد سقط الباستيل. يحيا الباستيل!»

تحدثت بعض الصفحات التالية عن الثورة. تخطاها چيريمى وقلبها. فى عام ١٧٩٤ حل اهتمام الإيرل الخامس بصحته محل اهتمامه بالثورة.

كتب يقول:

– «إننى أقول لمن يزورنى إننى كنت مريضا والآن شفيت، ولكن هذه الكلمات غير صحيحة لأنى لست الواقف على باب الموت، ولا أنا الذى شفيت. الأول كان من فِعل الحمى، تجسيداً للألم والإعياء. أما الثانى فليس أنا، بل رجل عجوز، ضعيف، منكمش، وبدون رغبات. كل ما تبقى من الشخص الذى كنته، هو اسمى وبعض ذكرياتى، وكأن رجلا قد مات وأراد أن يعيش صديق له بمجموعة من الحلى الصغيرة الرخيصة التى لا قيمة لها، ليذكّره بها».

– «١٧٩٤ . الرجل المريض الغنى مثله مثل شخص مجروح ووحيد ملقى فى صحراء مصر، تحوم حوله الصقور وتظل تنخفض وتنخفض، بينما ابن آوى والضباع تعسعس حوله حيث يرقد، فى دوائر تضيق وتضيق. حتى ورثة الرجل الغنى لا يمكن أن يكونوا أكثر انتباها. عندما أنظر إلى وجه ابن أختى وأقرأ هناك،

خلف قناع الوحدة، نفاد صبره وانتظاره لموتي، وخيبة أمله فى أننى لم أذهب بعد، أشعر بتدفق حياة وقوة جديدتين تسريان فى داخلى. سوف أظل حيا، وإن كان فقط لأسرق منه سعادته التى يؤمن أنها فى متناول يده – لأنه واثق أننى سأنتكس».

– « ١٧٩٤ . العالم مرآة تعكس صورة الناظر إليها».

– «يناير ١٧٩٥ . جرّبت وصفة الملك داود ضد الشيخوخة ووجدتها ناقصة. إن الدفء لا يمكن أن يُضفى ولكن فقط يحرك. وحيثما لا توجد شرارة مستمرة، لا يمكن إشعال حتى الصّوفان. قد تكون المسألة كما قال القس، إننا نخلص بالتفويض من خلال معاناة الآخرين. ولكنى أستطيع أن أجزم أنه لا جدوى من السعادة بالتفويض سوى زيادة مشاعر التفوق والقوة داخل هذا الذى يشعر بها».

– «١٧٩٥ . كلما تعفنت متطلبات الأحاسيس، نقوم بتعويض أنفسنا عنها بحرث مشاعر الكبرياء والغرور. إن حب السيطرة مُستقل عن القدرات الجسدية، ولذلك فعندما يفقد الجسد قوته، تحل محل السعادة التى تلاشت. أنا نفسى لم أكن يوما بدون حب السيطرة حتى فى خضم السعادة. منذ موتى أخيرا يضطر الشبح الباقى منى أن يرضى بالرضاء الأول والأقل جوهرية، وفوق كل ذلك الأقل ضررا من الاثنين».

– «يوليو ١٧٩٦ . قام الرهبان بحفر الدير الذى يقف مكانه البيت الحالى فى جونيستر فى عصر الخرافات. فى عصر الملك تشارلز أحضرت جدة جدتى مجموعة من الأقراص المصنوعة من الرصاص وقامت بحفر اسمه وتاريخه عليها، وربطتها بواسطة حلقات فضية فى ذيل خمسين سمكة من أسماك الشبوط البالغة. لا يقل عن عشرين سمكة منها لا تزال حية للآن، كما يمكننا أن نحصى عددها كلما رن جرس موعد إطعام هذه الكائنات. أسماك أخرى كبيرة جدا تأتى معها أيضا –

يبدو أنها ظلت على قيد الحياة منذ أيام الرهبنة، قبل أن يزيل الملك هنرى بيوت العبادة. أنظر إليها من خلال المياه الشفافة وأنبهر بالقوة والرشاقة غير المنقوصة لهذه الأسماك الكبيرة، والتى غالبا عاش أكبرها أيام أن كتبت «المدينة الفاضلة»[٤]، بينما عاصر أصغرها كاتب «الفردوس المفقود»[٥]. هذه الرواية الأخيرة حاولت أن تبرر طرق الله مع الإنسان. ربما كان الأفيد لها لو حاولت تبرير طرق الله للأسماك. لقد ضيع الفلاسفة وقت قرائهم فى تأملات حول أبدية الروح، وانكفأ الكيمائيون على بوتقاتهم محاولين بلا جدوى اكتشاف الإكسير أو الحجر، بينما فى كل بِركة وكل نهر يمكن أن يجدوا الشبوط الذى عاش أكثر من ثلاثة أفلاطونات ونصف دستة باراكيلسيس[٦]. سرّ الحياة الأبدية ليس فى الكتب القديمة، ولا فى الذهب السائل، ولا فى السموات. إنه موجود فى الطين، فى انتظار الصياد الماهر فحسب».

رن الجرس فى البهو الخارجى معلنا موعد الغداء. قام چيريمى ووضع كتاب الإيرل الخامس جانبا، وسار نحو المصعد مبتسما لنفسه وهو يفكر فى السعادة التى سيستمدها من قوله لهذا الحمار المغرور أوبيسبو إن أفضل أفكاره حول إطالة الحياة قد سبقه إليها آخرون فى القرن الثامن عشر.

٤– المدينة الفاضلة: كتبها السير توماس مور ونشرت عام ١٥١٦.
٥– الفردوس المفقود: كتبها جون ميلتون.
٦– باراكليسيس: نسبة إلى ثيوفراتس بومباستاس باراكليسيس (١٤٩٣–١٥٤١) طبيب وكيميائى سويسرى، وتعتبر أفكاره متقدمة بكثير عن معاصريه إذ أنه لم يكن يؤمن بالعلاج الميتافيزيقى.

الفصل الخامس

كان الغداء مرحا فى غياب مستر ستويت، فقد قام الخدم بعملهم دون توبيخ، واستطاع چيريمى أن يتحدث دون مخاطرة الرد الجاف أو الإهانة، وتمكن أوبيسبو من سرد حكاية ماسح المدخنة الذى تقدم بطلب للتأمين على الحياة بعد قيامه بشهر العسل. أما فيرجينيا فظلت تضحك بحرية كما يحلو لها، لكن من بعيد جدا فى الأعماق، فى حالة شبه غيبوبة وحالة من الإرهاق - هذه الحالة التى ظلت ترعاها عن عمد حتى لا تضطر للتفكير كثيرا والشعور بالضيق تجاه كل ما يحدث. ولكن جزءاً منها ظل لا يريد الضحك على الإطلاق لأنها لم تكن ترغب أن يظن سيج أنها تشجعه بأية طريقة، وجزء آخر منها كان يريد أن يضحك، بل ولم تستطع أن تقاوم الضحك لأن القصة كانت بالفعل مضحكة. ثم إلى جانب ذلك كانت سعيدة جدا أنها ليست مضطرة لتلك التمثيلية مع پيت من أجل العم چو. لقد كانت اليوم دون خيانة، واستطاعت أن تكون نفسها ولو مرة واحدة. لكن الذبابة الوحيدة فى المرهم تلك النفس التى أصبحت عليها، فقد كانت نوعية بائسة، إذ كانت ذاتاً مليئة بالعظام التى تتحول إلى مطاط كلما اختار هذا السيج البشع أن يقترب منها. إنها ذات بلا قوة تجعلها تحافظ على وعودها للسيدة العذراء. فجأة توقفت ضحكتها.

كان پيت فقط هو البائس المنتظم - طبعا بسبب ماسح المدخنة، وضحكات فيرجينيا المجلجلة، ولكن أيضا لأن برشلونة قد سقطت، ومعها سقطت كل آماله فى انتصار سريع على الفاشية، وكل الإمكانات المستقبلية لرؤية زملائه ثانية. ولم يكن هذا كل شيء. إن الضحك على قصة ماسح المدخنة كان مجرد حادث واحد مؤلم وسط الكثير. لقد مررت فيرجينيا الطبقين الأولين من الطعام دون أن تعيره اهتماما ولو مرة واحدة. ولكن لماذا؟ لماذا؟ تفاقم ضيقه بالحيرة المرة. لماذا؟ كان شيئا غير

مفهوم، فى ضوء ما حدث خلال الثلاثة أسابيع الماضية. منذ مساء ذلك اليوم الذى عادت فيه فيرجينيا من الكهف المقدس، كانت تعامله بشكل رائع - تخرج عن طريقها خصيصا لتتحدث معه، وتدعوه ليقول لها أشياء عن إسبانيا، وحتى عن البيولوجيا. بل إنها طلبت منه أن تنظر إلى شيء ما فى الميكروسكوب. وقد ارتجف حينئذ من فرط السعادة حتى استطاع بالكاد أن يضبط الشريحة، لقد أدار الآلة على شريحة بها جزء من الفطريات المأخوذة من معدة الشبوط. جلست آنذاك فى مكانه، وانحنت على العين وسقط شعرها البنى على جانبى الميكروسكوب، وانكشف ظهر عنقها من فوق حافة السويتر الوردى، فكاد يكون ملموساً وبدا كأنه يدعوه، فبذل مجهودا خرافيا ليمنع نفسه من تقبيلها وكاد يغشى عليه.

مرت أوقات فى الأيام التالية تمنى فيها لو كان قد قام بذلك المجهود. ولكن ذاته الأفضل كانت تعيد تأكيد قوانينها وتجعله سعيدا مرة ثانية أنه سيطر على نفسه. لأنه بالطبع لن يكون هذا صوابا، بالرغم من أنه تنازل منذ زمن بعيد عن إيمان العائلة بدم الخروف، كان لا يزال يذكر ما قالته أمه المؤمنة المحافظة، حول فكرة تقبيل أى أحد لم يكن مخطوبا له. لم يزل فى قلبه الشاب الشغوف الذى فجّره الكاهن شليتز أيام أن كان مراهقا مرتبكا، مصرا أن يكون زاهدا، عن قناعة بالحب المقدس وحماس لشيء جميل اسمه الزواج المسيحى. ولكنه مع الأسف فى ذلك الوقت لم يكن يكسب ما يكفى لإيجاد مبرر ليطلب من فيرجينيا أن تقبل حبه المقدس وتدخل فى زواج مسيحى معه. وكان هناك أيضا تعقيد آخر مضاعف وهو أن الزواج المسيحى بالنسبة له لن يكون مسيحيا إلا لو كان كذلك فى جوهره، بينما كانت فيرجينيا مرتبطة بالمؤسسة التى كان أحيانا يسميها الأب شيلتز بعاهرة بابليون، والتى يراها الماركسيون تستحق الاحتقار الشديد. إن تلك المؤسسة أيضا

تراه بذات الطريقة التى يراها هو بها – بالرغم من أنه قد بدأ إحساسه الكريه تجاهها يخف بما أن هتلر قد بدأ يضطهدها فى ألمانيا، ومنذ أن اعتنت به راهبات الرحمة فى إسبانيا. وحتى لو اختفت تلك الاختلافات الدينية والمادية بمعجزة تبقى حقيقة بشعة وهى المستر ستويت. إنه يعلم بشكل قطعى أن مستر ستويت ليس سوى أب أو عمّ، على الأكثر، لفيرجينيا– ولكنه كان يعلم ذلك بنفس اليقين الزائد عن الحد المولود من الرغبة، ويعلمه بنفس الطريقة التى كان يعلم بها دون كيخوتة أن الجزء المغطى للوجه من خوذته المصنوعة من الكارتون كان قوياً كالصلب. كانت معرفة من الأفضل ألا يتحقق منها كثيرا، وبالطبع فإذا طلب من فيرجينيا أن تتزوجه فإن هذه المعلومات أو تلك التى من المتوقع أن تكشفها مثل هذه التحقيقات سوف يضطر أن يكشفها.

وعنصر آخر إشكالى فى هذا الموضوع هو مستر برويتر، فإن كان مستر برويتر مصيبا، وقد بدأ بيت يتيقن أكثر فأكثر أنه كذلك، فليس من الحكمة طبعا أن يفعل شيئا يُصعّب المرور من المستوى البشرى إلى مستوى الأبدية. وبالرغم من أنه يحب فيرجينيا إلا أنه وجد من الصعوبة بمكان أن يصدق أن الزواج بها لن يكون عقبة على طريق استنارة كل المعنيين بالموضوع.

أو بالأحرى، هذا ما كان يعتقده، ولكن خلال الأسبوع أو الاثنين الأخيرين تغير رأيه، أو بشكل أكثر دقة، لم يعد له رأى. كان فقط غير متيقن ومرتبك، لأن شخصية فيرجينيا تغيرت تقريبا فجأة من كونها طفولية وعالية الصوت ومنفتحة على العالم، إلى براءة هادئة وغامضة. كانت فى الماضى تتعامل معه بصداقة ورفق وحب للدعابة وعلى سجيتها، ولكنها تغيرت مؤخراً تغيراً غريباً، إذ توقفت النكات وحل محلها نوع من الحرص. لقد كانت رائعة معه – ولكن ليس كالفتيات

الرائعات اللاتى يردن الوقوع فى غرام رجل ما. لا. لقد كانت فيرجينيا مثل أخت رحيمة. وليست أى أخت رحيمة، بل مثل هذه الأخت الراهبة الرحيمة التى راعته عندما كان فى المستشفى فى جيرونا - الأخت الشابة ذات العينين الواسعتين والوجه البيضاوى الشاحب، مثل وجه العذراء مريم فى الصورة. كانت تبدو سعيدة بشكل سرى، لا بسبب أى شىء يجرى حولها، ولكن بسبب شىء ما فى داخلها، شىء ما غير عادى وجميل خلف عينيها حتى تستطيع أن تنظر إليه. وعندما تفعل ذلك، لا يوجد سبب بعد للشعور بالخوف من غارة جوية مثلا، أو ضيق من بترٍ ما. لا شك أنها كانت ترى الأشياء من هذا الذى يسميه مستر بروبتر المستوى الأبدى. لم تؤثر فيها هذه الأشياء بنفس الطريقة التى قد تؤثر فيمن يعيشون على المستوى البشرى، إذ على المستوى البشرى، كان خائفا وغاضبا، أو لو كان هادئا فذلك بمجهود إرادى. لقد كان معجبا بها آنذاك دون فهم، ولكن الآن، وشكرا للمستر بروبتر، يمكنه أن يفهم ويُعجب أيضا.

على أية حال هذا هو الوجه الذى أخذ يذكره به وجه فيرجينيا فى الأسابيع الماضية. كان فى حياتها تغيير ما، من الحياة المنفتحة إلى الحياة الداخلية، ومن الاستجابة إلى السرية، وشرود الذهن الغامض. وكان السبب فى هذا التحول غير مفهوم، ولكن الواقع بات واضحا وكان يحترمه، بدليل أنه لم يقبّل عنقها عندما انحنت على الميكروسكوب، وذلك بعدم لمس ذراعها أو إمساك يدها، وعدم قوله كلمة واحدة عن شعوره نحوها. فى ظروف تحولها الغريب وغير المفهوم كان يشعر أن مثل تلك الأمور غير مناسبة لدرجة أنه قد يعتبرها انتهاكا للحرمات. لقد اختارت أن تكون رائعة نحوه كأخت له، ومن ثمة كانت استجابته لها كأخ. والآن لسبب غير معلوم بدت فجأة وكأنها غير مدركة حتى لوجوده. لقد نسيت الأخت

أخاها، ونسيت الأخت الرحيمة نفسها – بل نسيت نفسها لدرجة أنها استمعت إلى نوادر الدكتور أوبيسبو الحقيرة عن ماسح المدخنة، كما ضحكت عليها كذلك. ولكنه لاحظ فى حيرة أنها توقفت عن الضحك فجأة، وعاد إلى وجهها هذا التعبير الداخلى والسرية والابتعاد. لقد تذكرت الأخت الرحيمة نفسها بنفس سرعة نسيانها لها. كانت غير مفهومة. ببساطة، لم يستطع أن يفهمها.

عند وصول القهوة، أعلن الدكتور أوبيسبو اقتراحه بأخذ إجازة فى المساء بما أنه لا يوجد شىء ليفعله الآن فى المعمل. وقد نصح بيت أن يفعل نفس الشىء. شكره بيت، وادّعى أنه مستعجل – لأنه لا يريد أن يشعر بالإهانة والتجاهل عندما تتحدث فيرجينيا عن خططها لهذا المساء – بلع قهوته، وتمتم ببعض الاعتذارات ، ثم غادر الغرفة . بعد قليل كان فى الخارج تحت الشمس، يسير نحو السهول.

أثناء سيره، أخذ يفكر فى بعض ما قاله مستر بروبتر خلال زياراته الأخيرة، وعما قاله عن أسخف جزء فى الكتاب المقدس والجزء الأكثر معنى. «أبغضونى بلا سبب» و«نجنى ما نزرع». وعما قاله من أن لا أحد يحصل على شىء مقابل لا شىء – لأن الرجل يدفع الكثير من أجل المال الكثير مثلا، أو السلطة الكثيرة، أو الجنس الكثير، من خلال انغلاقه داخل ذاته أكثر لدرجة أن الدولة التى تترك بسرعة وبعنف تسقط تحت طغيان مثل طغيان نابليون أو ستالين أو هتلر، والشعوب المزدهرة والتى بها سلام داخلى سوف تدفع الثمن بأن تصبح مزهوة بنفسها، وراضية عن نفسها، ومحافظة مثل الإنجليز.

كانت الببوانات تثرثر عندما مر بجانبها. تذكر بيت بعض تعليقات مستر بروبتر حول الأدب، وحول التعب الممل للعقل الناصح، الموجود فى كل المسرحيات والروايات التى يتوقع النقاد أن تعجب بها. كل النوادر الطويلة المملة والتى لا

تحصى، والروايات الرومانسية ودراسات الشخصيات، ولكن بدون نظرة عامة عن النوادر، ولا افتراضية تشرح الرومانسية أو الشخصية. مجرد تجميع كبير للحقائق حول الشهوة والجشع، الخوف والطموح، الواجب والمحبة. مجرد حقائق، وحقائق خيالية أيضا، بدون فلسفة تتسق معها وتكون متفوقة على الفطنة والنظام المحلى للتقاليد، لا مبدأ من الترتيب أكثر عقلانية من الذريعة البسيطة الجمالية. ثم هذا الهراء المذهل الذى يقوله الذين يشرحون ويوضحون هذا الخليط من الحقائق والخيال النمطى بشكل جميل! كل هذا الهراء الرصين مثلا عن أدب المنطقة - وكأنه توجد ميْزة خاصة وبارزة فى تسجيل الحقائق غير المتناسقة عن الشهوة والجشع والواجبات لمن يعيشون فى هذه الدولة ويتحدثون بلغتها! أو أن الحقائق كانت عن فقراء المدينة، وهناك مجهود لتنسيقها حسب نظريات ما بعد الماركسية والتى قد تكون حقيقية، ولكنها دائما غير كافية. أو أن أحدا قد كتب كتابا آخر معلنا أن الحياة مقدسة، والتى يعنى دائما بها أن أى شىء يفعله الناس مثل المضاجعة أو السُكر أو فقدان الأعصاب أو الشعور بالبؤس المبالغ فيه، هو شىء جيد جدا بالنسبة لله، ومن ثمة لابد أن يكون كل ذلك مسموحا به بل وحتى يُعتبر شيئا فاضلا. وفى مثل تلك الحالة على النقاد إذن أن يتحدثوا عن إنسانية الكاتب الناضجة، وحكمته العميقة الحنونة، وتشابهه مع جوته والتزاماته بويليام بليك[1].

ابتسم بيت وهو يتذكر كل هذا، ولكن ما بين الأسف والتلهّى، إذ كان هو أيضا يأخذ تلك المسائل بالجدية التى بدا له أن الكلام يتطلبها. كانت جدية فى غير موقعها - وهى منبع معظم أخطائنا القاتلة. لقد قال مستر بروبتر إننا يجب أن نكون

١- ويليام بليك: (١٧٥٧-١٨٢٧) شاعر وفنان وصوفى إنجليزى اشتهر بأشعاره الرمزية خاصة فى المرحلة المتقدمة من كتاباته.

جادين فقط فيما يستحق الجدية. وعلى المستوى البشرى المحض، لا يوجد شىء يستحق أن يؤخذ بجدية سوى المعاناة التى يتسببها الناس لأنفسهم من خلال جرائمهم وحماقاتهم. ولكن فى التحليل الأخير، فإن سبب معظم هذه الجرائم والحماقات هو أخذ المسائل بجدية لا تستحقها. وهذا، كما قال مستر بروبتر يعتبر من الأخطاء الفادحة لما يسمى بالأدب الجيد. كان يقبل ميزان القيم التقليدى، وكان يحترم القوة والسلطة، ويعجب بالنجاح، وكان يتعامل مع الانشغال الجنونى للحكام والمحبين ورجال الأعمال والمتسلقين فى المجتمع والأهالى، وكأنهم عاقلون. باختصار، لقد تعامل بجدية مع مسببات المعاناة كما تعامل مع المعاناة ذاتها. لقد ساعد على ارتكاب البؤس من خلال الموافقة الضمنية والصريحة على أفكار ومشاعر وممارسات لا يمكن ألا تَنتُج عن بؤس. وهذه الموافقة أُعطيت من خلال لغة عظيمة ومقنعة، حتى عندما تنتهى مأساة بشكل سىء، يكون القارئ منوما تنويما مغناطيسيا بسبب بلاغة القطعة، حتى أنه يتصور أنها بشكل ما نبيلة ومستحقة، وهى بالطبع ليست كذلك. لأنك لو نظرت إليها بحياد، لا يوجد شىء أتفه ولا أحقر من الموضوع الذى تدور حوله كل من «فيدرا» أو «عطيل» أو «مرتفعات وذرنج» أو «أجاممنون». ولكن معالجة تلك الموضوعات كانت على درجة كبيرة من السمو والإثارة بحيث أن القارئ أو المتفرج أصبح على يقين من أنه بالرغم من الكارثة، فكل شىء كان جيدا فى هذا العالم، فى العالم البشرى جدا، الذى أنتجته. لا. إن كتابة ساخرة واحدة جيدة لهى بلا شك أكثر عمقا وحقيقة من أية كتابة أخرى. وبالطبع أيضا أكثر فائدة من تراجيديا جيدة. المشكلة هى فى وجود كتابات ساخرة جيدة قليلة، لأن قليلين هم الكتاب الساخرون المستعدون لأن

ينقدوا القيم الإنسانية إلى أبعد مداها. «كانديد»[٢] مثلا تستحق الإعجاب إلى الحد الذى وصلت إليه، ولكنها لم تذهب أبعد من فضح ادعاءات التصرفات البشرية الأساسية باسم قيمة عدم الأذى. لاشك فعلا أن قيمة عدم الأذى هى أسمى القيم التى يمكن للإنسان التطلع إليها، لأنه بالرغم من أن القلة القليلة لديها القوة لتفعل الخير الأكيد، لا يوجد أحد وإن أراد، يستطيع أن يمتنع عن الشر. وبالرغم من ذلك، عدم الأذى المحض مهما كان جيدا، لا يمثل بالتأكيد أعلى القيم الممكنة. جملة «لابد أن نزرع حديقتنا» ليست الكلمات الأخيرة فى الحكمة الإنسانية، وفى أفضل أحوالها هى الأفضل إلا واحدة.

كانت الشمس فى مكان ما بحيث استطاع بيت وهو نازل الجبل، أن يرى قوسين قزح صغيرين خارجين من صدر حورية الجيامبولونيا. فكر فورا فى نوح بالإضافة إلى أفكاره عن فيرجينيا وهى ترتدى المايوه الأبيض الساتان. حاول كتمان هذه الأخيرة لأنها غير متوافقة مع فكره الجديد عنها كأخت رحيمة. وبم أن نوح ليس موضوعا يستحق التفكير فيه، بدأ يركز فى حديثه الجنسى ذلك مع مستر بروبتر. لقد بدأ بسؤال مرتبك حول أية أنشطة جنسية يمكن اعتبارها طبيعية – ليس بالطبع بشكل عددى، ولكن طبيعية بالمعنى المطلق الذى يمكن أن نطلقه على بصر الإنسان الطبيعى مثلا أو على هضمه الطبيعى. ما نوع النشاط الجنسى الذى يمكن أن نسميه طبيعيًا بكل معنى الكلمة؟ وقد أجاب مستر بروبتر بأنه لا يوجد. ولكنه اعترض على ذلك، إذ لابد أن يوجد نوع ما يُعتبر طبيعيا وعاديا مثلما يوجد نوع من النشاط الهضمى العادى والطبيعى. وقد أجاب مستر بروبتر أن النشاط الجنسى للبشر ليس على نفس مستوى النشاط الهضمى. عندما يمارس الفأر

٢ – كانديد: قصة فلسفية ساخرة كتبها الكاتب الفرنسى فولتير، يسخر فيها من تفاؤل زميليه روسو وليبنيز.

الجنس – نعم هذا بالفعل على ذات المستوى من النشاط الهضمى، لأن المسألة كلها فطرية. أى بمعنى آخر يتحكم فيها الذكاء الفيسيولوجى للجسم – نفس الذكاء الفسيولوجى الذى ينظم الحركة بين القلب والرئة والكلى، ويضبط الحرارة، ويغذى العضلات، ويجعلها تقوم بالعمل المطلوب منها عن طريق الجهاز العصبى المركزى. إن نشاط الإنسان الجسدى محكوم بنفس هذا الذكاء الفيسيولوجى، لذلك فعلى المستوى الحيوانى هو ذاته الخير الظاهر. لكن النشاط الجنسى لدى الإنسان يقع تقريبا خارج دائرة اختصاص الذكاء الفسيولوجى. إن هذا الأخير يتحكم فقط فى النشاط المتعلق بالخلايا، والذى يجعل النشاط الجنسى ممكنا. أما الباقى كله فهو غير فطرى، ويأخذ مكانه على مستوى الوعى الذاتى البشرى المحض. حتى عندما يعتقد الإنسان أنه يتصرف بحيوانية بحتة فى شهوانيته، فهو لم يزل على المستوى البشرى، مما يعنى أنه لا يزال يملك الوعى الذاتى، ولا تزال الكلمات تسيطر عليه – وأينما وجدت الكلمات، وجدت بالضرورة الذكريات والآمال والأحلام والخيالات. بل وبالضرورة يوجد الماضى والمستقبل، الفعلى والخيالى، الندم والترقب، الخير والشر، الحميد وغير الحميد، الجميل والقبيح. وحتى النشاط الجنسى بين الرجال والنساء الذى قد يبدو أكثر حيوانية من غيره، متصلا ببعض أو كل هذه العناصرغير الحيوانية – العناصر التى تم حقنها فى كل وضع إنسانى من خلال اللغة. هذا يعنى أنه لا يوجد نوع واحد من الجنسية البشرية يمكن أن نسميها أنواعًا طبيعية كما نطلق على طبيعة الرؤية والهضم. وبهذا المعنى فكل أنواع الجنسية البشرية غير طبيعية. لا يمكن أن نحكم على أنواع الأنشطة الجنسية المختلفة للإنسان من خلال إرجاعها إلى شىء نموذجى محض. يمكن فقط الحكم عليها من خلال إرجاعها إلى الأهداف العليا لكل فرد على حدة، والتدقيق فى نتائج

كل حالة على حدة. فإذا كان شخص ما يريد أن يعتبره الناس خيرا فى مجتمع ما، يمكنه أولا أن يعتبر النشاط الجنسى الذى يمارسه البعض والمقبول حاليا من الدين المحلى ومقبول من «أفضل الناس»، على أنه هو الطبيعى. ولكن هناك بعض مَن لا يهمهم الحكم عليهم من قبل إله غاضب أو حتى أفضل الناس. إن رغبتهم الأساسية تكمن فى إثارة أحاسيسهم ومشاعرهم بشكل مكثف ومتكرر. بالنسبة لهؤلاء فمن الطبيعى أن الطبيعية فى الأنشطة الجنسية تختلف عن الأكثر اتجاها ناحية المجتمع. حينئذ يصبح هناك أنواع من الجنسية «الطبيعية» المختلفة لمن يريد أن يأخذ الأفضل من العالمين – عالم الحس والمشاعر الشخصى، والعالم المجتمعى المكون من الأخلاق والتقاليد الدينية. إن «طبيعية» طارطوف[٣] وبيكسنيف[٤] هى مثل هؤلاء القساوسة الذين لا يستطيعون أن يبعدوا أيديهم عن طالبات المدارس، أوالوزراء ذوى الجنون السرى نحو الشباب الجميل. وأخيرا يوجد غير المعنيين بمسايرة المجتمع، ولا مهادنة الإله المحلى، ولا الاستمتاع بالإثارات المتكررة للمشاعر والحس، ولكن أهم انشغالاتهم هى التنوير والحرية، وبمشكلة تخطى الذات، والمرور من المستوى البشرى إلى المستوى الأبدى. بل إن مفهوم هؤلاء عن الطبيعية فيما يخص الأنشطة الجنسية ليس مثل الرجال والنساء من أية فئة أخرى.

من ملعب التنس الإسمنتى كان أطفال الطباخ الصينى يطيرون طائراتهم الورقية المصنوعة على شكل العصافير، مركّب فيها صفارات تصدر صوتا يشبه النواح. سمع بيت صوت الكانتونيين[٥] المبتهج. عبر المحيط الأطلسى يوجد ملايين

٣– طارطوف: شخصية فى كوميديا كتبها موليير الكاتب الفرنسي وهى بذات الإسم، وهو شخصية منافقة وكاذبة، وتدور الرواية على أنه يقدم نفسه لعائلة ما على أنه رجل دين ويحاول إغراء الزوجة.
٤– بيكسنيف: شخصية من شخصيات رواية لتشارلز ديكنز واسمها مارتن شازلويت.
٥– الكانتونيون: أى الصينيون.

الملايين من هؤلاء الأطفال ماتوا أو يموتون الآن.

أسفلهم فى الكهف المقدس وقف التمثال الجيرى للسيدة العذراء. أخذ بيت يفكر فى فيرجينيا وهى راكعة بالشورت الأبيض المصنوع من الساتان وكاب البحارة، وفكر أيضا فى بلاغة القس شليتز السبابة، وفى نكات الدكتور أوبيسبو، وفى أليكسيس كاريل[٦] حول موضوع لورد[٧]، وفى «تاريخ محاكم التفتيش» للى[٨]، وفى تونى حول العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية، وفى نيمولر[٩] و جون نوكس[١٠] وتوركيمادا[١١] ، وهذه الأخت الرحيمة ثم ثانية فى فيرجينيا ، وأخيرا فى مستر برويتر باعتباره الشخص الوحيد الذى يعرفه، بل ويمكن أن يستخرج معنى ما من كل تلك الفسيفساء الغريبة والجنونية والشيطانية لكل شيء.

٦- أليكسيس كاريل: (١٨٧٣-١٩٤٤) وهو عالم بيولوجى فرنسى حصل على جائزة نوبل للطب عام ١٩١٢ بسبب عملياته الرائدة على الأوردة الدموية، وله العديد من المؤلفات الطبية.

٧-لورد: مدينة بفرنسا وهى تعد مركزا للحجاج الكاثوليكيين بسبب كهف شهير بها يقال إن العذراء ظهرت فيه عام ١٨٥٨.

٨- لى: يعلى فى الغالب ناثانيل لى (١٦٥٣-١٦٩٢) كاتب إنجليزى.

٩- نيمولر: نسبة إلى مارتن نيمولر (١٨٩٢-؟) قس ألمانى شهير كان معاديا للنظام النازى وبقى معتقلا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

١٠- جون نركس: (١٥١٣-١٥٧٢) مصلح دينى إسكتلندى.

١١- توركيمادا: نسبة إلى توماس دى توركيمادا (١٤٢٠-١٤٩٨) قس إسبانى من أهم المسئولين عن محاكم التفتيش ويعتبر أحد أهم مؤسسيها فى إسبانيا.

الفصل السادس

أصيب چيريمى بنوع من الإحباط لأن الدكتور أوبيسبو لم يصبه الذهول عندما علم بوجود من تكهن بأفكاره فى القرن الثامن عشر.

قال وهما ينزلقان مع لوحة فيرمير نحو القبو:

- تقول إنه عاش حتى التسعين؟

أجاب چيريمى:

- بل أكثر من تسعين. ست أو سبع وتسعين . لقد نسيت أيهما. بل وقد مات وسط فضيحة ما.

- أى نوع من الفضائح؟

تنحنح چيريمى وربت على أعلى رأسه وقال:

- النوع المعتاد.

قال الدكتور أوبيسبو بتشكك وذهول:

- أتعنى أن الرجل العجوز كان لا يزال يفعل ذلك؟

قال چيريمى:

- نعم يفعل. توجد فقرة عن هذا الموضوع فى أوراق غير منشورة فى جريفيل. لقد مات فى الوقت المناسب، إذ كانوا فى الواقع على وشك القبض عليه.

- لماذا؟

- لمعت عينا چيريمى ثانية وحمحم ثم أجاب ببطء وكأنه كرانفورد[1]:

يبدو أنه كان لا يستمد متعته إلا بشكل قاتل.

- أتعنى أنه قتل أحدهم؟

١- كرانفورد: نسبة إلى رواية كتبتها مسز جاسكيل الروائية الإنجليزية، نشرت عام ١٨٥١ ، وتتحدث بلغة منزلية بسيطة ومملة، وتحكى عن الحياة الهادئة لقرية بإنجلترا فى بدايات القرن التاسع عشر.

أجاب چيريمى:

– لم يقتل فعليا، ولكنه حطم فقط.

أصيب الدكتور أوبيسبو بخيبة أمل، ولكنه ما لبث أن عزى نفسه بأن فى السادسة والتسعين حتى التحطيم يعتبر شيئا حميدا. قال:

– أود أن أنظر فى هذا الموضوع.

قال چيريمى بأدب:

– إن النوتة تحت أمرك.

شكره الدكتور أوبيسبو. سارا معا نحو غرفة مكتب چيريمى. قال هذا الأخير وهما يهمان بالدخول:

– قد يكون الخط صعبا نوعا ما. أعتقد أنه ربما من الأسهل لو قرأت لك بصوت عال.

اعترض الدكتور أوبيسبو وقال إنه لا يريد أن يضيع وقت چيريمى ولكن لأن الآخر كان يريد أن يجد ذريعة ليؤجل مهمة ترتيب الأوراق المملة الطويلة التى لم تجذب اهتمامه، فقد اعترض على الاعتراض وانتصر. أصرّ چيريمى على أن يكون غير أنانى. شكره الدكتور أوبيسبو وجلس ليستمع. أخرج چيريمى عينيه من بيئتهما الطبيعية أثناء تلميع نظارته، ثم بدأ يقرأ مرة ثانية ولكن بصوت عال، نفس الفقرة التى كان يقرأها هذا الصباح عندما دق الجرس معلنا موعد الغداء:

قال مختتما القراءة:

– «يمكن أن تجده فى الطين، وهو فقط فى انتظار الصياد الماهر».

ضحك الدكتور أوبيسبو وقال:

– يمكنك تقريبا أن تستخدم هذه الجملة كتعريف للعلم. ما العلم؟ العلم هو

الصيد فى الطين – الصيد بحثا عن الخلود وعن أى شىء آخر يمكن أن تجده.

ضحك ثانية وأضاف أنه أصبح يحب العجوز ابن الزانية.

استمر چيريمى فى القراءة:

– «أغسطس ١٧٩٦ . اليوم عاتبتنى كارولين ابنة أخى التى جاءتنى مزمجرة عما أسمته التناقض وعدم الثبات فى تصرفاتى. رجل إنسانى مثلى لديه جياد فى اسطبلاته، وغزلان فى حديقته، وشبوط فى برك أسماكه، لابد أن يُظهر بعض الثبات وذلك بأن يكون اجتماعيا أكثر منى، متسامحا أكثر فى صحبة الحمقى، وعطوفا أكثر نحو الفقراء والمساكين. وقد أجبتها بالتعليق على كلمة «رجل» وهو الاسم العام الذى ينطبق على تعاقب التصرفات المتناقضة، لأن أصله يكمن داخل الجسد ذى الرجلين الاثنتين وبدون ريش. أما كلمات مثل كارولين و جون وأمثالهما، فهى أسماء تنطبق على تعاقب عدم الثبات فى التصرفات الخاصة داخل أجساد خاصة. الشىء الوحيد الثابت الذى يظهره الجنس البشرى هو ثبات عدم الثبات. وبمعنى آخر، إن طبيعة أى تعاقب للتصرفات غير الثابتة يعتمد على تاريخ الفرد وأجداده. كل تعاقب لعدم الثبات يحدده ويخضع له قوانين فُرضت عليه من قِبَل ظروفه التى سبقته. إن شخصية ما، يمكن اعتبارها ثابتة، بمعنى أن عدم ثباتها قدرٌ كتب عليها ولا يمكن أن تتخطى الحدود التى سبق وأن كتبت لها. أما الثبات الذى يريده الحمقى أمثال كارولين فهو نوع آخر. إن هؤلاء يعاتبوننا لأن تصرفاتنا المتعاقبة غير متوافقة مع مجموعة من الانحيازات المختارة بشكل تعسفى، أو مجموعة من القوانين التى تبعث على الضحك، مثل العبرية، أو الجنتلمانية أوالإيروكوا[٢] أو المسيحية. ولا يمكن الوصول لهذا الثبات ، بل ومحاولة

٢– إيروكوا: وهى كنفدرالية أمريكا شمالية هندية معروفة بالإنجليزية باسم الخمس أمم، وقد ساندت الإنجليز ضد الفرنسيين ثم فيما بعد ضد الاستعمار الأمريكى.

الوصول إليه ينتج عنه فقط البلّه والنفاق. لقد قلت لكارولين انظرى إلى تصرفاتك أنت. أين الثبات ما بين حديثك مع كاهن الخلاص وبين العقاب بالجلد المخيف الذى تمارسينه على الخادمات الصغيرات؟ بين إحساناتك اللافتة للنظر، وبين وضعك للشراك فوق أملاكك؟ ظهورك فى البهو وبين مقعدك المثقوب؟ أو بين الخدمات الإلهية صباح يوم الأحد وبين المتع التى تستمتعين بها كل ليلة سبت أنت وزوجك، وأيضا يومى الجمعة والخميس، كما يشك العالم كله، مع بارون ما، لن أذكر اسمه؟ ولكن قبل أن أنهى سؤالى الأخير، غادرت كارولين الغرفة».

ضحك الدكتور أوبيسبو وقال:

– مسكينة كارولين. ومع ذلك فقد نالت ما استحقت.

قرأ چيريمى المدخل التالى:

– «ديسمبر ١٧٩٦ . بعد إصابتى الثانية بالنزلة الشعبية، جاءت فترة النقاهة هذه المرة ببطء وبفعالية أقل. إننى معلق هنا، متدلٍ فوق الهوة السحيقة، وكأنى متدلٍّ بخيط رفيع، وهذا الخيط قد صنعه البؤس».

نفض الدكتور أوبيسبو رماد سيجارته على الأرض بإصبع أنيق مثنى، وقال معلقا:

– إنها إحدى تلك المآسى الطبية. كان يمكننى أن أسعده غاية السعادة ب«كورس» من ثيامين كلوريد وبعض التستوستيرون. هل لاحظت أبدا أن أفضل أدب رومانسى هو نتيجة للتطبيب السيء؟

«يمكننى أن أرقد مثل طفل مرهق

وأبكى هذه الحياة المهمومة»

جميلة! ولكن لو عرفوا كيف يعالجون السل المزمن الذى أصيب به شيلى، ما

كان كتب هذا أبدا. راقد كطفل مرهق وباكيا على الحياة، كلها بالتحديد الأعراض المميزة للسل المزمن. ومعظم الأولاد الويلتشميرز[٣] الآخرين كانوا إما مرضى أو مدمني خمور، أو مخدرات، كان يمكنني أن أمنع كل واحد منهم من الكتابة كما فعلوا.

نظر الدكتور أوييسبو بطفولية مبتهجا بانتصاره الساخر، وأضاف:

– إذن فلنسمع كيف تغلب الولد العجوز على مشاكله.

قرأ چيريمى بصوت عال:

– «ديسمبر ١٧٩٦ . لقد أصبحت عسْعسَة الضِباع المرافقين لى غير محتملة بالأمس لدرجة أنني قررت أن أنهى كل هذا عندما طلبت منهم تركى لحالى فى المستقبل. اعترض كل من كارولين و جون مدّعيين أن محبتهما لى أكثر من المحبة البنوية. فى النهاية اضطررت أن أقول لهم إن لم يذهبا فى مساء هذا اليوم، سوف آمر خادمى أن يأتى برجال كثيرين ليطردوهما من بيتى. هذا الصباح، من نافذتى، رأيتهما يرحلان».

كان المدخل التالى بتاريخ ١١ يناير ١٧٩٧ :

– «أثار عيد ميلادى هذا العام أفكاراً أكثر وجوماً من ذى قبل. إننى مرهق جدا ولن أسجلها. بما أن اليوم جميل ودافئ بالنسبة للفصل الحالى، جعلتهم يحملوننى على كرسى وذهبوا بى إلى بركة الأسماك. دق الجرس وجاء الشبوط مسرعا ليأكل. إن مجرد رؤية هذه المخلوقات الشرسة تكاد تكون السعادة الوحيدة المتبقية لى. إن غباء هذه الوحوش واضح، وخبثها يعتمد على شهيتها، ومن ثم فهو خبث متقطع

٣– ويلتشميرز: كلمة ألمانية أطلقت على الشعراء المصابين بالاكتئاب نتيجة للمقارنة بين الحياة التى يحيونها من ناحية، والحياة المثالية من ناحية أخرى.

فقط. الإنسان قاسٍ بشكل منهجي ودائم، بينما حماقته مبررة باسم الدين والسياسة، وجهله مغطى تحت ثياب الفلاسفة المتخطرسين».

وبينما كنت أنظر إلى الأسماك تتدافع وتتزاحم من أجل طعامها، مثل حشد من الآلهة تبحث عن ترقية ما، عادت ذاكرتي إلى السؤال المحير الذي ما برحت أفكر فيه في الماضي. لماذا يموت الإنسان بعد عشرين سنة ثلاث مرات زائد عشرة، بينما يمكن لسمكة أن تبقى شابة قرنين أو ثلاثة؟ لقد تجادلت مع نفسي حول عدد من الإجابات المحتملة. لقد مر عليّ وقت مثلا اعتقدت فيه أن طول حياة الشبوط والكراكي ربما يكون بسبب تفوق عنصر بيئتهما المائية على هوائنا. ولكن حياة بعض المخلوقات المائية قصيرة، بينما يزيد طول حياة بعض العصافيرعن الإنسان.

ومرة أخرى سألت نفسي لو أن حياة الأسماك الطويلة سببها الطريقة الخاصة في الحمل والولادة. ولكن مرة ثانية قابلتني اعتراضات. إن ذكور الببغاوات والغربان لا تقذف المني خارجا عند الجماع ولكنها تقوم بالجماع الكامل، وأنثى الأفيال لا تبيض ولكنها تلد، لو صدقنا المسيو دي بافون، في مدة ليست أقل من أربعة وعشرين شهرا. ولكن الببغاوات والغربان والأفيال مخلوقات تعيش طويلا، ومن ثمة يمكن الاستنتاج أن قصر حياة البشر له مسببات أخرى غير الطريقة التي يلد بها الإنسان وتتوالد بها الإناث.

الافتراض الوحيد الذي لم أجد له اعتراضات هو هذا: إن طعام سمكة مثل الشبوط والكراكي يحتوي على بعض المواد التي تحفظ الجسد من التلف، والذي يصيب العدد الأكبر من المخلوقات حتى وهم أحياء. وبالتالي فإن هذه المواد التي تمنع التعفن موجودة داخل جسد الأسماك، وبخاصة، كما هو افتراض منطقي، أنها في معدة وكبد وأمعاء هذه الأسماك، وكذلك في باقي أعضاء الجسم الاستيعابية

والهضمية. أما في الحيوانات التي تعيش أزمنة قصيرة، فإن المواد التي تمنع التليف يُفترض أنها ناقصة. والسؤال الآن هو في إمكانية إدخال هذه المواد المأخوذة من الأسماك داخل الجسم البشري. إن التاريخ لا يسجل أية فترات إطالة للحياة بين آكلي الأسماك، ولم ألحظ أبدا أن ساكني الموانئ البحرية والأماكن الأخرى التي يوجد بها وفرة سمكية، تعيش أكثر بشكل خاص. ولكن ليس من الضروري استنتاج أن المادة المانعة للتليف يستحيل نقلها من الأسماك إلى الإنسان، لأن الإنسان يطبخ طعامه قبل أن يأكله، ونحن نعلم من آلاف الحالات السابقة أن استخدام الحرارة يغير تغييرا جذريا كثيراً من المواد، بالإضافة إلى أن الإنسان يرمي بالتحديد تلك الأعضاء في الأسماك التي يعتقد أنها غير صالحة للأكل، والتي من المنطقي افتراض أنها تحتوي على المواد التي تمنع التليف».

لم يستطع الدكتور أوبيسبو التحكم في نفسه أكثر من ذلك وصاح:

– – يا للمسيح! لا تقل إن الصقر العجوز سوف يأكل أمعاء السمك نيئا!

خلف النظارة نزلت عينا چيريمي اللامعة إلى أسفل الصفحة وارتفعت إلى أعلى الصفحة التالية، وصاح بفرحة:

– هذا تماما ما فعله. استمع إلى هذا: «لقد تسببت أول ثلاث محاولات في قيء لا إرادي. أما الرابعة فقد ابتدعت وسيلة لابتلاع ما وضعته في فمي، ولكن بعد دقيقة أو اثنتين انقطع انتصاري إذ تقيأت تقيؤا شديداً وتمكنت فقط بعد المرة التاسعة أو العاشرة أن أبتلع وأُبقي على بعض ملء الملاعق من اللحم المفروم المثير للغثيان».

قال الدكتور أوبيسبو:

– ولنتحدث عن الجرأة! أفضّل أن أكون في غارة جوية على أن أفعل هذا.

أما چيريمى فلم يرفع عينه عن الكتاب، وقال:

– «لقد مر شهر الآن منذ أن بدأت أجرب حقيقة افتراضى، وإننى الآن أقوم بهضم ما لا يقل عن ستة أونسات من الأمعاء النيئة المهروسة من الشبوط الطازج والمفتوح تواً».

قال الدكتور أوبيسبو وهو يهز رأسه:

– والسمك به مجموعة متنوعة من الديدان الطفيلية أكثر من أى حيوان آخر. إن مجرد سماعى لهذا يجعل الدم يتجمد فى عروقى.

قال چيريمى الذى استمر يقرأ:

– لا داعى للقلق. إن سيادته لم يفعل شيئا سوى أنه تحسن شيئا فشيئا. ها هنا: «اكتساب فريد للقوة والنشاط فى شهر مارس، هذا بدون ذكر إحياء للشهية وتحسن فى الذاكرة وقوة الاستنتاج المنطقية».

أضاف بتقدير:

– إننى أحب «الاستنتاج المنطقى» هذا. إنها كلمات جميلة فعلا؟ ألا تعتقد؟ كلمة مثل تشيبنديل[٤].

استمر يقرأ لنفسه، ثم بعد فترة صمت قصيرة أعلن بانتصار:

– ها هو فى أبريل يركب ثانية لمدة ساعة كل مساء على حصان الخليج المخصى. وقد رفع جرعة ما يسميه الطعام المفروم المصنوع من الأحشاء والروث إلى عشرة أونسات فى اليوم الواحد.

قفز الدكتور أوبيسبو من كرسيه وبدأ يمشى فى الغرفة ذهابا وإيابا بانفعال وصاح:

٤– تشيبنديل: نسبة إلى توماس تشيبنديل (١٧٧٩) والذى اشتهر بمفروشاته وزخارفه وأناقته الإنجليزية.

– اللعنة على كل هذا. إنها أكثر من نكتة. هذا جاد جدا. أحشاء السمك النيئة، الفطريات الأمعائية، منع التسمم، تجديد عنفوان الشباب! تجديد عنفوان الشباب!

قال چيريمى:

– لقد كان الإيرل أكثر حرصا منك. استمع لهذا: «سواء كان سبب شفائى هو الشبوط أو يرجع ذلك إلى عودة فصل الربيع، أو إلى دواء الحياة الطبيعى، فإننى لا أستطيع أن أجزم بعد».

هز الدكتور أوبيسبو رأسه موافقا وقال:

– هذه هى الروح الصحيحة.

استمر چيريمى يقرأ:

– «الوقت سوف يرينا ذلك، هذا بالطبع إذا استطعت أن أجبره على أن يرينا، لأن الذى أنوى أن أفعله هو الاستمرار فى نظامى التغذية والتمرينات الحاليين. لأننى أعتقد أن افتراضى سوف يتأكد إذا استمر ذلك زمنا أطول، بل أيضا إننى أشعر بنسبة كبيرة من النشاط لم أستمتع بها منذ زوال الشباب».

صاح الدكتور أوبيسبو:

– عظيم جدا له هذا! كم كنت أتمنى لو رأى العم چو الأمور بشكل علمى.

ثم تذكر فجأة أقراص النمبوتال وإيمان مستر ستويت الطفولى فى قدراته الطبية فأضاف:

– أو ربما لا أتمنى ذلك. ربما فيها بعض المضايقات.

ضحك فى نفسه على نكتته الخاصة ثم أضاف:

– إذن أكمل حالتنا هذه.

قال چيريمى:

– استطاع فى سبتمبر أن يركب حصانه لمدة ثلاث ساعات مرة واحدة دون كلل، وهو الآن يجدد معرفته بالأدب اليونانى، وألاحظ أيضا أنه ليس معجبا بأفلاطون، وبعد ذلك لا يوجد مدخل حتى عام ١٧٩٩.

قال الدكتور أوبيسبو فى سخط:

– ماذا؟ لا مدخل حتى ١٧٩٩! العجوز ابن الزنا! يذهب هكذا وحالته قد بدأت بالفعل تصبح مثيرة، ويتركنا فى الظلام.

نظر چيريمى من نونته مبتسما وقال:

– ليس تماما. سوف أقرأ لك أولا المدخل الأول بعد أكثر من عامين من الصمت، ويمكنك حينئذ أن تستنتج بنفسك حالة فطريات أمعائه.

تنحنح وبدأ يقرأ بطريقة المسز جاسكيل[٥] وقال:

– «مايو ١٧٩٩ . الإناث الأكثر استهتارا، خاصة بين النساء من سراة القوم، هن اللواتى حرمتهن الطبيعة غير الطيبة من المنطق العادى والذريعة لإقامة علاقات غرامية. لقد قُطعن عن الاستمتاع بالمتعة من خلال برود جنسى بنيوى، وهن هكذا فى تمرد أبدى ضد قدرهن. إن القوة التى تدفعهن ليضاعفن غرامياتهن ليست الشهوانية ولكن الأمل. ليس الرغبة فى إعادة تجربة البهجة المألوفة، ولكن التطلع نحو الغبطة العادية والمتفاخرة التى هن أنفسهن لم يعرفنها أبدا لسوء حظهن. بالنسبة لشهوانية المرأة المتساهلة أخلاقيا، فهى ليست أقل بغضا، إلا أن ذلك لأسباب أخرى، تبدو كذلك بالنسبة للأخلاقى الحاد. ليحفظنى الله فى المستقبل من أية انتصارات مثل تلك التى حصلت عليها هذا الربيع فى باث».

أنزل چيريمى الكتاب وقال:

– هل لازلت تشعر أنك تُركت فى الظلام؟

٥– مسز جاسكيل: نسبة إلى الكاتبة الروائية إليزابيث جاسكيل (١٨١٠–١٨٦٥) .

الفصل السابع

دارت آلة التنعيم الكهربائية بصوت عال يصم الآذان، تلف ورق السنفرة على السطح الخشن للخشب. لم يسمع مستر برويتر صوت پيت عندما دخل واقترب منه، لأنه كان منحنيا على كرسى النجارة. وقف الشاب فى صمت نصف دقيقة طويلة ينظر إليه وهو يحرك آلة التنعيم للأمام وللخلف فوق اللوح الذى أمامه. لاحظ پيت النشارة على حاجبيه كثيفى الشعر ورأى بقعة سوداء على الجبين الذى حرقته الشمس حيث لمستها أصابعه المملوءة بالزيت.

شعر پيت بتأنيب الضمير المفاجىء. لم يكن من اللائق أن يتجسس هكذا على رجل لا يعلم بوجوده. كان شيئا وضيعا، إذ ربما يرى ما لا يريده أن يراه.

نادى على اسم مستر برويتر. رفع الرجل رأسه وابتسم له، وأوقف محرك الآلة الصغيرة، وقال:

– پيت! أنت الرجل الذى أريده. هذا إن كنت ستقوم ببعض الأعمال من أجلى. هل تفعل ذلك؟

ثم أضاف مقاطعا رد پيت بالإيجاب:

– ولكنى نسيت موضوع قلبك هذا، وهذه الحمى الروماتيزمية. هل تعتقد أنك تستطيع أن تفعل هذا؟

علت الحمرة وجه پيت قليلا لأنه لا يزال يشعر بالخجل حيال عجزه وقال:

– هل ستجعلنى أجرى ربع ميل، أم ماذا؟

تجاهل مستر برويتر المداعبة وقال بإصرار وهو ينظر بمحبة جادة إلى وجه الشاب:

– أمتأكد أنه لا شىء فى هذا؟

أشار بيت بيده ناحية كرسى النجارة وقال:

– متأكد طبعا لو أن هذه هى نوعية العمل.

– حقا؟

– تأثر بيت وشعر بالدفء لعنايته الشديدة وقال مؤكداً:

– حقا.

قال مستر برويتر وقد اطمأن بعض الشيء:

– حسن إذن. لقد عينتك. أو بالأحرى ليس تعييناً لأنك ستكون محظوظا لو حصلت حتى على كوكا-كولا مقابل عملك. لنقل جندتك.

أخذ يشرح كيف أن كل الناس الآخرين فى المكان كانوا مشغولين، وقد تركوه يشغّل كل مصنع الأثاث بمفرده. والمشكلة أنه يعمل تحت ضغط كبير، إذ هناك ثلاث من العائلات المهاجرة فى الكبائن تعيش بلا أية كراسى أو موائد. ثم أضاف مشيرا إلى ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة ومعلقة بمسمار على الحائط، أن تلك هى المقاسات، وها هو الخشب، والآن سوف يشرح له ما يريده أن يفعل أولا.

رفع لوحاً خشبياً ووضعه على الكرسى.

استمر الاثنان فى العمل فترة دون محاولة للكلام بسبب الضوضاء الصادرة عن الأدوات الكهربائية. ثم جاءت فترة أقل ضوضاء فتحدث عن كتب البروفيسيرة بيرل[1] الجديدة عن السكان. أربعون ساكنا فى كل ميل مربع على الرقعة الأرضية كلها. ستون فداناً لكل رأس. اخصم ربعها بسبب الأرض غير المنتجة ويتبقى لك ثمانية. وبوسائل الزراعة المستخدمة حاليا يمكن للفرد أن يعيش على إنتاج فدانين ونصف الفدان. وبخمسة ونصف أخرى متبقية فارغة لكل إنسان، فلماذا يجوع ثلثا

---

١ – بيرل: نسبة إلى الكاتبة الأمريكية بيرل باك (١٨٩٢–١٩٧٣) وقد حصلت على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٣٨

العالم؟

قال مستر برويتر:

– لقد اعتقدت أنك وجدت الإجابة فى إسبانيا. إنهم جائعون لأن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده.

– وما دخل هذا بالموضوع؟

– كل شيء. الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده لأنه يريد أن يشعر أن لحياته معنى. لهذا يتبنى الناس المثالية. . ولكن من خلال التجربة والتأمل يمكنك معرفة أن المثالية تؤدى إلى الحرب والاضطهاد والجنون الجماعى. الإنسان لا يمكن أن يحيا بالخبز وحده ولكن لو اختار أن يغذّى عقله بالطعام الروحى الخاطىء، لن يحصل حتى على الخبز. وهو لن يحصل على الخبز لأنه سوف يكون مشغولا بالقتل أو الاستعداد لقتل جيرانه باسم الله أو الوطن أو العدل الاجتماعى؛ ولن يستطيع حرث حقله. لا يوجد ما هو أبسط وأوضح من هذا، ولكن فى ذات الوقت لا يوجد شيء مؤكد أكثر من أن معظم الناس ، مع الأسف، سوف يستمرون فى اختيار الطعام الروحى الخاطئ ومن ثم وبشكل غير مباشر سيختارون دمارهم أيضا.

أدار المحرك مرة أخرى وتصاعدت الضوضاء العالية. سادت فترة صمت أخرى. فى الراحة التالية قال مستر برويتر:

– فى جو مثل هذا، وبالمياه التى ستكون متوفرة عندما يبدأ تشغيل القناة الاصطناعية لنهر الكولورادو فى العام القادم، يمكنك أن تفعل ما يحلو لك.

نزع القابس الكهربائى وذهب ليبحث عن المخرمة، ثم قال:

– خذ مدينة بها ألف ساكن، وأعطها ثلاثة أو أربعة آلاف فدان من الأراضى،

ونظاماً إنتاجياً جيداً، جمعيات استهلاكية تعاونية: سوف تتمكن من إطعام ذاتها تماما. يمكنها أن تنتج ثلثي احتياجاتها الأخرى على المكان ذاته، بل ويمكنها أن تنتج فائضا تتبادله مقابل أشياء لا تستطيع إنتاجه بنفسها. نستطيع أن نغطى الولاية كلها بمثل هذه المدن.

ابتسم بحزن وأضاف:

– هذا بالطبع لو استطعنا الحصول على موافقات من البنوك ومنح الناس الذكاء الكافى والفضيلة الكافية ليديروا ديمقراطية حقيقية.

قال بيت:

– بالتأكيد لن توافق البنوك.

أجاب مستر بروبتر:

– وفى الغالب لن تجد سوى القلة القليلة الذين يصلحون لذلك. وبالطبع لا توجد كارثة أكثر من بداية تجربة اجتماعية باستخدام أناس لا يصلحون لها. انظرْ إلى كل المحاولات لبداية مجتمعات جديدة فى الدولة، مثلا روبرت أوين[٢] والفورربيون[٣] والباقون، كذا دستة من التجارب الاجتماعية وكلها فشلت. لماذا؟ لأن المسؤولين عنها لم يختاروا الأفراد بدقة، ولم يجروا اختبارات قبول ولا فترة إعداد، لقد قبلوا كل من جاء، وهذا ما يحدث عادة عندما نكون متفائلين بدون وجه حق تجاه البشر.

بدأ يتقب ثانية وأخذ بيت دوره على آلة التنعيم.

٢– روبرت أوين: (١٧٧١–١٨٥٨) مصلح إجتماعى وكاتب إنجليزى اشتهر بفتح مدارس أو ما أسماها مؤسسات لتكوين الشخصية، وكان يعتبر حالما أكثر منه علميا فى نظرته.

٣– الفورربيون: نسبة إلى فرانسوا مارى تشارلز فورييه (١٧٧٢–١٨٣٧) وهو مصلح اجتماعي فرنسى اشتهر بإيمانه أن المجتمع التنافسى شرير، فكتب ثلاثة كتب حول الدين وعلم النفس، وكانت أفكاره كلها تدور حول ضرورة إيجاد مجتمعات صغيرة لا يزيد عدد أفراد كل منها عن ١٨٠٠ لتجمع كل التخصصات ويوضعون فى تجمعات سكنية ذات اكتفاء ذاتى. وقد قام البعض فى كل من أمريكا وفرنسا بتقليد هذا النموذج إلا أنها فشلت كلها.

سأل الشاب:

– هل تظن أنه ينبغى ألا نكون متفائلين؟

ابتسم مستر بروبتر وأجاب:

– يا له من سؤال غريب. ماذا تقول عن رجل وضع شفاطاً بالتفريغ الهوائى فى بئر عمقه خمسون قدما؟ هل تسميه متفائلا؟

– بل أسميه أبله.

قال مستر بروبتر:

– وأنا كذلك. وهذه هى إجابة سؤالك. الإنسان أحمق لو كان متفائلا تجاه وضع أثبتت التجربة من قبل أنه لا مبرر للتفاؤل تجاهه. عندما أخذ روبرت أوين حشداً من المعوقين وغير الأكفاء والنصابين المعتادين على ذلك، ثم توقع أن ينظّموا أنفسهم فى مجتمع جديد وأفضل، كان بالتأكيد غاية فى الحماقة.

سادت فترة صمت قصيرة بينما پيت يقوم بنشر الأخشاب، ثم قال عندما فرغ منها:

– أعتقد أننى كنت متفائلا جدا.

هز مستر بروبتر رأسه بالإيجاب وقال:

– متفائلا جدا فى اتجاهات معينة، ولكن فى نفس الوقت متشائما فى أخرى.

سأل پيت:

– مثلا؟

قال مستر بروبتر:

– بداية أنت متفائل فيما يخص الإصلاح الاجتماعى، متصورا إمكانية تصنيع الخير بسبل الإنتاج بالجملة. ولكن مع الأسف الخير ليس سلعة بهذه الطريقة. الخير

مسألة تتعلق بالحرفية الأخلاقية، ولا يمكن إنتاجه إلا من خلال الأفراد. وبالطبع الأفراد لا يعرفون ماهية الخير، أو بالأحرى لا يريدون العمل من أجله، ومن ثم لن يظهر مهما كانت الآلية المجتمعية كاملة.

ثم قال بنبرة أخرى وهو ينفخ النشارة خارج الثقب الذى كان يثقبه:

– ها قد انتهت. والآن إلى أرجل الكراسى والعوارض الخشبية.

عبر الغرفة وبدأ يضبط المخرطة.

سأله پيت:

– وفى أى شىء تعتقد أننى متشائم؟

أجاب مستر بروبتر دون أن يرفع رأسه:

– حول الطبيعة البشرية.

قال پيت بدهشة:

– توقعت أن تقول إننى متفائل تجاه الطبيعة البشرية.

أجاب مستر بروبتر موافقا:

– بالطبع هذا حقيقى فى بعض النواحى. مثل كل الناس هذه الأيام أنت متفائل بجنون تجاه الناس كما هم. الناس الذين يعيشون تماما على المستوى البشرى. يبدو أنك تتصور أن الناس يمكن أن يظلوا كما هم، وفى نفس الوقت يصيرون سكان عالم أفضل بكثير من العالم الذى نعيش فيه. ولكن العالم الذى نعيش فيه هو نتاج لواقع الإنسان، وإبراز لوضعهم الحالى. لو استمر الإنسان مثلما هو الآن، ومثلما كان فى الماضى، فمن الطبيعى أن العالم الذى يعيش فيه لا يمكن أن يصبح أفضل. لو تصورت ذلك فأنت متفائل جدا تجاه الطبيعة البشرية. ولكن من جهة أخرى أنت متشائم جدا لو تصورت أن الرجال والنساء محكوم عليهم بطبيعتهم هذه أن يسيروا

طوال حياتهم على المستوى البشرى المحض. حمدا لله أن الوضع ليس كذلك. إنه فى متناول أيديهم أن يصعدوا خارجا ويرتفعوا إلى مستوى الأبدية. لا يمكن لأى مجتمع بشرى أن يصبح بشكل واضح أفضل مما هو عليه الآن إلا إذا احتوى على نسبة معقولة ممن يدركون أن البشرية ليست الكلمة الأخيرة، ويحاولون عن وعى تخطيها. لهذا السبب لابد أن نصبح متشائمين جدا تجاه الأشياء التى نرى الناس متفائلين تجاهها – مثل العلوم التطبيقية، والإصلاح الاجتماعى؛ والطبيعة البشرية كما هى فى الرجل والمرأة المتوسطين. وهذا سبب أيضا للتفاؤل الشديد تجاه الأشياء التى تجعلهم متشائمين بحيث لا يدركون حتى إنها موجودة – وأعنى هنا إمكانية تحويل وتخطى الطبيعة البشرية. ليس من خلال التطور والنشوء فى وقت ما فى المستقبل، ولكن فى أى وقت – هنا والآن إن أردت – باستخدام الذكاء والنوايا الحسنة فى اتجاه سليم.

شغل المخرطة مؤقتا ثم أوقفها ثانية لتعديلها وأضاف:

إنه نوع من التشاؤم ونوع من التفاؤل مثل الذى تجده فى كل الديانات العظمى. التشاؤم تجاه العالم بشكل عام، والطبيعة البشرية كما تعبر عن نفسها فى الغالبية العظمى من الرجال والنساء. والتفاؤل تجاه الأشياء التى يمكن أن يصل إليها أى شخص يريد أن يعرف، ويعرف كيف يصل إليها.

دارت المخرطة ثانية، وفى هذه المرة تركها تعمل، ثم قال من خلال ضوضاء الماكينة:

– أنت تعرف تشاؤم العهد الجديد. إنه التشاؤم حول جموع البشرية: الكثيرون يُطلبون والقليلون يُختارون. إنه التشاؤم حول الضعف والجهل، لذلك فالذين ليس معهم سوف يؤخذ منهم حتى القليل الذى معهم. التشاؤم حول الحياة كما تُعاش على

المستوى البشرى العادى، لأن هذه الحياة لابد أن نضيعها حتى نكسب الحياة الأبدية الأخرى. التشاؤم حتى تجاه أعلى أنواع الأخلاق الدنيوية، إذ لا يمكن لأى فرد الوصول لملكوت السموات لو أن برّه الذاتى فشل فى التفوق على الكَتَبة والفريسيين. ولكن مَن هم الكَتَبة والفريسيون؟ إنهم ببساطة أفضل المواطنين، أعمدة المجتمع، الذين يفكرون بشكل مستقيم، بالرغم من كل شيء، أو بالأحرى بسبب هذا أسماهم المسيح جيلا من الثعابين. مسكين مالدج العزيز. كم سيتألم لو ساقه سوء حظه ليرى مخلّصه!

ابتسم مستر بروبتر لنفسه وهو منحنٍ على عمله، ثم أكمل قائلا:

– ولكن هذا هو الجانب المتشائم فى تعاليم الكتاب. وبشكل أكثر نمطية وفلسفية، ستجد نفس الأشياء فى كتب بوذا والهندوس. العالم كما هو، والبشر على المستوى البشرى – ميئوس منهم. هذا هو الحُكم الكونى. الأمل يبدأ فقط عندما يبدأ الناس ملاحظة أن ملكوت السموات، أو أيا كانت التسمية التى تريدونها له، موجودة فى داخلك، ويمكن أن يختبره أى شخص مستعد أن يخوض فى تلك التجربة. هذا هو الجانب المتفائل للمسيحية وللأديان الأخرى.

أوقف مستر بروبتر المخرطة وأخرج رِجل الكرسى الذى كان يديره ووضع آخر فى مكانه.

قال بيت وهو يفكر فى المرحلة الانتقالية بين القس شليتز والضد–فاشية العسكرية:

–إنه ليس من هذا النوع من التفاؤل الذى يعلمونه لك فى الكنائس الليبرالية.

أجاب بروبتر موافقا:

– إنه ليس مثله. لا دخل لما يعلمونه لك فى الكنائس الليبرالية بالمسيحية أو بأى

دين واقعى آخر. إنه هراء بالأساس.

– هراء!

أجاب مستر بروبتر:

– هراء. إنها إنسانية بدايات القرن العشرين مخلوطة مع إنجيلية القرن التاسع عشر. أى مزيج هذا! الإنسانية تؤكد أنه يمكننا الحصول على الخير على المستوى الذى هو غير موجود فيه أصلا، وهى كذلك تنكر حقيقة الأبدية. بينما الإنجيلية تنكر العلاقة بين النتائج والمسببات من خلال تأكيدها على وجود إله شخصى يغفر الخطايا. إنهما مثل جاك سبرات[٤] وزوجته: يلعقان الطبق فيما بينهما وينظفانه من كل منطق أيا ما كان.

ثم أضاف من خلال ضوضاء الآلة:

– لا. إننى مخطىء. ليس كل المنطق، فالإنسانيون لا يتحدثون عن تعدد الأجناس البشرية، والإنجيليون يعبدون إلهًا واحداً. لكنهم تركوا التلميع الأخير للطبق إلى الوطنيين، الوطنيين والطائفيين، مائة من الأصنام المقتصرة على ذواتهم فقط. «توجد آلهة كثيرة والحكام المحليون هم أنبياؤهم». إن الحماقة المستحية فى الكنائس الليبرالية جيدة بالنسبة للأزمنة الهادئة، ولكن لاحظ أنه يصحبها دائما جنون القومية العنيف لاستخدامها فى أوقات الكوارث. وهذه هى الفلسفات التى يتربى عليها الشباب. الفلسفات التى يتوقع منك أجدادك المتفائلون أن تغير بها العالم.

صمت مستر بروبتر برهة ثم أضاف:

– «الله لا يُشمخ عليه. فإن الذى يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاء. الله لا

٤– جاك سبرات: شخصية فى أناشيد الأطفال الإنجليزية والذى كان يأكل كثيرا هو وزوجته ما عدا الدهون.

يُشمخ عليه. ولكن الناس يرفضون تصديق ذلك. إنهم يستمرون فى تفكيرهم، إنهم يستطيعون أن يستهزئوا من طبيعة الأشياء وينجحوا فى ذلك. لقد فكرت أحيانا أن أكتب رسالة بحثية مثل كتب وصفات الطبيخ، وأسميه «مائة طريق للشموخ على الله»، وسوف آخذ مائة مثال من التاريخ والحياة المعاصرة وأوضح ماذا يحدث عندما يبدأ الناس فى عمل أشياء دون النظر إلى الواقع، وسوف أقسّم الكتاب إلى أقسام مثل «الشموخ على الله فى السياسة»، و«الشموخ على الله فى التعليم»، و«الشموخ على الله فى الفلسفة» و«الشموخ على الله فى الاقتصاد». سوف يكون كتابا تعليميا، ومثيرا للاكتئاب أيضا.

الفصل الثامن

أعلن الكتاب بطريقة حقيقة أرستقراطية وعابرة أن الإيرل الخامس أنجب ثلاثة أبناء غير شرعيين فى سن الواحد والثمانين. أعلنها بدون تفاخر أو تهنئة للذات. مجرد تقرير مختصر للواقع، بين مدخل يتحدث عن حوار مع دوق ويلينجتون[1] ونبذة عن موسيقى موزارت.

ولكن بعد مرور مائة وعشرين عاما على هذه الواقعة، وبما أن الدكتور أوبيسبو لم يكن جنتلمان إنجليزيا، فقد تهلل بصوت عالٍ وكأنه هو الذى قام بهذا الإنجاز. صاح فى حماس بروليتارى:

- ثلاث منهم. ثلاث. ما رأيك فى هذا؟

ولأن چيريمى قد تربى على نفس التقاليد التى تربى عليها الإيرل الخامس، فقد علق بأنه لا بأس به واستمر فى القراءة.

فى عام ١٨٢٠ مرض الإيرل ثانية ولكن ليس بشدة. ثم أن كورساً مكثف من أمعاء الشبوط النيئة لمدة ثلاثة أشهر أعاد له صحته العادية. الصحة التى قال عنها فى أجندته إنها تماثل صحة رجل فى عنفوان شبابه.

بعد مرور عام، ولأول مرة منذ ربع قرن، قام بزيارة ابنة وابن أخيه وأخته، وكان سعيدا عندما رأى أن كارولين قد أصبحت عجوزاً شمطاء وأن جون أصبح أصلع ومصابا بالربو، بينما ابنتهم الكبرى قد أصبحت بدينة جدا ولا أحد يريد الزواج منها.

عندما وصلت أنباء عن موت بونابارت، كتب بأسلوب فلسفى يقول إن الرجل فى الغالب أحمق كبير إذ لم يستطع إشباع رغبته فى المجد والقوة والإثارة إلا من

١- دوق ويلينجتون: (١٧٦٩-١٨٥٢) كان سياسيا وضابطا إنجليزيا، ويعتبر من أكبر القادة الحربيين فى إنجلترا إذ كسب الحرب ضد نابليون فى ووترلو عام ١٨١٥.

خلال مصاعب الحرب ورتابة الحكومة المدنية. وقد اختتم كلامه قائلا: «إن لغة الحوار المهذبة تبين بوضوح كافٍ أن بطولات مثل تلك التى قام بها الإسكندر وبونابارت لها الشبيه السلمى المحلى. إننا نتحدث عن «المغامرات» العاطفية، و«فتوحات» النساء اللاتى نرغب فيهن، و«امتلاك» شخصهن. لا شك أن مثل هذه الاستعارات بالنسبة للرجل العاقل فيها بلاغة حقيقية. بالنظر إلى دلالتها، إنه يرى أن الحرب والبحث عن الإمبراطورية شيء خاطيء، وهو خاطئ لأنه أحمق، وهو أحمق لأنه غير ضرورى، وهو غير ضرورى لأن الرضا المستمد من النصر والسيطرة يمكن أن يحصل عليهما بدرجة أقل بكثير من المشاكل والملل والألم، وذلك خلف الستائر الحريرية فى حجرة دوقة ما، أو فى المرتبة المصنوعة من القش لفتاة تبيع الألبان. لو حدث فى أى وقت من الأوقات أن صارت مثل هذه السعادة بلا نكهة، وإذا وجد نفسه مثل ذلك البطل القديم يبكى رغبةً فى قهر عوالم جديدة، إذن فمن خلال فأرة تجارب بديلة، أو فى أحوال كثيرة كما اكتشفت، بدون مقابل، وعن طريق استدعاء الرغبات الدفينة للإهانة وحتى الألم، يمكن للرجل أن يستمتع باستخدام الجلد، والقيود والأقفاص وأية رموز أخرى للقوة يمكن أن يتصورها خيال القاهر، أو التى يمكن أن يتحملها صبر المقهورة المأجورة، أو أن يتقبلها ذوقها. إننى أذكر مقولة للدكتور جونسون[٢] معناها أنه نادرا ما يتصرف الرجل ببراءة إلاّ عندما يجمع المال. ومطارحة الغرام أكثر براءة من جمع المال. لو كان لدى بونابارت الحكمة ليفرغ رغبته للسيطرة فى الصالونات وغرف النوم فى بلده كورسيكا، لمات بحرية وسط شعبه، ولكان الآلاف من الرجال الذين ماتوا، أو أصابهم عجز، أو أصيبوا بالعمى، أحياء اليوم، يستمتعون بكل ملكاتهم. حقيقة بلا شك أنهم كانوا

٢ - د.جونسون: نسبة إلى صموئيل جونسون (١٧٠٩-١٧٨٤) كاتب وشاعر إنجليزى اشتهر بعمل أول قاموس فى اللغة الإنجليزية عام ١٧٤٧.

سيستخدمون حياتهم بنفس الطريقة الحمقاء والخبيثة التى يستخدمها اليوم هؤلاء الذين لم يقتلهم بونابارت. ولكن لو أن كائنا متفوقاً مدح الإمبراطور السابق لإزالته عدداً كبيراً من الطفيليات من على وجه الأرض، فالطفيليات ذاتها لها رأى آخر. وبما أننى رجل عقل ولست كائنا متفوقا، فإننى أساند الطفيليات فى رأيها».

قال الدكتور أوبيسبو وهو يفكر بتأمل:

- هل لاحظت أبدا كيف أن حتى أسوأ الناس يحاولون أن يظهروا كم هم خيّرون؟ حتى هذا الصقر العجوز - ربما تعتقد أنه لا يهتم بكيفية نظر الناس إليه مادام يحصل على سعادته. ولكن لا. لقد قام بكتابة هذه الرسالة المملة الطويلة ليثبت أنه أفضل من نابليون، وهو بلا شك كذلك بأية مقاييس عاقلة. ولكن لم أتوقع منه أن يقوم بكل هذا المجهود ليقول ذلك.

قال چيريمى:

- بالطبع لن يجد أحدا آخر ليقول ذلك عنه.

أجاب الدكتور أوبيسبو:

- فكان لابد أن يفعل ذلك بنفسه. وهذا يثبت ما أقول. إياجو[٣] غير موجود. الناس ستفعل كل ما فعله إياجو ولكنهم أبدا لن يعترفوا أنهم أوغاد. سوف ينشئون عالما جميلا شفهيا حيث تبدو أعمالهم السيئة خيّرة ومنطقية. كنت أتمنى أن يكون الرجل العجوز استثناء، ولكنه ليس كذلك. إنه مخيب للآمال.

ضحك چيريمى بنوع من الازدراء المتغطرس وقال:

- كنت تود لو قام بنوع من التصرفات الدون جوانية. البطل الهادئ الذى يثنى سيفه. إنك أكثر رومانسية مما ظننت.

٣- إياجو: شخصية إياجو فى مسرحية شكسبير عطيل والذى أوقع ما بين ديدمونة وعطيل.

عاد إلى الكتاب وأعلن بعد برهة أنه فى عام ١٨٢٣ أمضى الإيرل الخامس بعض الوقت مع كوليريدج[٤] ووجد الحوار عميقا، ولكن «موحلاً بشكل فريد» - وأضاف: «إنها سمات مرغوبة فى برك الأسماك ولكنها تستحق الازدراء فى الخطاب العقلانى، والذى ينبغى أن يكون شفافا وضحلاً دائما كى يكفى الرجل الخوض فيه دون تعريض نفسه لخطر الغرق فى هوة من الكلام الفارغ».

أضاء وجه چيريمى بسعادة غامرة. لم يكن كوليريدج مفضلا لديه. قال:

- عندما أفكر فى كل العفن الذى لا يزال يقوله البعض حول الكتابات الفارغة لمدمن المخدرات هذا...

قاطعه الدكتور أوبيسبو قائلا:

- فلنسمع أكثر عن الإيرل.

عاد چيريمى إلى النوتة.

فى عام ١٨٢٤ كان الجنتلمان العجوز يرثى تمرير الميثاق الذى أدمج تجارة العبيد إلى القرصنة، ومن ثم جعل هذه التجارة جريمة تستحق الإعدام. من الآن فصاعدا سيصبح أفقر من ذى قبل بحوالى ثمانية أو تسعة آلاف فى السنة. ولكنه عزى نفسه بالتفكير فى هوراس[٥] الذى يعيش فى سكينة فلسفية على مزرعته فى سابين.

فى عام ١٨٢٦ استمد سعادة بالغة من إعادة قراءة ثيوكريتس[٦] بتأنٍ، وذلك فى صحبة شابة صغيرة اسمها كيت أصبحت مديرة لمنزله. فى ذات العام، بالرغم من انقطاع دخله إلا أنه لم يستطع مقاومة الرغبة فى شراء تمثال رائع لموريللو[٧] اسمه «صعود العذراء».

٤- كولريدج: نسبة إلى صموئيل تايلور كولريدج (١٧٧٢-١٨٣٤) شاعر إنجليزى.

٥- هوراس: (٦٥ -٨ ق.م.) شاعر رومانى تعلم فى أثينا وعاد إلى روما وصادق ميكيدوس الذى منحه مزرعة فى سابين.

٦- ثيوكريتس: شاعر إغريقى يقال إنه عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد.

٧- موريللو: نسبة إلى بارثلوميو استيبان (١٦١٧-١٦٦٢) رسام إسبانى اشتهر برسوماته ذات الموضوعات الدينية وخاصة رسوماته للعذراء مريم.

عام ١٨٢٧ كان عام النكسات المادية، وهى نكسات مرتبطة فى الغالب بموت خادمة صغيرة عينتها مديرة المنزل وصيفة شخصية لها، وذلك من جراء عملية إجهاض. كان المدخل فى النوتة قصيرا وغامضا، ولكن يبدو أنه يعنى ضمنيا أنهم قد قاموا بدفع مبلغ هائل من المال لأهل الفتاة.

بعد فترة تدهورت صحته ثانية، فكتب شرحا مطولا ودقيقا عن مراحل التليف المتتالية فى الجسم البشرى، مشيرا بشكل خاص إلى الأعين والشفاه. «كورس» قصير من الشبوط المفروم أعاد إليه ذهناً أكثر بهجة. وفى عام ١٨٢٨ قام برحلة إلى أثينا والقسطنطينية ومصر.

فى عام ١٨٣١ كان يتفاوض على شراء منزل بجوار فارنهام.

قال چيريمى مشيرا إلى السبع وعشرين كرتونة:

- لابد أنه من سيلفورد حيث جاءت هذه الأشياء من البيت هناك، الذى تعيش فيه السيدتان العجوزان.

استمر فى القراءة:

- «البيت قديم، ومظلم وغير مناسب، ولكنه كائن فوق أرض شاسعة بدرجة كافية، وكان فوق نتوء أعلى النهر. ارتفعت الضفة الجنوبية للنهر عند هذا النتوء بشكل يكاد يكون عمودياً على منحدر صخرى أصفر شاهق، يعلو إلى ارتفاع ما يقرب من مائة وعشرين قدما. كانت الصخور لينة وسهل العمل فيها، مما يفسر وجود سرداب كبير أسفل المنزل، تم حفره فيما يبدو منذ ما يقرب من قرن مضى، عندما كانت السراديب تستخدم كمخازن للكحوليات والبضاعة الأخرى المهربة فى طريقها من شواطئ هامبشير وساسكس إلى العاصمة. ومن أجل أن يزيل خوف زوجته التى خشيت من فقدان طفل من أطفالها فى تلك الالتواءات تحت الأرض،

فقد قام المزارع الذى يمتلك البيت الآن بوضع حوائط تسد الجزء الأكبر من هذه السراديب، ولكن حتى تلك الباقية للآن تبدو مثل سراديب الموتى حقا. فى مثل هذه السراديب يمكن الاطمئنان إلى الخصوصية المطلوبة لإرضاء حتى أغرب الأذواق».

نظر چيريمى من النوتة وقال:

– يبدو هذا نذيرا مشؤوما. ألا تعتقد ذلك؟

هز الدكتور أوبيسبو أكتافه وقال مؤكدا:

– لا يمكن لأى فرد أن يحصل على خصوصية كافية. عندما أفكر فى كل العناء الذى تكبدته بحثا عن سراديب جميلة مثل تلك التى تقرأ عنها...

ترك الجملة دون إنهائها، ومرت سحابة مظلمة على وجهه. كان يفكر أنه لن يستطيع الاستمرار فى إعطاء چو ستويت أقراص النمبوتال هذه إلى الأبد. اللعنة عليه!

قال چيريمى وهو يقرأ إلى نفسه:

– على أية حال فقد قام بشراء البيت القديم وقام بإصلاحه وإضافة أشياء عليه على الطراز القوطى، ووضع شقة كاملة فوق السراديب، على عمق خمسة وأربعين قدما تحت الأرض، وفى نهاية ممر طويل. ولفرط سعادته وجد بئرا أرضيا، ومصعد مناجم ينزل إلى عمق أكبر ويمكن استخدامه كدورة للمياه. وكان المكان جافا جدا وبه ما يكفى من الهواء و...

سأله الدكتور أوبيسبو وقد نفد صبره:

– ولكن ماذا يفعل فى الأسفل هناك؟

أجاب چيريمى:

– وما أدرانى؟

نزل بعينيه إلى أسفل الصفحة واستمر قائلا:

– في الوقت الحالي يقوم الولد العجوز بإلقاء خطبة في البرلمان لصالح ميثاق الإصلاح.

قال الدكتور أوبيسبو في دهشة:

– لصالحه؟

قرأ چيريمى بصوت عال:

– «في أيام الثورة الفرنسية الأولى، أثرت حنق كل الموالين لكل الأحزاب السياسية بقولي لقد سقط الباستيل. ليحيا الباستيل. وقد مر ثلاثة وأربعون عاما على ذلك العمل الفريد الذي بلا جدوى، وقد صحّت تنبؤاتي من خلال قيام طغاة صغار جُدد وإقامة القدامى منهم. لذلك فإنني أقول بثقة تامة مات الامتياز. يحيا الامتياز. إن جموع البشرية لا تستطيع التحرر دون القدرة على توجيه مقدراتها. لابد للحكومات أن تُحكم بطاغية أو بحكم الفرد الواحد. إن رأيي في النبلاء والأشراف وملاك الأراضي متدنٍ جدا، ولكن لابد أن رأيهم في ذواتهم متدنٍ أكثر مني. إنهم يؤمنون أن الانتخاب سوف يسرق منهم سلطاتهم وامتيازاتهم، بينما أنا متأكد أنهم من خلال استخدام بعض الفطنة والمكر مثل تلك التي وهبتهم إياها الطبيعة البخيلة، يمكنهم ببساطة الاستمرار فيما هم عليه من ترفُّع. وبما أن الحال كذلك، فليستمتع الرعاع بالانتخابات. إن الانتخابات ما هي إلا عرض بانش وجودي[٨] بدون مقابل، يعطيه الحكام لكي يلهوا المحكومين.

قال الدكتور أوبيسبو:

٨– بانش وجودي: شخصيتان لرجل وزوجته من الأراجوزات الإنجليزية الشهيرة بدأت في الغالب نحو القرن السابع عشر.

– كم كان سيستمتع بالشيوعية المعاصرة أو بالانتخابات الفاشية. بالمناسبة، كم كان عمره حينما ألقى تلك الخطبة؟

توقف چيريمى لحظة ليقوم بعملية حسابية وقال:

– دعنى أرى. أربع وتسعون.

قال الدكتور أوبيسبو:

– أربع وتسعون! إن لم تكن أمعاء الأسماك فلا أدرى ماذا تكون!

عاد چيريمى إلى نوتته وقال:

– فى بداية عام ١٨٣٣ رأى ابنة وابن أخيه مرة أخرى فى مناسبة عيد ميلاد كارولين الخامس والستين. كانت كارولين ترتدى باروكة حمراء، وابنتها الكبرى ماتت بالسرطان، والصغرى غير سعيدة مع زوجها وقد أدمنت التقوى، والابن أصبح كولونيلا فى الجيش، وله مديونيات من المقامرة يتوقع أن يدفعها له أهله. بشكل عام، علّق الإيرل قائلا: «أمسية ممتعة جدا».

قال الدكتور أوبيسبو مشتكيا:

– لا شىء عن تلك السراديب؟

– لا، ولكن مديرة منزله مرضت وبدأ يعطيها غذاء الشبوط.

عاد الاهتما م مجددا للدكتور أوبيسبو وقال:

– وماذا حدث؟

هز چيريمى رأسه وقال:

– المدخل التالى عن ميلتون.

صاح الدكتور أوبيسبو بقرف وقال:

– ميلتون؟

– يقول إن كتابات ميلتون تثبت أن الدين يعتمد فى وجوده على استخدام اللغة المصورة غير المعتدلة.

قال الدكتور أوبيسبو فى ضيق:

– قد يكون هذا صحيحا. ولكنى أريد أن أعرف ماذا حدث لمديرة المنزل تلك.

قال چيريمى:

– واضح أنها حية ترزق، لأنه توجد هنا إشارة يشتكى فيها من ملل الإخلاص الأنثوى الزائد.

قال الدكتور أوبيسبو:

– الملل! هذه كلمة مخففة. لقد عرفت نساء كن مثل الشريط الورقى اللاصق لقتل الذباب.

–يبدو أنه لا يعترض على بعض فترات عدم الإخلاص. توجد إشارة إلى فتاة صغيرة مُولّدة من أب أبيض وأم زنجية.

توقف ثم ابتسم وقال:

– يا لها من كائن شهى: «إنها تمزج بين طفولية المخلّطين الشرسة والهمجية، وبين خبث وشراهة الأوروبيين». وبعد ذلك يذهب الجنتلمان العجوز إلى العشاء فى قصر فرنهام مع مطران وينشستر ويجد خمره ضعيفا، ونبيذه مقيتا، وملكاته الثقافية أقل من حقيرة.

قال الدكتور أوبيسبو بإصرار:

–لا شيء عن صحة كيت؟

– ولماذا يتحدث عنها؟ إنه يعتبر ذلك مسلما به.

قال الدكتور أوبيسبو بنوع من النواح:

– كنت آمل أن يكون رجل علم.

ضحك چيريمى وقال:

– يبدو أن لديك أفكاراً غريبة عن الإيرلات الخامسة والبارونات الحادية عشر. لماذا بحق السماء يصبحون رجال علم؟

لم يستطع الدكتور أوبيسبو أن يجيب. مرت فترة صمت بينما بدأ چيريمى صفحة جديدة. صاح فجأة:

– اللعنة علىّ! كان يقرأ «تحليل العقل الإنسانى» لجيمس ميل[9] فى سن الخامسة والتسعين! أعتقد أن ذلك أغرب حتى من إحياء مديرة منزله أو من فتاته المخلطة: «الأحمق العادى شخص غبى وجاهل فقط. أما لكى تصبح أحمق عظيما فلابد أن تكون مثقفا كبيرا، وذا قدرات عالية. لابد أن نعترف أبداً أن مستر بنثام وملازميه كانت حماقاتهم على نطاق أكبر دائما. إن «تحليل» مستر ميل صرحٌ من التفاهة الحقيقية». المدخل التالى حول الماركيز دى ساد.

ثم فجأة نظر چيريمى إلى الدكتور أوبيسبو وقال ما بين القوسين:

– على فكرة، متى تنوى إعادة كتبى؟

هز الدكتور أوبيسبو كتفيه وقال:

– عندما تريدها. لقد انتهيت منها.

حاول چيريمى ألا يُظهر سعادته الغامرة، فتنحنح وعاد إلى النوتة، وقرأ بصوت عال:

– «كان المركيز دى ساد رجل عبقرية فذة أصابها الجنون البائس. فى رأيى إنه يمكن للكتاب أن يصل إلى الكمال لو أنه مزج بين سمات الماركيز، وبين بيشوب

٩– جيمس ميل: (١٧٧٣–١٨٣٦) كاتب وفيلسوف إنجليزى كتب أساسا فى الفلسفة الاقتصادية، وقد كتب ((تحليل العقل الإنسانى)) عام ١٨٢٩ وكان يحاول إيجاد نظرية للمعرفة والحقيقة.

باتلر[١٠] أو شتيرن[١١]».

توقف چيريمى برهة ثم قال ببطء:

– الماركيز وبيشوب وشتيرن. حقا سيكون كتابا رائعا.

استمر فى القراءة:

– «أكتوبر ١٨٣٣ ، إن الإنزال من شأن أنفسنا يُعد متعة بالنسبة والتناسب مع علو الشأن الدنيوى والثقافى الذى نزلنا منه، والذى سوف نعود إليه عندما ينتهى الفعل المهين».

قال چيريمى : «هذا جيد حقا»، إذ كان يفكر فى النساء الطرواديات ومساء كل جمعة آخر فى مايدا فيل. ثم أكمل قائلا:

– نعم هذا جيد حقا. دعنى أرى. أين نحن؟ آه نعم: «يتحدث المسيحيون كثيرا عن الألم، ولكن لا شىء مما يقولونه جدير بالاعتبار، لأن أبرز سمات الألم هى هذه: عدم تناسب حجم الألم الجسدى مع مسبباته التافهة. كذلك فمن خلال إزالة الملكات وإنقاص الجسد إلى درجة لا حول له ولا قوة فيها، يهزم الهدف الذى يبدو أن الطبيعة قد أوجدته من أجلها: أى بمعنى آخر، تحذير المتألم من قرب الخطر، سواء من الداخل أو الخارج. أما بالنسبة للألم، فإن هذه الكلمة الفارغة الأبدية، ربما لها معنى. لكن الوضع ليس كذلك بالنسبة للمتعة، لأن المتعة فانية وأى محاولة لمد حدودها يتسبب فى تحولها إلى ألم. لهذا السبب، فبالنسبة للعقل الطموح، التسبب فى المتعة لا يمكن أن يكون ممتعا مثل التسبب فى الألم. إن إعطاء مقدار فانٍ من

١٠– بيشوب باتلر: (١٦٩٢–١٧٥٢) قس إنجليزى كان مطران بريستول وقريبا من القصر الملكى وقد كتب العديد من الكتب دفاعا عن المسيحية.

١١– شتيرن: نسبة إلى لورانس شتيرن (١٧١٣–١٧٦٨) ومن أشهر كتاباته تريستام شاندى فى ستة أجزاء وقد أدانه الكثيرون بسبب كتبه التى اعتبروها لا أخلاقية.

المتعة هو مجرد تصرف بشرى. أما التسبب فى الألم الأبدى فهو حقا شيئ سماوى وإلهى».

قال الدكتور أوبيسبو شاكياً:

– العجوز ابن الزنا هذا أصبح صوفيا فى سنه الكبير. إنه يذكرنى قليلا بالمستر بروبتر.

أشعل سيجارته. سادت فترة صمت.

صاح چيريمى فجأة فى حماس:

– استمع إلى هذا: «١١ مارس ١٨٣٤ ، من خلال إهمال كيت الإجرامى، استطاعت بريسيلا الهروب من سجنها تحت الأرض، وبما أنها تحمل فى جسدها أدلة كونها موضوعاً للتجريب والفحص، طوال الأسابيع السابقة، فإنها تحمل بين يديها سمعتى، وربما حتى حريتى وحياتى».

قال الدكتور أوبيسبو :

– أعتقد أن هذا ما كنت تعنيه من قبل عندما تحدثت عن فضيحة ما حين بدأنا القراءة؟ الفضيحة الأخيرة. ماذا حدث بعد ذلك؟

أجاب چيريمى دون أن يرفع رأسه عن الصفحة التى أمامه:

– أعتقد أن الفتاة روت حكايتها، وإلا فبماذا تفسر وجود هؤلاء الغوغائيين الذين بدأ يتحدث عنهم؟ «إن إنسانية الرجال والنساء تتناسب بشكل عكسى مع أعدادهم. إن حشداً من الناس ليس أكثر إنسانية من جُرف ثلجى ينهار أو من ريح دوّامة. إن مجموعة من الرجال والنساء الرعاع يقفون فى أقل درجات المقياس الأخلاقى والثقافى حتى عن قطيع من الخنازير أو ابن آوى».

رجع الدكتور أوبيسبو برأسه إلى الوراء وأطلق إحدى ضحكاته الرنانة المدهشة

وقال:

– هذا رائع! رائع! لا يمكن أن ترى مثالاً أفضل للسلوكيات البشرية النموذجية. فالإنسان يتصرف مثل التحت–إنسانى ثم يصبح حكيما ليثبت أنه فوق إنسانى.

فرك يديه وأضاف:

– هذا ربانى حقا! فلنسمع ما سيحدث الآن.

قال چيريمى:

– كما فهمت من هذا، فقد اضطروا إلى إرسال الحرس الوطنى من جيلدفورد لحماية المنزل من الرعاع، وقد أصدر القاضى أمرا بالقبض عليه، ولكنهم لا يفعلون شيئا فى الوقت الحالى بسبب سنه ووضعه الاجتماعى وفضيحة المحاكمة العلنية. آه. والآن أرسلوا لجون وكارولين مما تسبب فى إغضاب الجنتلمان العجوز بجنون. ولكنه أصبح بلا حول ولا قوة، وها هم وصلوا إلى سيلفورد: «كارولين بباروكتها البرتقالية، وجون فى سن الثانية والسبعين، يبدو عشرين عاما على الأقل أكبر منى، لقد كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى عندما تزوج أخى الذى لم يكن قد وصل بعد للسن القانونية، وتزوج دون تروٍ من ابنة محامٍ، ومن سوء الحظ الكبير أنهما أنجبا هذا الحفيد للمحامى الذى كنت دائما أعامله بالاحتقار الذى يستحقه أصله الدنىء وثقافته الهشة، والذى تسبب إهمال مومس فى إعطائه القوة ليفرض إرادته علىّ».

قال الدكتور أوبيسبو:

– إنها أحد تلك اللقاءات العائلية السعيدة. ولكن هل لى أن أفترض أنه لم يعطنا أية تفاصيل؟

هز چيريمى رأسه بالنفى:

– لا تفاصيل. مجرد موجز المفاوضات. يوم ١٧ مارس قالوا له إنه يستطيع تجنب المحاكمة لو أوقف أملاكه غير الموقوفة ومنحها كهبة ، وكذلك أعطاهم عوائد وقفه، وقبِل دخول مصحة عقلية خاصة.

– شروط شديدة القسوة.

قال چيريمى:

– وقد رفضها فى صباح الثامن عشر.

– أحسن عملا!

قرأ چيريمى بصوت عال:

– «بيوت المجانين الخاصة ما هى إلا سجون خاصة، وبما أنه لا يحكمها برلمان أو قانون، فإنها لا تخضع لأية رقابة من البوليس، وهى مغلقة فى وجه زيارات المُحسنين الإنسانية، بينما يقوم المُعذِبون والسجانون المأجورون بتنفيذ المخططات الشريرة للانتقام العائلى أو الضغائن الشخصية».

صفق الدكتور أوبيسبو بسعادة بالغة وصاح:

– هذه لمسة إنسانية جميلة أخرى. زيارات المحسنين الإنسانية! المعذِبين المأجورين! إن ذلك مثل خُطب أحد الآباء المؤسسين. رائع! ثم لنلتفت إلى سفن العبيد تلك والآنسة بريسيلا الصغيرة. إنه يبدو رائعا تماما مثل المارشال جورينج(١٢) وهو يدين علنا معاملة الحيوانات غير الرحيمة.

ثم أعاد الجملة باستطعام وكأنها قطعة من المُسَكّرات الشهية تذوب ببطء فى الفم:

– معذبون وسجانون. ما هى الخطوة التالية؟

١٢– جورنج: نسبة إلى ويلهالم جورنج (١٨٩٣–١٩٤٦) السياسى النازى ومؤسس الجستابو.

– قالوا له إنهم سيحاكمونه ويدينونه ويرحّلونه. وقد أجابهم إنه يفّضل الترحيل عن المصحة العقلية الخاصة. «وهنا بدا لى أن ابن أخى وابنة أختى أُفحما. حلفا لى أن المعاملة فى بيت المجانين سوف تكون إنسانية، وقد أجبت أننى لن أقبل وعودهما. تحدّث جون عن شرفه وقلت له إنه شرف محامٍ بلا شك، وتحدثت عن الطريقة التى يبيع بها المحامى قناعاته من أجل الأتعاب. ثم بدآ يرجواننى لقبول عروضهما من أجل اسم العائلة، وقد أجبتهما أن اسم العائلة لايعنى لى شيئا، ولكنى فقط لا أرغب فى الخوض فى إذلال المحاكمة العلنية وآلام وعناء الترحيل. قلت لهم إننى على استعداد لقبول أية بدائل معقولة للمحكمة والترحيل، ولكنى لن أعتبر أىّ بديل معقولا إلا بالضمان الكافى بأننى سوف أعامل معاملة جيدة بين أيديهما. ولم أقبل كلمات شرفهما كضمان مثل هذا، ولن أقبل أن أوضع فى مؤسسة حيث يتركوننى لرعاية الأطباء والحراس الذين سيأخذون مرتباتهم من الذين يعنيهم فنائى بكل عُجالة. لذلك فقد رفضت الانصياع لأية ترتيبات تتركنى تحت رحمتهما بدون وضعهما أيضا، وإلى درجة ما، فى وضع مشابه تحت رحمتى».

قال الدكتور أوبيسبو:

– إنها مبادئ الديمقراطية فى إيجاز شديد. لو أن تشيمبرلين[١٣] فهم ذلك قبل أن يذهب إلى ميونيخ بقليل! ليس هناك فرق على المدى الطويل، فى النهاية لا يهم حقا ما يفعله السياسيون، لأن الوطنية ستنتج دائما على الأقل حرباً واحدة لكل جيل. لقد فعلَت ذلك فى الماضى، وأعتقد يمكننا الاعتماد دائما على أنها ستظل تفعل ذلك فى المستقبل. ولكن ما هو اقتراح الرجل العجوز لتنفيذ مبادئه؟ إنه بلا

١٣– تشمبرلين: نسبة إلى نيفيل تشمبرلين (١٨٦٩–١٩٤٠) رئيس وزراء إنجلترا عام ١٩٣٧، وقد اتبعت حكومته سياسة التهدئة مع هتلر مما نتج عنه إبرام اتفاقية ميونخ عام ١٩٣٨، ولكن بعدها بدأ فى الاستعداد للحرب، ولكنه كان يفتقد ملكات السياسى المحارب، ومن ثم استقال عام ١٩٤٠ وحل محله تشرشل.

شك تحت رحمتهما، فكيف سيضعهما تحت رحمته؟

قال جيريمى من عمق الماضى المكتوب:

- لا أدرى بعد. لقد بدأ مرة أخرى فى إحدى جولاته الفلسفية.

قال الدكتور أوبيسبو فى دهشة:

- الآن؟ بينما يوجد أمر بالقبض عليه؟

بدأ چيريمى يقرأ:

- «لقد مر علىّ وقت كنت أعتقد فيه أن كل مجهودات البشرية متجهة إلى نقطة موجودة تقريبا فى منتصف الأنثى. اليوم أميل أكثر إلى الاعتقاد أن الغرور والجشع يلعبان دورا أكبر من الشهوة، فى تحديد ملامح سلوك الرجال، وفى تحديد طبيعة أفكارهم». وهلم جرا. أين يعود بحق الجحيم إلى تلك النقطة ثانية؟ ربما لن يفعل أبدا. هذا مثله تماما! لا. ها هو شيء آخر: «٢٠ مارس. اليوم عاد وسيطى التجارى روبرت بارسونز من لندن، وقد أحضر معه فى العربة ثلاثة صناديق مقواة تحتوى على عملات ذهبية وأوراق بنكية تساوى مائتى ألف وثمانية عشر جنيها، وهى أرباح مبيعات بعض أماناتى مثل المجوهرات، والأطباق، والأعمال الفنية، وهى كل النقود التى استطاع جمعها فى وقت قصير كهذا. لو كان لدى وقت أطول، كنت تمكنت من بيعها على الأقل بما يساوى ثلثمائة وخمسين ألفا من الجنيهات. يمكننى قبول هذه الخسارة بشكل فلسفى، لأن المبلغ الذى حصلت عليه بين يدى يكفى جدا لأغراضى».

سأل الدكتور أوبيسبو:

- أية أغراض؟

لم يجبه چيريمى برهة، ثم هز رأسه فى دهشة وقال:

- ماذا يحدث الآن بحق السماء؟ استمع إلى هذا: «سوف تقام جنازتى فى أُبهة تليق بمقامى العالى ورفعة أخلاقى. كان جون وكارولين بخيلين وغير ممتنين

لدرجة أنهما إعترضا على التكلفة، ولكننى أصررت ألا تقل تكلفة مراسم دفنى بينى واحداً عن أربعة آلاف جنيه. إن ندمى الوحيد هو أننى لن أستطيع ترك مخبأى تحت الأرض لرؤية موكب الألم ودراسة تعبيرات الحزن على الوجوه الذابلة للإيرل والكونتيسة الجدد. سأنزل اليوم مع كيت إلى محل سكنى فى السراديب، وغدا سوف يسمع العالم كله نبأ وفاتى. لقد أتوا بجسد شحاذ فقير سرا من هاسلمير وسوف يحل محلى فى النعش. بعد الدفن، سوف يذهب الإيرل الجديد والكونتيسة إلى جونيستر حيث سيقيمان، تاركين هذا البيت دون مستأجرين سوى بارسونز الذى سيقوم بدور الحارس وسيحضر لنا احتياجاتنا المادية. الذهب والنقود الذى أحضرهما بارسونز من لندن تم تخبئتها فى مكان ما تحت الأرض لا يعرفه سواى، وقد اتفقنا أننى فى كل أول يونيو، طالما حييت، سوف أعطى خمسة آلاف جنيه إلى جون أو كارولين، أو فى حالة وفاتهما قبلى، إلى وريثهما أو أى ممثل مفوض من العائلة. من خلال تلك الترتيبات، فإننى أهنىء نفسى بأننى ملأت فراغ الحب الذى لا يشعرون به تجاهى».

رفع چيريمى رأسه وقال:

- هذا كل شىء. لا يوجد شىء آخر. مجرد صفحتين فارغتين بعد ذلك وهذه هى نهاية الأجندة. ما من كلمة مكتوبة واحدة أخرى.

ساد صمت طويل. مرة أخرى قام الدكتور أوبيسبو وبدأ يمشى ذهابا وإيابا فى الغرفة. أخيرا قال:

- هل يعرف أحد المدة التى عاشها الصقر العجوز؟

هز چيريمى رأسه بالنفى وقال:

- ليس من خارج العائلة. ربما هاتان السيدتان العجوزان...

توقف الدكتور أوبيسبو أمامه وخبط المائدة بكفه وأعلن بطريقة دراماتيكية:

- سوف آخذ السفينة التالية إلى إنجلترا!

الفصل التاسع

حتى مستشفى الأطفال اليوم لم تعط مستر ستويت أى نوع من العزاء والمواساة. لقد رحبت به الممرضات بأفضل الابتسامات، وقابله الطبيب النائب فى الممر وكان مغاليًا فى الاحترام والمجاملة. أما أطفال النقاهة فقد صاحوا «العم جو!» بكل حماسهم المعتاد، وعندما توقف لحظات بجانب أسرّتهم أضاءت وجوههم المريضة بالسعادة لحظات، وقد استقبلوا هداياه ولعبه كالعادة ما بين السعادة ذات الضوضاء العالية، وبين سعادة أكثر تأثرا وصمتاً من جراء الفرحة وعدم التصديق. فى هذه الدورة حول الأقسام المختلفة وجد ، مثلما وجد فى أيام أخرى، الأجسام الصغيرة المتتالية المصابة بالسل والشلل، والوجه المستسلم للألم، والملائكة الصغيرة التى تموت، والشهداء ذوى البراءة والوجوه الشقية التى عذبت حتى السكون الرافض.

فى الأوقات العادية كان يشعر بسعادة بالغة من كل هذا – كان مثلا يريد أن يبكى، ولكن فى ذات الوقت يريد أن يصرخ ويتفاخر. يتفاخر بأنه إنسان لأن هؤلاء الأطفال أيضا بشر، وهو لن يرى أى شىء أكثر جرأة منهم، بل وكان يشعر بالفخر أيضا لأنه فعل هذا الشىء لهم، وأعطاهم أفضل مستشفى فى الولاية، وأفضل الأشياء التى يمكن أن تشتريها النقود. ولكن اليوم لم تثر زيارته أياً من ردود الفعل المعتادة. لم يشعر بالرغبة فى البكاء أو الصياح. لم يشعر بالتفاخر ولا بلوعة الشفقة، ولا بالسعادة المفرطة الناجمة عن امتزاج الاثنين معا. لم يشعر بشىء – لا شىء سوى البؤس القاتم الذى ظل ينحره طوال اليوم، فى البانثيون، مع كلانسى، فى مكتبه وسط البلد. خارجا من المدينة، ظل ينتظر بلهفة زيارته للمستشفى مثل مريض الربو فى انتظار جرعة من الأدرينالين، أو مثل مدمن الأفيون فى انتظار شيشة مؤجلة منذ زمن طويل. ولكنه كان يبحث عن ارتياح لم يأته، لقد خذله

الأطفال.

آخذا في الاعتبار ما كان يحدث في نهاية الزيارات السابقة، ابتسم البواب إلى مستر ستويت أثناء خروجه من المستشفى، وقال شيئا معناه إن هؤلاء أفضل مجموعة أطفال عرفهم في حياته. نظر إليه مستر ستويت بنظرة فارغة، وهز رأسه دون أن ينطق، واستمر في طريقه.

نظر إليه البواب وهو يذهب وقال لنفسه: غريب مخيف! متذكرا التعبير على وجه مستر ستويت.

عاد مستر ستويت إلى القصر يتملكه شعور بالتعاسة مثل ذلك الذى كان يشعر به عندما تركه في الصباح. صعد مع الفيرمير إلى الدور الرابع عشر. لم تكن فيرجينيا في غرفتها. نزل إلى العاشر، ولكنها لم تكن في حجرة البلياردو، سقط إلى الدور الثاني ولكنها لم تكن تتجمل بطلاء الأظافر ولا بتدليك جسدها. انتابته نوبة شك مفاجئة فنزل إلى البدروم أسفل السفلى وهرع إلى المعمل ليرى إن كانت مع بيت، ولكن كان المعمل فارغا. وقف فأر يصرخ في القفص، وخلف الزجاج سبحت واحدة من أسماك الشبوط داخل حوض الأسماك من الظلام إلى الضوء، ثم عادت مرة أخرى إلى الظلام الأخضر. عاد مستر ستويت مسرعا إلى المصعد، وأغلق نفسه في الداخل مع حلم الهولندى للحياة اليومية، المتصاعد بغموض إلى درجة عالية من الكمال الحسابي، وضغط أعلى زر وهو الثالث والعشرين.

وصل مستر ستويت إلى مأربه، وفتح باب المصعد وناظراً من الباب الزجاجى عبر الباب الثاني.

كانت المياه في حمام السباحة ساكنة تماما. من خلال الشرفة الدفاعية كانت الجبال قد اتخذت لونها الذهبى وخيالاتها البرتقالية. كانت السماء زرقاء شفافة بلا

سحب. على الناحية الأخرى من حمام السباحة وقفت صينية عليها زجاجات وأكواب فوق المائدة الحديدية، وخلف المائدة كانت واحدة من تلك الأرائك المنخفضة التى اعتاد مستر ستويت استخدامها لأخذ حماماته الشمسية. كانت فيرجينيا مستلقية فوق الأريكة وكأنها مخدرة، شفتاها مفتوحتان، وعيناها مغلقتان، وقد سقط أحد ذراعيها بلا حراك بجانبها على الأرض، وكان كفها مرفوعا لأعلى، مثل زهرة قذفها أحدهم ونسيها. كان الدكتور أوبيسبو، كلود برنارد عمله، نصف مختفٍ خلف المائدة ، ينظر إلى وجهها بفضول علمي مستمتع.

فى تصاعد لم يستطع مستر ستويت كتمانه ، خرج غضبه حتى كاد يهزم غرضه الإجرامى. بمجهود عظيم استطاع أن يسيطر على رغبته فى الصراخ، وخروجه مسرعا من المصعد، محركا يديه وفمه مملوء بالرغوة، مرتجفا تحت ضغط الغضب والكراهية الداخلية، أخذ يعبث داخل جيب سترته، كان فارغا إلاّ من بعض شخاليل الأطفال وعلبتين من اللبان، وهم كل ما تبقى من توزيع الهدايا فى المستشفى. للمرة الأولى منذ شهور كان قد نسى مسدسه.

وقف مستر ستويت مترددا بضع لحظات، غير متأكد مما سيفعله. هل يندفع خارجا، كما كان يفعل فى البداية، ويقتل الرجل بيديه العاريتين؟ أم يذهب إلى أسفل باحثا عن مسدسه؟ فى النهاية قرر أن يأتى بمسدسه، ضغط الزر ونزل المصعد إلى بئره فى صمت. نظر مستر ستويت إلى الفيرمير دون أن يراها. ومن عالمها الهندسى الكامل الجميل، نظرت الشابة الصغيرة التى ترتدى الساتان الأزرق، بعيدا عن الهارب المفتوح، وعبره، عبر الستارة المُسدلة، وفوق الأرض الفسيفسائية باللون الأبيض والأسود – نظرت من نافذة البرواز، إلى ذلك العالم القبيح غير المنظم الذى يعيش فيه المستر ستويت هو والكائنات الأخرى مثله.

هرع مستر ستويت إلى غرفة نومه وفتح الدرج الذى يحتوى على مناديله، وعبث بغضب وسط الحرير والأنسجة القطنية الناعمة، ولم يجد شيئا، ثم تذكر، فهو لم يرتد أية سترة بالأمس صباحا، وكان المسدس فى جيب بنطاله الخلفى. ثم جاء بيدرسون من أجل التمرينات السويدية. ولكن المسدس فى جيبه الخلفى لم يكن مريحا خاصة وهو يفعل أشياء فى ظهره على الأرض، لذلك أخرجه ووضعه فى درج غرفة المكتب.

هرع مستر ستويت إلى المصعد مرة أخرى، ونزل أربعة أدوار إلى غرفة المكتب. كان المسدس فى أعلى درج جهة الشمال فى مكتبه. يذكر مكانه جيدا.

صاح وهو يجذب المقابض: اللعنة على تلك الداعرة العجوز. كانت السيدة جروجام سكرتيرته، تغلق كل شىء قبل أن تعود إلى منزلها، لأنها كانت تفكر فى كل شىء، وتقوم بواجبها على أكمل وجه.

لقد كرهها هذه اللحظة بنفس المرارة التى كره بها هذا الوغد هناك على السطح، فظل يلعن السيدة جروجام حتى عاد إلى المصعد، كان الباب مغلقا، أثناء غيابه فى المكتب لابد أن أحدا ضغط الزر فى دور آخر. من خلال الباب المغلق استطاع أن يسمع صوت همهمة المصعد، كان أحدهم يستخدمه، الله أعلم كم من الوقت عليه أن ينتظر. أصدر مستر ستويت صوتا مثل جؤار الثور غير المفهوم، وهرع عبر الردهة، واستدار إلى اليمين، وفتح الباب الأرجوحى، واستدار ثانية إلى اليمين، فوقف على باب مصعد الخدم. أمسك المقبض وجذبه، كان مغلقا. ضغط زر المصعد، لم يحدث شىء، كان باب مصعد الخدم أيضا مستخدما.

جرى مستر ستويت عائدا عبر الردهة، وإلى الباب الأرجوحى، ثم عبر باباً أرجوحياً آخر. كان السلم الحلزونى صاعدا وهابطا إلى عمق مائتى قدم فى عمق

الدهاليز. بدأ مستر ستويت فى الصعود، ولكن بعد دورين أخذ يلهث، فعاد جريا إلى المصاعد، كان مصعد الخدم لا يزال مستخدمًا، ولكن الثانى استجاب إلى ضغطة الزر، ونزل من مكان ما من علوه وتوقف أمامه، انفتح الباب المغلق تلقائيا. جذبه مستر ستويت ودخل، كانت الشابة فى الملابس الساتانية، لا تزال فى حالة من السكينة فى عالمها الحسابى الدقيق الكامل. كانت المسافة بين عينها اليسرى والجهة اليسرى من الصورة مساوية للمسافة بين العين اليمنى والناحية اليمنى، وكانتا متساويتين تماما مثل الرقم واحد جذر مربع لاثنين ناقص واحد. وكانت المسافة بين نفس العين وأسفل الصورة مساوية للمسافة بينها وبين الجهة اليسرى. أما بالنسبة للشريط أعلى كتفها الأيمن - فقد كان موضعه تماما فى جانب المربع الخيالى والذى تعتبر جوانبه مساوية للقسمين الذهبيين الأطول والذى ينقسم إليه الطرف الأسفل من الصورة. ثنية عميقة فى الجونلة الساتانية أشارت إلى الناحية اليمنى من المربع، بينما غطاء الهارب أشار إلى أعلاه. الشُغل اليدوى فى الركن على الجهة اليمنى امتد تماما إلى ثلث المسافة عبر الصورة، وكانت الجهة السفلى منه فى ارتفاع مساوٍ لأسفل الصورة. كان الساتان الأزرق ممتدا للأمام من خلال البنيات والألوان الصفراء والسوداء للخلفية، حيث تقابلها الكتل الرخامية البيضاء والسوداء للأرضية الممتدة إلى الوراء، لتعلق فى المنتصف تماما كقطعة من الصلب بين مغناطيسين متنافرين. فى منتصف البرواز، لا يمكن أن يتغير شىء، لأن سكون هذا العالم لم يكن فقط مجرد عدم حراك اللوحات القديمة والصور، بل كان أيضا السكينة الحية للكمال التام.

أخذ مستر ستويت يزأر لنفسه: «الداعرة العجوز!» ثم يعود بذاكرته من سكرتيرته إلى الدكتور أوبيسبو، ويقول «الوغد!».

توقف المصعد فاندفع مستر ستويت مسرعا عبر الردهة إلى مكتب السيدة جروجام الفارغ. لقد ظن أنه يعلم أين تترك المفاتيح، ولكن يبدو أنه كان مخطئا. لقد كانوا فى مكان آخر. ولكن أين؟ أين؟ أين؟ زاد الإحباط من ثورته العارمة إلى رغوة من الحنق الشديد. فتح الأدراج وأفرغ محتوياتها على الأرض، وبعثر الأوراق المرتبة حول الغرفة، وأوقع الديكتافون، بل وأفرغ حتى أرفف المكتبة، وأسقط وعاء الأسماك الصغير اليابانى الذى كانت تضعه السيدة جروجام على حافة النافذة. لمع قشر السمك الأحمر وسط الزجاج المكسور والمراجع. ذيل سمك شفاف منها أصبح أسود من الحبر المسكوب. أمسك مستر ستويت بزجاجة صمغ وقذفها بكل قوته وسط الأسماك المحتضرة وصاح: «الداعرة! الداعرة!»

ثم فجأة رأى المفاتيح، معلقة بترتيب دقيق على خُطاف بجانب الرف فوق المدفأة، وتذكر فجأة أنه رآها هناك آلاف المرات من قبل.

صاح وقد تضاعفت ثورة غضبه وهو ينتشلها: «الداعرة!». هرع نحو الباب، متوقفا فقط ليدفع الآلة الكاتبة من فوق المكتب. سقطت بصوت ارتطام عالٍ وسط الأوراق الممزقة، والصمغ والأسماك. فكر مستر ستويت بسعادة جنونية وهو يجرى نحو المصعد، أن العجوز الداعرة تستحق كل ذلك!

الفصل العاشر

برشلونة سقطت.

ولكن حتى لو لم تسقط، حتى لو لم تحاصر، فماذا بعد؟

كانت برشلونة مثل أى مجتمع آخر، جزء منها آلى وجزء منها كائن تحت المستوى البشرى، وجزء آخر إبراز كابوسى هائل، وتجسيد لرغبات البشر وجنونهم – وجشعهم وكبريائهم، وشبقهم للقوة، واستحواذهم على كلمات لا معنى لها، وعبادتهم لمثلٍ مجنونة.

تحت الأسر أو بدون أسر، فإن كل مدينة ودولة لها وجود على مستوى غياب الله. ولأن لها وجودها على مستوى غياب الله، فبالتالى محكوم عليها بالفناء فى السفه الشخصى الأزلى، والمحاولات المتكررة لتدمير الذات.

برشلونة سقطت. ولكن حتى رفاهية المجتمعات البشرية هى العملية الدائمة للسقوط التدريجى علي نحو الكارثة. الذين يشيدون أسس الحضارة هم أنفسهم الذين يقللون من قيمة تشييد الحضارة. إن البشر هم حشرات أنفسهم المدمرة، ولابد أن يظلوا هكذا ما داموا قد ظلوا مجرد بشر.

ترتفع الأبراج والقصور والمعابد والبيوت وأماكن العمل، ولكن قلب كل لوح خشبى ينحر فى مكانه، والمورينات الخشبية مثقوبة، والأرض تتآكل تحت الأقدام.

أية أشعار وأية تماثيل – ولكن على شفا الحرب البيلوبينية[1]! والآن تم طلاء الفاتيكان – فى الوقت المناسب من أجل نهب روما. وتم تلحين الصلوات – ولكن من أجل بطل يتضح فى النهاية أنه لص آخر. ونفس علماء الطبيعة الذين يوضحون طبيعة الذّرة هم أنفسهم الذين يتطوعون فى أوقات الحرب ليحسّنوا من

١– الحرب البيلوبونية: الحرب التي قامت بين أثينا وسبارتا عام ٤٠٤–٤٣١ قبل الميلاد ، وقد انتهت بهزيمة أثينا.

فنون القتل.

على مستوى غياب الله، لا يمكن أن يفعل البشر أى شىء غير تدمير ما قاموا ببنائه – تدميره حتى أثناء البناء – فهم يبنون بعناصر الدمار.

إن الجنون هو عدم معرفة الحقائق، وفى جعل الأمانى أبًا للأفكار، وفى رؤية الأشياء على غير ما هى عليه، وفى محاولة الوصول إلى الأهداف من خلال وسائل ثبت من خلال التجارب السابقة أنها غير مناسبة.

الجنون يتكون مثلا من التفكير فى ذاتنا كروح، وككيان مفهوم وباقٍ. ولكن ما بين الحيوان فى الأسفل والروح فى الأعلى، لا يوجد شىء على المستوى البشرى سوى حشد من النزوات والأحاسيس والتصورات المتجمعة، حشد متجمع معا عن طريق مصادفة الوراثة واللغة، حشد غير متكافئ بل وعادة متناقض ، من الأفكار والرغبات. إن الذاكرة والجسد المتغيرين ببطء يشكلان نوعًا من القفص المكانى-المؤقت، والذى يبقى فيه هذا الحشد. أما أن نتحدث عنه باعتباره روحًا مفهومة وباقية فهو الجنون بعينه. على المستوى البشرى المحض، لا يوجد شىء اسمه الروح.

تجمعات الأفكار، وتنظيمات المشاعر، وأنماط الرغبات. كل واحدة من هذه تم بناؤها ومشترط وجودها من خلال طبيعة أصلها المبنى على المصادفة. إن أرواحنا لا تمثلنا قط، حتى إننا لا يمكن تكوين أبعد تصور عن كيفية رد فعلنا تجاه العالم، لو كنا نجهل اللغة بشكل عام، أو حتى نجهل لغتنا نحن بشكل خاص. إن طبيعة أرواحنا والعالم الذى تسكنه سوف تكون مختلفة تماما عما هى عليه لو لم نكن قد تعلمنا الكلام قط، أو لو كنا تعلمنا لغة الإسكيمو بدلا من الإنجليزية. إن الجنون مكون من أشياء كثيرة من بينها تصور أن الروح موجودة خارج اللغة التى علمتنا

إياها ممرضاتنا بالصدفة.

كل نمط سيكولوجى محدد، وفى داخل قفص اللحم والذاكرة، الحشد الكلى لمثل تلك الأنماط ليس أكثر حرية من أى من أعضائها. إن الحديث عن الحرية فيما يتصل بتصرفات فى الحقيقة محددة، هو الجنون بعينه. على المستوى البشرى المحض، لا توجد تصرفات حرة. والرجال والنساء من خلال رفضهم الجنونى لمعرفة الحقائق كما هى، يدينون أنفسهم لتسفيه رغباتهم ولتشويه أو إطفاء حياتهم.

إن الرجال والنساء ليسوا أقل من المدن والدول التى ينتمون إليها، يسقطون أبدا، ويدمِرون أبدا، كل ما قاموا ببنائه، أو كل ما يبنونه. ولكن بينما المدن والدول تطيع القوانين التى تأتى عندما يكون عدد كبير منها معَنى، فالبشر ليسوا كذلك. أو بالأحرى ليسوا بحاجة لأن يكونوا كذلك، لأنه بالرغم من أن معظم الأفراد يسمحون لأنفسهم بالخضوع لتلك القوانين، فإنهم لا يقعون تحت ضغط ضرورة ملحة لذلك. لأنهم ليسوا تحت ضرورة أن يظلوا على المستوى البشرى من الوجود المطلق. فى إمكانهم أن يعبروا من مستوى غياب الله إلى مستوى وجود الله. كل فرد من الحشد السيكولوجى مُسيّر، وكذلك تصرفات الحشد معا. ولكن بعد الحشد، وبالرغم من التحكم فيه وتفسيره، تقع الأبدية، جاهزة ومنتظرة أن تختبر نفسها. ولكن لو ستختبر الأبدية نفسها داخل القفص الوقتى المكانى، لأى فرد بشرى، فإن الحشد الذى نسميه الروح لابد أن يتنازل بشكل طوعى عن جنون تصرفاته، ويترك المساحة للوعى الثانى الأبدى، ولابد أن يصمت ليسمح لصمت أكبر أن يحل محله. الله موجود بشكل كامل فقط فى الغياب الكامل لما نسميه بشريتنا. لا توجد ضرورة حديدية تدين الفرد إلى العذاب بلا فائدة لكونه مجرد إنسان. حتى الحشد الذى نسميه الروح له القوة بشكل وقتى أن يوقف التصرفات الجنونية، وأن يُغيب نفسه،

ولو لبرهة، لكى يكون الله موجودا. ولكن دع الأبدية تختبر ذاتها ودع الله يكون موجودا بشكل كافٍ فى غياب الرغبات الإنسانية والمشاعر والمشاغل، وستكون النتيجة تحول الحياة التى تُعاش، فى الفترات القصيرة بينها، على المستوى البشرى. حتى حشد رغباتنا وآرائها معرّض لجمال الأبدية، وكوننا معرضين، نصبح غير راضين عن أنفسنا. الفوضى تعطى مكانا للنظام – ليس النظام العادى التعسفى البشرى الذى يأتى من خلال إخضاع الحشد لمُثُل مهووسة، بل نظام يعكس النظام الحقيقى للعالم. العبودية تعطى مكانها للحرية – لأن الخيارات لا تمليها بعض الأحداث المصادفة للتاريخ الماضى، ولكنها مصنوعة بشكل غائىّ وفى ضوء المعرفة المباشرة بطبيعة الأمور. العنف والقصور الذاتى يعطيان مكانا للسلام – لأن العنف هو الهوس، والقصور هو الاكتئاب، إنها مرحلة هذا الجنون الدورى الذى يتكون من النظر إلى الذات أو إسقاطاتها المجتمعية، وكأنها كيانات حقيقية. السلام هو النشاط الصافى الذى ينبعث من معرفة أن أرواحنا هلامية وأن خلقها جنون، وأن كل الكائنات متحدة بشكل كامن فى الأبدية. إن التعاطف عنصر من عناصر السلام ونتيجة لنفس حركة المعرفة.

أخذ بيت يفكر بسعادة هادئة فى كل الأشياء التى قالها مستر بروبتر وهو سائر وقت الغروب صاعداً الجبل فى اتجاه القصر.

برشلونة سقطت. إسبانيا وإنجلترا، وفرنسا وألمانيا وأمْريكا – كلها كانت تتساقط، وتتساقط حتى فى الأوقات التى تبدو فيها أنها ترتفع، تدمر ما تبنيه عن طريق حركة البناء نفسها. ولكن أىّ فرد يملك القدرة على الامتناع عن السقوط، وإيقاف تدمير ذاته. التضامن مع الشر شىء اختيارى، وليس إجبارياً.

أثناء خروجهما من محل النجارة، استطاع بيت أن يسأل مستر بروبتر لو كان

يمكن أن يقول له ماذا يفعل.

نظر إليه مستر برويتر بإمعان وقال:

– لو كنت تريد ... أعنى لو كنت حقا تريد...

هز بيت رأسه بالإيجاب دون أن يتكلم.

غربت الشمس، وبدا ضوء الغسق مثل تجسيد للسلام – سلام الله، كما قال بيت لنفسه، وهو ينظر عبر السهل إلى الجبال البعيدة، السلام الذى يفوق كل فهم. إن الانفصال عن مثل هذا الجمال لا يُحتمل. دخل القصر وذهب مباشرة إلى المصعد، وأحضر القفص من مكان ما من أعلى، وأغلق نفسه مع الفيرمير، وضغط على أعلى زر فيه. هناك، فى أعلى المكان، سوف يكون فى قلب كل هذا السلام السماوى.

توقف المصعد. فتح أبوابه وخرج. عكَس حمام السباحة ضوءا ساكنا. أدار عينيه من المياه إلى السماء، ومن السماء إلى الجبال، ثم سار حول حمام السباحة لكى ينظر من الشرفة الدفاعية إلى أسفل على الناحية الأخرى.

جاءه صوت مكتوم وقال فجأة:

– اذهب بعيدا.

ارتجف من عنف المفاجأة، واستدار ليرى فيرجينيا راقدة فى الظلام عند قدميه تقريبا.

كرر الصوت نفس الكلمات:

– اذهب بعيدا. إننى أكرهك.

تمتم:

– أنا آسف. لم أكن أعرف...

فتحت عينيها:

- آه. هذا أنت.

فى الضوء الخافت استطاع أن يرى أنها كانت تبكى. أكملت:

- ظننتك سيج. لقد ذهب ليحضر لى مشطا لشعرى.

صمتت برهة ثم انفجرت فجأة:

- إننى تعسة يا پيت.

- تعسة؟

الكلمة ونبرات صوتها حطمتا سلام الله تماما. فى لوعة الحب والقلق جلس بجانبها على الأريكة. تحت رداء الحمام، لم يستطع أن يمنع نفسه من ملاحظة أنها لم تكن ترتدى شيئا.

- تعسة؟

غطت فيرجينيا وجهها بيديها وأجهشت فى البكاء. قالت فى حزن غير مفهوم:

- ولا حتى السيدة العذراء. لا أستطيع أن أقول لها ذلك. إننى أشعر أننى سيئة.

قال فى صوت رجاء وكأنه يرجوها أن تكون سعيدة:

- حبيبتى!

بدأ يربت على شعرها وقال ثانية:

- حبيبتى!

فجأة سمع حركة عنيفة على الناحية الأخرى من حمام السباحة. وصوت ارتطام عند فتح أبواب المصعد، ثم صوت أقدام تجرى وصراخ غاضب غير مفهوم. استدار پيت فى الوقت المناسب ليرى مستر ستويت يندفع نحوهما ممسكا شيئا فى يده، شيئا يبدو مثل مسدس أوتوماتيكى.

لم يكد يقوم نصف قيام حتى أطلق مستر ستويت الرصاص.

عائدا بالمشط لشعر فيرجينيا رأى الدكتور أوبيسبو الرجل العجوز على ركبتيه، يحاول أن يوقف سيل الدماء الذى ظل يخرج من الإصابتين، بمنديل جيبه، وكانت إصابة الأولى نظيفة وصغيرة، والثانية عميقة كالكهف من جراء الرصاصة وهى تمر عبر رأس بيت.

جاثمة فى ظلال الشرفة كانت البيبى تصلى بسرعة: «السيدة العذراء المقدسة، أم الإله، صلى من أجلنا نحن الخطاة الآن وفى ساعة مماتنا آمين»، ظلت ترددها مرات تلو المرات بالسرعة التى أتاحها بكاؤها. بين الحين والآخر كانت تهتز وترتجف من التقيؤ، فكانت الصلاة تنقطع لحظات ثم تعود لتبدأ ثانية من حيث توقفت من قبل: «...نحن الخطاة الآن وفى ساعة الممات آمين السيدة العذراء المقدسة أم الإله ...».

فتح الدكتور أوبيسبو فمه ليقول شيئا ثم أغلقه ثانية وهمس: «ياللمسيح!»، وسار سريعا وفى صمت حول حمام السباحة. قبل أن يُعلن عن وجوده أخذ المسدس من الأرض ووضعه فى جيبه.، إذ لا أحد يعرف ما يمكن أن يحدث، ثم نادى على اسم مستر ستويت. انتفض مستر ستويت فزعا، وعلا وجهه تعبير من الرعب المريع، لكن الشعور بالارتياح حل محل الرعب عندما استدار وتعرّف على المتحدث. قال:

– حمدا لله أنه أنت.

ثم تذكر فجأة أن هذا هو الرجل الذى كان ينوى قتله، ولكن كان ذلك منذ مليون عام مضت، وعلى بعد مليون ميل. الواقع الآنى والقريب والعاجل لم يكن البيبى، ولا الحب، ولا الغضب. كان الخوف، وهذا الشىء الراقد هنا على الأرض.

قال فى همس متحشرج:

- لابد أن تنقذه. يمكننا أن نقول إنها حادثة. سوف أدفع له أي مبلغ يريده.

ثم أضاف برد فعل تلقائي قديم:

- أي مبلغ في حدود المعقول.

بمجهود كبير أقام نفسه على قدميه وأشار للدكتور أوبيسبو أن يجلس في المكان الذي تركه.

الحركة الوحيدة التي أقدم عليها الدكتور أوبيسبو كانت التراجع. لقد كان الرجل العجوز غارقا في الدماء، ولم يكن يرغب في إفساد بدلته ذات الخمسة وتسعين دولارا. قال مرددا:

- انقذه؟ إنك مجنون. انظر إلى كل هذا المخ المبعثر على الأرض.

من الظلال خلفه قاطعت فيرجينيا تمتمتها وصلواتها وصرخت بنواح:

- على الأرض. على الأرض.

استدار إليها الدكتور أوبيسبو وصاح:

- اخرسي، أتسمعين؟

توقف الصراخ فجأة، ولكن بعد بضع لحظات صدر صوت تقيؤ ثم «السيدة العذراء المقدسة أم الإله صلي من أجلنا نحن الخطاة الآن وفي وقت مماتنا آمين السيدة العذراء المقدسة أم الإله صلي من أجلنا نحن الخطاة...»

أكمل الدكتور أوبيسبو وقال:

- لو كنا سنحاول إنقاذ أحد فالأفضل أن يكون أنت.

ثم أضاف بإصرار وهو يرمي بوزن جسده كله على قدمه اليسرى مشيرا بإصبع حذائه الأيمن نحو الجثة:

– وصدقنى، إنك بحاجة لبعض الإنقاذ، إما من غرفة الإعدام بالغاز، أو سان كوينتين[٢] مدى الحياة.

قال مستر ستويت معترضا وفى حماس أفقده التنفس:

– ولكنها حادثة. أعنى كانت غلطة. لم أقصد قتله. كنت أنوى...

قطع حديثه ووقف صامتا، وظل فمه يتحرك وكأنه يحاول ابتلاع كلمات لم يتفوه بها.

قال الدكتور أوبيسبو مكملا له الجملة:

– كنت تنوى قتلى.

ابتسم مثل الذئب، بروح دعابة كانت مميزة عنده عندما تكون النكتة مهينة ومؤلمة. اطمأن أن الصقر العجوز كان خائفا جدا بحيث لن يغضب منه، ثم أن المسدس على أية حال كان فى جيبه، فاستمر فى إطالة النكتة وقال بتكلف من يقول موعظة أو حكمة:

– وهذه نتيجة التجسس.

كانت فيرجينيا تتمتم وسط الصمت الذى ساد:

– الآن وفى وقت مماتنا السيدة العذراء المقدسة...

كرر مستر ستويت ماقاله من قبل:

– لم أقصد ذلك. لقد جن جنونى. أعتقد أننى لم أفطن حقا لما كنت أفعل...

قال الدكتور أوبيسبو بسخرية:

– قل هذا للمحلفين.

اعترض مستر ستويت قائلا:

٢– سان كوينتين: سجن فى كاليفورنيا.

– ولكنى أحلف بذلك. لم أكن أعرف.

انكسر صوته الأجش إلى صوت ضعيف، وأصبح وجهه شاحبا من الخوف. هز الدكتور أوبيسبو كتفيه وقال:

– ربما. ولكن لا فرق بين المعرفة من عدمها هنا.

وقف على قدم واحدة مرة أخرى وأشار بقدمه ذات الحذاء الأنيق تجاه الجثة. صرخ مستر ستويت فى لوعة الرعب وقال:

– ولكن ماذا أفعل؟

– لا تسألنى أنا.

حاول مستر ستويت أن يضع يده فوق ذراع الرجل الآخر، ولكن الدكتور أوبيسبو تراجع للخلف سريعا وقال:

– لا تلمسنى. انظر إلى يديك.

نظر إليهما مستر ستويت. كانت أصابعه السمينة والتى تشبه الجزرة، حمراء، وتحت الأظافر بدأت الدماء تتجمد وتجف مثل الطين. همس:

– يا الله. آه يا الله!

– وفى وقت مماتنا آمين السيدة العذراء...

انتفض الرجل العجوز فزعا عند كلمة مماتنا وكأن أحدهم قام بجلده فجأة. بدأ ثانية فى ترقب وقد توقف تنفسه، وقال راجيا:

– أوبيسبو. أوبيسبو. استمع إلىّ هنا – لابد أن تساعدنى للخروج من هذا... لابد أن تساعدنى.

– بعد أن فعلت أقصى ما فى وسعك لتفعل هذا بى؟

خرجت القدم ذات الحذاء الأبيض والبنى مرة أخرى.

قال مستر ستويت فى رعب بيّن:

– لن تجعلهم يأخذونى، أليس كذلك؟

– ولم لا؟

قال مستر ستويت صارخا:

– ولكنك لن تستطيع. لن تستطيع.

انحنى الدكتور أوبيسبو ليتأكد تحت الضوء الخافت من عدم وجود دماء على الأريكة، ثم رفع بنطلونه البنى بلون الغزال وقال فى نبرة حوارية لطيفة:

– الواحد منا يتعب من الوقوف.

استمر مستر ستويت فى رجائه وقال:

– سوف أعوّض لك تعبك. يمكنك أن تأخذ أى شىء تريده. أى شىء.

كرر الكلمة الأخيرة ولكن دون الإشارة إلى حدود المعقول هذه المرة.

قال الدكتور أوبيسبو:

– آه. الآن تتكلم الجد.

تمتمت البيبى:

– ...أم الإله، صلى من أجلنا نحن الخطاة الآن وفى ساعة مماتنا آمين السيدة العذراء المقدسة أم الإله صلى من أجلنا نحن الخطاة الآن...

قال الدكتور أوبيسبو مرة أخرى:

– الآن تتكلم الجد.

الجزء الثالث

الفصل الأول

دخل مستر بروبتر بعد أن قرع باب حجرة مكتب چيريمى. لاحظ جيرمى أنه كان يرتدى نفس البدلة الرمادية الغامقة وربطة العنق السوداء التى ارتداها فى جنازة بيت. اللباس المدنى جعله يبدو أقل حجما، فبدا أصغر مما يبدو فى ملابس عمله، وفى ذات الوقت بدا على غير طبيعته. هذا الوجه الذى لطمه الجو، محدد الملامح، هذا الوجه الذى يشبه التمثال المرتفع فوق الجهة الغربية لكاتدرائية ما، بدا غريبا فوق الياقة المنشاة.

قال بعدما حيا بعضهما البعض:

– هل نسيت؟

وكإجابة أشار چيريمى إلى سترته السوداء وبنطاله الواسع الإسفنجى. كانت الناس فى انتظارهم لافتتاح قاعة ستويت الجديدة فى طارزانا.

نظر مستر بروبتر إلى ساعته وقال:

– لدينا بضع دقائق أخرى قبل التفكير فى البدء.

جلس وقال:

– ما الأخبار؟

أجاب چيريمى:

– لا يمكن أن تكون أفضل من ذلك.

هز مستر بروبتر رأسه وقال:

– الآن وقد ذهب چو المسكين والآخرون، لابد أنه شىء ممتع هنا.

قال چيريمى:

– وحيدا وسط أشياء من هنا وهناك، تساوى أكثر من اثنى عشر مليون دولارا،

لذلك فإننى سعيد جدا.

قال مستر برويتر متأملا:

– أية سعادة قليلة كنت ستعيشها لو تُركت وسط الأشخاص الذين قاموا بصنع هذه الأشياء، أى مع إل جريكو وروبينز وتيرنر[1] وفرا أنجيليكو.

قال چيريمى رافعا يديه لأعلى:

– فليحمدنا الله!

قال مستر برويتر:

– هذا هو جمال الفن. إنه يمثل فقط الجانب المقبول من أفضل المواهب البشرية. لذلك لم أستطع أن أصدق أبدا أن فنون أى مرحلة تلقى ضوءا كثيرا على حياة تلك الفترة. خذ مثلا شخصا من المريخ ودعه يرى مجموعة تمثل بوتيتشيللى[2] وبيروجينوز[3] و رافائيل. هل يمكن أن يستنتج منها الظروف التى شرحها ماكيافيللى؟

قال چيريمى موافقا:

– لا، لن يقدر. ولكن فى ذات الوقت ها هو سؤال آخر. الظروف التى شرحها ماكيافيللى – هل كانت فعلا الظروف الحقيقية؟ ليس بالضرورة أن ماكيافيللى لم يقل الحقيقة. الأشياء التى قام بشرحها حدثت بالفعل، ولكن هل رآها معاصروه بنفس البشاعة التى تبدو لنا عندما نقرأ عنها الآن؟ إننا نعتقد أنهم كانوا فى الغالب بؤساء بسبب ما يحدث. ولكن هل كانوا كذلك؟

١– تيرنر: نسبة إلى جوزيف مالورد ويليام تيرنر (١٧٧٥–١٨٥١) رسام إنجليزى .

٢– بوتيتشيللى:نسبة إلى أليساندرو دى ماريانو (١٤٤٥–١٥١٠) الرسام الفلورنتينى، وتشتهر لوحاته بالطابع الغوطى والذى كان مناقضا تماما لمايكل أنجلو ورفائيل وهما من معاصريه.

٣– بيرينيوز: نسبة إلى بييتر فانوتشى بيرينيوز (١٤٤٥–١٥٢٣) رسام إيطالى عمل فى فرنسا ثم فى بيروجيا ويعتبر معلما لرفائيل، وقد رسم جزءاً من كنيسة السستين بالفاتيكان.

ثم كرر مستر بروبتر السؤال ثانية:

– هل كانوا؟ إننا نسأل علماء التاريخ وبالطبع لن يستطيعوا الإجابة – لأنه قطعا لا توجد طريقة لعمل إحصاء حول مجموع السعادة، ولا توجد طريقة لمقارنة مشاعر الناس التى تعيش تحت مجموعة محددة من الظروف مع آخرين يعيشون تحت مجموعة أخرى ومختلفة من الظروف. إن الظروف الحقيقية فى أى وقت محدد هى الظروف الذاتية للأفراد الذين يعيشون فى ذلك الوقت. وعلماء التاريخ لا توجد لديهم أية طريقة لمعرفة ماهية تلك الظروف.

قال چيريمى:

– ليس لديهم أية طريقة سوى النظر إلى الأعمال الفنية والأدبية. إننى أقول إنها تعكس بالفعل الضوء على الظروف الذاتية. خذ واحدا من أمثلتك: إن بيرونيوز من معاصرى ماكيافيللى، وهذا يعنى على الأقل أن فردا واحدا قرر أن يكون مبتهجا خلال مرحلة غير مبهجة. ولو استطاع شخص واحد أن يفعل ذلك، فلماذا لا يفعله الكثيرون؟

ثم أفسح الطريق لمقولة من مقولاته بحمحمة، وقال:

– «إن وضع الدولة لم يمنع شخصا من تناول عشائه»

قال مستر بروبتر:

– حكمة عظيمة! ولكن تذكر أن وضع إنجلترا التى كان يعيش فيها الدكتور جونسون كان عظيما حتى فى أسوأ أحوالها. ماذا عن وضع دولة مثل الصين مثلا، أو إسبانيا – حيث الإنسان لا يستطيع أن يمتنع عن تناول العشاء لأنه ببساطة لا يوجد عشاء؟ ومن أجل الحوار أيضا، ماذا عن فقدان الشهية الذى يحدث فى الأوقات التى تسير فيها الأمور على ما يرام؟

توقف وابتسم بتساؤله إلى چيريمى، ثم هز رأسه بالنفى وأكمل قائلاً:

- أحيانا توجد بهجة كثيرة بجانب البؤس الكثير. أحيانا يبدو وكأنه لا وجود لشيء سوى البؤس. هذا ما يمكن أن يقوله علماء التاريخ بما أنهم علماء تاريخ. أما لو كانوا لاهوتيين أو ميتافيزيقيين فيمكن أن يهذوا إلى ما لا نهاية، مثل ماركس أو سان أغسطين[٤] أو شبنجلر[٥].

علا وجهه اشمئزاز وقال:

- يا إلهى! أى هراء استطعنا أن نقوله على مدى آلاف السنين الماضية!

قال چيريمى فى إصرار:

- ولكنه ساحر أيضا. إنه هراء جيد حقاً...

قال مستر بروبتر:

- إننى همجى بحيث أفضّل المنطق. لذلك لو كنت أريد فلسفة التاريخ لذهبت لعالم نفسانى.

سأل چيريمى بدهشة:

- الطوطم أم التابو؟

قال مستر بروبتر بنوع من نفاد الصبر:

- لا لا، ليس هذا النوع من النفسانيين. أعنى النفسانى الدينى، هذا الذى يعرف من خلال الاختبار المباشر أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى التحرر والتنوير. إنه فيلسوف التاريخ الوحيد الذى ثبتت بالفعل افتراضاته عن طريق التجربة، ولذلك فهو الوحيد القادر على التعميم وتغطية الحقائق كلها.

٤- سان أغسطين: نسبة إلى القديس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠) ويعتبر من أشهر آباء الكنيسة الكاثوليكية ومن أشهر كتاباته «الاعترافات».

٥- شبنجلر: (١٩٣٦-١٨٨٠) نسبة إلى أوزوالد شبنجلر الفيلسوف الألمانى الذى كتب «سقوط الغرب».

قال چيريمى:

– وما هى تعميماته؟ مجرد الشىء المعتاد؟

ضحك مستر برويتر وأجاب:

– مجرد الشىء المعتاد، والحقائق القديمة المملة التى لا نستطيع الفرار منها. على المستوى البشرى، يعيش الإنسان فى جهل واشتياق وخوف. بعض السعادة المؤقتة تنتج عن الجهل والاشتياق والخوف، ولكن أيضا البؤس الكثير الأبدى، ثم فى النهاية الإحباط. إن نوع العلاج واضح، أما الصعوبات فى طريق تحقيقها فيكاد يكون تذليلها مستحيلا. لابد أن نختار بين الصعوبات التى يستحيل تذليلها تقريبا من ناحية، وبين البؤس المؤكد تماما والإحباط من ناحية أخرى. بينما الافتراض العام يبقى هو المفتاح الثقافى للتاريخ. إنه فقط النفسانى الدينى الذى يمكن أن يفهم أى شىء من بيروجينوز وماكيافيللى مثلا، أو من كل هذا.

أشار إلى أوراق الهوبيرك.

لمعت عينا چيريمى خلف نظارته وربت على صلعته وقال:

– إن عالِمك لا يريد أن يعرف كل هذا.

قال مستر برويتر بنوع من الحزن:

– نعم. أكاد أنسى ذلك.

تنحنح چيريمى وقال وهو يستشهد بمقولة «جنازة النحوىّ»:

«أعطونا عقيدة *الدى* التى تضاف فى آخر الكلمة»

قال مستر برويتر وهو يقوم من مقعده:

– أعطاها لنا من أجله هو. أعطاها لنا بالرغم من أن النحو الذى كان يذاكره كان غير علمىّ لدرجة ميئوس منها، ملىء بالميتافيزيقيا المتوارية، ساذجة جدا

وقديمة جدا. هذا ما لابد أن نتوقعه فيما أعتقد.

أخذ ذراع چيريمى وسارا معا نحو المصعد، ثم قال وقد عاد ذهنه إلى النحوىّ:

– كم غريب هذا العجوز براونج[٦]. إنه يتمتع بعقلية حادة الذكاء ولكن فى ذات الوقت كم كان أحمق. كل هذه الوقاحة العجيبة عن الحب الرومانسى! يدخل فيها الله، ويضعها فى الجنة، ويتحدث وكأن الزواج هو أعلى أنواع الزنا متساويين مع الرؤيا المغتبطة. يا لتفاهته! ولكن مرة أخرى، هذا ما ينبغى أن نتوقعه.

تنهد وقال بعد برهة:

– لا أدرى لماذا، ولكنى أجد نفسى متذكرا هذا السجع الذى قاله – ولا أذكر حتى من أية قصيدة – الذى يقول فيه «ذات ليلة قبّل روحى هناك فى ضباب الصباح الملتهب». روحى فى ضباب الصباح حقا! إننى حقيقة أفضّل تشوسير[٧] فى هذا الموضوع. هل تذكر؟ «هكذا استدارت زوجة النجار حول نفسها». إنها جملة موضوعية وجميلة، بلا تأكيد وخالية من الحشو. براونج كان يحب أن يستطرد دائما عن الله، ولكنى أعتقد أنه كان أكثر بعدا عن الحقيقة من تشوسير، حتى بالرغم من عدم تفكير تشوسير قط فى الله، كلما استطاع ذلك. لم يكن بين تشوسير والأبدية شيء سوى شهيته. أما براونج فكانت له شهيته بالإضافة إلى سيل من الهراء – والأسوأ من ذلك، كان هراء هادفا. مثلا، الصوفية الهرائية لم تكن مجرد هراء بدون مقابل، بل كانت ذات هدف. كانت موجودة لكى يتمكن براونج من أن يقنع نفسه أن شهيته مماثلة لله.

ثم كرر الجملة وهما يصعدان مع الفيرمير إلى القاعة الكبيرة:

٦– براونج: نسبة إلى روبرت براونج (١٨١٢–١٨٨٩) الشاعر الإنجليزى.

٧– تشوسير: نسبة إلى جيفرى تشوسير (١٣٤٠–١٤٠٠) الشاعر الإنجليزى ومن أشهر كتاباته حكايات كانتربرى والتى منها زوجة النجار.

- «هكذا دارت زوجة النجار حول نفسها». «روحى فى الضباب الملتهب».
غريب حقا الطريقة التى يمكن أن تتغير بها نوعية وجودنا كله من خلال تغيير الكلمات التى نفكر ونتكلم بها. إننا نطوف فى اللغة مثل قمم الجبال الثلجية فى المحيط - أربعة أخماس تحت السطح، بينما فقط خُمس واحد يبدو خارجا فى الهواء الطلق، وهى التجربة الآنية وغير اللغوية.

عبرا الردهة. كانت سيارة مستر برويتر واقفة خارج الباب الأمامى. سارا معا بالسيارة، نازلين فى الطريق المنحنى، مارين على البيوانات، وحورية جيامبولونيا، عبر الكهف، وتحت الحاجز الحديدى فى مدخل القلعة، ثم عبر الكوبرى.

قال مستر برويتر:

- إننى أفكر كثيرا فى هذا الولد المسكين الذى مات فجأة هكذا.

قال چيريمى:

- لم أكن أعلم أن قلبه هكذا مريض.

استمر مستر برويتر فى كلامه:

- بمعنى ما، أشعر أننى السبب فيما حدث. لقد طلبت منه أن يساعدنى فى ورشة النجارة، وجعلته يعمل كثيرا فيما أعتقد - بالرغم من أنه أصر أنه كان فى حالة جيدة. كان علىّ أن أعرف أن لديه كرامة - وأنه شاب يخجل من الاعتراف بعدم مقدرته على ذلك. إن الشخص منا يُعاقَب لأنه غير حساس وغير مدرك، وكذلك يعاقب الناس الذين لا نشعر تجاههم بمثل هذا الإحساس والإدراك.

مرا فى صمت عبر المستشفى وعبر مزارع البرتقال. قال چيريمى أخيرا:

- هناك شىء بلا معنى فى حالات الموت المفاجئ المبكر. هناك غياب الصلة الشديد...

تساءل مستر برويتر:

– الشديد؟ لا، لا يمكن أن أقول هذا. إنها ليست ذات صلة مثل أى تصرف إنسانى آخر. لو كانت تبدو أنها غير متصلة، فهذا فقط لأن الموت المبكر، دون الأحداث الممكنة كلها، هو الأكثر وضوحا فى عدم توافقه مع ما نتوقعه من أنفسنا.

قال چيريمى:

– ماذا تقصد؟

ابتسم مستر برويتر وأجاب:

– أقصد ما أعتقد أنك تعنيه. لو بدا شىء ما غير ذى صلة، لابد من وجود شىء ما هو غير ذى صلة به. إننا نظن أننا أحرار، وأننا كائنات ذات معنى، ولكن بين الحين والآخر تحدث أشياء لنا غير متوافقة مع هذا التصور. إننا نتحدث عنها باعتبارها حوادث، ونسميها بلا معنى وغير ذات صلة. ولكن ما هو المعيار الذى نحكم به؟ المعيار هو الصورة التى نرسمها لأنفسنا فى مخيلتنا – تلك الصورة الجميلة عن الروح الحرة التى تقوم بالاختيارات الخلاّقة، وعن كوننا سادة أقدارنا. مع الأسف هذه الصورة لا تشبه الحقيقة البشرية العادية قط. إنها صورة ما نود أن نكون، بل وقطعا ما يمكن أن نصبح عليه لو تكبدنا عناء ذلك. أما بالنسبة للكائن الذى هو فى الواقع عبد لظروفه، فلا يوجد شىء غير ذى صلة حول الموت المبكر. إنه تلك النوعية من الأحداث التى يتسم بها الكون الذى نعيش فيه – إلا أنه بالطبع ليس الكون الذى يعتقد الفرد، لفرط حماقته، أنه يعيش فيه. إن الحادثة هى تصادم قطار الأحداث على المستوى المُسيّر مع أحداث أخرى على مستوى الحرية. إننا نتصور أن حياتنا مليئة بالحوادث، لأننا نتصور أن وجودنا على المستوى البشرى مُعاش على مستوى الحرية. فى الواقع هو ليس كذلك، لأن معظمنا يعيش على

المستوى الآلى، حيث الأحداث تقع بالتوافق مع قوانين المجموع. الأشياء التى نسميها حوادث وغير ذات صلة، تنتمى للطبيعة الأصلية للعالم الذى اخترنا أن نعيش فيه.

صمت چيريمى لضيقه من أنه بكلمة غير مقصودة وضع نفسه فى موضع يُمكّن مستر بروبتر فيه أن يبين أن چيريمى مثالى دون الحاجة لذلك. سارا فترة دون كلام. قال چيريمى أخيرا:

– هذه الجنازة!

عاد ذهنه المدمن للنوادر إلى حيث الموضوع الملموس والغريب فى المسألة التى يتحاورون حولها.

– مثل شىء ما من رونالد فيربانك [٨]. لقد قلت للمستر هاباكوك أنه ينبغى أن يضع بعض البخار فى التماثيل لأنها لا تبدو حية بالقدر الكافى عندما تلمسها.

حرك يديه وكأنها فوق تمثال رخامى خيالى.

ابتسم مستر بروبتر الذى كان يفكر فى التحرر، وهز رأسه بأدب موافقا.

استمر چيريمى فى الحديث:

– والدكتور مالدج الذى قرأ الموعظة! لقد تحدث عن المسح بالزيت المقدس! لا يمكن أن يكون أكثر زيتا حتى من كاتدرائية إنجليزية. مثل الفازلين برائحة النبيذ. والطريقة التى قال بها أنا هو القيامة والحياة وكأنه بالفعل يعنيها، وكأنه هو، مالدج، شخصيا، يستطيع أن يضمن ذلك كتابةً، على أساس إرجاع النقود للمشترى إذا لم يحدث ذلك: إن تكلفة الجنازة كلها يمكن أن يرجعها لو أن العالم الآخر فشل فى أن يعطيك الرضاء الكامل.

٨– رونالد فيربانك: ممثل أمريكى.

قال مستر بروبتر متأملا:

– بل وغالبا يعتقد ذلك بالفعل. بطريقة بيكويكية[٩] بالطبع. أنت تعلم: إنه حقيقى ولكنك تتصرف دائما وكأنه ليس كذلك. الواقع الأكثر أهمية فى الكون، ولكنك لا تفكر فيه إن استطعت تجنبه.

قال چيريمى:

– وكيف تراه أنت؟ بيكويكيا أم غير بيكويك؟

أجاب مستر بروبتر بأنه لا يؤمن بمثل هذه القيامة والحياة، فاستمر چيريمى مثل الأب الذى أمسك ابنه وهو يقبّل الخادمة:

– آهه. آهه. إذن توجد أيضا قيامة بيكويكية؟

ضحك مستر بروبتر وقال:

– أعتقد ذلك.

وفى هذه الحالة، ماذا حدث لپيت المسكين؟

قال مستر بروبتر ببطء:

– بداية أعتقد أن پيت كبيت غير موجود على الإطلاق.

قال چيريمى:

– إذن هو سوبر بيكويك؟

اسمتر مستر بروبتر:

– ولكن جهل پيت وخوف پيت ورغباته – أعتقد أنها لا تزال تسبب مشاكل بشكل ما فى العالم. تسبب مشاكل لكل شىء وكل شخص، وخاصة لنفسها. نفسها فى أى شكل هى عليه الآن.

٩– بيكويكية: نسبة لشخصية بيكويك من رواية تشارلز ديكينز «أوراق بيكويك» والتعبير يعنى البساطة والكرم.

– ولو لم يكن بيت جاهلا وشهوانيا، فماذا بعد؟

قال مستر بروبتر:

– إذن بالطبع لن يوجد شيء يسبب المشاكل بعد.

ثم بعد برهة قال تعريف تولر عن الله:

– «الله كائن منسحب عن كائناته، قوة حرة، وعمل صافٍ»

أدار السيارة عن الطريق الرئيسى إلى الطريق الجانبى المملوء بأشجار الفلفل والملتف حول حدائق حرَم طارزانا. ارتفعت أمامهما القاعة الجديدة بصرامتها الرومانية. ركن مستر بروبتر سيارته وسط السيارات الشاهقة من الكاديلاك والكرايزلر والباكار المرصوصة أمام المدخل ودخلا. نظر إليهما المصورون الصحفيون ورأوا بنظرة واحدة أنهما ليسا من رؤساء البنوك، ولا ممثلى السينما، ولا محامىِ شركات، ولا رؤساء دينيين من أية كنيسة، ولا سيناتورات، فانصرفوا عنهما بتهكم.

كان الطلبة جالسين فى أماكنهم، وتحت نظراتهم اقتادهم المرشد إلى الصف المحجوز للضيوف المتميزين. وأى تميز! هناك، فى الصف الأول، كان يجلس سول ر. كاتزينبوم، رئيس شركات أفلام أبراهام لنكولن، وركن من أركان إعادة التسليح الأخلاقى، وهناك، بجانبه جلس مطران سانتا مونيكا، وهناك أيضا جلس مستر بيشيكانمولو، رئيس بنك الغرب الأقصى. وجلست دوقة يولالى الكبرى بجانب السيناتور باردولف، وفى الصف التالى كان يجلس أخوان من إخوان إنجلز وكذلك جلوريا بوسوم، والتى كانت تتحدث مع الأدميرال شوتوفيرك. أما الروب البرتقالى واللحية المموّجة كانا للسوامى يوجالينجارا، مؤسس مدرسة الشخصية، وبجانبه جلس نائب شركة بترول كونسول والسيدة واجنر...

فجأة بدأ الأرغن يعزف موسيقى سلام طارزانا.

دخل الطابور الأكاديمي، اثنين اثنين، بالملابس الطويلة والطرطور، ولوحات المونة وفي طرفها شرّابة، دكاترة في اللاهوت، والفلسفة، والعلوم، والقانون، والأدب، والموسيقى، وساروا الواحد تلو الآخر عبر الممر وصعدوا إلى المنصة، حيث المقاعد معدّة لهم في شكل قوس واسع للوراء. وقف الدكتور مالدج وسط المسرح، وخلف مكتب للقراءة. ليس بالطبع لأنه كان يقرأ (لأن الدكتور مالدج كان يفخر دائما بأنه يستطيع أن يتحدث إلى ما لا نهاية، بدون أوراق) ولكن المكتب كان موجودا حتى يستند إليه ويمسكه، ويميل للوراء بعيدا عنه، ويخبط عليه بكفه بتأكيد ومشاعر فيّاضة، وليمشي بعيدا عنه بشكل دراماتيكي، ثم ليعود إليه.

صمت الأرغن وبدأ الدكتور مالدج خطابه – بدأه بالطبع بالإشارة إلى مستر ستويت، هذا المستر ستويت الذي من خلال كرمه... تحقيق الحلم... تجسيد للمثُل في صورة أحجار... الرجل ذو الرؤيا. بدون الرؤيا يتلاشى الإنسان... ولكن هذا الرجل له رؤيا ... رؤيا حول ما ينبغي أن تكون عليه طارزانا. .. المركز والقبلة، وحاملة المشعل... كاليفورنيا... الثقافة الجديدة، والعلم الغني، والروحانية الأسمى... (وهنا تبدل صوت الدكتور مالدج من المزمار الجهير إلى البوق، ومن الفاسيلين المزود بنقطة من النبيذ، إلى الكحول الدسم غير المخفف) ولكن مع الأسف (وهنا نزل الصوت بأسف إلى الساكسفون واللانولين)، مع الأسف... لم يستطع أن يكون معنا اليوم... حادثة مفاجئة ... رحل عنا وهو على عتبة الحياة ... شاب صغير، مساعد في مجال العلوم، والتي قال عنها إنها قريبة إلى مستر ستويت مثل الخدمة الاجتماعية والثقافة ... الصدمة ... القلب الرقيق جدا تحت المظهر الخارجي الخشن ... وقد طلب منه طبيبه تغيير المكان فورا ... ولكن

بالرغم من الغياب بالجسد إلا أن روحه ... نشعر بها بيننا اليوم... ملهمة للكل، كبارا وصغارا ... شعلة الثقافة... المستقبل ... المُثُل ... روح الإنسان ... أشياء عظيمة تم إنجازها ... الله كان يسير بقوة وسط هذا الحَرَم ... يقويهم ويرشدهم ...، إلى الأمام ... متقدمين ... إلى أعلى ... الإيمان والرجاء ... الديمقراطية ... الحرية ... الميراث الذى لا يزول لواشنطن ولكنوكلن ... المجد الذى كان فى اليونان وُلِد من جديد بجانب مياه الباسيفيكى ... العلم ... المهمة ... القَدَر المتُجلى ... إرادة الله ... طارزانا.

انتهى أخيرا. بدأ الأرغن يعزف ثانية. عاد الطابور الأكاديمى عبر الممر، وقام الضيوف المميزون مهرولين خلفهم.

فى ضوء الشمس فى الخارج، أمسكت المسز بيشيكانيولو بتلابيب مستر بروبتر وقالت بحماس:

– أعتقد أن هذا كان خطابا مهما ورائعا.

هز مستر بروبتر رأسه بالإيجاب وقال:

– إنه خطاب أكثر إلهاما سمعته فى حياتى. والله يعلم كم سمعت منها أثناء حياتى.

الفصل الثانى

حتى لندن بدت مخففة قليلا في الشمس - تلك الشمس التى ظلت تضىء وتقوى أثناء سيرهم بالسيارة ، عبر دخان الضواحى الخارجية المتلاشى، إلى أن وصلوا إلى مكان ما بجانب إشير، وبدا ذلك الصباح من أبهج أوقات بدايات الربيع.

كان مستر ستويت راقدا تحت سجادة من الفرو، فى خط قُطرى على المقعد الخلفى للسيارة. كان قد عاد للمهدئات، ولكن هذه المرة من أجله هو وليس من أجل طبيبه، ووجد أنه من الصعوبة بمكان أن يظل مستيقظا قبل موعد الغداء. أخذ يتنفس بصوت شخير عال، إذ نام تقريبا منذ اللحظة التى قاموا فيها من الريتز[1].

جلست فيرجينيا فى المقعد الأمامى بعينين شاحبتين حزينتين، تجترّ فى صمت تعاسة لم تستطع أيام ممطرة على الأطلنطى وثلاثة مثلها فى وجوم لندن أن تزيلها.

كان الدكتور أوبيسبو، والذى فضّل فى هذه الرحلة ألا يصطحب معه سائقا، يصفر لنفسه أثناء قيادته للسيارة، بل وكان يغنى بصوت عال - يغنى «إننى واقع فى الغرام»، ويغنى «هل تظن بعض الخمر يؤذينا؟»، ويغنى «أحلم أنى أعيش فى بهو من الرخام». كان الجو الجميل مسئولا بعض الشىء عن هذه البهجة - وقت الربيع هو وقت البهجة الكبيرة، هذا بالإضافة إلى الزهور الصفراء، والغابات الصغيرة، وهل يمكن أن ينسى دهشته عندما بدأ الإنجليز يتحدثون عن الشرطة ولكن بالمفرد ويضعون هذه الكلمة فى حديث يبدو خارج موقعه مثل فلنذهب للشرطة[2] لنجمع بعض الورود. شىء غريب مثل طفيليات الأمعاء، بل وأفضل

١- الريتز: سلسلة فنادق شهيرة .

٢- الشرطة: الكلمة بالإنجليزية هى «كوبس»، وتعنى باللغة الأمريكية الشرطة، ولكنها باللغة البريطانية «كوبيس» وتنطق كوبس باللغة الدارجة، وتعنى الغابات ذات الأشجار الصغيرة

من الشبوط. مما يأتى بنا لسبب سعادته الثانى بالحياة، إذ كانوا فى طريقهم لرؤية السيدتين العجوزين أصحاب الهوبيرك ، أى فى طريقهم غالبا لاكتشاف شيء مثير عن الإيرل الخامس، وشيء مثير عن العلاقة بين الشيخوخة والطفيليات وأمعاء الشبوط.

انفجر فى الغناء مرة أخرى مقلدا الغناء الأوبرالى:

– «أحلم أننى أعيش فى بهو من الرخام، وبجانبى تابعون وعبيد، ومن بين كل المجتمعين، بين هذه الجدران، كنت أنا الأمل والفخر».

استدارت إليه فيرجينيا فجأة بعد أن كانت جالسة بجانبه فى صمت متحجر ويؤس، قالت وهى تكاد تصرخ محطمة الصمت الذى طال بعد خروجهم من كينجستون– على – تيمز:

– بحق السماء ألا تستطيع أن تسكت؟

تجاهل الدكتور أوبيسبو اعتراضاتها واستمر فى الغناء وهو يضحك فى داخله لأن كلامه أصبح حقيقة: «لدى ثروات يصعب إحصاؤها». ولكن لا. إن هذه مبالغة. ليس أنه لا يمكن إحصاؤها. ولكن مجرد ثروة صغيرة جميلة، ما يكفى لإعطائه الأمان والوسيلة لاستمرار أبحاثه بدون تضييع وقته مع مرضى كثيرين، المفترض أصلا أن يموتوا. مائتا ألف دولار نقدا، وأربعة آلاف وخمسمائة فدان من الأراضى فى وادى سان فيليبى – الأرض التى حلف العم چو بتأكيد أنها على وشك أن تصلها مياه الرى. (وإذا لم يحدث ذلك فيالله! كم سيلوى ذيل الصقر العجوز!) هبوط مفاجئ بسبب روماتيزم فى القلب. كان يمكن أن يطلب أكثر بكثير من مائتى ألف لشهادة الوفاة تلك. خاصة «أنها لم تكن الخدمة الوحيدة التى أداها. لا يا سيدى! كان عليه أيضا تنظيف الفوضى كلها. وقد فسدت البدلة ذات اللون الغزالى،

وذات الخمسة وتعسين دولارا، بعد كل هذا! وكان لابد من إبعاد الخدم، ووضع البيبي في سريرها بحقنة كبيرة من المورفين، والحصول على الإذن بحرق الجثة من أقرب قريب للمتوفى، وكانت هذه القريبة هي أخت تعيش، والحمد لله، تحت ظروف صعبة في بيناسكولا بفلوريدا وبالتالي لحسن الحظ لم تقدر على مصروفات المجيء إلى كاليفورنيا لحضور الجنازة. ثم بعد ذلك أصعب كل هذه الأشياء، وهو البحث عن حانوتي غير أمين، واكتشاف نصاب مُحتمَل، والمقابلة المليئة بالإشارات المتوارية، عن حدوث حادثة أليمة ينبغي التغطية عليها، ووجود نقود ليست قضية بالمرة بشكل عملي، ثم بعد أن بدأ الشخص هذا في خطابه المنافق الذي يتظاهر فيه بالتقوى والصلاح، متحدثا عن واجبه لخدمة مواطن مهم ليتجنب دعاية سيئة، تغيرت طريقة الكلام فجأة، وبدأ الكلام العملي حول الحقائق التي لا يمكن تجنبها، والقصص التي لابد أن يحكوها، والمفاوضات حول الثمن. وفي النهاية وافق مستر بينجو على ألا يلاحظ الثقوب في جمجمة بيت في مقابل مبلغ ضئيل هو خمسة وعشرون ألف دولار.

– «لدي ثروات كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وأستطيع أن أتفاخر باسم عريق».
نعم. لقد فكر الدكتور أوبيسبو وهو يغني أنه كان يستطيع أن يطلب مبلغا أكبر بكثير. ولكن لماذا؟ لقد كان رجلا منطقيا. بل وتستطيع أن تسميه فيلسوفا، متواضعا في طموحه، غير عابئ بالنجاح في هذا العالم، ذا ذوق بسيط جدا لدرجة أن أكثرالطموحات إغراء، خارج مجال البحث العلمي، يمكن إرضاؤها في معظم الأحوال تقريبا بلا مقابل، بل وأحيانا بمكسب خالص، مثل ذلك الوقت الذي أعطته فيه السيدة بوخانس علبة السجائر الذهبية كنوع من العرفان بالجميل – ثم تلك الأزرار اللؤلؤية التي أعطتها له جوزفين، وأزرار القميص الخضراء مكتوب عليها

الأحرف الأولى من اسمه بالماس، والتي أعطته إياها ما اسمها...

- «ولكنني أيضا حلمت بما أعطاني سعادة أكثر»

رفع صوته في الغناء إلى نبرة عالية:

- «إنك تحبينني مثل أيام زمان، إنك تحبينني مثل أيام زمان، إنك تحببي..بيي...نني...»

استدار لحظة من طريق بورتسموث لينظر إلى وجه فيرجينيا المبتعد عنه، ورمقها بنظرة مستمتعة وتساؤل ساخر، وقال للمرة الرابعة بتأكيد شديد وإثارة للشفقة:

- «أنك تحبينني مثل أيام زمان»

نظر مرة أخرى إلى فيرجينيا، لكنها ظلت تنظر أمامها مباشرة، ممسكة بشفتها السفلى بين أسنانها وكأنها تتألم ولكن متخذة قراراً بعدم الصراخ.

ابتسم مثل الذئب وقال:

- هل حلمي حقيقي؟

لم تجبه البيبي. أخذ مستر ستويت يشخر في المقعد الخلفي مثل كلب بولدوج.

قال مغنيا في إصرار وهو يدير السيارة إلى اليمين ويسرع ليعبر طابوراً من لوريات الجيش:

- هل تحبينني مثل الأول؟

تركت البيبي شفتها وقالت:

- أستطيع أن أقتلك.

وافقها الدكتور أوبيسبو وقد اتسعت ابتسامته، وبرزت أسنانه أكثر مع كل كلمة:

- بالطبع تستطيعين. ولكنك لن تفعلي لأنك تحببيي..بيي..نني كثيراً. أو

بالأحرى لا تحبيننى أنا، بل تحبين...

توقف لحظة، ثم أكمل قائلا:

– دعينا نضعها بشكل أكثر شاعرية – لأنه لا يمكننا أن نأخذ الشعر كله، ألا توافقين؟ إنك تحبين الحب، تحبينه لدرجة أنك عندما أردت تركى لم تستطعى، لأنه بالرغم من أية مشاعر تشعرين بها تجاهى، فإننى الولد الذى يعطى الحب.

بدأ يغنى ثانية:

– «لقد حلمت أننى قتلت الفرخة التى تبيض ذهبا»

أغلقت فيرجينيا أذنيها بيديها فى محاولة لغلق صوته – صوت الحقيقة البشع. طبعا كان هذا حقيقيا. حتى بعد موت پيت، وحتى بعد أن وعدت السيدة العذراء أنها لن تجعل هذا يحدث ثانية أبدا أبدا، فقد حدث ثانية.

استمر الدكتور أوبيسبو فى ارتجاله الغنائى:

– «وهكذا أضعت التبرير لإظهار سيقانى»

ضغطت فيرجينيا أكثر على أذنيها.

لقد حدث ثانية حتى بالرغم من أنها قالت لا، وحتى عندما ثارت عليه وقاومته، وخدشته بأظافرها، ولكنه ضحك فقط واستمر، ثم فجأة تعبت من مقاومته. تعبت وأصبحت أكثر بؤسا. كان له ما أراد، والشيء الفظيع حقا أنه بدا لها أيضا أن هذا ما أرادته هى كذلك – أو بالأحرى، ما أراده بؤسها، لأن البؤس كان يذهب لفترة، وتستطيع آنذاك أن تنسى الدماء، وتستطيع أن تنام. ولكن فى الصباح التالى تكره وتحتقر نفسها أكثر من ذى قبل.

استمر الدكتور أوبيسبو فى الغناء:

– «عندى كهوف وشموع وأشياء كثيرة»

ثم بدأ يتحدث:

- «هذا بالإضافة إلى الأصنام، والآثار، والصلوات الهندوسية وعجلات الصلاة، والهراء، وجُبة الكهنة، ولكنى أيضا حلمت - وهذا ما أسعدنى كثيرا» - أو بالأحرى قليلا حتى يكون السجع مع كثيرا.

فتح فمه وأعطى أعلى نبرات صوته وغناها قائلا:

- «إنك تحبيننى مثل الأول، أنك تحبى ... بيى.. بى... ننى...»

صاحت فيرجينيا بأعلى صوتها:

- توقف!

انتفض العم چو قائلا:

- ماذا حدث؟

قال الدكتور أوبيسبو:

- إنها تعترض على غنائى. لا أعلم لماذا. لدى صوت ساحر، وهو مناسب جدا بشكل خاص مع مسرح صغير مثل هذه السيارة.

ضحك ملء قلبه فى سعادة. إن حركات البيبى المتأرجحة ما بين بيريابس[٣] والكهف المقدس تعطيه متعة حقيقية. هذا بالإضافة إلى الجو الجميل، والورود فى المزارع، وكونه سيعرف شيئا حاسما حول الستيرول وكبر السن. كل هذا أعطاه فورة من السعادة.

كانت الساعة حوالى الحادية عشرة والنصف عندما وصلوا إلى مأربهم. لم يجدوا بوابا فى المكان فاضطر الدكتور أوبيسبو أن ينزل ويفتح البوابة بنفسه.

فى الداخل، كان ممر السيارات مملوءا بالحشائش النامية، وقد سقطت الحديقة

٣- بيريابس: إله الخصوبة اليونانى ويقال إنه إبن أفروديت وديونيسيوس.

فى فوضى الطبيعة غير المعدّلة. بقيت الأشجار الميتة ملقاة حيث سقطت من جراء عواصف مضت، بينما جذع الأشجار الحية منها كانت مملوءة بالطفيليات الكبيرة التى تشبه الكعك إلشاحب، وقد تحول الزرع الزينة إلى غابات لا يمكن اختراقها بسبب العلّيق. شرفات المراقبة الإغريقية كانت معلقة فوق الطريق فى حطام. عبروا الدوران فظهر البيت، وكان يعقوبيا من ناحية، ومُزينا غوطيا من القرن التاسع عشر من الناحية الأخرى. السياج المصنوع من شجيرات الطُقسوس ارتفع ليصبح حوائط عالية من الزرع الأشعث، وفى مكان أحواض الأزهار، ظهرت دوائر من اللون الأخضر الداكن من الحُمّيض، ومستطيلات من بذور الأشواك والأنجرة، بينما فوق حشائش الحديقة الطويلة العشبية، غير المرعية، برزت قمم خِطافات لعبة الكروكيه الصدئة.

أوقف الدكتور أوبيسبو السيارة أمام السلم الأمامى ونزل منها. اندفعت فجأة فتاة لا يزيد عمرها عن الثمانى أو التسع سنوات، خارجة من نفق الأشواك والأنجرة. عندما لمحت السيارة وركابها، توقفت، وبدأت تتراجع، ولكن بعد نظرة أخرى طمأنتها، تقدمت للأمام، ثم قالت بلغة إنجليزية جنوبية:

– انظر ما لدى.

مدت يدها وكانت ممسكة بقناع غاز مقلوب، مملوء بالورود.

ضحك الدكتور أوبيسبو بسعادة بالغة وقال:

– الشرطة! لقد جمعتِها من الشرطة!

ربت على شعر الفتاة الكتانى، وقال:

– ما اسمك؟

أجابت الفتاة:

– ميللى.

ثم بنبرة تفاخر فى صوتها أكملت قائلة:

– لم أذهب إلى مكان منذ خمسة أيام.

– خمسة أيام؟

هزت ميللى رأسها بالإيجاب وقالت:

– تقول جدتى إنها ستأخذنى للطبيب.

هزت رأسها ثانية، ونظرت إليه كمن أعلن توا أنه سيذهب فى رحلة إلى بالى.

قال الدكتور أوبيسبو:

– أعتقد أن جدتك على حق تماما. هل تعيش جدتك هنا؟

هزت الطفلة رأسها بالإيجاب وقالت:

– إنها فى المطبخ.

ثم أضافت دون داعٍ:

– إنها صماء.

قال الدكتور أوبيسبو :

– وماذا عن الليدى چين هوبيرك؟ هل تعيش هنا؟ والثانية – الليدى آن، أليس هذا اسمها؟

هزت الطفلة رأسها بالإيجاب، ثم بتعبير شقاوة وخبث على وجهها قالت:

– هل تعرف ماذا تفعل الليدى آن؟

– ماذا تفعل؟

أشارت ميللى له كى يقترب منها حتى تضع فمها بجانب أذنه، وقالت هامسة:

– إنها تصدر أصواتاً من بطنها.

– هل هذا معقول؟

قالت الطفلة بشاعرية:

– مثل غناء العصافير. تفعل ذلك بعد الغداء.

ربت الدكتور أوبيسبو ثانية عى شعرها الكتانى وقال:

– نريد أن نرى الليدى آن والليدى چين.

قالت الفتاة بنبرة تكاد تكون فزعا وقالت:

– تراهما؟

– هل تستطيعين أن تدخلى ونطلبى من جدتك أن تدخلنا؟

هزت ميللى رأسها بالنفى وقالت:

– لن تفعل ذلك. جدتى لن تدخل أحدا. بعض الناس جاءوا لمثل هذه الأشياء. (رفعت قناع الغاز) وغضبت الليدى چين حتى أننى خفت منها. ولكنها كسرت أحد المصابيح بعصاها – أتعرف دون أن تقصد – طاخ! وتفتت الزجاج إلى قطع صغيرة على الأرض، وقد أضحكنى هذا.

قال الدكتور أوبيسبو:

– هذا حسن جدا لك. لماذا لا نجعلك تضحكين ثانية؟

نظرت إليه الطفلة بتشكك وقالت:

– ماذا تقصد؟

تظاهر الدكتور أوبيسبو بتعبير تآمرى، وخفض صوته وقال هامسا:

– أعنى يمكنك أن تدخلينا عن طريق باب جانبى، ونسير نحن على أطراف أصابعنا هكذا...

سار عبر الطريق على أطراف أصابعه ليريها كيف وقال:

- ثم نظهر فجأة فى الغرفة التى تجلسان فيها ونفاجئهما. وربما آنذاك تكسر الليدى چين مصباحاً آخر، فنضحك ونضحك ونضحك. ما رأيك فى هذا؟

قالت الطفلة فى تشكك:

- سوف تغضب جدتى كثيرا.

- لن نقول لها إنك فعلتِ ذلك.

- سوف تكتشف ذلك.

قال الدكتور أوبيسبو بثقة:

- لا لن تفعل.

ثم غير نبرة صوته وقال:

- هل تحبين الحلويات؟

نظرت الطفلة إليه بلا تعبير.

قال محاولا إغراءها:

- الحلويات الجميلة؟

ثم تذكر فجأة أنه فى هذه البلد الملعون لا يسمون الحلويات بالحلويات. ماذا يسمونها بحق الجحيم؟ ثم تذكر:

- حلوى جميلة!

اندفع إلى السيارة وعاد حاملا معه صندوق الشكولاته غالى الثمن الذى اشتروه لكى تأكل منه فيرجينيا عندما تشعر بالجوع فى الطريق. فتح الغطاء وجعل الطفلة تشمه مرة واحدة، ثم أغلقه ثانية وقال:

- دعينا ندخل ويمكنك أخذها كلها.

بعد خمس دقائق كانوا يشقون طريقهم عبر النافذة الفرنسية الغوطية فى الناحية

التى تمثل القرن التاسع عشر من المنزل. فى الداخل كان الشفق برائحة التراب والعفن الجاف وكرات العثة. استطاعوا بعد أن اعتادت عيونهم الظلام تدريجيا أن يروا مائدة بلياردو مكسوة بالقماش، ورف مدخنة عليها ساعة مطلية بماء الذهب، وأرفف مكتبة عليها روايات ويفرلى[٤] بغطائها الجلدى باللون الأحمر الداكن، والطبعة الثامنة للموسوعة البريطانية، وصورة كبيرة تعبر عن حفل تعميد الملك إدوارد السابع، ورؤوس خمس أو ست من الإيل. وفوق الحائط بجانب الباب كانت خريطة كريميا عملقة، وعليها أعلام من الدبابيس الصغيرة تشير إلى أماكن سيفاستوبول وألما.

قادت ميللى الطريق وهى لا تزال تحمل قناع الغاز المملوء بالورود فى يد، بينما إصبع يدها الأخرى موضوع فوق شفتيها، وكانت تسير على أطراف أصابعها عبر الممر وعبر حجرة الاستقبال المظلمة، ثم عبر بهو وممر آخر. فجأة توقفت وانتظرت الدكتور أوبيسبو حتى وصل إليها وأشارت بيدها.

قالت هامسة:

– هذه هى الحجرة.

دون كلمة، أعطاها الدكتور أوبيسبو علبة الشيكولاته، فاختطفتها الطفلة مثل الحيوان الذى اختطف شيئا ما، وجرت أمام فيرجينيا ومستر ستويت، وعبر الممر المظلم لتستمتع بجائزتها فى أمان. نظر إليها الدكتور أوبيسبو حتى اختفت ثم استدار إلى زملائه. تشاوروا فى همس ثم فى النهاية اتفقوا على أن يدخل الدكتور أوبيسبو بمفرده.

٤– ويفرلى: الرواية الأولى من كتابات سير والتر سكوت الكاتب البريطانى ونشرت عام ١٨١٤.

تقدم للأمام وفتح الباب فى هدوء ودخل، ثم أغلقه خلفه.

فى الخارج، فى الممر، انتظرت البيبى والعم چو فترة بدت لهما وكأنها ساعات، ثم فجأة تصاعدت أصوات مرتبكة وضوضاء انتهت بأن خرج الدكتور أوبيسبو فجأة، وصفع الباب بشدة ووضع مفتاحاً فيه وأغلقه.

بعد ثوان كان المقبض من الداخل يهتز بشدة وعنف وصرخ صوت عجوز وحاد:

- كيف تجرؤ؟

ثم بدأ قرع على الباب بعصا أبنوسية وصرخ الصوت:

- أعطنى هذه المفاتيح. أعطها لى فورا.

وضع الدكتور أوبيسبو المفتاح فى جيبه وعبر الممر بوجه يملؤه الرضا وقال:

- إنهما أقبح عجوزين رأيتهما فى حياتى. واحدة على كل جانب من المدفأة مثل الملكة فيكتوريا والملكة فيكتوريا.

صوت آخر انضم للأول، وتضاعف القرع وجذب المقبض.

صاح الدكتور أوبيسبو بتهكم:

- اخبطا كما شئتما.

ثم دفع مستر ستويت بيد، وأعطى البيبى خبطة معتادة على مؤخرتها باليد الأخرى وقال:

- هيا بنا. هيا.

قال مستر ستويت بصوت يبدو فيه الضيق والارتباك:

- هيا إلى أين؟

لم يستطع معرفة سبب مقنع لهذه الرحلة اللعينة عبر الأطلنطى - إلا بالطبع أنها فرصة لابتعاده عن القصر. نعم، كان لابد أن يبتعدوا عن القصر. لا شك فى

ذلك. بل فى الواقع إن السؤال الوحيد الآن هو هل سيتمكنوا من العودة ثانية إليه أم لا بعد ما حدث – أو إن كانوا سيقدرون على الاستحمام فى حمام السباحة ذاك أم لا مثلا! يا للمسيح! عندما يفكر فى هذا...

ولكن لماذا الذهاب إلى إنجلترا؟ فى مثل هذا الفصل من العام؟ لماذا ليست فلوريدا أو هاواى؟ ولكن لا، لقد أصر الدكتور أوبيسبو على إنجلترا، وكله بسبب عمله، فقد يجد شيئا مهماً يكتشفه هناك. على أية حال، لا يستطيع أن يقول لا لأوبيسبو – ليس الآن، وليس بعد. ثم أنه لا يستطيع أن يعيش بدون الرجل.أعصابه، وجهازه الهضمى – كلها أشلاء. ثم أنه لا يستطيع أن ينام بدون المخدر، ولا يمكن أن يمر بجانب شرطى فى الشارع دون أن يفقد قلبه دقة أو اثنتين. ويمكنك أن تقول إن الله محبة، ولا يوجد موت حتى يزرق وجهك، ولكن لا يوجد فرق. كان عجوزا ومريضا، وكان الموت يقترب أكثر فأكثر، ولو لم يفعل أوبيسبو شيئا سريعا، لو لم يكتشف شيئا قريبا...

فى الممر المظلم توقف مستر ستويت فجأة وقال بقلق بينما تقرع السيدتان باب سجنهما بعصاهما الأبنوسية:

– أوبيسبو هل أنت متأكد تماما أنه لا يوجد شىء اسمه جهنم؟ هل تستطيع إثباتها؟

ضحك الدكتور أوبيسبو وقال:

– هل تستطيع إثبات أن الجانب الآخر من القمر لا يسكنه أفيال خضراء؟

قال مستر ستويت فى لوعة:

– لا ولكن حقا...

قال الدكتور أوبيسبو بمرح:

- حقا، لا يمكن أن أثبت شيئا حول أى شىء لا يمكن إثباته.

لقد تناقش هو ومستر ستويت فى هذا من قبل. كان هناك شىء كوميدى جدا فى منطق الرجل العجوز وذعره غير المنطقى.

استمعت البيبى فى صمت. هى كانت تعرف عن الجحيم. تعرف ماذا يمكن أن يحدث لو ارتكبت خطايا مميتة - خطايا مثل أن تجعل هذا يحدث ثانية حتى بعد أن وعدت السيدة العذراء أنها لن تحدث. ولكن السيدة العذراء كانت طيبة ورائعة. ثم فى النهاية كان كل شىء فى الواقع ذنب هذا المتوحش سيج. كانت نواياها نقية جدا، ثم جاء سيج وجعلها لا تلتزم بوعودها. سوف تفهم ذلك السيدة العذراء. الشىء الفظيع أنه حدث ثانية، عندما أجبرها على ذلك. ولكن حتى آنذاك لم يكن حقيقة ذنبها - لأنها بعد كل شىء، كانت قد مرت فى هذه التجربة البشعة، فلم تشعر أنها بحالة جيدة، وكانت...

بدأ مستر ستويت ثانية:

- ولكن هل تعتقد أن جهنم شىء ممكن؟

قال الدكتور أوبيسبو بمرح:

- كل شىء ممكن.

أدار أذنه ليسمع ما تقوله العجوزان الشمطاوان خلف الباب.

- هل تعتقد أن هناك نسبة واحد فى الألف أنه حقيقى؟ أو واحد فى المليون؟

ضحك الدكتور أوبيسبو وهز أكتافه وقال:

- اسأل باسكال.

سأل مستر ستويت وهو يمسك بيأس فى أية قشة وكل قشة :

- من هو باسكال؟

قال الدكتور أوبيسبو صائحا بسعادة:

– إنه ميت. ميت مثل مسمار فى الباب. والآن هيا بحق الإله!

جذب العم چو من ذراعه وجره عبر الردهة.

مرت أصداء الكلمة داخل مخيلة مستر ستويت وقال معترضا:

– ولكنى أريد أن أتأكد.

– تتأكد مما لا يمكن أن تعرف.

– لابد أن هناك طريقة ما.

– لا توجد. لا طريق سوى الموت ورؤية ماذا يحدث آنذاك. أين تلك الطفلة بحق الجحيم؟

ثم فى صوت آخر نادى وقال:

– ميللى!

خرجت الطفلة من وراء حامل الشماسي بوجه ملطخ بالشيكولاته. سألت بفم مملوء:

– هل رأيتهما؟

هز الدكتور أوبيسبو رأسه بالإيجاب وقال:

– ظنًا أننى من المحذرين ضد الغارات الجوية.

قالت الطفلة فى حماس:

– هذا هو. هذا ما جعلها تحطم المصباح.

قال الدكتور أوبيسبو بلهجة آمرة:

– تعالى هنا يا ميللى. أين باب القبو؟

مرت سحابة خوف على وجه ميللى وأجابت:

- إنه مغلق.

هز الدكتور أوبيسبو رأسه وقال :

- أعلم ذلك. ولكن الليدى چين أعطتنى المفاتيح.

أخرج من جيبه حلقة معلق فيها ثلاثة مفاتيح كبيرة.

قالت الطفلة هامسة:

- يوجد عفريت هناك فى الأسفل .

- نحن لا نقلق من العفاريت.

قالت ميللى:

- جدتى تقول إنهم بشعون. تقول إنهم مزمنون.

ثم بصوت نحيب قالت:

- جدتى تقول إننى إذا لم أذهب لمكان ما بشكل منتظم فسوف يأتى العفريت ورائى. ولكنى لا أستطيع أن أمنع ذلك.

بدأت الدموع تنهمر:

- ليس ذنبى.

قال الدكتور أوبيسبو وقد نفد صبره:

- بالطبع ليس ذنبك. ولا ذنب أى أحد. حتى الإمساك. ولكن الآن أريدك أن ترينا باب القبو.

هزت ميللى رأسها بالنفى وهى لا تزال تبكى وقالت:

- إننى خائفة.

- ولكنك لن تضطرى للنزول إلى البهو. فقط أرينا مكان الباب.

- لا أريد ذلك.

قال الدكتور أوبيسبو:

– ألن تكوني فتاة لطيفة وتأخذينا للباب؟

هزت ميللى رأسها بالنفى فى خوف عنيد.

اندفعت يد الدكتور أوبيسبو وجذبت صندوق الشيكولاته من يد الطفلة وقال :

– لن أعطيك الحلويات.

ثم أضاف بضيق:

– أقصد الحلوى.

صرخت ميللى فى لوعة وحاولت استرداد الصندوق، ولكنه أمسكه عاليا بعيدا عنها وقال:

– فقط عندما ترينا باب القبو.

وحتى يُظهر لها أنه جاد، فتح الصندوق وأخذ مجموعة من الشيكولاته وأخذ يضعها الواحد تلو الآخر فى فمه، وقال وهو يمضغها:

– أليست لذيذة! كم هى رائعة! أتعلمين، إننى سعيد أنك لن ترينا الباب حتى أستطيع أن آكلها كلها.

أخذ قضمة أخرى وأظهر سعادة بالغة وقال:

– آه كم هى جميلة! جميلة!

تلمّظ بشفتيه وقال:

– مسكينة ميللى! لن تحصل على أى منها.

أخذ البعض منها ثانية، وفى كل مرة كانت ترى الشيكولاته البنية الجميلة تختفى بين فكّى الدكتور أوبيسبو كانت الطفلة تصرخ راجية:

– لا، أرجوك لا.

ثم جاءت لحظة أصبح فيها الجشع أقوى من الخوف فصاحت مثل الضحية التى أذعنت للتعذيب فوعدت أن تعترف:

- سوف أريك أين هو.

كأن التأثير مثل السحر. وضع الدكتور أوبيسبو الثلاث قطع التى كان ممسكا بها فى مكانها، وأغلق الصندوق. مد يده للطفلة وقال:

- هيا بنا.

قالت:

- أعطينى الصندوق.

هز الدكتور أوبيسبو رأسه بعدم الموافقة لأنه كان يفهم مبادىء الدبلوماسية، وقال:

- ليس قبل أن تأخذينا للباب.

ترددت ميللى لحظة، ثم خضعت لضرورة أن تبقى على جانبها هى من الاتفاق، وأخذت يده.

ساراً خارج البهو، يتبعهما العم چو وفيرجينيا، وعادا لغرفة الاستقبال، عبر الممر، ومرورا بخريطة الكريميا، ثم عبر حجرة البلياردو، ثم ردهة أخرى إلى مكتبة كبيرة. كانت الستائر الحمراء القطيفة مغلقة، ولكن تسرب منها بعض الضوء. حول الغرفة كلها، كانت هناك طبقات كثيرة من الكتب الكلاسيكية المغلفة باللون البنى والأزرق والأحمر الداكن، وكانت صاعدة إلى ارتفاع يصل إلى ثلاثة أقدام قبل السقف، وبين الحين والآخر، وبشكل منتظم، عبر الكرنيش الخشبى المصنوع من شجر المغنة كانت تقف تماثيل الموتى المبجلين النصفية. أشارت ميللى إلى دانتى وهمست بثقة كبيرة:

- هذه هى الليدى چين.

صاح متسر ستويت فجأة:

- بحق المسيح! ما الفكرة من كل هذا؟ ماذا تظنونا فاعلين بحق الجحيم؟

تجاهله الدكتور أوبيسبو وسأل:

- أين الباب؟

أشارت الطفلة. بدأ يصيح فى غضب:

- ماذا تعنين؟

ثم رأى أن ما كان يظنه مجرد جزء آخر من الأرفف المملوءة بالكتب، كان فى الواقع مجرد وجهة أمامية زائفة من الأخشاب والجلود، تشبه الثلاثة والثلاثين مجلدا للمواعظ المجموعة لمطران ستيللنجفليت[٥]، ثم - وهنا لاحظ لمسات الإيرل الخامس - وجد كذلك الأعمال الكاملة فى سبع وسبعين مجلدا، لدونايتين ألفونس فرانسوا، الماركيز دى ساد. وبتدقيق أكثر، رأى ثقب المفتاح.

قالت الطفلة:

- أعطنى الحلوى.

لكن الدكتور أوبيسبو لم يأخذ أية مخاطرات فقال:

- ليس قبل أن نتأكد أن المفتاح يدخل فى الثقب.

حاول مرة ولكنه نجح فقط فى المرة الثانية.

قال لميللى وهو يعطيها الشيكولاته وفى ذات الوقت يفتح الباب:

- ها هى.

صرخت الطفلة فى ذعر واندفعت تجرى بعيدا.

٥- ستيلينجفليت: نسبة إلى إدوارد ستيلينجفليت (١٦٣٥-١٦٩٩) واعظ وكاتب بريطانى.

قال مستر ستويت بعدم ارتياح:

– ما الفكرة؟

أجاب الدكتور أوبيسبو:

– الفكرة هى أنك ربما لن تحتاج لمعرفة إن كان يوجد مكان مثل الجحيم أم لا، على الأقل لفترة، وربما لفترة طويلة.

نظر إلى أسفل السلالم التى هبطت بضع أقدام فى الظلام الدامس ثم قال:

– آه، حمدا لله! سوف نرى بعض الضوء.

بجانب الباب من الداخل مباشرة وجد مصباحين قديمين. رفع الدكتور أوبيسبو واحداً منهما ورجه، ثم رفعه إلى أنفه. كان به بعض الزيت. أشعل الاثنين وأعطى واحدا لمستر ستويت، وأخذ الثانى، ثم تقدمهما ليقود الطريق بحذر، نازلين السلم.

كان النزول طويلا، وفى نهايته وصلوا إلى غرفة مستديرة منحوتة فى الصخور الصفراء، بها أربعة أبواب، اختاروا منها واحدا وساروا عبر ممر ضيق إلى حجرة أخرى بها بابان آخران. وجدوا زقاقا مغلقا ثم سلالم أخرى مؤدية إلى كهف مملوء بالقمامة العتيقة. لم يجدوا شيئا آخر، فعادوا من حيث بدأوا إلى الغرفة المستديرة، وجربوا الباب الثانى. مجموعة من السلالم الأخرى نازلة ثم مجموعة متعاقبة من الحجرات الصغيرة. واحدة منها كانت مغطاة بالجبس، وعليها خربشة من الكتابة الفاحشة بخط يشير إلى أنه من بدايات القرن الثامن عشر. نزلوا سريعا عبر سلم آخر قصير إلى حجرة مربعة كبيرة، بها مصعد مناجم يؤدى إلى ضوء بعيد أبيض عبر الصخور. وكان هذا كل شيء. عادوا مرة أخرى. بدأ مستر ستويت يسب ويلعن، ولكن الدكتور كان مصرا على الاستمرار. جربوا الباب الثالث، فوجدوا ممرا وثلاث حجرات. بعد فتحتين من الأخيرة كانت غرفة منها تحوى حائطاً حجريًا

عالياً، بينما الثانية مؤدية إلى ممر على مستوى أدنى. هبطوا ثلاثين أو أربعين قدما فوجدوا فتحة على الناحية اليسرى. أدار الدكتور أوبيسبو مصباحه تجاهها، فأظهر الضوء تجويفاً بالحائط، وفى نهايته، على قاعدة تمثال مزخرفة، وقف تمثال مقلد من الرخام لفينوس ميديتشى(٦).

قال مستر ستويت:

– اللعنة!

ثم أصيب بنوع من الذعر فجأة، وقال وهو يجرى ليلحق بالدكتور:

– أوبيسبو، كيف جاءت إلى هنا بحق الجحيم؟

لم يجبه الدكتور أوبيسبو وتقدم للأمام بنفاد صبر. قال مستر ستويت مهرولا وراء الدكتور:

– إنه جنون. محض جنون. أقول لك هذا لا يعجبنى.

قطع الدكتور أوبيسبو صمته وقال بابتسامة ذئبية مرحة:

– ربما نرى إن كنا نأخذها لك من أجل بانثيون بيفرلى.

ثم أضاف:

– أهلا! ما هذا؟

خرجوا من النفق ووصلوا إلى غرفة متوسطة الحجم. فى منتصف الغرفة وجدوا طبلة حجرية مستديرة، وعلى جانبيها عامودان حديديان، وشىء ما معلق فوقها وعليه طنبور.

قال الدكتور أوبيسبو متذكرا:

– البئر!

٦– ميديتشى: عائلة حكمت فلورنسا من ١٤٣٤ وكانت مشهورة باهتمامها بالفنون والآداب.

جرى نحو النفق على الناحية الأخرى من الغرفة. على بعد عشرة أقدام من المدخل أعاق تقدمه باب من الأرو الثقيل مملوء بالمسامير. أخرج الدكتور أوبيسبو مفاتيحه واختار واحداً منها بشكل عشوائى، فانفتح الباب بعد المحاولة الأولى، فوجدوا أنفسهم على عتبة باب آخر على الحائط المقابل، فساروا مباشرة نحوه.

قال مستر ستويت فى دهشة، وهو يمر بمصباحه على صفوف العلب والبرطمانات الموجودة على أرفف الدولاب الكبير الذى يشغل تقريبا كل جانب من الغرفة:

– معلبات من اللحم البقرى، والجمبرى، والأناناس المقطع، وفول بوسطن المطبوخ.

قرأ كل هذا ثم استدار إلى الدكتور أوبيسبو وقال:

– أقول لك يا أوبيسبو. أنا لا أحب هذا.

أخرجت البيبى منديلا غارقا فى عطر الصدمة وأمسكته تحت أنفها، وقالت من خلال المنديل وهى ترتجف من القرف:

– الرائحة! الرائحة!

فى تلك الأثناء، كان الدكتور أوبيسبو يجرب مفاتيحه على قفل باب آخر. أخيرا انفتح. دخل فورا تيار هواء دافىء، وامتلأت الغرفة الصغيرة برائحة نفاذة غير محتملة. قال مستر ستويت:

– ياللمسيح!

وخلف منديلها صرخت البيبى فى ذعر واشمئزاز.

لوى الدكتور أوبيسبو وجهه ثم دخل فى تيار الهواء ذى الرائحة الكريهة. فى نهاية ممر قصير وجد بابا ثالثا، عليه سياج من حديد، مما جعل الدكتور أوبيسبو

يفكر أنه يشبه باب سجن غرفة المحكوم عليهم بالإعدام. أومض بمصباحه بين السياج نحو الظلام الجنيلى فى الداخل.

من الغرفة الصغيرة، سمع مستر ستويت والبيبى فجأة تعبير دهشة، ثم بعد لحظات صمت انفجار عنيف من ضحكات الدكتور أوبيسبو الوحشية المتصلة. نوبات من الضحك وراء نوبات أخرى لم يستطع التحكم فيها، وعاد لهم الصوت مدويا فى المكان الضيق. ارتج الهواء الساخن ذو الرائحة الكريهة من الضحك الجنونى الذى كاد يصممهم.

دخل مستر ستويت تتبعه فيرجيديا عبر الباب المفتوح إلى النفق الضيق. بدأ ضحك الدكتور أوبيسبو يثير أعصابه فصاح بغضب:

– ماذا بحق الجحيم...؟

ثم قطع جملته وهمس:

– ما هذا؟

بدأ الدكتور أوبيسبو يقول قرد جنينى، ولكن انفجاراً ضاحكاً آخر قطعه، وجعله ينحنى وكأنه أخذ لكمة فى بطنه.

بدأت البيبى تتكلم من وراء منديلها:

– السيدة العذراء المقدسة!

خلف الأسيجة من وسط الظلام، أظهر ضوء المصباح عالماً ضيقاً من الأشكال والألوان. على حافة سرير منخفض، فى منتصف هذا العالم، كان يجلس رجل، يحدّق وكأنه مشدود إلى الضوء. أرجله مغطاة بشعر كثيف أحمر، وكانت بلا ملابس. قميصه، والذى هو ملبسه الوحيد، كان مقطوعا ومتسخا. وعليه شريط حريرى عريض مربوط عبر صدره الضخم، ومما لا شك فيه أنه كان فى يوم

من الأيام أزرق اللون. وكان حبل يتدلّى من عنقه عليه صورة القديس مار جرجس مع التنين مصنوعاً من الذهب والمعدن. كان جالسا كالأحدب، برأسه للأمام وفى ذات الوقت غارقة وسط كتفيه. بيد كبيرة وغليظة بشكل غريب كان يخدش مكانا متقرحاً بدا لونه أحمر وسط شعر بطنى قدمه اليسرى.

أخيرا استطاع الدكتور أويبسبو أن يتكلم فقال:

– قرد جبينى وكبر بعض الشيء. إنه رائع.

أخذ يضحك ثانية وأكمل:

– فقط انظر إلى وجهه!

أشار عبر السياج وهو يشهق. فوق الشعر الخشن الذى أخفى الفكين والوجنتين، حملقت فيهم العينان الزرقاوان من تجويفهما الكهفى.كانا بلا حاجبين، ولكن تحت الجلد القذر المجعد برزت عظمة فى الجبهة إلى الأمام مثل رف كبير.

فجأة، من الظلام الدامس، خرج وجه قرد آخر فى ضوء المصباح – وجه ذو شعر أقل، حتى لا يمكن أن ترى فقط النتوء فوق الجبهة، بل والتشوه الغريب فى الفك السفلى، وتراكمات من العظام أمام الأذن. انضم جسد إلى هذا الوجه فى الضوء، مرتديا معطفا قديما من قماش المربعات، وبعض الخرز الزجاجى.

قالت فيرجينيا بنوع من الغثيان والاشمئزاز المرعب الذى أصابها عندما رأت هذه الحلمات البندولية الذابلة:

– إنها امرأة.

انفجر الدكتور فى ضحكات أكثر مرحا.

جذبه مستر ستويت من أكتافه وهزّه بعنف وسأل:

– من هما؟

مسح الدكتور أوبيسبو عينيه وشد نفسا عميقا حتى هدأت عاصفة الضحك إلى تنفس هادىء. بينما هو يفتح فمه ليجيب على سؤال مستر ستويت ، انقض الكائن ذو القميص فوق ذات المعطف وضربها على رأسها. كف اليد الكبير لطم جانب وجهها. صرخت ذات المعطف في ألم وثورة غضب، وانسحبت إلى الخلف في الظلام. من وسط الظلال جاء صياح عالٍ و أرعن بدا وكأنه يرتجف على شفا تجديف صريح.

قال الدكتور أوبيسبو رافعا صوته فوق الجلبة:

– الذى يرتدى وشاح ربطة الساق، هو إيرل جونيستر الخامس. الثانية هى مديرة منزله.

– ماذا حدث لهما؟

قال الدكتور أوبيسبو بخفة:

– مجرد الوقت.

– الوقت؟

قال الدكتور أوبيسبو:

– لا أعلم عمر الأنثى. أما الإيرل، فدعنى أرى – كان مائتى عام وواحد فى يناير الماضى.

وسط الظلال استمر الصوت فى الصراخ واللعنات غير الواضحة. وظل الإيرل الخامس يخدش الجرح على قدمه ويبحلق فى الضوء.

أكمل الدكتور أوبيسبو كلامه. إنه إبطاء لمعدلات الشيخوخة... إحدى آليات التطور والنشوء... كلما كبر القرد شبيه الإنسان فى السن، أصبح أكثر غباء ... العجز، تسمم الستيرول ... طفيليات أمعاء الشبوط... الإيرل الخامس الذى توقع

اكتشافه... لا تسمم للستيرول، ولا عجز... لا موت، ربما فقط عن طريق حادثة... ولكن فى تلك الأثناء استطاع القرد الجنيني أن ينضج... إنها أفضل نكتة عرفها.

بدون أن يتحرك من مكانه، تبول الإيرل الخامس على الأرض. صعد كلام بصوت أعلى من الظلام. استدار ناحيته وصرخ ببعض الوقاحات المشوهة التى كادت أن تمحى فى طيات النسيان.

كان الدكتور أوبيسبو يقول:

– لا داعى لأية تجارب أخرى. نعرف أنها تعمل. يمكنك أن تأخذ هذا الشيء فورا.

قالها بتهكم وسخرية. لم يجبه مستر ستويت.

من الناحية الأخرى من السياج، قام الإيرل الخامس واقفا، تمدد، وتثاءب، ثم استدار وأخذ بضع خطوات نحو الحدود بين الظلام والضوء. أصبح كلام مديرة منزله أكثر سرعة وأكثر هياجا. وكأنه لا يلاحظ ذلك، توقف الإيرل، ربت على الوشاح العريض بكف يده، ولمس الجوهرة المعلقة فوق رقبته، مصدرا صوتا يشبه الدندنة فى ذاكرة القرد لموسيقى دون جيوفانى. الكائن ذات المعطف نشجت بترقب، بدا وكأن صوتها يتراجع أكثر فى الظلام. فجأة، وبصراخ وحشى، انقض الإيرل الخامس للأمام، خارجا من عالم ضوء المصباح الضيق إلى الظلام فى الداخل. كان هناك وقع أقدام، وعواء متعاقب، ثم صرخة وصوت صفعات وصراخ أكثر، ثم توقف الصراخ، وسمعوا فقط صوت زمجرة وشخير فى الظلام، وظل يضعف.

قطع مستر ستويت الصمت وقال:

– فيما تعتقد كم من الوقت سيمر قبل أن يصبح الإنسان هكذا؟

ثم بتردد استمر وقال:

– أعنى، لن يحدث هذا فجأة... سوف يمر وقت طويل قبل أن... أنت تعلم... أنت تعلم، حيث لن يتغير الإنسان قط. وبعد التغلب على الصدمة الأولى – أعنى يبدو أنهم يستمتعون بوقتهم. أعنى، بطريقتهم الخاصة بالطبع. ألا تعتقد ذلك يا أوبيسبو؟

ظل الدكتور أوبيسبو ينظر إليه فى صمت، ثم فجأة دفع رأسه للوراء وعاد يضحك من جديد.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٩٩٨/٥٦١٩

الترقيم الدولي (I. S. B. N. 977 - 305 - 011 - 4)

After Many a Summer

Aldous Huxley

A novel

إن ما يميز ألدوس هكسلي في كتاباته هو أسلوبه الساخر ، والذي يعتبر أسلوباً جديداً ومختلفاً عمن سبقوه في الكتابة الساخرة . فهو يعتمد على التضاد والتوازي بشكل دائم ، وإن كانا ليسا فقط تضاد وتوازي الشخوص ، بل أيضاً تضاد وتواز في المشاهد والمواقف . من هنا نجد أن هكسلي يبني روايته على أساس فكرة إطالة الحياة وجدواها : إذ يسخر من هذه الفكرة ، فيرى أن الحياة – كما يحياها البشر اليوم – ما هي إلا مجرد إطالة للشر وإمكانية الشر . ولا يتوقف هكسلي عند عنوان الرواية ليبرز أنها ملحمة من القصص الخرافي ، بل يتخطى ذلك إلى الرواية المجازية . وبذلك كله يمكن القول إن
قدم مرآة للمجتمع ، كم
الساخرون في العادة ،
مرآة مجتمعية ، بل كانت
بالأساس ، كما أنه ل
«أنصاف الحقائق» ، بل
الحقائق» المختلفة كما تر
وهكذا يستطيع أن يص
النظر ، وأن يسخر منها ك